العتبة الحسينية المقدسة

المصباح

مجلةٌ فكريةٌ فصليةٌ متخصصةٌ
تعنى بالدراساتِ والأبحاثِ القرآنيةِ

تصدرُ عن

الأمانةِ العامةِ
للعتبةِ الحسينيةِ المقدسةِ
دارِ القرآنِ الكريمِ

العدد التاسع - ربيع (٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ
ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ
مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ
لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

صَدَقَ ٱللَّهُ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ

المشرف العام

سماحة الشيخ

عبد المهدي الكربلائي

الأمين العام للعتبة الحسينية المقدسة

رئيس التحرير

محمد علي هدو

المدير التنفيذي والعلاقات العامة

د. حميد مجيد هدو

الهيئة الاستشارية

أ.د. حسام الدين الالوسي
جامعة بغداد – العراق

أ.د. عبد الجبار ناجي
جامعة بغداد – العراق

أ.د. صباح نوري المرزوك
جامعة بابل – العراق

أ.د. عبد النبي اصطيف
جامعة دمشق – سورية

أ.د. عبد الامير كاظم زاهد
جامعة الكوفة – العراق

أ.د. عبود جودي الحلي
جامعة اهل البيت – العراق

أ.د. محمد الخطيب
جامعة كربلاء – العراق

المصباح

مجلة فكرية فصلية متخصصة

تعنى بالدراسات والأبحاث القرآنية

تصدر عن

الأمانة العامة

للعتبة الحسينية المقدسة

العدد التاسع - ربيع (١٢ ٢٠٩م - ١٤٣٣هـ)

موقعنا على شبكة الإنترنت

www.al-missbah.com | www.al-missbah.net

www.al-missbah.org

البريد الإلكتروني

info@al-missbah.com

almosbah1431@yahoo.com

هاتف رئيس التحرير

٠٠٩٦٤-٧٨١٠٥٣٥٥٢٤

٠٠٩٦٤-٧٧١١٦٣٤٣٤٤

هاتف المدير التنفيذي

٠٠٩٦٤-٧٨١٠٨٠٠٦٢٧

العنوان البريدي

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

كربلاء المقدسة - جمهورية العراق

أرضي. ٠٠٩٦٤٣٢-٣٢١٧٧٦

داخلي ٥٦١

الترقيم الدولي:

ISSN: 2226-5228

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

١٤١٤ لسنة ٢٠١٠م

التنسيق والمتابعة

د. عمار عبودي نصار (العراق)

د. أنمار عبد الجبار (ألمانيا)

طلال فخر الدين (لبنان)

عدنان الاردكاني (ايران)

الشؤون الإدارية والمالية

رضا جواد الحائري

معتمد الترجمة الإنكليزية

سعد شريف طاهر

الاخراج والتصميم

قاسم سالم محمد

البحوث وماتتضمنها من أفكار وآراء تعبر عن رأي كتابها

المحتويات

- كلمة الافتتاح/ رئيس التحرير- محمد علي هدو ٩

بحوث العدد

- قِدَمُ اللغةِ العربيةِ في ضوء معطيات القرآن الكريم/ أ.د.محمد حسين علي الصغير..... ١٣
- الرؤية القرآنية لمسألة البداء/ خالد سيساوي..... ٢٥
- علامات الوجوه في المشهد الأخروي في القرآن الكريم/ د. طلال خليفة سلمان..... ٤٩
- الصراط والسبيل في القرآن الكريم/ د. عباس كاشف الغطاء..... ٦٩
- تربية النزاهة في القرآن الكريم/ د. طالب عبد الحسين فرحان.. ..... ٨٩
- الرؤية القرآنية لمعاني الفتنة/ محمد رضا الشريفي.. ..... ١٠٩
- البعد الأخلاقي في آيات التشريع/ د. وئام كاظم سميسم.. ..... ١٤٥
- التنمية في القرآن الكريم/ محمد جواد عباس شبع..... ١٦٥
- الرحمن ومضامين الرحمة الالهية/ د.مهدي حسين التميمي..... ١٨٥
- الدلالة المعنوية للمفردة القرآنية في سياق علم اللغة التوحيدي/ أ.د.محمد علي الحسيني ١٩٧
- الإعجاز العلمي في القرآن الكريم/ د.حيدر عبد الزهرة التميمي..... ٢٣٥
- موقف القرآن من حرية اعتناق الإسلام ديناً/ الشيخ نعيم الساعدي..... ٢٥٥
- التوجيه الدلالي للأمر بين الطبرسي والطباطبائي/ د. محمد طارش اليوداوي..... ٢٧٩
- وقفة على قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء)/ د. حسن عبد المجيد الشاعر.... ٣٠٣
- صور من الكناية في القرآن الكريم/ أ.د. علي محسن مال الله..... ٣١٥
- أحكام اليتيم في القرآن الكريم والسنة النبوية/ د.أرشد مزاحم الغريري..... ٣٣٧

نافذة المصباح

- الدراسات القرآنية المطبوعة في النجف الاشرف/ أ.د. صباح نوري المرزوك..... ٣٥٤
- موسوعة التفسير المقارن/ السيد علي القطبي الموسوي..... ٣٦٠

بيان

لقد اعلنت مجلة المصباح الفصلية الفكرية المتخصصة بالأبحاث القرآنية عن هويتها منذ صدور العدد الاول منها كما اعلنت عن المحاور التي تبحث فيها والضوابط المترتبة على البحث الذي ينشر فيها وأهم تلك الضوابط:

أن يأخذ ما يُكتب فيها شكل البحث العلمي الأكاديمي المنهجي في سياقه، المستقل في مضمونه، الجديد في طرحه وموضوعه، البعيد عن الانحياز والتطرف، القوي في أسلوبه ونظمه، وكأن الباحث الكريم قد دخل في مباراة لاختيار أحسن بحث.. وان لا يكون البحث قد سبق نشره ضمن كتاب أو في مجلة داخل العراق وخارجه او على موقع الكتروني، اللهم الا اذا كان منشوراً بلغة أخرى وتُرجم الى العربية... وقد دأبنا على أن نجعل المكافأة مجزية لبحث يحمل هذه السمات فضلاً عن اجر الله سبحانه الذي أعده لحملة فكر القرآن ومروّجيه.

بيد أن الذي فتّ في اعضادنا، ورود ابحاث نكتشف لاحقاً انها تخالف بعض بنود خطتنا في الاختيار، كأنْ تكون منشورة في مجلات مماثلة في طرحها وموضوعها، أو انها نمطية في مواردها قد أشبعت بحثاً وتحليلا، أو انها تنهج نهج اثارة مالا يعمل على وحدة الكلمة ورص الصفوف خلف القرآن العظيم من خلال اعتماد المصادر والاسانيد الضعيفة مما لا يخدم سياسة المجلة في الدعوة الى بسط فكر القرآن الكريم ومراميه السامية في الوحدة ونبذ الفرقة.

ونحن في الوقت الذي ندعو فيه الى توخي الحذر والحيطة من مثل هذه التيارات، ندعو كل الباحثين الأجلاء الى أن يجسدوا موقعهم العلمي ومستواهم الفكري في ما يكتبون، مما يمثل لهم تاريخاً فكرياً يعتدّون برصانته ويَفخرون بطرحه، ويحتسبون أجره عند الله -سبحانه- بجدارة المجاهد بقلمه وعلمه، وصدق القول المأثور: زكاة العلم نشره. وقد وظفت المجلة كل امكاناتها من أجل اختزال ما لا يتماشى وسياستها أو ما سبق نشره في مجلة أو كتاب، او ما لا يصمد امام التقويم والتحقيق والتدقيق او ما فقد الموضوعية في الطرح، اذ وكلت ذلك الى ذوي الاختصاص من أهل الرأي والمشورة، وبناءاً على ذلك فأن البحوث التي تنشرها المجلة تعبّر عن اراء كتّابها حصريا وليس بالضرورة عن رأي المجلة ولكل من يريد أن يردّ أو يناقش فالباب مفتوح امامه وسوف نلتزم بنشر الرد والمناقشة كما هي في (نافذة المصباح) التي خصصت للنقد والعرض والتعريف.

ولا يفوتنا أن نؤكد للسادة الباحثين أن المجلة ملزمة باشعار الكاتب بموقفها من بحثه شريطة أن يرسل الينا عنوانه ورقم هاتفه، وبخلافه فلا سبيل له الى عتابنا... وفق الله الجميع لما فيه خدمة القرآن المجيد.

مجلة المصباح

كلمة الافتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

على اسم الله -سبحانه وتعالى-وبتوفيق منه، تشعل مجلة المصباح الشمعة الثالثة من سني عمرها المبارك باصدار العدد التاسع منها، يحدوها الأمل الوردي في أن يمتد عمرها مقتفية خطى الصالحين المصلحين ممن نذروا جهدهم لخدمة القرآن الكريم الذي انزله -سبحانه -هدىً ورحمة للمتقين اما الذين كفروا فهو عليهم عمىً ولا يزيدهم الا طغيانا وكفرا، ذلك بانهم أخذوا بكظم الباطل فاحبط الله أعمالهم بما سوّل لهم الشيطان وألبس عليهم. وهل بعد التمسك بالقرآن الذي هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، من هادٍ الى سبيل الرشاد؟ أم هل بعد ترك العمل به واتخاذه غرضاً يتلاعب برؤاه ويوجهه حيث شاءت له اهواؤه، من غواية وعمى. حاشى لله أن يتخلى عن حفظ كتابه الكريم من تخرص المتخرصين وهو القائل وقوله الحق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

لقد قطعت المجلة شوطا بعيداً في مضمار التطوير، وفي مجال إحكام العمل مع المحافظة على السياسة العامة لها والمتمثلة في كونها مجلة تخصصية يجري البحث فيها ضمن قناة القرآن الكريم وفي إطار سياق البحث العلمي المنهجي الموثق، لكي تبقى مصدراً ثرا لكل من يريد أن ينهل من مَعين القرآن ويسترفد علومه، ويسبر أغواره، ويستنير بهداه، آخذين بالنقد الذي يوجهه لنا الاساتذة والعلماء المعنيون بهذا العلم الشريف مأخذ الجد، لانهمل منه شاردة أو واردة أملاً في الوصول الى الأمثل على الطريق السوي المستقيم. وقد أهبنا وما زلنا نهيب باولئك العلماء المتخصصين أن لا يحجرهم عن قول ما ينفع لتطوير العمل وتحسين

الأداء حاجر أو يمنعهم من ذلك مانع، ففي الأثر الشريف «كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين، التائبون». فالإصرار على الخطأ مكابرة تطعن الحقيقة في الصميم، ولا تؤدي الا الى مزيد من الخطأ حتى الوصول الى درجة الإرتكاس في ما لا يرضي الله-سبحانه -من حيث يظن أنه يحسن صنعاً بما يقول ويفعل ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

لقد رحبت (المصباح) وترحب بكل جهد ثقافي يخدم فكر القرآن الكريم يصدر عن العتبة الحسينية المطهرة أو غيرها من الاماكن، ما دام الهدف واحداً يتمثل في إماطة الستار عن كنوز الكتاب الكريم، ايمانا منا بأن علوم القرآن لا تسعه مجلة واحدة تصدر فصليا. فأي وعاءٍ مهما كبر واتسع يضيق بالبحر الزاخر. ففي القرآن تتمثل خزائن الله -سبحانه -التي لا يزيدها البحث في مكنونها الا عطاءاً متجدداً، انها مثل كرم الله سبحانه وتعالى الذي لا تزيده كثرة العطاء الا جوداً وكرما. وبذلك فـ(المصباح) تقف موقف المعاضد والمبارك لذلك الجهد المخلص، بعيداً عن روح التباري أو الانانية الثقافية ما دام الهدف واحداً. انه توجه حَمَلَةِ القرآن ممن عز عليهم ان يقرأه المسلم فلا يعي منه الا رسمه و أن يجعله عضين يؤمن ببعضه ويتناسى بعضه، أو أن يوجهه الى ما تتوجه به مصالحه الدنيوية فيعمل بها على وفق تلك المصالح ويعرض عما يعترض طريقه في الحياة فهو كما عبر عنه الامام أبو عبد الله الحسين عليه السلام: «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فاذا محصوا بالبلاء قلَّ الديانون..».

اللهم نسألك بكل وسيلة نبتغيها اليك أن تجيرنا من الرياء والحسد ومن الغفلة والخطل في ديننا ودنيانا، وسدد اللهم لنا كل خطوة نخطوها في سبيلك، وطيّب اللهم حياتنا بالايمان قولاً وعملاً انك سميع الدعاء. واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير

بحوث العدد

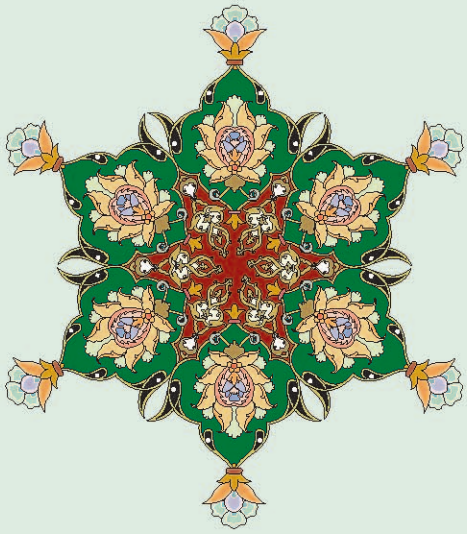

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
الرحمن الرحيم
مالك يوم الدين
إياك نعبد وإياك نستعين
اهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين
أنعمت عليهم
غير المغضوب عليهم
ولا الضالين

قِدَم اللغة العربية
في ضوء معطيات القرآن الكريم

أ.د. محمد حسين الصغير
الاستاذ الأول المتمرس في جامعة الكوفة

ملخص البحث

يصب الاستاذ الباحث جهوده في اثبات القول بقدم اللغة العربية مستنداً الى القرآن الكريم وليس الى استنتاج أهل الآثار الماديين من علماء التنقيب والحفريات. فهو يستدل على دعواه بآيات كريمة حكت قصص نوح وادريس وابراهيم واسماعيل وحكت ما اخبر به الله -سبحانه -من احداث سبأ وسيل العرم وهجرة القبائل اليمنية الى الشمال وغير ذلك.

ويستنتج الباحث مدى إغراق العربية في القدم. واذا كان الأمر كذلك فلا داعي لأن نلتقط من القرآن الكريم ألفاظاً ننسبها الى لغات أخرى إذ لا عبرة بقول القائل الذي لا يعرف مصادر هذه الالفاظ حين ينسب هذا اللفظ او ذاك الى العبرانية أو الفارسية او الرومية...الخ.

وفي ختام البحث يثني السيد الباحث على جهود جلال الدين السيوطي الذي قام بحصر الألفاظ التي ادُّعي اقتراضها أو تعريبها.

يميل هذا البحث الى القول بقدم اللغة العربية لا في ضوء الآثار والأدلة المادية لدى علماء التنقيب والحفريات فحسب، ولا في منظور الطمى والطبقات الرسوبية التي تتوارى بين طيّات الارض، فلأولئك عملهم الدقيق الذي يقارب الصواب في الأعم الأغلب، لأنهم يستندون في مكتشفاتهم الى الحسيّات المشاهدة، لذلك فقد تكون أعمالهم ذات نتائج فاصلة في كل مَعْلَمٍ من معالم الآثار.

ولكنني سأترك عملهم المضني لهم وحدهم ليعضد ما نذهب اليه من أدلة قاطعة في ضوء القرآن الكريم بما أبقى لنا في آياته المباركة من كبير القرائن التي نؤسس في ظلها هذا الموضوع.

وعلى هذا فهناك حقائق كبرى عدة في القرآن العظيم نستنبط من خلالها قِدَمَ اللغة العربية وعراقتها في التأريخ الانساني، والجغرافيا السكانية والأستيطانية والعمرانية قد تدعم ما نذهب اليه حينما تتحدث عن حلّ شعوب الأرض وترحالها، وفي ظل ما يصطلح عليه جغرافيا (الجوبليتك)

وأحاول فيما يأتي أن الخص القبسات القرآنية لهذا التصوّر من خلال استطلاع ما جاء في القرآن:-فيما اقتص الله تعالى من نبأ نوح عليه السلام في عشرات الآيات الكريمة من سور القرآن المختلفة وإرساله نبياً الى قومه كما في سورة نوح وتفصيلاتها وبقية السور، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة نوح:١].

والحقيقة التي يؤكدها اجماع المؤرخين العرب والأجانب أن نوحاً صلوات الله عليه كان عراقياً يسكن ظهر الكوفة، وظهر الكوفة هو النجف الاشرف استقرائياً وجغرافياً، وهو ما تؤيده روايات الائمة من اهل البيت عليهم السلام وسواهم من الصحابة والتابعين وعلماء الرّي والخرائط والحفريات و (ملحمة جلجامش).

فعن الامام الصادق عليه السلام: أن مسكن نوح هو النجف، وان عمله كان في الكوفة، وهما متقاربتان، ولعل النجف أنذاك كانت حياً عامراً تابعاً للكوفة أو الكوفة تابعة له، إذ لا يصح أن يكون سكن نوح في معزل عن قومه، بل المترجح عقلياً ومنطقياً ان

يكون في مقرّ دعوته الأهلية، وفي عمقها ذاتياً، وذلك لتبليغ رسالة ربّه سبحانه وتعالى[1].

وكانت مدة لبثه في قومه الف سنة الا خمسين عاماً كما نص على ذلك القرآن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ١٤].

فجحدوا واستكبروا فأوحى الله اليه بصنع السفينة فصنعها واغرقهم بما عاثوا في الأرض، قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[سورة هود: ٣٧].

والكوفة عربية في تاريخها القديم وفي عصر ما قبل التاريخ، والنجف الأشرف كذلك، وهما والحيرة متداخلات متجاورات، ودولة المناذرة وما قبلها من الدول العربية في ملوكها وسلاطينها في المنطقة تحيط بها قبل الاسلام بقرون قبائل تنوخ، وعك، ولخم، وجذام، وحمير، وَهِمْدان، وكندة وسواها، وجاء الاسلام ودخلت فيه. وكانت الحيرة مسيحية الديانة بعد جاهليتها الاولى، والنجف الاشرف مقراً للنسطورية من المسيحيين كما تدل على ذلك الصوامع والكهوف والغارات الباقية حتى اليوم، قرب النواويس وبحر النجف[2].

يقول الشيخ جعفر آل محبوبة عن ذلك التأريخ «كانت النجف مأهولة وعامرة، وكانت الحضارة قائمة بها على اسس عربية لقربها من الحيرة ومجاورتها لها، فالنجف عربية قبل كل شيء، وأهلها في ذلك العهد، عند شيوع النصرانية، نصارى نسطورية وهم من العرب الأقحاح»[3].

واذا ابتعدنا عن تاريخ المناذرة، وجدنا أن هوداً وصالحاً عليهما السلام، وهما نبيان عربيان بإجماع مفسري القرآ ن العظيم، وأن هوداً عليه السلام كان نبياً لقوم عاد الاولى وهم العرب الاقحاح، وأن صالحاً عليه السلام كان نبي قوم ثمود، و هم من العرب الاقحاح ايضاً، وان القران العظيم يقول: ﴿وَأَنَّهُۥ

(١) ظ: المؤلف/ الكوفة الغراء/ مهبط الرسالات السماوية والخلافة الاسلامية (بحث).

(٢) ظ: المؤلف/ فلسطين في الشعر النجفي المعاصر/ ٣٣.

(٣) جعفر باقر آل محبوبة/ ماضي النجف وحاضرها ١/ ١٤/ صيدا/ ١٣٥٣ هـ.

﴿أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [سورة النجم:٥٠-٥١]. وهذا يعني الابادة الشاملة لعاد وثمود، اذ اخذهم الله بعذاب الاستئصال.

والسؤال المتبادر الى الذهن، الذي نوجهه لمنكري قِدَم اللغة العربية، وقِدَم عروبة النجف الاشرف والكوفة الغراء، هو: لماذا اختار كلٌ من هود وصالح عليهما السلام سكنى النجف الاشرف حتى الوفاة بعد ان أَهلك الله عاداً وثمود؟ وان قبريهما بالدليل الاستقرائي والأثري موجودان في جبّانة النجف الاشرف قبل الاسلام بقرون والى اليوم وان قبريهما -وهما اليوم ضريحان يزاران -كانا على عهد الامام علي عليه السلام وربما يروى انه قال لولده الحسن عليه السلام كما في بعض الروايات «إدفني في قبر اخي هود» والمراد بذلك عند قبره او في جواره، وهو لا يبعد عن ضريح الامام الا عدّة أمتار!!

وكانت رسالة نوح عليه السلام توحيدية خالصة، وأهواء قومه في العبادة وثنية خالصة، وكان اصرارهم على عبادة الاصنام جلياً، ومتابعتهم لذلك روحياً وعقائدياً وفكرياً، وقد اكد القرآن الكريم ذلك فيما حكاه عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح: ٢٣].

فليس من قبيل الصدفة اللغوية أن تكون أسماء هذه الاصنام جميعاًعربية في أصولها، ولها في العربية جذورها ومشتقاتها، ولها إعرابها الخاص فيما ينصرف وما لا ينصرف طبق قواعد العرب في استعمال اللغة وتأصيلها مادةً وإعراباً.

ولا دليل من القرآن العظيم على ان قوم نوح ليسوا عرباً، ولمّا كانت مسمّيات الاصنام عربية فلا مانع من عروبتهم في ظاهر الحال ودلالة المقال. وقد يُدّعى بأن هذا الرأي قد يبتعد عن الحقيقة قليلاً أو كثيراً في إثبات عروبية قوم نوح عليه السلام !! وقد يجاب عن ذلك بأن هذا الرأي ادقّ في كل أبعاده من القول بسريانية نوح وقوم نوح استناداً الى تكهنات في سلالة البشر قد تصدُق وقد لا تصدُق.

وفي ضوء ما تقدم يبدو قرآنياً وتأريخياً ان انحصار البشرية كان في بقعة النجف الاشرف والكوفة الغراء، فالقران يقول:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [سورة الصافات: ٧٥-٧٨].

فلا ذرية على وجه الارض بعد الطوفان إلا ذرية نوح ومن معه من المؤمنين: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [سورة هود: ٤٠].

وقد ينهض كل ما قدمناه دليلاً على قِدَمَ العربية وعروبة المنطقة هذه قبل الجاهلية بعدّة قرون

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٥٦].

والشاهد فيها «ادريس عليه السلام الصدّيق النبي قال الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ):

«ادريس هو جدّ أب نوح عليه السلام، قيل: انه سمي إدريس لكثرة درسه الكتب، وهو أول من خطّ بالقلم، وكان خياطاً، واول من خاط الثياب، وقيل: ان الله علّمه النجوم والحساب وعلم الهيئة، وكان ذلك معجزة له»[٤] فأسمه اذن: إدريس، والجذر عربي من دَرَسَ، يدرُسُ، درساً، وسمي بذلك لكثرة مدارسته العلم وتصفح الكتب، وهو أول من خط بالقلم، وعلمه الله -فيما روي- النجوم والحساب وعلم الفلك، وجعل ذلك كله معجزة له.

فإذا كان الاسم عربياً، وهو جد لابي نوح، وهو أول من ابتكر الكتابة، وتصفح الكتب وتدارسها، والمنطقة التي هو فيها عربية، وهي (السهلة) التي تبعد عن الكوفة الغراء كيلو متراً واحداً، وبيته في الركن الجنوبي لمسجد السهلة ويسمى (مقام إدريس عليه السلام) وهو ضمن المسجد منذ تأسيسه وتخطيطه منذ القدم.وفيه (مقام ابراهيم عليه السلام) في الركن الشرقي من المسجد، وقد ثبت ذلك زمن الائمة عليهم السلام، وكان لبعضهم (صلوات الله عليهم) مقام للصلاة. كالامام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام والامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ومقام الامام المنتظر عجل الله فرجه الشريف، وكل مقاماتهم وسط المسجد تقريباً، فاننا نقطع بعربية ادريس، فالأعلام هي في كل اللغات، نعم قد يحدث فيها بعض التغيير في النطق ببعض الحروف كما يقال: (جوزيف) في يوسف، ويقال (برهام) او (إبراهام) في ابراهيم

(٤) الطبرسي/ مجمع البيان ٣/ ٥١٩.

و(جاكوب) في يعقوب. فذلك لا ينافي عربيتها في الاصل، وقد احدثت التغيير اللغاتُ فيما بعد.

ومما تقدم يبدو ان قدم العربية من عهد ادريس امر مقبول في الاقل.

وفيما اقتص الله من نبأ سبأ في مسكنهم بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سورة سبأ: ١٥].

فإن هذه الآية في هاتين الجنتين الفارهتين لم تدمْ لكفرهم بأنعم الله تعالى، وأبدلهم الله بهما جنتين اخريين فيهما من الضيق وشظف العيش مما اقتصه الله لدى إعراضهم، فأرسل الله عليهم سيل العرم، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سورة سبأ:١٦]. وكان هذا جزاءً بما كفروا وطغوا وعتوا، وكان الله قد انعم عليهم بالقرى الظاهرة فيما بينهم وبين بيت المقدس وقراه التي بارك الله فيها، فظلموا انفسهم، فجعلهم الله احاديث ومزقهم كل ممزق كما نص على ذلك القرآن العظيم: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة سبأ: ١٨-١٩].

ولا يشك احد بعروبة سبأ، فهو ابو عرب اليمن كلها، وتسمى به عادة قبائل العرب القحطانيون، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وعن رسول الله ﷺ: ان له عشرة اولاد تيامن منهم ستة، وتشاءم منهم اربعة.

فأمّا الذين تيامنوا فقد سكنوا الحيرة والكوفة، وهم الأزد، و كندة، ومذحج، والاشعريون، وانمار، وحِمْيَرُ.

وأمّا الذين تشاءموا فقد سكنوا الشام الكبرى، وهم: عاملة، وجذام، ولخم، وغسّان.(٥)

والذي يؤكده القرآن مركزياً فيما نحن بصدده ان بين بلادهم في اليمن،

(٥) ظ: الطبرسي/ مجمع البيان ٤/ ٣٨٦.

وبين القرى التي بارك الله فيها بالخيرات والشجر والثمر والمياه والبساتين، وكون «بيت المقدس» فيها هو اسمى بركات، بين هذا كله وبينهم قرى ظاهرة عامرة يغلب عليها الإحياء والإعمار والخير والميرة والزاد والراحة الكبرى وهي آمنة منظَّمة لا يحتاج معها المسافر أو السائر الى طعام وشراب وَعُدّة، فكل شيء متوافرٌ عادة، فعن مجاهد انها قرى الشام، وعن ابن عباس هي بيت المقدس [٦].

قال الطبرسي (ت٥٤٨ هـ) «ومعنى الظاهرة ان الثانية ترى من الاولى لقربها منها.» [٧].

وقدّر الله فيها السير ليالي وأياماً، فالمسافر يتنقل بين قرية واخرى بنظام ميسّر، يضمن له الاستقرار والطمأنينة، فهي مقدّرة تقديراً.

قال الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ): «وقدرنا فيها السير بمعناه: جعل بين القرية الاولى والثانية مسيرة يوم لراحة المسافر ونزوله بها» [٨].

بينما ذهب الطبرسي الى القول: «أي جعلنا السير من القرية الى القرية مقداراً واحداً نصف يوم وقلنا لهم (سيروا) أي في تلك القرى (ليالي وايام) أي ليلاً شئتم المسير او نهاراً (آمنين) من الجوع والعطش والتعب، ومن السباع، و كل المخاوف. وفي هذا اشارة الى تكامل نعمة الله عليهم في السفر كما انه كذلك في الحضر» [٩]. حتى اذا اسرفوا في الترف الحضاري، وملّوا نعمة الاستقرار والحياة الكريمة، واضربوا صفحاً عن النعمة التي هم فيها ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سورة سبأ: ١٩].

كان لهم ما أرادوا، فتفرقوا في البلاد وتشتتوا في الامصار. والذي يريد البحثُ استخلاصَهُ من هذا الحدث الذي نحن بصدده،هو القول: كم من السنين يحتاج هذا الانتقال من الجنات العامرة والقرى الظاهرة المباركة، والديار المأهولة بالسكّان والامان والعمران، الى هذه الصحارى القاحلة والمفاوز المترامية والقفار النائية

(٦) ظ: الطوسي/التبيان في تفسير القرآن ٨/ ٢٩٤.

(٧) الطبرسي/ مجمع البيان ٤/ ٣٨٧.

(٨) الطوسي/ التبيان في تفسير القرآن ٨/ ٢٩٤.

(٩)الطبرسي/ مجمع البيان ٤/ ٣٨٧..

المتباعدة؟ حتى عادت خوالي من اهلها واضحت قفاراً وفلوات؟ فكأن لم تكن هناك حياة، وكأنَّ الخراب لم يزل!!

كم هي هذه القرون المتطاولة التي اثرت في قلب موازين الطبيعة في الارض والسكنى بين هذه القرى المتقاربة بمقدار ما بين اليمن وقرى الشام وبيت المقدس وفلسطين؟

وكم هي التراكمات الآثارية التي اختفت واندثرت معالمها؟ هذه الاعصار والازمان والحقب ألا تكفي دليلاً مادّياً في وثائقه القرآنية الناطقة على قدم العرب وقدم لغة الضاد؟

ان الاضمحلال النهائي غالباً، والانقلاب الكوني في كل العوالم، انما يكون تدريجياً بحسب العادة، الا اذا اصيب بالزلازل والانهيارات الارضية، فهذا شيء آخر لم يتحدث عنه القرآن. نعم قد يكون الامر فجائياً وآنياً وفي لحظات معدودة أو أيام حاسمة اذا ارتبط بارادة الكينونة المطلقة الخاضعة لامره تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة ياسين: ٨٢].

بعد هذا العرض، بحقائقه المتقدمة، نتحدث عن ملحظ تأريخي قرآني في سياق واحد، قد يدلك على قدم العربية، ويدرأ دعوى الافتراض فيها، فالمؤرخون القدامى يرون أن ابراهيم الخليل عليه السلام عراقي المولد والنشأة الاولى، فقد ولد في أور، ومحاولة إحراقه بالنار جرت في ضواحي بابل، والاثار في الموقعين تؤيد هذا القول. والوقائع التاريخية تعضدها الايات القرآنية في ابتلاء ابراهيم -فيما يخصّ بحثنا- بالهجرة من العراق الى مصر، وفلسطين، والحجاز، وكان مروره بالشام الكبرى أمراً محتملاً قبل أن يتخذ فلسطين مقراً له فيما يبدو، وفي الحجاز انزل من ذريته بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم كما نص على ذلك القرآن العظيم: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [سورة ابراهيم: ٣٧]. والظاهر من القرآن ان هذا الإسكان عند البيت الحرام كان بعد ولادة ابنه اسماعيل عليه السلام،

ومن ثم رزق باسحاق وهو في الارض المقدسة، وكان ذلك عند شيخوخته كما حكى القرآن ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [سورة ابراهيم:٣٩]. ويقال تأريخياً ان اسماعيل أبٌ للعرب العدنانية، وان اسحاق ابٌ للعبرانيين، والأول في جزيرة العرب، والثاني في الأرض المقدسة، فكأن الاول اكتسب لغته من المنطقة وحولها جرهم وهم من اقدم القبائل العربية في الحجاز، وكان الثاني (اسحاق) اكتسب لغته من المنطقة التي سكنها أو اسسها هو !!

ولا دليل على صحة هذا الافتراض في منظور البحث العلمي.لقد ولد اسماعيل عند البيت الحرام و «حجر اسماعيل» قائم الى اليوم قبال الكعبة بين الركن العراقي والركن الشامي بما يعد بعشرين ذراعاً في جهاته. ونشأ اسماعيل في ظل هذا البيت في أول معالمه المتجددة فيما بعد بما اقتصه القرآن بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة البقرة:١٢٧]. واسماعيل عليه السلام -اجماعاً- يتكلم اللغة العربية، ولكن من أين عرفها وتكلم بها؟ وما هي الوسيلة التي يتفاهم بها مع ابيه؟ فلو لم يكن ابراهيم يتقن العربية فطرة وأصالة لما تكلم بها ولده اسماعيل فطرةً وأصالة، والتفاهم عادةً جارٍ بينهما، وتخاطبهما كان في ظل اللغة الواحدة التي فطرا عليها.

وقد يقال ان هذا احتمال وان كان منطقيا في حدّ ذاته الا انه قد يصح وقد لا يصح !!

ولكن البحث، فيما يلوح له،يتمسك بصحة هذا الرأي، ويرجحه ترجيحاً علمياً قائماً على اسس موضوعية كما رأيت.

وامّا دعوى أن اسحاق عليه السلام قد تكلم بالعبرية لِعبرانيةِ الارضِ المقدسة!! فهو رأي مرفوض جملة وتفصيلاً، فالارض المقدسة كان سكانها القدامى من العرب الكنعانيين اجماعاً، واتخذها خليل الله ابراهيم مقرّاً له بعد هجراته المتعددة، وسكن فيها مع ابناء قومه العرب، ونشأ اسحاق عليه السلام في ظل ابيه عربياً.

ولا مانع من أن تنشأ العبرية في

اجواء اللغة العربية فهي فصيلة متأخرة من فصائل اللغات الجزرية التي انتظمت عليها جزيرة العرب في اصول متقدمة، وامتزجت بِرَطاناتٍ رومية وكردية وآشورية وبابلية وكلدانية، فاصبحت نسيجاً خاصاً بها، وقد اشتملت على مفردات من اللغة العربية، بعضها عربي المنشأ، وبعضها عربي التعريب، وقد طرأ على ذلك الاشتمال، التصحيف حيناً والتحريف حيناً آخر، وجنح بعضها وهو جزري الأصل الى الاشمام والادغام والترخيم وما جرى هذا المجرى حتى عادت شيئاً آخر...

ربما يكون قد حصل ذلك... وهي مقاييس عربية في النطق وعدمه، وما بينهما اخفاءً او اظهاراً.

والقرآن العظيم لا يتحدث عن نبي بين نوح وابراهيم عليهما السلام وابراهيم من ذرية نوح الباقين، ونوح عراقي المولد والنشأة والسكنى والمدفن، وهو داعية التوحيد الالهي، نابذاً تلك الصنمية في حياة الانسانية، وابراهيم من ذريته وهو عراقي المولد والنشأة والنبوة، والجزء الاكبر من سكناه بين ربوع الناصرية واثباج بابل وذكوات النجف الاشرف والكوفة الغراء، وهو الوارث الشرعي لكل خصائص نوح عليه السلام، افلاّ تكون عربيته ثابتة له كعربية نوح؟ إن البحث الموضوعي يرجح ذلك، ان لم يقطع به، وان كان هنالك احتمال آخر مما لا نعرف، فلا يعبأ به، ولا نصّ يدعمه، ولا أثر من بيان أو لسان يسنده.

فأذا قلنا بهذا علمنا مدى إيغال العربية في القدم، ووقفنا على مدى عراقتها طيلة الدهر والزمن، واذا كان الامر كذلك، فالالفاظ الواردة في القرآن العظيم والتي يُدَّعى أو يقال بأنها: اعجمية، سريانية، او عبرية، او فارسية، اوحبشية، او آرامية، قد تكون كلها ذات اصول عربية، استعارتها اللغات الاخرى، واقترضتها من اللغة العربية، فهي ليست اقدم من العربية، والعكس هو الصحيح، ثم جاء القرآن الكريم فاستعملها على الاصل، واعادها سيرتها الاولى.

وقد يقال بأن القرآن العربي المبين لا يخرجه عن عربيته وجود بعض الالفاظ غير العربية فيه، لا سيما انها معدودة ومحصورة،

وهذا قد يكون وارداً في الاعتبار، ولكنه لم يثبت للبحث عن طريق الرواية المعتبرة، اذ لا عبرة بقول القائل الـذي لا يعرف مصادر هذه الألفاظ: هذا اللفظ عبري، او فارسي، او رومي، او سرياني، او آشوري، او بابلي، او سوى ذلك، وهو لا يحسن لغة من هذه اللغات!!

وللتاريخ والامانة العلمية فإن جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) قد قام بجهد قيّم في حصر الالفاظ المدّعى اقتراضها او تعريبها مستنداً الى ما اورده السابقون، وحققه العلماء الاقدمون، وما اثبته هو في نفسه واستنبطه، الا اننا وجدنا اصول هذه الالفاظ -الاّ نادراً -عربية عند اهل اللسان.

وسوف نورد هذه الالفاظ -باذن الله تعالى -ونتتبعها بالتعقيب والمناقشة والاخذ والرد في مقارنة سليمة قد تقربنا من الصواب، والله سبحانه وتعالى هو الموفق عليه توكلنا واليه ننيب.

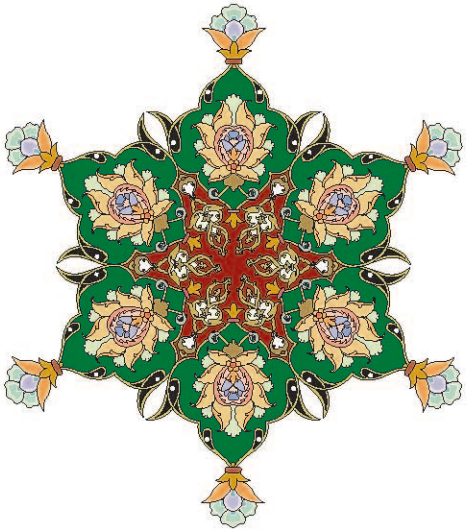

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

الرُؤيةُ القُرآنيَّةُ لمسألةِ البَداءِ

السيّد خالد ميساوي
تبسة – جمهورية الجزائر
والمدرس في حوزة قم المقدسة

ملخص البحث

يطرح السيد الباحث مسألة البداء من رؤية قرآنية في بحث استدلالي، فيبدأ بالمعنى اللغوي والاصطلاحي للكلمة ويقرر أن ارباب علم الأصول يرون أن المتكلم مُجاز في ابراز مراده لمعنى لفظة ما على خلاف ما وضعت له تلك اللفظة من معنى بشرط وجود قرينة دالة على ذلك المعنى سواءاً اتصلت تلك اللفظة القرآنية ام انفصلت عن تلك اللفظة. ويضرب أمثلة من أقوال كبار العلماء والمفسرين على ذلك.

ثم يتحدث عن علاقة النسخ بالبداء في التشريع وأن كليهما يدلان على علم الله السابق وقدرته البالغة، وان اسناد البداء الى الله -سبحانه- يدفع شبهة تفويضه -تعالى- الأمور الى العباد وكذلك شبهة الجبر. وهو في كل ذلك يستند الى ما ورد في القرآن الكريم من آيات تعضد ما ذهب اليه الباحث من اراء.

مقدمة

إن التعاطي مع اللفظ القرآني معاطاة المجافي للمنظومة العقدية المؤسسة على العقلانية ونبذ التقليد في مسائل أصول الدين، من شأنه الإفضاء إلى رؤية كونية وإيديولوجية هشة وطرح تفسيري ساذج. فالإنسان يجد نفسه على صراط المعرفة القرآنية متحيرًا أمام إعجاز القرآن الكريم الذي لم يقتصر على بلاغة ألفاظه وروعة أسلوبه، بل إنّ ذلك لا يعدو أن يكون قطرة في بحر لجيّ يحمل في أغواره كنوز المعارف الإلهية التي لا يحيط بكنهها إلا الله والراسخون في العلم؛ لذا بات من الغبن أن يحرم الإنسان نفسه الاستفادة من هذا النهل العظيم. قال رسول الله ﷺ: «القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبة الله ما استطعتم...»[1].

وقال الإمام علي عليه السلام: «إنّ هذا القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به...»[2]

وقد أحسن العارف ابن الفارض حين قال:

وعلى افتتان الواصفين بوصفه
يفنى الزمان وفيه ما لا يوصف

يعدّ قانون التسبيب أحد القوانين الكونية التي زخرت آيات القرآن الكريم ببيان مظانها، فكان بحق حاكيا عن مقتضيات الحكمة واللّطف الإلهي، التي تجلّت في مقام «المحو والاثبات».

لقد مثل «الطرح السلفي» -وهو رائد التجسيم-طرحًا أوليًا متوقفًا عند ظواهر النصوص بما جاء عن السلف، ثم انتهى إلى ما هو مغاير تمامًا حيث غلب عليه الإذعان بعقائد فاسدةٍ، تقوم على تأويل ظاهري يُصادر فيه الحكم العقلي، فكان ذلك سببًا رئيساً لروّاد هذا الطرح أوقعهم في التجسيم والتشبيه والإفصاح به صراحةً في أكثر من مورد وبكل جرأة. كما أنّ للطرح الأشعري والمعتزلي المؤسس لعقيدتي الجبر والتفويض، باعًا كبيرًا أحدث شرخًا في النسق العقدي والكلامي لم ترممه إلاّ عقيدة «الأمر بين الأمرين»، التي قال بها «الإمامية»، وكان فيها مفهوم

(١) جامع الأخبار/ ص٤٠.
(٢) نهج البلاغة/ ص ٦١.

«البداء» بمثابة الركن الركين.

قبل الشروع في تحليل الرؤية القرآنية لمسألة «البداء»، نشير إلى أنّه قد اتّفقت أخبار الخاصة والعامة في الدلالة على أمرين لا يتلاءمان بحسب الظاهر بل يتناقضان بدوًا. الأوّل: إنّ قلم التقدير قد جفّ أزلاً فلا تغيير في الحادث والمقدرات أبداً.

الثاني: إنّ الله يمحو ما يشاء ويثبت. فمن المعلوم أنّ مقتضى جفاف القلم عدم حصول التغيير في المقدرات من زيادة عمر أو نقصه، ومن سعة رزق أو ضيقه، ونحو ذلك... فتنتفي مؤثرية الدعاء في دفع البلاء، والأعمال الحسنة في سعة الرزق، وصلة الرحم في إنساء الأجل... لذا حاول علماء الإسلام الجواب عن هذه المشكلة المرتبطة ارتباطا وثيقا بمسألة «القضاء والقدر». وحيث أنّ إسناد البداء إلى شخص مع «اللام الجّارة» سبق الجهل له، أشكل الأمر في إسناد البداء إلى الله تعالى، وصار ذلك مبررًا للتشنيع على الشيعة بأنهم ينسبون الجهل للمولى عز وجلّ.

أ/ المعنى اللغوي:

أ-١ البداء بمعنى الظهور:

هو اسم مصدر من بدا يبْدو بدواً وبُدُوّاً وبداءةً وبداءً وبُدوءً، فيقال: فلان بدا له في الرأي، أي ظهر له ما كان مخفيّاً عنه، وفلان برز فبدا له من الشجاعة ما كان مخفيا عن الناس[٣]. ويطلق على ما ينشأ للمرء من الرأي في أمر ويظهر من الصواب فيه، ولا يستعمل الفعل منه مفصولاً عن «اللام الجّارة»، فمعنى بدا في المثالين واحد، ولكنّ الاختلاف فيهما جاء بلحاظ اللام وربطها للظهور.

و أبديته: أظهرته، وبداوة الشيء أوّل ما يبدو منه، وبادي الرأي ظاهره. وقد قال الشيخ الطوسي في «العدة»: «و أمّا البداء، فحقيقته في اللغة هو الظهور؛ ولذلك يُقَال: بدا لنا سور المدينة، وبدا لنا وجه الرأي، وقال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [سورة الجاثيّة:٣٣]، ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [سورة الزمر:٤٨] ويراد بذلك كله ظهر»[٤].

أ-٢/ البداء بمعنى تجدد الرأي:

(٣) أنظر مادّة بدا من: لسان العرب ١٤/ ٦٥ والصحاح ٦/ ٢٢٧٨ وأساس البلاغة ص٣٤.

(٤) العدة للشيخ الطوسي قدس سره -ج٢/ ص٢٩٥.

ذو بَدَوان [بالنّون]؛ أي لا يزال يبدو له رأي جديد ويظهر له أمر سانخ؛ لذا عرّف ابن الأثير البداء على أنه «إستصواب شيء عُلِم بعد أن لم يُعلم»[٥]، وهذا ما لا يجوز نسبته إلى الحق تعالى.

و مما ذكر يعلم بأنّ جميع موارد استعمال هذا اللّفظ بينها جامع مشترك ألا وهو الظهور. وحصره بظهور الرأي متوقف على وجود قرينة في البين؛ فالمدلول اللّغوي للفظ «البداء» لابشرط من إثبات سبب الظهور؛ فسبب الظهور لا يفهم من لفظٍ وُضع لعين الظهور.

تبصرة لغوية:

لا تغيّر لمدلول اللّفظ المفرد عند وقوعه ضمن جمل تركيبية، فقولنا «بدا لله كذا»، ظاهر أنه بمعنى ظهر له أما كونه بغير ذلك كظهر له رأي أو غيره فيحتاج إلى قرينة تصرف الذهن عن المعنى الأول وهو مطلق الظهور. فلو قيل إن مفهوم الرأي يتسلل من «اللام الجارّة» في كلمة «الله»، رُدّ بأن «اللام» مفادها مجرد الربط الملائم مع النفع لا غير، وحينئذٍ تكون إرادة ظهور الشيء مربوطة بالله تعالى.

أ-٣/ إسناد لفظ البداء:

لقد مال السلفية إلى إنكار المجاز[٦]، بعد أن اتّبعوا مدرسة أهل الحديث في حمل الصفات على الحقيقة منكرين أي نوع من المجاز. كما أنهم أنكروا الوضع اللغوي محتجين بأننا لا نعرف الواضع للفظ، وحتى لو عرفناه لا نستطيع الجزم بوضعه ذلك اللّفظ لذلك المعنى. وكل ما يمكننا معرفته هو طريق الاستعمال، وما يقوله غيرنا لغو، إذ بطريق الاستعمال لا يمكننا الظفر بمعنيين: مجازي وحقيقي وكل قرينة تدل على ذلك مردودة. ونردّ عليهم بقولنا إن الاستعمال أعم من الحقيقة والمجاز، وفهمهما لا يتسنى إلاّ بعده. فبعد استعمالنا للّفظ في معنى موضوع له، إن كان بلا قرينة فهي الحقيقة وإلاّ فالمجاز. وإسناد البداء إلى الله تعالى، من قبيل المجاز بضرب من التوسّع؛ بأن يكون المجاز في الإسناد نظير جريان دلالة معنى اللّفظ لا عينه. وتقريب وجه الإسناد، يكمن في أنّ العقل بلا أدنى ريب يحكم بنزاهة الباري تعالى عن الجهل؛

(٥) النهاية لابن الأثير ج١/ ١٠٩.

(٦) محاسن التأويل ج١/ ابتداء من: ص٢٢٢.

فإذا أسند إليه ما يلازم الجهل بحسب ظاهر الكلمة أو الجملة، فلا بد من تأويله إلى ما يساوق علمه الأزلي الذاتي؛ إذ من الواضح أنّ القرينة العقليّة لا تقتصر عن سائر القرائن (اللّفظية، الحالية والمقاميّة) في الحكومة على الظاهر، وهذا نظير الآيات القرآنية التي يظهر منها -في بادي النظر- التجسيم، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [سورة الفجر:٢٢] وقوله أيضًا: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه:٥]، وقوله عز وجلّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[سورة القيامة:٢٣]، فقد أوجب علماء الإسلام -ما عدا الظاهريّة- التأويل في الآيات المذكورة وما يضاهيها في الظهور.

كما أنّ مصاديق من يسند لهم البداء متعددة، فقد يسند لذوي العقول مثل: بدا القوم؛ أي خرجوا، وإلى غيرهم كالأمور المحسوسة في قولنا: بدا لنا سور البلد، أي ظهر. بل يسند إلى الصفات النفسانية كقوله تعالى:

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾؛ [سورة آل عمران:١١٨].

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾؛ [سورة الممتحنة:٤].

و الآراء كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [سورة يوسف: ٣٥].

فحيثية الاشتراك بين جميع موارد الاستعمال راجعة إلى مدلول اللّفظ وهو الظهور والبروز، وحيثية الاختلاف راجعة إلى الاستلزام كونها متوقفة على مورد الاستعمال، فما كان مقابله استلزاماً في الغالب هي موارد الخفاء، العدم، والجهل.

ففي مثل: «بدا لنا سور البلد» و﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [سورة الأعراف:٢١] يقابله الخفاء؛

وفي «بدا له في الأمر كذا» يقابله الجهل؛

وفي: «بدا صلاح الثمرة» يقابله العدم لأنّ المراد حدوث نضجها بعد أن لم يكن.

ب/ المعنى الاصطلاحي:

إنّ البداء اصطلاحًا، يعني تغير المصير المقدر بالأعمال الصالحة والطالحة،

وتأثيرها في ما قدر الله تعالى لهم من التقدير المشترط. وإسناده إلى الباري عز وجل؛ بمعنى ظهور أمر لاحق منه تعالى بعد أن كان السابق خلافه فيمحى السابق بإثبات اللاحق. وليس البداء من الله تعالى استصواب رأي، واستدراك فائت، لحدوث علم بما لم يكن في المعلوم.

فيصبح قولنا «بدا لله كذا»؛ أي برز إلى عالم الوجود شيء لم يكن موجوداً، وكان له الربط بالله تعالى، دالا بذلك على قدرة الله التّامة، ومشيئته الدائمة في تغيير الحوادث المحتملة إذا تحققت مقتضيات حدوثها. وذلك عن طريق جعل موانع حدوثها أو إزالة مقتضياتها عن صفحة الوجود قبل تحقق تأثيرها فيها. وهذا ما يتسنى لكل ذي لبٍّ تعقّله دون أدنى تردد وتشكيك إلاّ من أبى، فللحوادث حيثية وجودية باعتبار ما تقتضيه عللّها الناقصة، قد تتخلف بوجود مانع أو انتفاء شرط، وأخرى باعتبار عللّها التامة لا تتخلف بل موقوفة ثابتة. فالاعتقاد بالبداء واجب، بل تفرعه عن التوحيد أمر مسلم وضروري، كونه إقراراً بافتقار كل ما في عالم الإمكان حدوثًا وبقاءً للباري عز وجل، ومتعلقًا بإرادته وقدرته السرمدية، وهذا هو مقام المحو والإثبات.

ج/ تعزيز أصولي:

يرى أرباب علم الأصول أنّ ظهور كل لفظٍ في أصل معناه اللغوي مَعْنيٌّ بانتفاء قرينة على خلافه؛ وهذا مسلم به عند علماء اللّغة. فالمتكلم مُجاز في إبراز مراده بلفظ على خلاف ما وضع له، شرط ذكر قرينة على ذلك، اتّصلت أم انفصلت؛ ومثل ذلك «رأيت أسداً يرمي»؛ أي وصفه الرجل الشجاع بالأسد، ولا يؤاخذه عاقل على هذا المعنى المجازي. لذا رأى علماء الأصول أنّ الاستعمال المجازي لا بشرط من ترخيص الواضع، فللمتكلم أن يأتي بلفظ ظاهر في العموم مع إرادة الخاص شرط ذكر المخصّص، ولو منفصلاً عن الكلام ما لم يكن بيان هذا الأخير مخلاً بالعرض، وعلى نحو ما بيّنا يجري الأمر على المطلق والمقيد. وإجمالا يمكننا القول بأن استعمال اللّفظ فيما يخالف ظاهره مع القرينة أمر شايع ومسلم، بل القرينة العقليّة تكفي في ذلك؛ كقوله تعالى:

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [سورة الفجر:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[سورة القيامة:٢٣]، وقوله تعالى ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه:٥]، حيث أنّ العقل الفطري المدرك لنزاهة الله عن التجسّم يحكم بلزوم التّصرف في الظواهر المذكورة، وجعل كل تلك الآيات ناظرة إلى جهة غير التجسّم.

و على هذا قال الشيخ الطوسي في مورد البداء: «و أمّا البداء، فحقيقته في اللّغة هو الظهور؛ ولذلك يقال: «بدا لنا سور المدينة»، و«بدا لنا الرأي»، وقال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾. ويراد بذلك كلّه «ظهر»، وقد يستعمل ذلك في العلم بالشيء بعد أن لم يكن حاصلاً، وكذلك في الظنّ. فأمّا إذا أضيفت هذه اللفظة إلى الله تعالى، فمنه ما يجوز إطلاقه عليه، ومنه ما لا يجوز؛ فإمّا ما يجوز من ذلك فهو ما أفاد النسخ بعينه، ويكون إطلاق ذلك عليه على ضرب من التّوسع. وعلى هذا الوجه يحمل جميع ما ورد عن الصادقين عليهما السلام من الأخبار المتضمنة لإضافة البداء إلى الله تعالى، دون ما لا يجوز عليه من حصول العلم بعد أن لم يكن. ويكون وجه إطلاق ذلك فيه تعالى التّشبيه، والتّشبيه هو: أنّه إذا كان ما يدلّ على النسخ يظهر به للمكلّفين ما لم يكن ظاهراً له، ويحصل لهم العلم به بعد أن لم يكن حاصلاً لهم، أطلق على ذلك لفظ البداء...»(٧).

و ذكر سيّدنا الأجل المرتضى قدس سره- وجهاً آخر في ذلك، وهو أنّه قال: «يمكن حمل ذلك على حقيقته، بأن يقال: بدا له تعالى، بمعنى: أنّه ظهر له من الأمر ما لم يكن ظاهراً، وبدا له من النهي ما لم يكن ظاهراً له؛ لأنّ قبل وجود الأمر والنّهي لا يكونان ظاهرين مدركين، وإنّما يعلم أنّه يأمر أو ينهى في المستقبل. فأمّا كونه آمراً أو ناهياً فلا يصحّ أن يعلمه إلاّ إذا وجد الأمر والنّهي، وجرى ذلك مجرى أحد الوجهين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [سورة محمد:٣١]، بأن نحمله على أنّ المراد: «حتى نعلم جهادكم موجوداً»؛ لأنّ قبل وجود الجهاد لا يعلم الجهاد موجوداً، وإنّما يعلم ذلك بعد حصوله، فكذلك

(٧) عدة الأصول للشيخ الطوسي ج ٢ ص٤٩٥.

القول بالبداء»[٨].

علاقة النسخ بالبداء

إنّ البداء في التكوين كالنسخ في التشريع، وكلاهما يدلان على علم الله السابق، وقدرته البالغة، وحكمته الشاملة، وإرادته النافذة، واختياره التام الكامل. فالنسخ في الحقيقة بداء، كما صرّح به الشيخ الجليل الصدوق -في كتابيه «التوحيد» و«الإعتقادات»، غاية الأمر أننا جعلناه قسيماً للبداء تجوّزًا كونه متفقاً عليه عند المسلمين بخلاف البداء.

ففلسفة النسخ، أن الله سبحانه وتعالى يبعث الرسول بمعية شريعة تساوق مستوى النضج الذهني، والاجتماعي، ثم ينسخها بشريعة أخرى تقود المجتمع إلى رشدٍ أعظم، وأهدافٍ أعلى، تبعًا لاستعداد أفراده فكريًا واجتماعيًا. فتجد النوع الإنساني بلسان الحال يطالب بشريعة أكمل وأهدى، فأنزل الله الشريعة المحمدية خاتمةً لجميع الشرائع وناسخةً لها على يد أشرف وأعظم مبعوث للعالمين وخاتم الرسل أجمعين محمد. لكن النسخ غير مقصور على الشرائع فحسب، بل يتعداها ويسري إلى غيرها من الأمور التشريعية والتكوينية، فيحيي زيداً مثلاً ثم يميته، ويفقر عَمْراً ثم يغنيه، فيكون حتميًا في آونة وأخرى معلقًا تبعًا لشرائط وموانع، وهذا ما يسمى البداء.

أفق التشريع وأفق التكوين

جاء في عناية الأصول للسيد مرتضى الفيروزابادي: «... إنّ النسخ في الأحكام الإلهية لا يكون بمعنى رفع الحكم؛ كي يستلزم الجهل. بل بمعنى بيان أجل الحكم وانتهاء أمده وإنما اقتضت الحكمة إخفاء أمد الحكم في بدو الأمر مع أنه بحسب الواقع له أمد وغاية. ومن المعلوم أن إخفاء أمد الحكم ليس بكذبٍ ولا شبه كذبٍ كما في التخصيص، غايته أنه في التخصيص يمنع عن سراية الحكم إلى جميع الأفراد.

و أما البداء في التكوينيات أنه ليس بمعنى ظهور ما خفي عليه. بل بمعنى إبداء ما أخفاه في بدو الأمر، فهو تعالى يخبر عن وقوع أمر معلّق على أمر غير واقع أو على عدم أمر واقع ويخفى التعليق عليه حين الإخبار، وإن المعلّق عليه مما لا يحصل

(٨) عدة الأصول للشيخ الطوسي ج ٢ ص٤٩٦.

فلا يحصل المعلّق وذلك لحكمة مقتضية لذلك ثم يبدي ما أخفاه أوّ لاً"[٩].

تكشف حقيقة النسخ عن تغير في الإرادة بعد تعلّقها بالفعل واقعًا وحقيقةً، وهو الّذي عُبّر عنه بالبداء المحال إسناده إلى ساحة الباري-عز وجلّ-كونه يقع في أفق التكوين، فمعناه اللّغوي كما ذكرنا في أول البحث يُنْبيء عن ظهور بعد خفاء.

"وعلى ذلك يرجع البحث حقيقيًا، ويعود النسخ والبداء سنخًا واحدًا؛ وهو رفعه تعالى وصفًا وضعه في أمر وإزالته ما أثبته في موضوع من حيث أنه وضعه وأثبته، وذلك لوضوح أن النسخ فيما يصدق عليه من الموارد، ليس برفع المنسوخ كالحكم مثلا عن متن الواقع حدوثًا وبقاءً بل بقاءً فقط. فهناك موضوع ثابت مرفوع الأثر وإذ كان تحقق العدم مفتقرًا إلى وجود راسم ينتزع هو عنه فرفع الأثر يتحقق بوضع أثر آخر حافظ لعدم الأول فالنسخ تبديل الأثر الظاهر من الشيء بأثر آخر مخفي عند ظهور الأول ويختلف الحال بحسب الموارد فنسخ الحكم التكليفي تبديله بحكم آخر غير ظاهر من الأول ونسخ الحكم التكويني تبديل الحكم الأول بحكم عيّني آخر.

وعلى هذا الكلام جرى كلامه سبحانه في كتابه الشريف قال تبارك وتعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [سورة البقرة: ١٠٦] وقد علق الحكم بالآية فالنسخ ليس إزالة نفس الشيء من متن الأعيان بل إزالة كون الشيء آيةً دالةً عليه تعالى بوجه فيتسع البيان ويختلف باختلاف دلالة الأشياء وحكاية الأمور فالآية من القرآن آية في إعجازها، آية في بيانها للحكم فتنسخ فلا توجب تكليفًا، والحكم الشرعي آية في أمره ونهيه فينسخ فلا يأمر ولا ينهى، والإمام-آية في دعوته وحفظه الشريعة فينسخ بقبضه، والمقتضيات من الموجودات العالية آيات في اقتضائها فتنسخ فلا توجب وجودا وهكذا ومن هنا يظهر أنّ النسخ حقيقة واحدة وسيعة ومن مصاديقها النسخ المصطلح والبداء وغيرهما"[١٠] انتهى.

(٩) عناية الأصول ج٢/ ٢٣٦.

(١٠) حاشية الكفاية ج ١، ص١٦٧/ ١٦٨.

قانون التسبيب

لقد رسم لنا القرآن الكريم معالم مبدأ السببيّة العامة، وفقًا لمشيئة الله -عز وجلّ-بأن تجري الأمور حسب مقتضياتها وأسبابها، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة الأنعام:١٢٥]. والآية جلّية في المعنى الذي أوردناه، فالهداية والضلال منوطتان بشرائط يحققها القابل وفقًا لاستعداداته، كي تتجلّى الإرادة الإلهية. وعلى وتيرة ذلك يتحقق الانتقام من المجرمين ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [سورة الإسراء:١٦]؛ وقد يكون ذلك وفقًا لأسباب مبهمة وخفية، يصعب على الغافل إدراكها مع أنّها السبب الرئيس في هلاكه كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [سورة التوبة:٥٥].

أما عن الأنماط الثابتة التي رسمها الله سبحانه وتعالى في الكون فقد قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦٢]. كما تجزم آيات أخر بوجود دور لأسباب وسيطة في خلق الواقعية الطبيعية ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [سورة النحل: ٦٥]، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [سورة الحجر:٢٢]. إنّ النواميس الكونية توحي بسريان مبدأ السببية داخلها، غير أنَّ ذلك لا يعني استقلالها عن إرادة الله عز وجلّ، وما يُوضِّحُ ذلك جليًا قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٨].

وعلى رغم واقعية مبدأ السببية، إلاّ أنّ الأشاعرة أرجعوا كلّ حدثٍ لإرادة الله، نافين وجود علاقة ضرورة تقوِّم هذا الناموس الكوني فالنار ليست سببًا للاحراق بل الله هو السبب المباشر، فإذا لم يشأ فلا احتراق. معلّلين ذلك بقولهم إنَّ الإقرار بأسباب ثانويّة يؤدي إلى إنكار

قدرة الله!!. لذلك قامت المدارس الأخرى وعلى رأسها مدرسة أهل البيت عليهم السلام -برد ما جادت به قريحة الأشعري في هذا الموضوع استنادًا الى ما يلي:

١/ استحالة مؤثرية سببين في شيء واحد وارد لو كانا في عرض بعضهما البعض، لكنهما ليسا كذلك فهما في طول بعضهما البعض فالظاهرة تُنسَب لله باعتبار العلة المانحة للوجود، ولغيره بالعرض.

٢/ بالنسبة للواقع المادي ما يُسمّى سببًا هو في الحقيقة سبب معد يمهّد الطريق للفيض الإلهي.

قانون التوفيق

قد يعنون مصداق التسبيب من حيث بالتوفيق، بأن يسدل الله رحمته على عباده الصالحين ويضعهم في مجرى أسباب الهداية والخير، فترشدهم هذه التوفيقات إلى مواطن الرزق الحلال أو الشفاء أو الإحسان أو النصر المؤزّر...الخ.

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[سورة فاطر:٢]؛ وقوله أيضا: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [سورة آل عمران:١٦٠].

و بما تقدم يتضح معنى هيمنة الله تعالى وقاهريته على الكون: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الحشر:٢٣].

علاقة البداء بالارادة الإلهية

حاكمية الإرادة الإلهية على قانون العلّية بنفس القانون

لقد زخّرت آيات القرآن الكريم ببيان الحاكمية المطلقة على قانون العلّية دون تعطيله أو تعطيل إرادته تعالى كما صّرح به اليهود، أو ما وقع فيه الأشعري حينما أراد توجيه مصحح الثواب والعقاب، بل الحاكمية لله تعالى في هذا الكون بقانون العلية نفسه. فالله تعالى يمحو من هذه الأسباب ما يشاء، ويثبت منها ما يشاء، ويتصرف في هذا الكون كما يشاء، فيعز من يشاءو يذل من يشاء، بأسباب العز

والذل. وهذا التحكم الإلهي الذي خفي عن الناس وضلّ تنبؤاتهم هو البداء.

و يمكن إرجاع سبب اشتباه الكثيرين بالاعتقاد بأن ما تحقق واقعًا لا بد أن يكون موجودًا خارجا على وجه الحصر، وغفلوا عن أنّ هناك وجوداتٍ نفس أمرية لها كينونة واقعية غير متعلقة بكل شيء، كالوجوب، الإمكان، الامتناع، واجتماع النقيضين فهي أمور واقعية ليست مجرد اعتبارات ذهنية، فالموجودات باعتبار التحقق في الواقع، موجودات خارجية وأخرى نفس أمرية ليس لها ما بإزاء خارجي.

لذا تجده تعالى يُسدل نعمه على من يشاء وفقًا لمقتضيات سبقت في علمه، قال عزّ من قائل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [سورة الأعراف:٥٧]؛

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [سورة الروم:٤٨]؛

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [سورة الحجر:٢٢]؛

وينتقم مما يشاء تبعا لأعمالهم:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٣٠].

تحليل آية المحو والإثبات

اللّوح المحفوظ هو كتاب نظام الوجود، وهو الكتاب المبين الذي ما من مثقال ذرة خير أم شر، إلاّ وقد دوّنت فيه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، فلا يحيط به إلاّ المتعال الجبّار. أمّا المحو الذي تناولته الآية بالبيان فهو لما له نحو ثبوتٍ بتقدير الأسباب وصيرورتها وفقا لقانون التسبيب الذي بيّنا مفاده سابقًا، لذلك قال أبو عبد الله عليه السلام: هل يمحى إلا ما كان ثابتاً؟!...

لقد تعدّدت الأراء متأرجحة بين السطحية واللبّيَة في التفسير، فرأى بعضهم، أنّ المحو إفناء الموجودات وإثبات بقائها، ويردّه ظاهر الآية الكريمة؛ كون سياق التقابل فيها بين المحو وأمّ الكتاب الذي يناسب التسجيل والكتابة ولا يناسب الإفناء، علاوة على أنّه عند إرادة الإفناء لا يبقى معنىً تأسيسيّ لقوله تعالى: «وعنده أمّ الكتاب» الذي ترتبط

به أطراف الكلام في الآية. فقوله تعالى صريح في كون مقام المحو والإثبات غير مقام أم الكتاب؛ بل التناسب ينقلنا إلى القول بأن قانون التسبيب هو الموجه لمقام المحو والإثبات. فالمشيئة الإلهية قد تقتضي مانعية سبب من الأسباب فمثلا قد يُقصَّر طول عمر الزاني وقاطع الرحم، ويُطَوَّل عمر واصل الرحم والداعي؛ فيمحو الله ويُثبت ما سار في طول قانون التسبيب.

بيان حقيقة المحو والإثبات

جاء في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سئل عن قول الله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال: «كتبها لهم ثم محاها، ثم كتبها لأبنائهم فدخلوها والله يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»(١١). وفيه، عن مجمع البيان، روى عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «هما كتابان، كتاب سوى أمّ الكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وأم الكتاب لا يغير منه». وفيه ما روي عن زرارة عن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام -قال: «هما أمران، موقوف ومحتوم، فما كان من محتوم فأمضاه، وما كان من موقوف فله فيه المشيئة يقضي فيه ما يشاء». والمستفاد من هذه الأحاديث أن أمّ الكتاب، هو الذي فيه ما علمه الله تعالى أزلاً وأنه لا يغيّر أبدًا وهو محفوظ عنده تعالى، وبهذا الاعتبار سمّي اللوح المحفوظ. وأما كتابا المحو والإثبات فقد انطويا على جملة من المقادير بعضها محتوم لا يغيّر، وبهذا الاعتبار صارا مصداقًا لما في أمّ الكتاب. وبعضها موقوف معلّق على مقتضى وقوعه كدعاء أو صدقة أو غيرها.

هناك أحاديث كثيرة دلت على أنّ الدعاء يرد القضاء المبرم؛ ومعنى ذلك أن الدعاء الذي يوجب ردّ القضاء كان فيه القضاء معلّقًا عليه، وبهذا الاعتبار يكون موقوفًا عليه مكتوبًا؛ أي كتب في اللوح أن هذا الدعاء الشخصي مما يوجب إثبات القدر عليه، وإخراجه عن حد الموقوفية. فإن لم يدع الله تعالى به محاه وإن دعا أثبته، والمراد من الإثبات إبقاؤه وإدامته بقاءً، فكتاب المحو والإثبات يتعلقان بالأمرين: المحتوم والموقوف. كما يعدّ كتابا المحو والإثبات بمثابة أرضية العبودية

(١١) تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي ج٥/ ص٢٠٢.

التي هيأها المولى -عز وجل-لعباده حين فرض عليهم طاعته، إذ بدونها تقف العبادة على طرفي نقيض. فلو علم العابد أن الأمور محتومة فقط قلت عبادته بل ربما انتفت أصلا. وهذا بخلاف ما لو أنّ أمرهم كان مردّدًا بين السعادة والشقاوة، الخير والشر، والجنة والنار، وبلغة فنية إعمال كمال وجودي تكويني لدى الإنسان ألا وهو «الاختيار».

وبيان حقيقة البداء وفقًا لمبدأ «الإختيار» هو أنّ الحكم البتيّ بالنسبة إلينا هو المتحقق بعد المشيئة والإرادة والتقدير والقضاء. ويسمّى الفعل الصادر منّا عن حكم بتي فعلاً اختياريًا، ثم إنه تعالى عدّ الموجودات وإيجادها فعلاً لنفسه صادرة عن علمه وقدرته. فلا محالة تكون أفعاله اختيارية له فهي بما هي كذلك له تعالى لا بد لها من المشيئة والإرادة والتقدير والقضاء، ثم إنّ المشيئة من حيث ارتباطها بالفاعل تسمى مشيّة، أي أنها صدرت من الفاعل صدورًا يناسبه، ومن حيث ارتباطها بالفعل وتعلقها به تسمى إرادة، والتقدير الذي علمت معناه هو متأخر عن المشيّة بكلا معنييها فالمشيّة بالاعتبار الأول أعم من وجود المشيء وجوده بالفعل وعدمه. نعم، لا بد من المشيّة والإرادة والتقدير والقضاء، ومن تحققها في نفس الفاعل منا بعد العلم السابق بها أيضًا، إلاّ أن بعضها يعبّر عنه بعنوان المقتضي، وبعضها الآخر بعنوان العلة التامة. لذا قيل: إن البداء في حقّه تعالى، عبارة عن الإبداء أي إظهار ما خفي لا بمعناه الحقيقي؛ أعني إبداء ما لم يكن كما هو في حقنا. وهنا مثال يوضح لك هذا الأمر تمام الوضوح، فنقول: إذا قرّبنا نارًا من قطن، والنار مقتضية للإحراق، ينتزع من المورد مشية الإحراق، ثم بزيادة قربها إرادة الإحراق، ثم من كيفية قربها وشكل القطن ووضعه منها، وسائر ما يقارن المورد ينتزع تقدير الإحراق من حيث الكم والكيف مثلاً، فحينئذ إن احترق القطن يعلم أنّه من الأمر المحتوم الذي لا يردّ ولا يبدل، وإن لم يحترق وظهرت رطوبة في القطن مخفيّة علينا فمنعت عن أن تؤثر النار في القطن فهذا هو البداء؛ أي ظهور ما خفي علينا كما هو المفروض. وإن كان يابسًا لا مانع معه من

الاحتراق، كان ذلك قضاءً وإمضاءً وهو الإحراق من الفاعل والاحتراق من المحل وهو محل الحكم البتّي.

تذييل: إختلفوا في المقتول ونحوه، فقالت الأشاعرة: هو ميّت بأجله بحيث لو لم يقتل في هذا الوقت لمات فيه وموته بفعل الله تعالى. ووافقهم على ذلك «أبو الهذيل» من المعتزلة، واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:٤٣] وقوله أيضا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [سورة آل عمران:١٤٥].

«و قال حكماء الإسلام: لكلّ ذي حياة أجلان: طبيعيّ وهو الّذي يمكن بالنسبة إلى المزاج الأوّل لكلّ شخص لو بقى مصونا عن الآفات الخارجيّة. واختراميٌّ وهو الذي يحصل بسبب من الأسباب الخارجيّة كالقتل والغرق والحرق واللّدغ وغيرها من الأمور المنفصلة، فالمقتول ونحوه لو لم يقتل مثلا لعاش إلى أجله الطبيعي، وذهب إلى هذا القول سائر المعتزلة وقالوا: إنّ موته من فعل القاتل، لا من فعله تعالى وإلا لما توجّه الذم إليه، وأحسن ما استدلّوا به قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

تقريره: إنّ القاتل متى علم أنّه إذا قتل قتل، ارتدع عن القتل، فيكون شرع القصاص سببًا لحياة القاتل والمقتول، ولو كانا بحيث لم يقتلا لماتا، لم يكن كذلك، وحمل الحياة على الأخرويّة بعيد جدّا. وذهب أكثر المحقّقين: إلى جواز الأمرين فيه لولا القتل، فيجوز أن يموت ويجوز أن يعيش، وهو اختيار المحقّق الطوسي في التجريد. فلو قتل أهل بلدة فانّا نحكم بأنّه لو لم يقتلهم لعاشوا لأنّه لولا ذلك لزم خرق العادة، إذ من المستحيل عادة موت أهل تلك البلدة في يوم واحد، وخرق العادة لا يجوز إلا في زمان الرسالة. وردّ بأنّ استحالته عادة ممنوع، لأنّ مثله يقع في الوباء. كما قال: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفي معنى هذه الفقرة من الدعاء ما ورد في المأثور: «وأعوذ بك من شر ما سبق في الكتاب».

ولمزيد من التوضيح نقول: إنّ لله-سبحانه وتعالى-لوحين:

اللوح المحفوظ: الذي لا يطرأ عليه تغيّر أصلاً، وهذا التعبير يشير إلى علم الله -سبحانه وتعالى-.

لوح المحو والإثبات: وهذا يشير إلى علم الملائكة الموكلين بتدبير العالم، وعلم الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

ولكن بعض العلماء المتأخرين لا يقبلون هذا التعبير؛ لأنّ اللوح والقلم هما ملكان حسب الروايات التي جاءت في تفسير الميزان، وهذا الاعتراض غير وارد على نفس التوجيه، بل على التسمية فقط، فإن كان إطلاق لفظ اللوح على العلم غير مرضي فيمكن أن نقول: أم الكتاب كما هو مذكور في الآية، وكتاب المحو والإثبات الذي يشير إليه القرآن في هذه الآية وآية أخرى حيث يقول: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾.

وعلى هذا نقول على سبيل المثال: إنّ الله تعالى، لو أخبر ملك الموت أن عمر فلان خمسون سنة؛ أي مقتضى الحكمة أن يكون عمره كذا، فإذا وصل الرحم زِيدَ في عمره عشر سنواتٍ، وإن قطعها نُقِصَ من عمره عشر سنوات، والله عالم من قبل خلق الخلق أنّ فلانًا سيصل رحمه ويعيش إلى ستين سنة، ولكن ملك الموت لا يعلم؛ لأن علمه مشروط، فعلم الله هو اللوح المحفوظ الذي لا تغير فيه ولا تبدل، وعلم ملك الموت هو لوح المحو والإثبات. فاخبار الله -سبحانه- ملك الموت بأن فلان سيعمر إلى ستين سنة لصلة رحمه، فيه بداء للملك من قضاء الله المحتوم لم يكن عالما به. فالظهور عندها في علم الملك، لا في علمه تعالى.

ومقتضى هذا البيان: أن الله تعالى يخبر الملائكة والحجج عليهم السلام-بأمر محتوم، فيخبرون به على النحو ذاته،كونه معلقًا على شرطه. فهم في كلّ آن، ناهلون من علمه تبعًا لشدتهم الوجودية. والشاهد ما أمر به حبيبه محمدًا صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

تأملات قرآنية

١/ ذبح إسماعيل-عليه وعلى نبينا وآله السلام -

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ

سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الصافات:١٠٢-١٠٧].

إنّ الآيات والروايات تدل على أنّ إبراهيم الخليل -عليه وعلى نبينا وآله السلام-رأى في المنام مرة بعد أخرى أنه يذبح ولده إسماعيل -عليه وعلى نبينا وآله السلام-لمرضات الله سبحانه، ولان رؤيا النبي تكون وحياً من الله، فشمر عن ساعديه لتنفيذ أمر مولاه، واستشار إسماعيل فأجابه بثبات القلب: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فلما انحنى إليه بالسكين، جاء جبرائيل بكبش مكان إسماعيل وحينئذ نودي: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ وهذه الواقعة تشير إلى حقائق منها:

الأولى: أن إبراهيم -عليه وعلى نبينا وآله السلام-، كان يرى في المنام أنه يذبح إسماعيل، وتبعاً لذلك فانه يكون قد رأى كيفية ذبحه أيضاً، فقد اتبع الكيفية نفسها حين إرادة الذبح؛ كون تلك الرؤيا وحياً الهياً. وهذا مستلزم لرؤيته نتيجة عمله، والمرحلة النهائية لتسليمه لأمر مولاه. ومناداة الله سبحانه وتعالى له بقوله ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ إنما كان هذا على سبيل الحقيقة لا المجاز؛ أي أن إبراهيم الخليل قد أنجز حقاً كلّ ما رآه وجسده في رؤياه.

الثانية: من خلال ما مر يتضح لنا سر أمر الله-سبحانه وتعالى-له عن طريق الرؤيا دون إرسال ملك أو الهام بالذبح. كون الوحي الكلامي يستلزم خطابًا مغايرًا ألا وهو «اذبح ولدك إسماعيل»، والمطلوب غيره وهو تحقيق مصداق التهيؤ للذبح. ومن ثم كان المراد مطلق الامتحان والابتلاء ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾. وقد تُوِّج فيه خليل الله وولده اسماعيل -عليهما وعلى نبينا وآله السلام- بوسام الموفقية والتسليم لأمر الله -عز وجل-فكانا من المحسنين.

الثالثة: أن الله-عز وجّل -لم يظهر علمه المكنون لإبراهيم -عليه وعلى نبينا

وآله السلام -، ولم يعاين الخليل المرحلة النهائية لسعيه في ذبح إسماعيل؛ كون ذلك منافياً لغرض الحكيم. وبالتالي وقع البداء في علمهما -عليهما وعلى نبينا وآله السلام-، وتجلت علائم أمره تعالى بخلاف ترقبهما.

٢/ إعطاء التوراة لموسى-عليه وعلى نبينا وآله السلام -

القصة الثانية تتعلق بموسى -عليه وعلى نبينا وآله السلام-حينما دعاه ربه إلى الطور لإعطائه «التوراة»، وقد أمره الله تعالى قبيل ذلك بصيام ثلاثين يوماً. لكن حدث أن استاك موسى -عليه وعلى نبينا وآله السلام-في اليوم الثلاثين قبل ذهابه، فأمره الله بصيام عشرة أخر، وأن يأتي في اليوم العاشر منها دون استياك. والقرآن الكريم يذكر هذه الحادثة بقوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [سورة الأعراف:١٤٢]. والملاحظ أن الآية الكريمة صريحة في كون ميقات الله كان أربعين ليلة، ومع ذلك كان الإخبار على مرحلتين: الأولى: الأمر بالصيام ثلاثين يوماً والثانية: التمامية بالعشر، على الرغم من أن الميقات في العلم الإلهي أربعين ليلة. لهذا نجد القرآن يخبر عن الميقات بلحاظين:

- علم موسى -عليه وعلى نبينا وآله السلام-يكون الإخبار «ثلاثين ليلة، أتممناها بعشر».
- علم الله-عز وجل-يقول «أربعين ليلة».

أمّا المصلحة في ذلك، فيشير إليها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [سورة البقرة:٥١]. كما ورد أيضا في سورة سورة «طه» أيضاً: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۖ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ

لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [سورة طه:٨٣-٨٩].

فالمصلحة إذن، كانت تهيئة أرضية الابتلاء لبني إسرائيل وامتحان شدة إيمانهم، فان استصغنا هذا التحليل نقول:

إن الحكمة والمصلحة المرادة منه تعالى تقتضي أحيانًا عدم إظهار ملائكته وأنبيائه على علمه المكنون وقضائه المبرم، وإن أخبر به بنحو المرحلية. كما أن إخبار موسى -عليه وعلى نبينا وآله السلام-لم يكن على سبيل القطع والابرام كما يبدو ذلك من آيات سورة «طه» المتقدمة القائلة: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾. فلو كان قد وعدهم الإتيان بالتوراة في اليوم الثلاثين على نحو الحتمية، لكان جوابهم: نعم، لقد طال علينا العهد وأنت أخلفت موعدنا، فأخلفنا موعدك. ومن ذلك نستشف أن الأنبياء والأئمة عليهم السلام لا يكون إخبارهم بتيًا.

٣/ كشف العذاب عن قوم يونس- عليه وعلى نبينا وآله السلام -

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [سورة يونس:٩٨].

جاء عن ما جادت به الروايات التفسيرية، أنّ النبيّ يونس -عليه وعلى نبينا وآله السلام-قد أنذر قومه بنزول عذاب الله عليهم في مدة ثلاثة أيام، ثم تركهم ناقمًا على عجرفتهم وطغيانهم وخرج معه أحد مصدقيه. لكن حدث أن بقي أحد أنصاره بين قومه يوبخهم، ويؤكد لهم حتمية العذاب الإلهي مالم يتوبوا ويؤمنوا بيونس -عليه وعلى نبينا وآله السلام-. فما كان منهم تحت إصرار هذا الناصر العالم -صاحب يونس-إلاّ خلوص سريرتهم للايمان، فتضرعوا الله -عز وجل-علّه يكشف عنهم العذاب وهذا ما حصل فعلاً. فقد استجاب الله لاستكانتهم ودعائهم، وكشف عنهم ما كانوا يحذرون والآية الكريمة صريحة في ذلك.

ونستخلص من هذه القصة القرآنية

أن نبيّ الله يونس -عليه وعلى نبينا وآله السلام- قد توعد قومه بنزول العذاب وفقًا لشرط عدم تحقق إيمانهم فلم يكن إخباره على نحو البت وإلاّ صار توبيخ ناصره ودعوته لهم للتوبة لغوًا وعبثاً، وبنفس اللحاظ -القضاء الحتمي- لا يكون لايمانهم نفع بل سيهلكون لا محالة. فلما انتفى الشرط سرى النفي للمشروط، ووقع البداء في علم نبيّ الله يونس -عليه وعلى نبينا وآله السلام-.

ولعله يتسنى لنا بعد ما تناولناه الإشارة -لا على سبيل الحصر- إلى ثمرات الاعتقاد بمسألة البداء وهي:

دفع القول بالتفويض والجبر

إنّ إسناد البداء إلى الله تعالى يدفع شبهة التفويض وشبهة الجبر معاً؛ وتوضيح ذلك أنّ المفوضة قالوا بأنّ الله فعل ما فعل، وقدّر ما قدّر، وفرغ من كل أمر، فلا يغير من خلقه ولا قضائه شيئاً، فلا يزيد ولا ينقص أمراً، وأوكل الأفعال إلى العباد، كما قالت اليهود: «... ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾... الآية» [سورة المائدة: ٦٤] لا تبسط ولا تقبض، وكما قال بعض الفلاسفة من أنّ كل ما في الكون فإنّما هو يجري على نهج واحد. وأمّا المجبّرة فأنكروا تأثير أفعال العباد في الحدوث على طرف النقيض من المفوضة، حيث قالوا بأنّ أفعال العباد -مع ما لها من الآثار- مخلوقة للباري؛ إذ مجاري الأمور مطويّة في علمه الأزلي، وهو المؤثر في كل ما يحدث في عالم الوجود، ومنه أفعال العباد. وقد قالوا في مسألة المقتول: «لو لم يقتل لمات، إذ لولاه لزم خلاف علم الله، وهو محال». أمّا اندفاع القول بالتفويض، فإنّ العلم الأزلي الذّاتي المتعلق بجميع الأمور لا ينافي تأثير أفعال العباد في الحوادث؛ إذ العلم المكنون حيث أنّ له التعلّق الطولي بالأفعال، ليس بنفسه سبباً لها لتوسط اختيارهم، فلا مناص عن ترتّب الآثار الموعودة من قبل الله تعالى عليها من زيادة رزق أو نقصه، ومن طول عمر أو قصره، وهي أفعال الله. فليس الأمر كما زعمه القدري من أنه تعالى قد فرغ من الأمر وأوكل الأفعال إلى العباد، ولا محو ولا إثبات، ولا تغيير في الأرزاق والآجال وسائر الحوادث، فالمنكر للبداء ينكر دوام قدرة الله في جميع الأزمنة، وبالنسبة إلى الحوادث كلها، والمثبت له إنّما يثبت ذلك، لا أنه ينسب الجهل إلى الله -تعالى عن ذلك.

وأمّا اندفاع القول بالجبر؛ فلأنّه لو كان العلم الأزلي الذّاتي سبباً لكلّ ما يحدث في الخارج، لم يكن لترتّب العمر على صلة الرّحم معنىً، ولم يكن للمحو والإثبات معنىً، ولم يكن تقسيم علمه إلى مكنون وغيره، ولم يكن لتقسيم الأجل إلى محتوم وغيره معنىً محصلاً.

البداء مجلى للمسؤولية الفردية والاجتماعية

إنّ النظرية المناهضة لعقيدة البداء، أسست بعقيدتها الهشة لأصلي الجمود والركون في فهم المعطى الدنيوي والمعيشي. كونها قد سلبت الله تعالى القدرة اللامتناهية، فادى بها ذلك إلى القول بجفاف قلم التقدير الإلهي واستحالة التغيير فيه. والعجيب، أن الإنسان يفتي بوجدانه أنه ستنتفي مؤثريته في هذه الطبيعة لو صدق بهذه النظرية. فلسان حال هذه الأخيرة يفرض على الإنسان الخضوع والرضوخ، ويصادر بعدًا تكوينياً وكمالياً مهماً ألا وهو «بعد الاختيار»، كما أنه يفقده العزم على التغيير الذي يعد ميزة خاصة في الإنسان.

فلا شك أن الطرح -القدري -هو الذي سوّغ للطواغيت والجبابرة إستعباد رقاب الناس بالباطل، وسوَّغ للرعية من جهة الركون والتبعية زاعمين أنه قدر الله الذي لا يطرأ عليه التغيير، ومن جهة أخرى التثاقل عن تغيير حتى البعد الروحي لديهم، فتجدونهم يبررون ذنوبهم تبعا لطبيعتهم الجمودية -التي هي صنيعة أيديهم-. فهذا عبدالرحمن بن ملجم -لعنه الله- حينما خضب شيبة أمير المؤمنين عليه السلام في محرابه قال له: «أبئس الامام كنت لك حتى جازيتني بهذا الجزاء؟» فأجابه المجرم: يا أمير المؤمنين أفأنت تنقذ من في النار؟!، وبعبارة فنية نقول أن ابن ملجم يريد أن يقول «لا للمسؤولية» إنّما القدر الإلهي هو الذي طعن الامام عليه السلام.. .!

إنّ هذا الفكر الساذج، يوحي صراحة بقمع فكرة المسؤولية الفردية، بل حتى المسؤولية الاجتماعية، التي انطوت عليها عقيدة البداء؛ هذه العقيدة المانحة لفرص تغيير الواقع المظلم قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [سورة الرعد:١١].

مصير متأرجح بين الخوف والرجاء

إنّ الله تعالى عالم في الأزل أنّ الذي يلائم النظام الأعلى ويستحق الوجود، إنّما هو المحكوم عليه بالحكم اللاحق، والحكم

السابق معلّق بشرط علمه في الأزل عدم تحققه من العبد، ومن مصالح التعليق إبهام الأمر على المطّلعين على ثبوت الحكم الأوّل في اللوح بسعادة أحد أو شقاوته مثلاً، إمّا بالمشاهدة والعيان كالملأ الأعلى أو بالنقل والبيان من المستحفظين أسرار الله تعالى؛ لئلا يأمنوا مكر الله، ويعتروا بالإتيان بالحسنات، وييأسوا من روح الله بالوقوع في الزلّات، بل يكونوا بين الخوف والرجاء الذي هو من عمدة وصايا الأنبياء.

جاء في الكافي ما نصه عن أبي عبد الله عليه السلام-قال: «أنه ليس من مؤمن إلاّ وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا»[12]، وفي وصيّة لقمان لابنه: «خف الله خيفةً لو جئته ببرّ الثقلين لعذّبك، وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك»[13]؛ والحكمة في ذلك أنّ الخوف مع وجود الرجاء، حامل للمسيء على التدارك، ومانع للمحسن عن الإعجاب والاطمئنان. ففي البداء كمال الحكمة والمصلحة، والإقرار به لله تعالى عين العبودية؛ ولهذا ورد في الحديث: «لو علم النّاس ما في القول في البداء، ما فتروا عن الكلام فيه»[14].

(١٢) الكافي، ج٢/ ص ٧١.
(١٣) المصدر نفسه.

البداء وفلسفة الدعاء

إنَّ الميثاق الذي عُنْونَ به «البداء»، وجعله الله تعالى إقرارًا على أنبيائه وأوليائه، نراه متجليًا في الزخم الدعائي الذي جاد به سر المعصوم عليه السلام. فكان بحق منظومة تربوية متكاملة، تلطف سر الداعي وتوجهه نحو مدارج أكمل وأرفع. كما جاء في حديث للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله «الدعاء مخ العبادة»[15]. وقد زخر التراث الروحي عند الإمامية، بفلسفة دعائية ظهرت جليًا من خلال تلك القيم التربوية والمعنوية، التي انطوى عليها رصيدهم الدعائي، فكانت بحق أرقى منظومة عرفانية. ولا شك، أن ذلك راجع لسريان أثار حقيقة البداء وتلك الروح المغمورة بالتفاؤل والانتظار الباعثة على استرضاء الله تعالى

(١٤) نفسه، ج١/ ص١٤٨.
(١٥) أخرجه الترمذي ج ١٢ ص٢٦٦ والمخ خالص كل شيء وانما كان الدعاء كذلك لان حقيقة العبادة هو الخضوع والتذلل وهو حاصل في الدعاء أشد الحصول وفي الكافي ج ٢ ص٤٦٧ «إن الدعاء هو العبادة» وهكذا رواه ابن ماجه تحت رقم ٣٨٢٨.

واستعطافه في نفس الداعي.

ولنأخذ على سبيل المثال «الصحيفة السجادية»، التي جمعت ما تفضلت به الروح الدعائية لسيد الساجدين علي ابن الحسين زين العابدين عليه السلام. وهي كتيب يعكس في مظانه الحالات الروحية التي تعرض النفس الإنسانية، وفي الوقت نفسه يعلمنا أسلوب التعامل معها وفقا لمعايير عرفانية عالية. كما تجده يتناول الحالة الاجتماعية والسياسية التي كانت سائدةً في حياة الإمام عليه السلام. وقد اختار عليه السلام -أسلوب «الوعي الوجداني» في عرض قضية الإمامة، وما جرى عليها من قبل الحكم الأموي الذي أزهق روح الوجدان الإنساني على مشارف تاريخه الدموي. لذا ظل الدعاء ولا يزال، من أهم الشعائر التي تخض وجدان الفرد الشيعي حضًا، وتدفعه نحو أسمى مدارج الكمال الروحي، ولم يقتصر ذلك على المستوى الفردي فحسب بل تعداه إلى نورانية جماعية تصحبها حالة بكائية عجيبة، تعكسها المجالس التي لا حصر لها ولاحد. إنّ حالة اليأس التي تعرض العبد بعد استنفاذ طلب المكرُمَة عن طريق السنن الكونية، تجعله يستجدي الإرادة الإلهية لتغيير أحواله، ويضيق في الهوة بينه وبين ربه التي صنعها الخلوص إلى أدران المادة. من هنا كان تعلق الروح الدعائية تعلقًا ما ورائيًا، خارجًا عن كل الحدود التي تحف العالم السفلي، حيث تفضي حالة الاستعطاف التي تعرض النفس إلى اختراق عالم التكوين وتغييره، وهذا ما يعطي الدعاء القوة لرد ونقض القضاء.

خاتمة

إنَّ المتتبع لما أدرجناه في هذه المقالة المتواضعة، يدرك أن لعقيدة البداء بعدًا روحياً عميقاً، تحار فيه الألباب، يجعلها بحق كما تراءت لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، كونها أفضل ما عبد به الله -سبحانه وتعالى-، بل المحروم من جحد أبعادها وأثارها فيجهل تبعاً أسرارها العبادية والعرفانية. لقد أجادت الرؤية القرآنية في طرحها للعلاقة التكوينية بين فاعلية الخالق وفاعلية المخلوق. فأشارت إلى الفاعلية المطلقة للباري -عز وجلّ-بنحو الاستقلال من جهة، وإلى فاعلية العبد بالعرض من جهة

أخرى. ويشير هذا البعد المعرفي الراقي إلى أصل الحرية الإنسانية، والبعد الكمالي في اختيار المكلف ضمن منظومة عقدية متناسقة، انطوى عليها الدين المحمدي الأصيل. والحاذق يدرك، أن لهذا البعد الأثر البالغ في تبلور مضمون تربوي عميق، كان ولا يزال معلولاً لعدم تحقق بعض النبوءات التي تراءت بنحو الحتمية بادئ الأمر. كون متعلّقها لم يكن صرف التحقق، بل للأمر نظرة قيمية توجيهية للسلوك البشري، فيتجلى البداء عندها ضمن قاعدة أصيلة في المعطى الديني، ألا وهي قاعدة اللطف الإلهي. لكننا، نجد في المقابل أن مفهوم الفاعلية الإلهية التي تبتني على مبنى المنكرين للبداء، ترفض بتاتاً شذوذ أي نبوءة عن عالم البت والتحقق. مهما حاول الفاعل الممكن التغيير، من خلال تفعيل كمالاته التي أفاضتها عليه العلة الفاعلة نفسها !. وتبعاً لهذا الطرح الساذج، نجد أنفسنا أمام طرف يفيض الكمالات عبثاً ولغوًا، بل يعمل وفقا لرغبة إنتقامية -تعالى الله عن ذلك علوًا كبيراً-، وآخر مجبور على مصادرة كل كمالاته وسبل العروج بها. ولا شك أن هذا الطرح يخدش بصورة مباشرة في العدل الإلهي.

فهرس المراجع والمصادر

- الكافي، ثقة الإسلام العلامة الكليني قدس سره، دار الكتب الإسلامية بطهران، ١٣٦٥ هـ.ق.
- تفسير الميزان، العلامة طباطبائي السيد محمد حسين، انتشارات جامعة المدرسين، الطبعة الخامسة ١٤١٧ ق.
- توحيد، الشيخ الصدوق قدس سره، انتشارات جامعة المدرسين، ١٣٩٨ هـ.ق.
- حاشية الكفاية، العلامة الطباطبائي قدس سره، المؤسسة العلمية الفكرية.
- عناية الأصول، السيد مرتضى الفيروز آبادي قدس سره، مطبعة الفيروز آبادي، سنة ١٤٠٠ هـ.
- عدة الأصول، للشيخ الطوسي قدس سره، مطبعة النجوم، سنة ١٤١٧ هـ.ق.
- محاسن التأويل، للقاسمي محمد جمال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨ ق.
- نهج البلاغة، الشريف الرضي، دار الهجرة، الطبعة الأولى ١٤١٤ ق، قم.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، مؤسسة مطبوعات اسماعيليان، الطبعة الرابعة ١٤٨٠ هـ.ق.

علامات الوجوه في المشهد الأخروي في القرآن الكريم

د. طلال خليفة سلمان

كلية التربية للبنات - جامعة بغداد

ملخص البحث

يعرض السيد الباحث لعلامات وجوه الناس يوم القيامة كما صورتها آيات القرآن الكريم فيحصرها في ستة عشر موضعا وأن هذه المواضع انقسمت على قمسين متساويين اذ اشارت ثمانية مواضع الى علامات الوجوه المنعَّمة في حين اشارت المواضع الثمانية الاخرى الى علامات الوجوه المعذَّبة. فكان السواد من اكثر العلامات التي ظهرت على وجوه الكافرين، لأن اللون الاسود يشير الى الحزن والقلق والكآبة والرفض والصمت والموت. وغير ذلك.

اما البياض فيشير الى النعمة والرضا والراحة النفسية والإطمئنان والضحك... الخ.

ويوصي البحث بعملية التلاقح في دراسة النص القرآني بين العلوم النفسية والاجتماعية لما لهما من حضور واسع في القرآن الكريم. وقد اتخذ السيد الباحث من آيات القرآن امثلة على صحة ما ذهب اليه.

إنّ الوجه عضو من أهم أعضاء جسم الانسان التي تُظهر انفعالاته النفسية، وأحاسيسه، فبوساطته، وعبر العلامات التي تظهر عليه، وعبر استكناه هذه العلامات وفك شفراتها، يمكن للناظر أن يعرف أن صاحب هذا الوجه مرتاح ام متعب، مطمئن ام قلق، فرح ام حزين، أو في حالة غضب أو خوف أو ترقب أو إحباط أو غيرها من الانفعالات النفسية، فهو الحاكي الأول لوضع الانسان النفسي ولانفعالاته الداخلية؛ لأن الوضع النفسي للانسان، وما يعتمل داخله من انفعالات يظهر أول ما يظهر على وجهه.

تعددت العلامات التي ارتسمت على الوجوه في المشهد الأخروي في القرآن الكريم، وقد ظهرت هذه العلامات عبر ألفاظ خاصة تحققت فيها القوة الأيقونية التي تشير إلى علامات الوجوه، والتي تبدي الانفعالات النفسية التي يحسّ بها الانسان يوم القيامة، وقد حكى قسم من هذه العلامات نعيم المؤمنين والراحة النفسية التي يعيشونها، في حين حكى القسم الثاني عذاب الكافرين والتعب النفسي الذي يعانونه. وتبعاً لذلك، فقد احتوى البحث على مهاد نظري كان هدفه التعريف بأهمية الوجه في إظهار انفعالات الانسان من وجهة نظر علم النفس، وإظهار أهميته في التواصل. وبيّنا في المهاد سبب اختيارنا للمنهج السيميائي وآلياته، وسبب توظيفها له في قراءتنا لعلامات الوجوه في المشهد الأخروي.

إنّ جسم الانسان هو الكاشف الأول عمّا يعتمل داخل الانسان من انفعالات نفسية وأحاسيس ومشاعر، فالتعبيرات الجسمية أو البدنية الخارجية تعدّ من الوسائل التي من الممكن أن نستدل بوساطتها على انفعالات الأفراد ومشاعرهم وأحاسيسهم، «وعلى الرغم من أنّ هناك بعض التعبيرات الانفعالية يمكن إخفاؤها إلا أن البعض الآخر يصعب إخفاؤه؛ لعدم قدرة الشخص على التحكم في جهازه السمبثاوي وتعتمد قدرة الشخص على التحكم في تعبيراته غير اللفظية على درجة صحته النفسية والجسمية»[1]، وعلى قدرته

(١) الدافعية والانفعالات، إدوارد ج موراي، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة ومحمد عثمان، دار الشروق، القاهرة، د.ط، ١٩٨٨، ٩٨.

على إخفاء انفعالاته.

يعدّ الوجه من أهم أعضاء جسم الانسان المعبّرة عن انفعالاته، وما يعتمل داخل نفسه من أحاسيس، فعن طريقه، وعبر ما يرتسم عليه من علامات يمكن لنا أن نعرف أن هذا الانسان فرحٌ أو حزينٌ أو في حالة غضب أو خوف أو غيرها من الانفعالات النفسية، فهو أهم منطقة في جسم الانسان يصدر علامات وتعبيرات غير لفظية، يمكننا أن نعرف بوساطتها حالة الانسان ومكنونات نفسه. وقد «كشفت بعض الدراسات أن هناك اختلافاً بين الانفعالات من حيث دقة التعرّف على كلٍّ منها. ومن هذه الدراسات الدراسة التي قام بها كل من ليفيت ودافيتز Levitt and Davitz التي أوضحت تفوّق التعبير عن الخوف من خلال الصوت، كما تبيّن أن الوجه وحده يجيد نقل التعبير عن الفرح والغضب، كما أن كلاً من الوجه والصوت معاً ينقلان الشعور بالمفاجأة أفضل من كل تعبير على حدة»[٢].

من جانب آخر فإن الوجه يشغل مكانة مهمة جدا في التواصل، فعن طريقه يمكننا التواصل بالناس المحيطين بنا، فهو أكثر الأعضاء التي ننظر إليها عندما نتبادل الحديث مع الآخرين، فمن خلال العلامات التي ترتسم عليه، وبوساطة قراءتها وفك شفراتها، يمكننا معرفة الانفعال الذي يصيب صاحبه؛ وذلك لأنّ أكثر الأحاسيس دلالة تظهر عليه بشكل جلي[٣]، فهو من أول أجزاء الانسان تأثراً وإظهاراً للمشاعر، «فالتأثر الأولي هو في المقام الأول سلوك وجهي كما يقول طومكينس Tomkins»[٤].

لقد كان دارون من أوائل الباحثين الذين عنوا بالحركات الإيمائية وبنقل الأحاسيس التي تترجمها، «فبعد أن التمس من حوالي عشرين مراسلاً في العالم تحديد ما تعني لهم تعابير الوجه المختلفة وحركاته الأخرى التي وصفها لهم، ترسخ اعتقاده في الطابع الكوني لبعض تعابير الوجه، وشرع في وضع تصنيف أولي للأحاسيس

(٢) الدافعية والانفعالات، ٩٩.

(٣) ينظر: بحث: الوجه الكذّاب المفضّل، جان كلود مارتان، ترجمة حسن الطالب، مجلة علامات، العدد ٢١، ٢٠٠٤، ٢٦.

(٤) الوجه الكذّاب المفضّل، ٢٦.

والانفعالات الأساسية عند الانسان، نعم، لكن يضاف إلى هذه الأحاسيس عدد آخر من التعابير الناتجة عن حركات عضلات الوجه، وليس في وسع أي عضو آخر من أعضاء الجسم بسط وتطوير مثل هذه الشحنة من الأحاسيس والمشاعر»[٥].

وبهذا يظهر أثر الوجه في نقل انفعالات الانسان وما يعتمل داخل نفسه.

إذا أنعمنا النظر في النصوص القرآنية التي وصفت حال الوجوه يوم القيامة فإننا سنرى أن ثمة علامات متنوعة ومتعددة تظهر على وجوه الناس يوم القيامة، وقد تمظهرت هذه العلامات عبر ألفاظ خاصة تحققت في كل لفظ منها القوة الإيقونية المشيرة إلى علامات الوجوه التي تحكي الانفعالات والمشاعر والأحاسيس التي يحسّ بها الناس في ذلك اليوم الموعود، وقد انقسمت هذه العلامات على قسمين، قسم يحكي نعيم المؤمنين وفرحهم والراحة النفسية التي يشعرون بها يوم القيامة، وقسم يحكي شقاء الكافرين وحزنهم وعذابهم وتعبهم النفسي وقلقهم الذي يشعرون به يوم القيامة.

تعددت الألفاظ التي تحققت فيها القوة الإيقونية المشيرة إلى علامات الوجوه يوم القيامة، فقد وصفت وجوه المؤمنين بأنها بيضاء وناضرة ومسفرة وضاحكة ومستبشرة وناعمة وغيرها، ووصفت وجوه الكافرين بأنّها سوداء وباسرة وكالحة وعليها غبرة وغيرها من الصفات، وقد كانت كل صفة بمثابة علامة يمكن عن طريقها معرفة الحالة النفسية والانفعال الذي يحس به صاحب الوجه. ولتعدد هذه العلامات ودقتها في تصوير الوجوه، وبيان الحالات النفسية لأصحابها، وما يعتمل داخل نفسياتهم من فرح أو حزن أو ندم أو غضب أو خوف أو فزع أو ألم، فإننا سوف نوظف المنهج السيميائي في دراستنا هذه؛ وذلك لأن السيميائية لا تقتصر على دراسة اللغة فقط، بل تتجاوزها إلى الأشكال الرمزية والعلامات المتنوعة كافة سواء أكانت علامات بصرية ام صوتية أو حركات إيمائية، ولذلك كان مجال السيميائية واسعا يشمل أنواع العلامات على اختلافها، ذلك أن الانسان قد حوّل كل شيء من حوله إلى

(٥) الوجه الكذّاب المفضّل، ٢٦.

رموز وإشارات في محاولة منه للتحرر من الواقع والتجارب المباشرة وسمواً عن باقي الكائنات التي تتقوقع داخل طبيعة جامدة لا تستطيع أن تعيد إنتاج نفسها»[٦].

تقوم السميائيات على دراسة العلامات على وفق نسق جديد يمنحها شكلاً جديداً، ويضفي عليها من المعاني ما لم تكن لتكتسبه في أحاديتها المفردة[٧]، فهي تكتسب معاني مضافة ودلالات جديدة حينما تتعالق مع النصوص، «فالسيميائيات هي كشف واستكشاف لعلاقات دلالية غير مرئية من خلال التجلّي المباشر للواقعي. إنّها تدريب للعين على التقاط الضمني والمتواري والممتنع، لا مجرّد الاكتفاء بتسمية المناطق النصية»[٨].

يذكر عبد الواحد المرابط أن هناك أكثر من مستوى للتحليل السيميائي، ومن هذه المستويات المستوى التداولي والمستوى النسقي والمستوى الدلالي[٩]، وسوف نركز في دراستنا هذه على المستوى التداولي والمستوى الدلالي؛ لأنّهما الأقرب إلى موضوعنا، والأقدر على قراءة العلامات التي اتسمت بها الوجوه يوم القيامة، والأكثر تخصصاً، ولاسيما المستوى الدلالي، في دراسة التمظهرات اللغوية للدلالة النفسية واستكناه المسارات السيكولوجية في النصوص المدروسة، فالبحث السيميائي في المستوى التداولي يعنى «بتحليل الشيفرة اللغوية داخل النص الأدبي، لكن من منظور السياق التواصلي الذي يجمع بين الكاتب والقارئ وما يتولد عن ذلك من دلالات اجتماعية أو نفسية أو تاريخية. إنّ هذا المستوى يجعل النص الأدبي إرسالية تواصلية ذات طابع لغوي خاص، ولذلك تعمل الدراسة السيميائية على تحليل الشيفرة اللغوية

(٦) سيميائية نوازع النفس في القرآن الكريم، ساندة حسين العمري، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزّة، كليّة الآداب، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ٢٥-٢٦.

(٧) ينظر: سيميائية نوازع النفس في القرآن الكريم، ٢٧.

(٨) السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد، دار الحوار للنشر، سوريا، ط٢، ٢٠٠٥، ١٥.

(٩) ينظر: السيمياء العامة وسيمياء الأدب-من أجل تصوّر شامل، عبد الواحد المرابط، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ١٠٩-١١٢.

المتجلية في النص لاكتشاف القنوات النوعية التي يتحقق عبرها التواصل والتفاعل بين الكاتب والقارئ»[10]. أمّا المستوى الدلالي فإنّه يتمثل في «التمظهرات اللغوية للدلالة الاجتماعية أو النفسية أو هما معاً داخل النصوص الأدبية... وفي دراسة هذا المستوى يمكن الحديث عن مسارين منهجيين سيميائيين، المسار السوسيولوجي-والمسار السيكولوجي: الأول يرصد آليات توليد الدلالة الاجتماعية داخل النصوص الأدبية، وتمثله تصورات ميخائيل باخين وبيير زيما وغيرهما ممن طوّروا النقد الاجتماعي في اتجاه المقاربة السيميائية، أمّا الثاني فيرصد آليات توليد الدلالة النفسية داخل النصوص الأدبية، وتمثله بعض تصورات شارل مورون وأعمال مارت روبير وبلمان نويل وجاك لاكان وغيرهم. وتعد نظرية جوليا كرستيفا حول التحليل السيميائي ممثلة للمسارين السوسيولوجي والسيكولوجي؛ لأنّها تقدم نموذجاً شاملاً لدراسة المستوى الدلالي داخل النصوص»[11].

إنّ النظر في العلامات السيميائية التي وصفت الوجوه يوم القيامة في القرآن الكريم، ومحاولة قراءتها قراءة سيميائية، والتركيز على تمفصلاتها النصيّة والوقوف على أوجهها السيميائية وعلاماتها الدالة المشحونة بشحنات دلالية ونفسية يحتم علينا تقسيمها في تمفصلين رئيسين هما:

١. الوحدات السيميائية الدالة على الوجوه المنعمّة.
٢. الوحدات السيميائية الدالة على الوجوه المعذّبة.
٣. الوحدات السيميائية الدالة على الوجوه المنعمّة.

بلغ عدد المواضع التي أظهرت علامات الوجوه يوم القيامة ستة عشر موضعاً في القرآن، واللافت للنظر إنّها انقسمت على قسمين بشكلٍ متساوٍ، فقد أشارت ثمانية مواضع إلى الوجوه المنعمة، وأشارت المواضع الثمانية الأخرى إلى الوجوه المعذّبة.

يذكر الباري جلّ شأنه في سورة آل

(١٠) السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ١١١.

(١١) السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ١١٢.

عمران علامتين من علامات الوجوه المنعمة يوم القيامة، إذ يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[سورة آل عمران [١٠٦-١٠٧]. وهنا يظهر نعيم المؤمنين عبر العلامتين الظاهرتين على وجوههم، المتمثلتين بالفعل المضارع (تبيضّ)، والفعل الماضي المتصل بتاء التأنيث (ابيضّت)، واللتين تشيران إلى ابيضاض وجوه المؤمنين الذين حصلوا على رضوان الله، ودخلوا في رحمته وجنّته يوم القيامة.

يظهر اللون الأبيض في هذا المشهد الأخروي بشكل واضح؛ ليشكل علامة واضحة من علامات الوجوه المنعمة يوم القيامة، ومن المفيد أن نشير في هذا الصدد إلى أن اللون الأبيض يحمل سيميائياً أكثر من دلالة، فهو يدل على النقاء والصفاء والنور والسعادة والحبور والبهجة والطهارة والسلام[١٢]. ويقول أبو حيان الأندلسي في تفسير هذه الآية: «إن ابيضاض الوجوه واسوادها على حقيقة اللون»[١٣]. ويقول الزمخشري: «والبياض من النور... فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه وبيمينه»[١٤].

إنّ الآيتين الكريمتين تشيران بشكل واضح إلى أنّ ثمة نوعين من الوجوه يوم القيامة، وجوه مبيضة نيّرة، ووجوه مسودة مظلمة، أمّا بياض الوجوه فهو فضلاً عمّا تقدم، علامة على الفرح والسرور والبشاشة والنضارة، كما أن البياض يظهر على حقيقته في وجوه المؤمنين؛ لأنّ يوم القيامة يوم ظهور الباطن[١٥]، فيظهر نور المؤمنين،

(١٢) ينظر: بحث: سيميائية البنى السردية في رواية (نساء العتبات)، د. طلال خليفة سلمان، مجلة كلية التربية للبنات-جامعة= =بغداد، مجلد ٢١ (٤)، ٢٠١٠، ٨٤٨.

(١٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق صدقي محمد ... جميل، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٤٢٠ هـ، ٣/ ٢٩٢.

(١٤) الكشاف عن حقائق التنزيل، جار الله محمود ابن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ١/ ٣٩٩.

(١٥) ينظر: بيان السعادة في مقامات العبادة، سلطان محمد الجنابذي، مطبعة جامعة طهران، طهران، ط٢، ١٣٨٥، ١/ ٢٩٠.

وصفاء نفسياتهم وطهارة قلوبهم، ونقاء سريرتهم على وجوههم؛ ليراهم الناس يوم القيامة على حقيقتهم وصفائهم، وليجزيهم الله على أعمالهم الصالحة ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

تشير العلامتان المتمظهرتان عبر الفعل المضارع (تبيض)، والفعل الماضي (ابيضت) إلى أمرين مهمين لا يقلان أهمية عما تقدم-فيما نرى والله أعلم، فمن خصوصيات الفعل المضارع أنه يشير إلى التجدد والاستمرار، وقد جاء الفعل (تبيض) بهذه الصيغة في الآية الأولى؛ ليشير إلى تجدد البياض واستمراره في وجوه المؤمنين في أثناء حسابهم بين يدي الله تعالى، في حين جاء الفعل (ابيضت) بصيغة الماضي الذي يفيد الثبات؛ ليشير إلى بقاء البياض في وجوههم، وثباتهم على لونهم الأبيض بعدما وقفوا للحساب بين يدي ربهم، وأخذوا جزاءهم العادل ودخلوا في جنان الخلد بيض الوجوه، إذ إنّ هذه الوجوه ستبقى بيضاء، وسيثبت اللون الأبيض عليها، علامة لنعيمها وسعادتها ونقائها وخلودها في جنات النعيم.

يصف الحقّ تعالى وجوه المؤمنين يوم القيامة بالنضارة في سورتي القيامة والمطففين. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ٢٢-٢٣].

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [سورة المطففين: ٢٢-٢٥].

قال الراغب الأصفهاني: «النضرة الحُسن كالنضارة، قال (نضرة النعيم) أي رونقه... ونضر وجهه ينضُر فهو ناضرٌ»(١٦) وبهذا فإنّ كلمة (ناضرة) سوف تشير إيقونياً إلى أكثر من معنى، فهي تأتي بمعنى «ناعمة بهجة حسنة عن ابن عباس والحسن، وقيل مسرورة عن مجاهد، وقيل مضيئة بيض يعلوها النور عن السدي ومقاتل. جعل الله سبحانه وجوه المؤمنين المستحقين للثواب بهذه الصفة علامة للخلق والملائكة على أنهم

(١٦) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٨م، مادة: نضر، ٥١٩.

الفائزون»[17]، وهي علامة تميزهم عن غيرهم من الناس في ذلك اليوم الرهيب الذي يجمع فيه الناس للحساب من كل حدب وصوب.

إنّ هذه الوجوه الناضرة المشرقة المليئة بالحيوية، والتي تنتظر رحمة ربها والفوز بجنته في يوم الحساب تحكي عبر نضارتها ورونقها فرح المؤمنين وحبورهم بمصيرهم الذي أصبحوا فيه، كما أنها تظهر من الناحية النفسية مقدار الاطمئنان الروحي الكبير، والراحة النفسية، وهدوء الأعصاب، ورقّة المزاج، والرضا بالمصير الذي ينتظرهم. وقد انطبعت هذه الراحة النفسية التي تعيشها نفوسهم المطمئنة على محيّاهم، وظهرت علاماتها على وجوههم التي امتازت بالنور والبهاء والاشراق والنضارة.

انـمازت وجـوه المؤمـنين في سـورة المطففين بأنّ فيها نضرة النعيم التي تظهر علامات النعمة، وآثـار البهجة، ونور السرور ورونقه على وجوههم، ولم يكتف الباري بوصف الوجوه بالناضرة في هذه الآية، كما وصفها في الآية السابقة، بل أراد أن يبيّن لنا سبب نضارة وجوه المؤمنين وإشراقها، فهي نَضِرة بيضاء يعلوها النور والفرح؛ بسبب النعيم الذي حصل عليه أصحابها يـوم القيامة، وبسبب الراحة النفسية التي هم عليها في الجنان. وقد كانت العلامات اللغوية التي تظهر حالهم هذا في غاية الدقة، فإنّ التعبير بالفعل (تعرف) الذي يدل على المعرفة بدلاً من الفعل تنظر أو ترى أو تشاهد مثلاً فيه إشارة دقيقة إلى العلم اليقيني بحالهم الذي تظهره الآية، فالفعل (عـرف) يدل على العلم بالشيء علم اليقين. قـال الفيومي في المصباح المـنير: «عرفته عِـرفة بالكسر وعرفانا علمته بحاسة من الحواس الخمس»[18]. فالحواس الخمس ومنها الرؤية هي طريق من طرق المعرفة، وليست المعرفة نفسها، في حين ان الآية تريد الإشارة إلى المعرفة بعينها والتي تـدل على العلم اليقيني، ولا تريد طريقاً من طرق المعرفة؛ لذلك جـاء التعبير بالفعل (تـعرف) وبصيغة

(١٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الدين الـطـبرسي، دار إحـيـاء الـتـراث الـعـربي، بيروت، د.ط، ١٣٧٩هـ ٥/ ٣٩٦.

(١٨) المصباح المنير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، دار الحديث، القاهرة، د.ط، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، مادة عرف، ٢٤١.

المضارع؛ للدلالة على هذا المعنى الدقيق، ولاستمرار المعرفة بحالهم وبنعيمهم الذي حصلوا عليه، جزاءً لأعمالهم التي عملوها في دار الدنيا، فقد كانت هذه المعرفة إشارة واضحة إلى العلم بحالهم، وبأثر النعيم الأخروي في وجوههم. «إنّ مجرد النظر إلى هذه الوجوه يفيد علماً ومعرفةً بما يلقى أصحاب هذه الوجوه من تنعمها بألوان النعيم، فتدل سمتهم على السرور والسعة والراحة والدعة، فإنّ الظاهر هو عنوان الباطن»[19]، وبهذا فإنّ ظاهرهم يدل على باطنهم، ونضارة الوجوه تدل على الراحة النفسية وهدوء البال والطمأنينة التي أصابت هؤلاء المؤمنين وظهرت علاماتها على وجوههم.

يخبرنا الله تعالى في سورة عبس بوجود ثلاث علامات تميّز الوجوه المنعّمة يوم القيامة عن غيرها من الوجوه. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [سورة عبس: ٣٨ -٣٩]. فالآية الكريمة تصف وجوه المؤمنين بهذه الصفات الثلاث؛ لتظهر الأثر الكبير للنعيم الأخروي فيها، فهي مسفرة من «أسفر الصبح إسفاراً أضاء، وأسفر الوجه من ذلك، إذ علاه جمال»[20] وأضاء بنور الإيمان، وانبسط فرحاً، وتهلل لما أصابه من خير، فهي وجوه «متهللة فرحاً وعليها أثر النعيم»[21]، فضلاً عن أنّها ضاحكة؛ بسبب السرور الذي أصابها، فالضحك من علامات سرور المؤمنين، ولأنّهم مسرورون بمصيرهم فإنّ الضحك لا يفارق وجوههم؛ لانعدام الحزن في أنفسهم، فلم يبق من الحزن أي شيء يذكر بعدما عرفوا مصيرهم، وشاهدوا ألوان النعيم الأخروي، كما أنّ في ضحكهم إشارة على انبهارهم بالنعم الكثيرة التي حصلوا عليها. أمّا استبشار وجوههم فإنّه علامة أخرى من علامات فرحهم بمشاهدة ما كانت ترجوه نفوسهم المؤمنة من خير، وزيادة في ألوان الخير الذي أعدّه

(١٩) تفسير البصائر، يعسوب الدين جوبياري، المطبعة الإسلامية، قم، د.ط، ١٤١٣هـ، ٥٣/ ٢٤٠.

(٢٠) المصباح المنير، مادة سفر، ١٦٨.

(٢١) تفسير التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، مؤسسة التاريخ، د.ط، د.ت، ٣٠/ ١٤١.

الله لهم، ثم بعد هذا وذاك فإنّ إسفار وجوه المؤمنين وضحكهم واستبشارهم دليل على الراحة النفسية التامة والاطمئنان الروحي الذي ينعمون فيه، ودليل على عدم وجود أي أثر نفسي يضرّ بهم ويمارس ضغطاً على أعصابهم، ومن ثمّ على نفسياتهم.

تضيف سورة الغاشية صفات أخرى وعلامات إلى وجوه المؤمنين المنعّمين يوم القيامة. قال تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [سورة الغاشية ٨-١٠]. وهنا تبرز العلامة اللغوية (ناعمة) لتشير إلى علامتين تميّز وجوه المؤمنين: أولهما أنّ هذه الوجوه عليها أثر النعومة وترف العيش وجمال المنظر؛ بسبب أجواء الفرح والسعادة التي يعيشها أصحابها، وبسبب الراحة النفسية والهدوء الروحي الذي ينعمون فيه، فلا وجود لخوفٍ أو حزنٍ أو كربٍ أو قلق يعكّر صفوهم، ويغيّر ملامح وجوههم، وينال من إشراقها ونورها ونضارتها. وثانيها أن هذه الوجوه ناعمة من النعمة، إذ إنّ أثر النعمة قد ظهر عليها بشكل واضح، فهي وجوه منعّمة، بل غارقة في نعم الله تعالى؛ جزاءً لها على ما قدمت في دار الدنيا.

فضلاً عمّا تقدم فإنّ هذه الوجوه انمازت بعلامة أخرى، فهي لسعيها راضية، فقد ظهرت ملامح الرضا عليها؛ لأنّ أصحابها المؤمنين الصالحين وجدوا ما عملوه من خير وتقوى وأعمال صالحة في الدنيا، فيما حصلوا عليه يوم القيامة من رضا الله تعالى، فرضوا به كلّ الرضا واطمأنوا له، ومن ثمّ فقد أحسوا بالراحة النفسية التي ظهرت على وجوههم؛ بسبب اطلاعهم على الجزاء الأخروي الذي أرضاهم وأراح نفسياتهم بعد الجهد والعناء الكبير الذي عانوه في الدنيا، وبعد شتى الابتلاءات التي تعرّضوا لها في حياتهم الدنيوية(٢٢).

تطالعنا سورة يونس بصيغة أخرى لوصف الوجوه المنعمة، تختلف عن الصيغ التي تقدم الكلام عليها، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ

(٢٢) ينظر: من وحي القرآن، محمد حسين فضل الله، دار الزهراء للطباعة والنشر، بيروت، ط٣، د.ت، ٢٤/ ٢٥٤.

فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[سورة يونس: ٢٦]، فالآية الكريمة بدلاً من إضفاء الصفات الايجابية على وجوه المؤمنين، فإنها تنفي بوساطة (لا) النافية أن يرهق وجوههم الصفات السلبية، ومنها القتر والذلة. وإذا تأملنا معاني الرهق والقتر، فإنّ الرهق من «رهقه الأمر غشيه بقهر»[٢٣]، والقتر هو «الدخان الساطع من الشواء والعود... وذلك شبه دخان يغشي الوجه من الكذب»[٢٤]. وبذلك فإنّ الله يريد أن يخبرنا بأنّ وجوه هؤلاء المؤمنين ليست كوجوه الكافرين التي سوف يرهقها القتر والذلة يوم القيامة، وإنما هي على عكس وجوه الكافرين، فلا يغشاها القتر الذي يشير فيما يشير إليه إلى سواد الوجوه؛ بسبب الدخان أو الغبار الذي يعلوها، فهي ليست وجوهاً سوداء كافرة، وإنما هي وجوه بيضاء مؤمنة منوّرة بنور الإيمان وصفاء الروح واطمئنان النفس، فضلا عن أنها ليست ذليلة أو مصابة بالهوان والقهر والانكسار كوجوه الكفّار، إنّما هي عزيزة كريمة منعّمة في الجنان؛ لأنّها سلكت طريق الايمان، وأخذت بأسباب الخير والكرامة والعزّة التي أبعدتها عن كلّ ذلة.

٢-الوحدات السيميائية الدالة على الوجوه المعذّبة.

بعد أن درسنا الوحدات السيميائية الدالة على الوجوه المنعّمة في الجزء الأول من البحث، فإنّ دراستنا سوف تتمحور حول دراسة الوحدات السيميائية الدالة على الوجوه المعذّبة في القسم الثاني من البحث، واللافت للنظر في هذه الوحدات أنّ أكثر من نصفها أشار إلى اسوداد وجوه الكافرين يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[سورة آل عمران: ١٠٦] فقد أشارت العلامتان المتمظهرتان عبر الفعل المضارع (تسودّ)، والفعل الماضي المتصل بتاء التأنيث (اسودّت) إلى اسوداد وجوه الكافرين يوم القيامة؛ لما يلقونه من خزي وفزع وترقب وخوف من العذاب في ذلك اليوم الرهيب.

إنّ للّون قدرة ايحائية كبيرة في النصوص؛

(٢٣) المفردات في غريب القرآن، مادة رهق، ٢١٢.

(٢٤) المفردات في غريب القرآن، مادة قتر، ٤٠٩.

لما يتمتع به من إشارات، ولما له من بعد فكري ونفسي، وللون خارج سياق النص دلالة معينة، أمّا عند وضعه في سياق النص، فإنّه سوف يحمل دلالات مضافة[٢٥]؛ نتيجة لتفاعله مع مكوّنات النص الأخرى.

وقد كان للّون الأسود حضور واضح في الوحدات السيميائية التي أظهرت وجوه الكافرين في المشهد الأخروي، وكان له قدرة ايحائية عالية، فهذا اللون يوحي بالقلق والكآبة والحزن والرفض والسوداوية، علاوة على أنّه يحيل إلى الصمت والموت، وهو لون يستدعي إلى ذهن الانسان صوراً عديدة منها صور الجنائز وصور القبور، ورايات الحداد السوداء، وصور النساء الحزينات المتشحات بالسواد، كما أنه يوحي بمصير الانسان المأساوي والفاجع، وعاقبته السيئة[٢٦].

لقد ظهر اللون الأسود مرتين في الآية الكريمة؛ ليشكل علامة فارقة وواضحة من علامات الوجوه المعذّبة يوم القيامة، وليشير إلى اسوداد وجوه الكافرين؛ بسبب أجواء الخوف والترقب التي يعيشونها، وبسبب الحالة النفسية التعيسة، والقلق النفسي الكبير الذي يعانونه؛ وذلك لسوء المصير والعاقبة التي وصلوا إليها، كما أن اسوداد وجوههم يكون على نحو الحقيقة «فإنّ الوجه عند الهم الكثير يميل لونه إلى السواد والكدرة؛ لتهاجم الدم ونحوه»[٢٧]، وبهذا يكون اللون الأسود علامة خزي وخوف وحزن لهؤلاء الكافرين طبعت على وجوههم، بعدما كان السواد مطبوعاً في دواخل نفسياتهم المريضة، وقلوبهم الحاقدة.

إنّ الآية الكريمة تشير إلى أنّ هؤلاء الكافرين هم الذين تسببوا بسوء عاقبتهم، واسوداد وجوههم؛ بسبب كفرهم بعدما كانوا مؤمنين، إذ يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فقد جاءت همزة الاستفهام في هذا السياق

(٢٥) ينظر: سيميائية نوازع النفس في القرآن الكريم، ١٩٨.

(٢٦) ينظر: الشعر التونسي وأشكال الكتابة، أعمال ندوة محمد البقلوطي، بحث: (الإيقاع والتحديث)، عبد الله البهلول، تونس، د.ط، ٢٠٠٦، ٩٠.

(٢٧) تقريب القرآن إلى الأذهان، محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ، ٤/ ٢٠.

للتوبيخ، وللتعجب من حالهم التي آلوا إليها من الكفر بعدما كانوا مؤمنين، وقد أشار اللون الأبيض في الآية إلى نور الايمان وإشراقه في قلوب المؤمنين ووجوههم، في حين أشار اللون الأسود إلى عتمة الكفر وظلمته في قلوب الكافرين ووجوههم.

من جانب آخر فقد مارس الطباق حضوراً متميزاً في الآية عبر التعابير: «تبيض وجوه» و «تسود وجوه»، «اسودت وجوههم» و (ابيضت وجوههم»، وكان الهدف والقصد الإلهي منه-فيما نرى والله أعلم-هو التنبيه على عظم الفرق بين وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين يوم القيامة، ومن ثم الإشارة إلى فرح المؤمنين وسعادتهم ونعيمهم وعاقبتهم الحسنة، والإشارة إلى حزن الكافرين وشقائهم وعذابهم وعاقبتهم السيئة. كما أن البياض علامة تميز وجه المؤمن يوم القيامة أمام أهل المحشر، والسواد علامة تميز وجه الكافر وتخزيه أمام أهل المحشر، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم.

ويبقى السواد ملازماً لوجوه الكافرين يوم القيامة، إذ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [سورة الزمر: ٦٠]، فقد انمازت وجوه هؤلاء الذين كذبوا على الله، وقالوا بوجود شريك له، أو باتخاذه ولداً، أو غيرها من الأكاذيب، بأنّها مسودّة، وقد وقعت هذه العلامة خبراً، وجاءت بصيغة اسم المفعول؛ لتشير إلى سبب اسوداد الوجوه وأثره وهو فعل الكذب على الله، ولتشير إلى أنّ «اسوداد وجوه الكاذبين يوم القيامة دليل على ذلّتهم وهوانهم وافتضاحهم، وكما هو معروف فإنّ ساحة القيامة هي ساحة ظهور الأسرار والخفايا وتجسيد أعمال الانسان وأفكاره، فالذين كانت قلوبهم سوداء ومظلمة في الدنيا، وأعمالهم وأفكارهم سوداء ومظلمة أيضاً، يخرج هذا السواد والظلام من أعماقهم إلى خارجهم في يوم القيامة، ليطفح على وجوههم التي تكون في ذلك اليوم مسودة ومظلمة»[٢٨]؛ بسبب الحزن والكآبة

(٢٨) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ، ١٥/ ١٢٥.

والقلق النفسي الذي انتابهم لما يرون من صور العذاب الرهيب الذي سيلقونه جزاءً لأعمالهم، وجزاءً لكذبهم على الله.

في سورة يونس لا يصف الحقّ تعالى وجوه الكافرين بأنّها سوداء، بل يعمد إلى طريقة أخرى لوصف وجوه الذين كسبوا السيئات، وذلك بوصفها بأنّها أغشيت قطعاً من الليل مظلماً. قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة يونس: ٢٧]، وهنا، وفي هذا السياق، تبرز العلامتان (الليل) و(مظلماً) لتشيران إلى اللون الأسود، فالليل أسود، والظلام أسود، وبذلك يظهر السواد عبر ملفوظين سرديين لا ملفوظ واحد؛ للدلالة على عمق اللون الأسود الظاهر على وجوههم، والذي شكّل علامة واضحة على فعلهم السيئات وكفرهم، ومن ثمّ خزيهم وافتضاحهم في عرصة المحشر الرهيبة.

إنّ التأمل في الوحدات السيميائية التي تشكل الآية الكريمة يظهر لنا أن الله تعالى يشبّه وجوه الذين كسبوا السيئات، وكأنّها قد أغشيت بقطع من الليل المظلم، فكأنّ الليل الأسود صار قطعاً سوداء متعددة ثم أغشيت وجوههم وامتلأت بهذه القطع، حتى تمكّن السواد من كل وجوههم، ولم يبقِ أي أثر من بياض أو نور فيها كما أنّ الله تعالى لم يكتف بأن يقول: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ بل جاء بكلمة (مظلماً) والتي وقعت حالاً من الليل؛ لكي يعمق وجود السواد في هذا المشهد الأخروي، ويعمق أثره في وجوه الكافرين، فقد أصبحت هذه الوجوه شديدة السواد؛ بسبب ما جناه أصحابها في الدنيا، وبسبب العذاب النفسي والخزي والكآبة وعدم الراحة والذلة التي يشعرون بها في ذلك الموقف العصيب.

تطالعنا سورة عبس بعلامة أخرى من العلامات الدالة على اسوداد وجوه الكافرين يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [سورة عبس: ٣٨-٤٢]،

فقد انمازت وجوه الكافرين بأنّ عليها غبرة وترهقها قترة، أمّا الغبرة فهي «ما يعلق بالشيء من الغبار وما كان على لونه، قال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ كناية عن تغير الوجه للغمّ»[٢٩]. وأمّا القتر فقد تقدم الكلام عليه فيما سبق من البحث، وهو يشير فيما يشير إليه، إلى اسوداد وجوه الكافرين بسبب الغبار والدخان الذي انطبع عليها. قال شهاب الدين الآلوسي: « ووجوه يومئذ عليها غبرة، أي غبار وكدورة، ترهقها أي تعلوها وتغشاها، قترةٌ أي سواد وظلمة، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه»[٣٠]، وهما علامتان فارقتان تميّزان وجوه الكافرين. ثمّ تخبر الآية وتؤكد عبر أسلوب الخبر الذي تمثّل في جملة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ المكوّنة من المبتدأ وضمير الفصل الذي كان غرضه التوكيد والخبر بأنّ أصحاب هذه الوجوه السوداء هم الكفرة الفجرة، وقد اسودت وجوههم؛ بسبب كفرهم وفجورهم.

إنّ هذا المشهد الأخروي يصوّر نوعين مختلفين من الوجوه، وجوه مؤمنة بيضاء منوّرة بنور الايمان وسيمائه، يعلوها الفرح والاستبشار بما أعدّه الله لها من نعيم، ووجوه كافرة مغبرة سوداء مظلمة بظلام الكفر وسيمائه يعلوها الحزن والأسى والكرب والخوف، ويعتصرها الألم النفسي والكآبة، وهنا يبرز التضاد في هذه الصورة ليُظهر التناقض بين طرفيها المتقابلين، وليصوّر لمتلقي النص القرآني طريقي الحق والباطل، أمّا الأول فنهايته بياض الوجوه واستبشارها وحسن العاقبة والجنة. وأمّا الثاني فنهايته سواد الوجوه وعبوسها وسوء العاقبة والنار. ولعلّ من المفيد في هذا الصدد أن نشير إلى أنّ التضاد «مصطلح فلسفي له أبعاد فنية عالية المستوى، ومهمة هذا المصطلح الوظيفية داخل النص إبراز التناقض بين طرفين متقابلين، وهذه الوظيفة لها فائدة في تجلية المعاني؛ لأنّ الحالتين المتضادتين

(٢٩) المفردات في غريب القرآن، مادة غبر، ٣٧١.
(٣٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين الآلوسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ١٥/ ٢٥٢.

إذا اجتمعتا معاً في نفس المدرك كان شعوره بهما أتم وأوضح»[٣١] وكان تلقيه أفضل وفهمه أكبر، فبضدها تتميّز الأشياء.

ترد في [سورة المؤمنون] علامة أخرى من علامات الوجوه المعذّبة يوم القيامة. قال تعالى:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾

[سورة المؤمنون ١٠٣ -١٠٤]، فالكلوح هو اشتداد عبوس الوجه وتكشيره[٣٢]؛ بسبب الخوف والفزع والقلق وشدّة الأهوال التي تقع عليه، وهو «تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان»[٣٣] واضحة للذي يشاهد الانسان الكالح؛ وذلك بسبب تقطّب أعصاب الوجه وتقلصها عند شدّة الخوف والألم[٣٤].

فضلاً عمّا تقدم فإنّ هناك تفسيراً آخر لعلامة الكلوح في وجوه الكافرين، وفي ذلك يقول صاحب تفسير مقتنيات الدرر: «تلفح وجوههم النار، أي تضرب وجوههم وتأكل جلودهم ولحومهم... وهم فيها كالحون، والكلوح تقلّص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان، كما ترى الرؤوس المشوية. وعن النبي ﷺ أنّه قال: تشويه النار فتقلّص الشفة العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرّته»[٣٥]، وبذلك فإنّ هذه العلامة تحمل دلالتين وصورتين من صور الوجوه المعذّبة يوم القيامة، الأولى

(٣١) التضاد في الخطاب القرآني-دراسة أسلوبية، نضال عبد الجبار الخفاجي، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للبنات-جامعة بغداد، ١٤٣٢هـ-٢٠١٠م، ٢.

(٣٢) ينظر: مختار القاموس، الطاهر أحمد الزاوي، الدار العربية للكتاب، د.ط، ١٩٨٣، مادة كلح، ٥٣٥، وينظر: القاموس المقارن لألفاظ القرآن الكريم، د. خالد اسماعيل علي، مؤسسة البديل للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، مادة كلح ٤٦٠.

(٣٣) التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق أحمد حبيب نصير العاملي، مكتب الاعلام الإسلامي، قم، ط١، ١٤٠٩هـ، ٧/ ٣٩٧.

(٣٤) ينظر: تفسير التحرير والتنوير، ١٨/ ١٠٣.

(٣٥) مقتنيات الدرر وملتقطات الثمر، مير سيد علي الحائري، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، د.ط، ١٣٧٨هـ، ٧/ ٣٠٢.

تشير إلى كلوح وجوه الكافرين؛ بسبب حزنهم واضطرابهم وقلقهم النفسي، وكآبتهم، وذلهم وهوانهم في ذلك اليوم، والثانية تصوّر شدّة احتراقهم بالنار، وشدّة تأثر وجوههم بلهبها حتى انكمشت جلودها وتقلّصت وبان أثر الاحتراق عليها وتكشرت أسنانها وانكشفت، وهما صورتان تمارسان ترهيبا واضحاً للانسان، والهدف والقصد الإلهي منهما هو ترهيب الانسان من المصير الذي ينتظره إذا ما بقي على كفره وجحوده، أمّا إذا اهتدى إلى سبيل ربّه فإنّ جزاءه الفوز والفلاح في الجنان، وهذا ما صرّحت به الآية التي سبقت الآيتين اللتين نحن بصدد الحديث عنهما. قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[سورة المؤمنون: ١٠٢].يصف الله سبحانه في سورة القيامة وجوه الكافرين بأنّها باسرة. قال تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [سورة القيامة: ٢٢-٢٥]. والبسور من البَسر وهو «الاستعجال بالشيء قبل أوانه... وقوله عزّ وجل: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي أظهر العبوس قبل أوانه وفي غير وقته، فإن قيل: فقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ليس يفعلون ذلك قبل الوقت وقد قُلت: إنّ ذلك يقال فيما كان قبل الوقت قيل: إن ذلك إشارة إلى حالهم قبل الانتهاء بهم إلى النار، فخصّ لفظ البُسر؛ تنبيهاً أنّ ذلك مع ما ينالهم من بُعد يجري مجرى التكلّف ومجرى ما يُفعل قبل وقته»[٣٦]. وبهذا فإنّ كلمة (باسرة) تحمل معنى دقيقاً، وعلامة واضحة هي ظهور الحزن والغم، وآثار القلق والتعب النفسي والخوف من القادم المجهول في وجوههم «معجلاً قبل الإخبار عنه»[٣٧] وقبل رؤيته، كما أنّ علامة البسور في الوجوه تصور ردّ فعل الكافرين قبل وقوع العذاب عليهم، فإنّهم عندما ينظرون صحائف أعمالهم المليئة بالسيئات، والخالية من الحسنات فإنّهم سوف يتحسسون العذاب القادم إليهم ويستشعرون علاماته، وهذا التحسس والاستشعار سوف يؤدي بهم إلى الخوف والحزن والندم والحسرة، فتعبس وجوههم

(٣٦) المفردات في غريب القرآن، مادة بسر، ٥١.
(٣٧) التبيان في تفسير القرآن، ١٠/ ١٩٧.

وتظهر علامات الأسى والحسرة عليها قبل وقوع العذاب عليهم.

لقد حفل هذا الشمهد الأخروي بالتضاد المتمظهر في صورتيه المتقابلتين فالصورة الأولى تصوّر وجوه المؤمنين المنعّمة، والصورة الثانية تصوّر وجوه الكافرين المعذّبة، وعلى الانسان أن يتأمل في هاتين الصورتين المتناقضتين، فهي دعوة، عبر مشهدين تصويريين رائعين من مشاهد القيامة، إلى خليفة الله في الأرض، لكي ينعم النظر فيهما ويتأملهما، ويختار طريق الايمان والصلاح الذي يمثله المشهد الأول، ويبتعد عن طريق الكفر والضلال الذي يمثله المشهد الثاني.

تظهر في سورة الغاشية ثلاث علامات للوجوه المعذّبة يوم القيامة. قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [سورة الغاشية: ١-٤]، فمن صفات هذه الوجوه أنّها خاشعة ذليلة تعلوها سيماء الهوان والخزي والفضيحة والخسران؛ بسبب الأهوال التي تشاهدها، والعذاب الذي يغشاها، «فأصحابها يشاهدون الويلات والشدائد والأهوال، ويكونون خاضعين لما يراد بهم، أذلة لما يغشاهم»[٣٨] مكسوري النفوس لما يصيبهم. وقد ظهر هذا الانكسار النفسي في وجوههم؛ لأنّ الوضع النفسي للانسان تظهر آثاره في وجهه.

ومن صفات هذه الوجوه انها عاملة من العمل، وناصبة من النصب أي التعب، وقد أشارت هاتان الصفتان إلى مجموعة دلالات ومعانٍ «أحدها: إنّ المعنى عاملة في النار ناصبة فيها عن الحسن وقتادة قالا: لم يعمل لله سبحانه في الدنيا فأعملها وأنصبها في النار بمعالجة السلاسل والأغلال... وثانيها: أن المراد عاملة في الدنيا بالمعاصي، ناصبة في النار يوم القيامة، عن عكرمة والسدي، وثالثها: عاملة ناصبة في الدنيا يعملون وينصبون ويتعبون على خلاف ما أمرهم الله تعالى به»[٣٩]. إنّ صفة العاملة توحي بالعمل

(٣٨) الجديد في تفسير القرآن، محمد السبزواري النجفي، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٤٠٢ هـ، ٧/ ٣٥٧.

(٣٩) مجمع البيان في تفسير القرآن، ٥/ ٤٧٦.

والجهد الذي بذله هؤلاء الكفار في الدنيا، وصفة الناصبة تشير إلى التعب والارهاق الذي أصابهم فقد عملوا وتعبوا وعاشوا الارهاق الجسدي بكل أنواعه، إلا أنّهم لم ينالوا نتائجه المرضية، لأنّ عملهم لم يكن لله، بل عملوا لإرضاء أنفسهم الأمارة بالسوء، ولإرضاء نزواتهم وغرائزهم، ولهذا «فإنّ ملامح وجوههم في يوم القيامة هي ملامح الوجوه التي أرهقها العمل وأذواها النصب، فلا تنبض بأية حيوية، ولا توحي بأي اشراق»[٤٠] بل هي مظلمة خائفة توحي بالانكسار النفسي والتعب الجسدي الذي أصاب أصحابها.

يظهر لنا مما تقدم أن وجوه الكافرين المعذّبة يوم القيامة امتازت بعلامات مازتها عن غيرها من الوجوه، فقد امتازت بالسواد والكلوح والعبوس والخشوع والذل والهوان والتعب، وغيرها من الصفات، وقد أشارت علامات الوجوه هذه إلى خوف أصحابها وقلقهم وترقبهم وحزنهم وذلهم وهوانهم، كما أشارت إلى الحالة النفسية المزرية التي يعيشونها في عرصة المحشر الرهيبة وإلى التعب النفسي الذي أرهقهم. وإلى الاحساس بالخسران المبين الذي ما بعده خسران.

(٤٠) من وحي القرآن، ٢٤/ ٢٥٢.

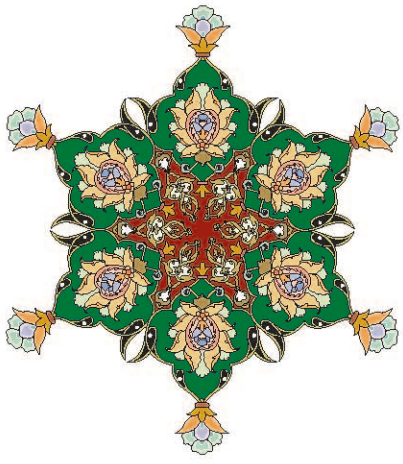

الصراط والسبيل في القرآن الكريم

الشيخ الدكتور عباس كاشف الغطاء
النجف الأشرف

ملخص البحث

قدم السيد الباحث لبحثه بمقدمة مقتضبة بيّن فيها أن في هذا البحث محاولة للاستفادة من القرآن الكريم لدعم وحدة المسلمين بعد ذلك عرّج على تعريف الصراط والسبيل لغةً وعند المفسرين ومعنى الاستقامة وقرر أن للصراط المستقيم ركنين هما: الاعتقاد الصحيح، والعمل بالشريعة.

ثم بحث مراتب وجود الصراط المستقيم وتبدأ بمرتبة البيان وإتمام الحجة ثم مرتبة الاعتقاد، تليها مرتبة العمل ثم يبحث في خصائص اصحاب الصراط المستقيم فيجملها في خمس خصائص.

وفي مبحث (مصاديق الصراط المستقيم) يقرر السيد الباحث أن له عدة جدات؛ منها: الوجود اللفظي والوجود العملي والوجود الاخروي.

المقدمة

الحمد لله الذي أنعم علينا بالصراط المستقيم والصلاة والسلام على الدليل إليه محمد سيد المرسلين وعلى آله سبل الحق الذين عن الحق لا يعدلون.

وبعد:

فهذه محاولة للاستفادة من كتاب الله العزيز لوحدة المسلمين وعدم تكفير بعضهم بعضا، وذلك لأن سبل المؤمنين متعددة فلكل مؤمن سبيل إلى الله تعالى يقربه إليه فهناك سبيل الأبرار، وسبيل المتقين، وسبيل المخبتين، وسبيل الزاهدين، وسبيل الصابرين، وجميعها تصب في الصراط المستقيم، فكل مسلم اتخذ مذهباً معيّناً يعتقد بأن هذا السبيل هو الأكمل والأفضل في قربه إلى الصراط المستقيم، وإن أصحاب سبل الحق يعتقدون أنّ كل مؤمن بالله واليوم الآخر فهو من أصحاب الجنة ولا يخلد في النار إلاَّ المشركون المعاندون.

ولأهمية الصراط المستقيم فقد تكرر لفظ الصراط في سورة الفاتحة التي نقرؤها في كل صلاة مرتين إذ لا صلاة إلاَّ بفاتحة الكتاب، وقد بيّن الله تعالى الصراط المستقيم بنفسه لأن صراطاً يكون مبدؤه من الله تعالى ومنتهاه إليه كيف يمكن وصفه؟ فلا يقدر المخلوق أن يصفه إلاَّ بما وصفه الخالق في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ فمن يقدر أن يحدَّ هذه النعمة العظمى التي هي أجل مواهب الله تعالى في الدنيا والآخرة. وبما أن الإنسان يحتاج إلى أن يمثّل له بمصداق في الواقع يقتدي به، وهو المصداق إلى الصراط المستقيم المتجسّد فيه طلباً للهداية إلى الصراط المستقيم، فقد حددت الروايات الشريفة المصداق العملي للصراط المستقيم.

وقد تناولت في بحثي تعريف الصراط والسبيل لغة وعند المفسرين ومعنى الاستقامة، ثم تطرّقت إلى ركني الصراط المستقيم من علم وعمل ومراتب وجوده ومميزاته والفرق بينه وبين السبيل والحاجة إليه، ثم أوضحت خصائص أصحاب الصراط المستقيم والانحراف عن الصراط المستقيم. وفي ختام بحثي تكلمت عن مصاديق الصراط المستقيم.

تعريف الصراط لغة

هو الطريق المستقيم. والصاد فيه منقلبة عن السين وقُلبتْ صاداً لأجل الطاء وهي اللغة الفصحى لغة قريش، ويجمع في الكثرة على صُرُطٍ ككتاب وكتب وفي القلة قياسه أصْرُطٌ. فالسراط بالسين الجَادَّةُ مِنْ سَرَطَ الشيءَ إذا ابتلعه لأنه يسرط المارة إذا سلكوه مأخوذ من سرطت سرطاً إذا بلعت بلعاً، وسرط الطعام إذا ابتلعته، وكأنه يبلع سالكيه فلا يدعهم يخرجوا عنه، ولا يدفعهم عن بطنه. ويستوي فيه المذكر والمؤنث كالطريق والسبيل. قال الجوهري: الصراط والسراط والزراط: الطريق[1]، وهو ما يتوصّل به بالسير إلى المقصود. وقد يكون غير حسي فيقال: الاحتياط طريق النجاة، وإطاعة الله طريق الجنة. وإطلاقه على الطريق غير الحسي، إما لعموم المعنى اللغوي وإما من باب التشبيه والاستعارة.

تعريف السبيل لغة

السبيل: الطريق الذي فيه سهولة، يذكر ويؤنث والتأنيث فيها أغلب، وجمعه سبل، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة النحل:١٥]، وقال تعالى: ﴿لَيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [سورة الزخرف:٣٧] يعني به طريق الحق. لأن اسم الجنس إذا أطلق يختص بما هو الحق وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[سورة عبس:٢٠] وفي النزيل العزيز كل سبيل أريد به الله عزَّ وجل وهو برٌّ فهو داخل في سبيل الله.

وقيل لسالك السبيل: سابل وجمعه سابلة، وابن السبيل المسافر البعيد عن منزلة ولا يجد ما يتبلغ به فله من الصدقات نصيب ونسب إلى السبيل لممارسته إياه.

ويستعمل السبيل لكل ما يتوصل به إلى شيء خيراً كان أو شراً، كقوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة الأنعام:٥٥]. وسبل السلام أي طريق الجنة[2]. وإذا نسب السبيل إلى الله فهو طريق إلى طاعته. كقوله تعالى ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[سورة التوبة:٦٠] فيما لله فيه طاعته.

(١) لسان العرب: ٢/ ٤٣٠؛ المفردات: ٤١٢، ٣٣٧.

(٢) لسان العرب/ ٢/ ٩١، المفردات: ٣٢٧.

مُّسْتَقِيمٍ﴾[سورة الزخرف:٦١]. فجعل أتباع النبيﷺ هو الصراط المستقيم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ [سورة المؤمنون:٧٣-٧٤].

وجميع هذه الآيات المباركة بيان لأمر واحد وهو الدين الذي أراده الله تعالى لخلقه وعبر عنه بالنور في الآيات الكثيرة(٥).

السبيل عند المفسرين

هو الطريق الموصل إلى الصراط، واختلاف السبل لا يوجب اختلافاً في أصل الصراط، فمثل الصراط المستقيم والسبل المؤدية إليه مثل البحر وما يتفرع عنه من الجداول، فالبحر يفيض على الكل، والكل مستفيض من البحر، وكلها موصوفة بالاستقامة والرشاد وبإزائها الاعوجاج والانحراف، والسبل المنحرفة المتفرقة هي سبل الشيطان. قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾[سورة الأنعام:١٥٣] أي الأديان المختلفة والطرق التابعة للهوى(٦).

معنى الاستقامة

الاستقامة: هي الاستواء أو الاعتدال في مقابل الانحراف والاعوجاج، وإن الاستقامة تعم الاعتقاد والملكات والخواطر النفسانية وأعمال الجوارح من العبادات والمعاملات والمجاملات فإنها إن طابقت مع رضاء الله تبارك وتعالى كانت مستقيمة وإلاَّ فهي منحرفة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[سورة آل عمران:١٠١]. فالاستقامة لا تحصل في جميع الموجودات إلاَّ إذا طابقت مع ما جعله الله تعالى لها في النظام الأحسن وإلاَّ خرجت عن الاستقامة(٧).

ركنا الصراط المستقيم

للصراط المستقيم ركنان:

الأول: الاعتقاد الصحيح أي الإيمان الصحيح ولا يتم إلاَّ بالعلم، فالذين أخلوا بالاعتقادات الصحيحة هم من أهل البدع

(٥) البيان ٥١٨؛ سفينة الراغب: ٣٥٦؛ مواهب الرحمن ١/ ٤٢.

(٦) البيان ٥١٨؛ مواهب الرحمن ١/ ٤٢.

(٧) مواهب الرحمن ١/ ٤٢؛ البيان ٥١٨.

والكفر وهم الضالون.

الثاني: العمل بالشريعة، فالذين أخلوا بالشريعة هم المغضوب عليهم.

إن القرآن الكريم بيّن ركني الصراط المستقيم وهما العلم والعمل وبمجموعهما يكون الصراط المستقيم، وأمّا إذا لم يجتمع هذان الركنان بل كان أحدهما أو كلاهما يشوبهما نقص كان هذا سبيلا. وإن كل سبيل بمقدار ما يتضمنه من علم وعمل يحدد قربه من الصراط المستقيم. فكلما كان السبيل يتضمّن أكثر علماً وعملاً كان أقرب إلى الصراط المستقيم والعكس بالعكس.

فالمؤمن يطلب الهداية إلى الصراط المستقيم وذلك لهدايته من سبيل إلى سبيل أعلى وأقرب إلى الصراط المستقيم نظير العالم الذي يطلب من الله مزيداً من العلم بقوله ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ مع أنه عالم لأن علم الله لا منتهى له. فكذلك كل سائر في سبيل يطلب الهداية إلى سبيل آخر أكمل وأقرب إلى الصراط المستقيم[٨].

مراتب وجود الصراط المستقيم

للصراط المستقيم مراتب من الوجود:

الأولى: مرتبة البيان وإتمام الحجة وهي من الله تبارك وتعالى وأنبيائه العظام وأوصيائه عليهم أفضل الصلاة والسلام، ويدخل في ذلك جميع الشرائع الإلهية والرسالات السماوية.

الثانية: مرتبة الاعتقاد.

الثالثة: مرتبة العمل.

والمرتبتان الثانية والثالثة من وظائف العبد إلاّ أن الثانية أشقهما عليه.

الرابعة: مرتبة ظهور الصراط في النشأة الآخرة، وهذه المرتبة للصراط في يوم القيامة الذي لابد من العبور عليه للوصول إلى محل الخلود، فالعبور وضعي لا أن يكون تكليفياً إذ لا تكليف في يوم القيامة وإن اختلف زمان العبور وكيفيته تبعاً لاختلاف درجات العابرين ومعنوياتهم[٩].

مميزات الصراط المستقيم

١-وصف الله تعالى الصراط بالاستقامة غالباً بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة:٦]، وقوله ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

(٨) سفينة الراغب ٣٥٦.

(٩) مواهب الرحمن ١/ ٤٨.

[سورة يس:٦١]. وقد أضيف الصراط إليه تعالى بأنحاء الإضافة كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة الأنعام:١٢٦]، وقوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾[سورة الشورى:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [سورة ابراهيم:١]. ولم يضف الصراط إلى غير الله تعالى إلاَّ نادراً بخلاف السبيل فإنه أُضيف إلى غيره تعالى كثيراً.

٢-ان الصراط لا يسلكه إلاَّ الذين أنعم الله تعالى عليهم بالهداية، فهو غاية العبادة، فإن عبادة العبد تقع خالصة إذا سلك الصراط. قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[سورة الفاتحة:٧]، فأصحاب الصراط المستقيم مُنْعَمٌ عليهم بنعمة هي أرفع النعم قدراً، فهم ركّبوا صراط لا يقع فيه شرك ولا ظلم البتة، كما لا يقع فيه ضلال البتة لا في باطن الجنان من كفر أو خطور لا يرضى به الرحمن، ولا في ظاهر الجوارح والأركان من فعل معصية أو قصور في طاعة. وهذا هو التوحيد الحق علماً وعملاً لا ثالث لهما.

٣-الصراط المستقيم هو الطريق إلى الدرجات العالية أي إلى العلو، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[سورة المجادلة:١١]، بينما المغضوب عليهم طريقهم إلى السفل. قال تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾[سورة طه:٨١]. والهوي هو السقوط إلى الأسفل.

٤-الصراط المستقيم ما لا يتخلّف حكمه في هدايته وإيصال سالكيه إلى غايتهم ومقصدهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[سورة النساء:١٧٥]، أي لا يتخلف أمر هذه الهداية.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [سورة الأنعام:١٢٥-١٢٦]. أي الطريقة التي لا تختلف ولا تتخلّف. قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى

﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[سورة الحجر:٤١-٤٢]، أي هذه سنتي وطريقتي دائماً من غير تغيير.

٥-الصراط المستقيم لا يجامع الضلال. قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [سورة الفاتحة:٧]، بينما الإيمان يجامع الضلال بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [سورة يوسف:١٠٦]، فبين أن من الشرك هو الضلال ما يجتمع مع الإيمان(١٠).

٦-إن الهداية إلى الصراط المستقيم نعمة لا تعطى كلَّ أحد فهي عطية خاصة من الله تعالى. ولما كان الصراط المستقيم هو أقرب الطرق الموصلة إلى الله تعالى فكلما قرب الإنسان من الصراط المستقيم يسمو ويعلو حتى يصبح أفضل من الملك المقرّب، وقد يصل إلى مقام لا يصل اليه حتى الملك المقرّب، وكلما ابتعد عن الصراط المستقيم تسافل في القوة الشهوانية والضلال حتى قد يصبح أسوأ من إبليس.

٧-لقد أنعم الله تعالى على الأمم السابقة بالصراط المستقيم وذلك مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٨-إن الصراط جاء بلفظ الإفراد في القرآن الكريم بينما جاء لفظ السبيل بالجمع والإفراد فإن عبادة الله لا تنحصر في نوع معين بل تعم أفعال الجانحة وأفعال الجارحة على كثرتها فقد يلاحظ المعنى العام الشامل لهذه الأفعال كلها فيعبّر عنه باللفظ المفرد كالصراط المستقيم والصراط السوي، وقد تلاحظ الأنواع على كثرتها من الإيمان بالله وبرسوله وبالمعاد، ومن الصلاة والصيام والحج وما سوى ذلك فيعبّر عنها بالجمع، كقوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[سورة المائدة:١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [سورة إبراهيم:١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت:٦٩].

٩-إن الصراط المستقيم أصل الكمالات، وتنبعث منه سائر الكمالات في المخلوقات، فلا يدرك عظمته ولا يتصور

(١٠) تفسير الميزان ١/ ٣١.

فيه نقص، وتنطوي فيه جميع المعارف الإلهية، وما يتصور فيه الاشتداد والضعف إنما هو من ناحية المتعلق. فالصراط المستقيم حقيقته واحدة كالنور وله مراتب وتختلف آثاره على متعلقه من حيث المراتب.

١٠-ان الصراط المستقيم مهيمن على جميع السبل فكذلك أصحابه مهيمنون على أصحاب السبل.

١١-إن كل سبيل قريب إلى الحق بمقدار ما يتضمنه من مميزات وخصوصيات الصراط المستقيم، فالسبيل موصل إلى الحق بقيد وشرط ما تضمنه من نعوت وخصوصيات الصراط المستقيم، بينما الصراط المستقيم موصل إلى الحق من دون قيد أو شرط، فالصراط المستقيم غايته موصلة إلى مليك مقتدر أي القرب الإلهي، بينما السبيل طريق موصل غايته إلى السعادة الأبدية هي الدخول إلى الجنة بقيد وشرط وجود صفات الصراط المستقيم فيه.

الفرق بين الصراط والسبيل في القرآن الكريم

١-إن القرآن الكريم أفرد الصراط المستقيم بخلاف السبيل، فقد ورد بالجمع والمفرد، فالصراط واحد والسبيل متعدد. وإن صيرورة الصراط المستقيم واحداً لأن الإنسان متحرك وسائر إلى الله تعالى، والحركة فيها مبدأ ومنتهى، وأقرب الطرق بين المبدأ والمنتهى هو الخط المستقيم وهو الصراط المستقيم وهو أقرب الطرق إلى الله تعالى، وأقرب الطرق لا يتعدد بل هو طريق واحد فلم يَنْسِبِ اللهُ سُبْحانَهُ وَتعالى إلى نَفْسِهِ أزيد من صراط واحد. بينما السبل متعددة وليست هي أقرب الطرق إلى الله تعالى.

٢-إن الله سبحانه وتعالى لم ينسب الصراط المستقيم إلى غيره إلاَّ في هذه الآية الكريمة ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾ وهذا الاستثناء على نحو التخصيص أو التخصص، فالاستثناء هنا ليس مُتَّصِلاً، كما ليس هنا صراطان صراط الله وصراط الذين أنعمت عليهم، بل هو صراط واحد لكن هنا لبيان المتعلق أي صراط الله هو صراط الذين أنعمت عليهم.

بينما عدَّ الله سبحانه وتعالى لنفسه سبلاً كثيرة فقال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهدِيَنَّهُم سُبُلَنَا﴾ [سورة

العنكبوت:٦٩]، كما نسب السبيل إلى غيره من خلقه، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [سورة يوسف:١٠٨]، وقال تعالى﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾[سورة لقمان:١٥]، وقال تعالى: ﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة النساء:١١٤].

٣-إن الصراط المستقيم مقصده الحق ويؤدي إلى الجنة، بينما السبل قد تؤدي إلى الجنة فيما إذا صبت في الصراط المستقيم، قوله تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت:٦٩]، وقد تؤدي إلى الجحيم فيما لو كانت لا تصب في الصراط المستقيم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[سورة الأنعام:١٥٣]. فالصراط والسبيل ليس كل منهما في قبال الآخر بل هنالك نحو علاقة وارتباط. وهذه العلاقة لها احتمالان:

الأول: الصراط المستقيم هو الطريق الواسع الكبير وسبل الحق هي الطرق الفرعية المؤدية إلى الطريق المستقيم، وذلك من خلال اتصال بعضها إلى بعض واتحادها فيه.

الثاني: إن الصراط المستقيم هو نفس سبل الحق الكثيرة. وهذا ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي[١١]، ومعنى هذا أن الصراط المستقيم موجود في كل سبل الحق، ولكن بدرجات مختلفة، ومثاله كالعالم بكل العلوم يتخرج منه الفقهاء والنحويون والأطباء والفلاسفة وغيرهم، فالعالم مثال الصراط المستقيم والمتخرجون من تلامذته هي السبل فكل سبيل يمثل الصراط المستقيم في صفته كما أن الفيلسوف يمثل العالم في فلسفته والنحوي يمثل العالم في نحوه وهكذا.

٤ـ الصراط المستقيم لا يشوبه ظلم أو ضلال أو شرك وهو الطريق الخالص المنزّه علماً وعملاً إلى الله سبحانه وتعالى فسمى العبادة صراطاً مستقيماً لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [سورة يس:٦١]، وسمي الدين صراطاً مستقيما لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [سورة الأنعام:١٦١]، بينما كل السبل يشوبها ظلم أو شرك أو ضلال، أو يجامع شيئاً من النقص أو آفة لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ

(١١) تفسير الميزان ١/ ٣٥.

﴿أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [سورة يوسف:١٠٦]، لذا هي تعدد بحسب الدرجات فإذا أراد الإنسان أن يعلم كم درجة هو قريب من الصراط المستقيم فلابد أن ينظر إلى سبيله، فللسبيل مراتب كثيرة من جهة خلوصه وشوبه وقربه وبعده من الصراط المستقيم.

الحاجة إلى الصراط المستقيم

إن الصراط لا يكون صراطاً إلاَّ بمرور المارَّةِ عليه، وإن الخلائق كلها متوجهة شطر الحق تَوَجُّهاً غريزياً وحركة جِبِلِّيَّةً نحو مسبب الأسباب، وفي هذه الحركة الجبلية لا يتصور في حقهم الضلال والانحراف عمّا عيّن الله لكل منهم، والله آخذٌ بناصيتهم كما قال الله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة هود:٥٦].

فكل دابة أخذ الله عزَّ وجل بناصيتها وعليه رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة هود:٦] فتكون مفطورة على المشي على نهج الاستقامة من غير ضلال.

وأمّا مسمى الإنسان فسنخ وجود متحرك لا ساكن، والحركة من خصائصها فيها مبدأ وفيها منتهى كما وصفه القرآن المجيد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [سورة الانشقاق:٦] أي مسافر، أي لابد من وجود مبدأ ومنتهى، فلابد من هذا السفر من صراط يبدأ به حركته وينتهي به، فالصراط المادي يبدأ بنطفة ثم علقة ثم أنشأهنَّ خلقاً آخر من صبي ثم مميز ثم بالغ مكلف ثم هرم ثم أرذل العمر وهكذا إلى منتهاه الموت ثم الحشر ثم البعث، وهذا هو السفر المادي.

وأمّا سفره المعنوي وهو إلى الله تعالى يصل به كما وصل رسولنا الأعظم إلى قاب قوسين أو أدنى، ثم درجات درجات. وهذا السفر يحتاج إلى صراط، فالمؤمن يسلك هذا الصراط فيلاقي ربه في الجنة. لذا جعل القرآن الكريم أفضل الطرق للوصول إلى الله تعالى هو الطريق المستقيم وهو لا يتخلف ولا يختلف أي لا يتغير أمره وشأنه وحكمه في هداية سالكيه إلى غايتهم ومقاصدهم.

ولما كان للإنسان الاختيار المخالف للطبع فيه، ومزاحمة قوة الوهم التي تعتريه يتصور في حقه الضلال والغواية والنكال والغباوة من جهة حركاته الاختيارية الموروثة له قرباً أو بعداً من الله المثمرة له سعادة أو شقاوة في الدار الآخرة. فيحتاج إلى من يهديه ويذكر له العهد القديم ويثبته على الصراط المستقيم فالهادي هو الله بالحقيقة بواسطة الكتاب العزيز والرسول ﷺ ومن يقوم مقامه من الأئمة الهداة عليهم السلام، فيختص الإنسان من بين سائر المخلوقات بأن هداه الله بالهدايتين التكوينية والوضعية من جهة حركتيه الاضطرارية والاختيارية، وجمع لأجله بين الدعوتين العامة والخاصة، وشرع له الشريعتين، وساسه بالسياستين المطبوعة والمجعولة، وأوجب عليه الحكمين التكويني والتدويني وذلك لاشتماله على مبدأ الحركتين الذاتية والإرادية.

والحركة الإرادية للإنسان إلى الله فهي حركة في الكيف النفساني معدة له في سرعة اللحوق له إلى الله من جهة استكمال كلا جزئيه العملي والعلمي بواسطة الأفكار والأذكار الملطفة له والأعمال والأفعال المقربة إياه إلى الله، وجنس هذه الحركة مما يتطرق فيه الصواب والخطأ والاستقامة على الصراط والضلال، وهذا بخلاف الحركة الأولى لكونها جوهرية ذاتية متوجهة شطر كعبة الحق لا يتصور فيها الخطأ والانحراف ولا يكون إلاَّ على وجه الصواب والاستقامة ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [سورة البقرة:١٤٨] إشارة إلى الحركة الذاتية الغريزية الشوقية المفطورة عليها الكائنات، وقوله تعالى ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ إشارة إلى الحركة الاختيارية الإرادية للإنسان التي بها يقع الاستباق للخيرات[١٢].

فالحاصل أنَّ الجميع سائرون إلى الله سبحانه وتعالى، ثم إن الطريق أو السبيل ليس سبيلاً واحداً ذا نعت واحد بل هو منشعب إلى شعبتين منقسم على طريقين، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [سورة يس:٦٠-٦١] فوصف الله تعالى

(١٢) تفسير صدر المتألهين: ١/ ١٠٥.

الذين لا يؤمنون سبلهم بعيدة عن الله تعالى وعن الصراط المستقيم، فقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سورة فصّلت:٤٤]، وأمّا الذين آمنوا بالله وركبوا الطريق المستقيم فإن الله قريب منهم قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [سورة البقرة:١٨٦].

خصائص أصحاب الصراط المستقيم

١-إن أصحاب الصراط المستقيم موحدون حق التوحيد علماً وعملاً لا يشوب باطنهم وظاهرهم شرك وضلال وظلم.

٢-إنَّ أصحاب الصراط المستقيم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إن تساووا في العمل فهم يختلفون في المراتب بحسب العلم كما تشير الآيات الكريمة.

٣-إن أصحاب الصراط المستقيم يتركون المعاصي لأن المعصية لا توافق طبعهم فهم يعلمون باطن الإثم وظاهره، وكذلك العمل الواجب موافق إلى طبعهم فالتكاليف لم تكن مشقة عليهم.

٤-إنَّ أصحاب الصراط المستقيم مهيمنون على أصحاب السبل كما أن الصراط المستقيم مهيمن على السبل.

٥-أصحاب الصراط المستقيم هم الكاملون المحقون المخلصون، وهم الذين جمعوا بين معرفة الحق لذاته والخير لأجل العمل به[١٣].

الانحراف عن الصراط المستقيم

الانحراف عن الصراط المستقيم وقوع في الظلمات التي لها أنواع كثيرة يجمعها قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [سورة الفاتحة:٧]، وذكر تعالى المغضوب عليهم والضالين بعنوان الجمع إشارة إلى التعدد والاختلاف وعدم الوحدة فيه، بخلاف الصراط المستقيم فإنه واحد لا تعدد فيه بوجه، وهو النور الذي لم يستعمل في القرآن إلاَّ مفرداً. كقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [سورة النور:٣٥]. بخلاف الظلمات بالجمع قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ

(١٣) سفينة الراغب ٣٥٦.

كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[سورة البقرة:٢٥٧].

فالنور والصراط المستقيم لا يعقل التعدد فيه لأن مبدأه منه تعالى، كما أنَّ بقاءه به ومنتهاه إليه، بخلاف الظلمات فإنها مختلفة حسب الاعتقادات والأهواء الباطلة، قال تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف:١٧]، وقد انحرفت اليهود عن الصراط المستقيم وذلك من خلال تحديد أبعاد الصراط المستقيم بذكر ثلاثة أبعاد وحدود له في سورة الفاتحة، ومن خلالها يمكن أن نفهم معنى الصراط مصداقاً، ففي قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فالأبعاد هي النعمة، وغير المغضوب عليهم، ولا الضالين.

وبقرينة بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن نزول الغضب الإلهي على اليهود مثل قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة:٦١]، وأضاف إليهم بعض المشركين والمنافقين لهذه القرينة حيث وردت في القرآن الكريم الإشارة إلى نزول الغضب على المنافقين والمشركين أيضاً، مثل قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[سورة الفتح:٦].

مصاديق الصراط المستقيم

إنَّ الصراط المستقيم له عدة جِدات:

أولاً

الوجود اللفظي للصراط المستقيم

إن العمل بالشريعة الإسلامية هو السلوك في الصراط المستقيم اللفظي، فالصراط المستقيم ديناً قيماً، فالدين الوجود اللفظي للصراط المستقيم. وهذا هو المعنى الروائي للصراط المستقيم الدنيوي ففي تفسير فرات الكوفي روي عن رسول الله ﷺ قال في قوله عزَّ وجل ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾: (دين الله الذي نزل به جبرائيل -على محمد بن عبد الله ﷺ[١٤]. وقال صاحب جوامع

(١٤) تفسير فرات الكوفي ١/ ٥١.

الجامع: (وسمي الدين صراطاً لأنه يؤدي بمن يسلكه إلى الجنة، كما أنَّ الصراط يؤدي بمن يسلكه إلى مقصده)[١٥].

وقيل معنى الصراط المستقيم العبادة لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾، والقرآن يفسّر بعضه بعضاً[١٦]. وأوضح صدر المتألهين بأن الصراط المستقيم هو الطريق الحق من ملة الإسلام[١٧]، باعتباره الممثل لمنهج الاستقامة بكل معانيه.

وروي عن النبي ﷺ والإمام علي- وابن مسعود: (أن الصراط المستقيم هو كتاب الله)، وقيل: (إنه الإسلام) وهو المروي عن جابر وابن عباس، وقيل (إنه دين الله الذي لا يقبل غيره) وهو المروي عن محمد بن الحنفية[١٨].

وقال بعضهم بأن المقصود به هو كل ما يوصل إلى الله، ويكون طريقاً وهادياً إليه، فإذا فسّرنا الإسلام بهذا فيكون المقصود هو، وإذا أريد من الإسلام أضيق من هذا فحينئذٍ لابد أن يصدق الصراط المستقيم على الإسلام وغيره[١٩].

ثانياً

الوجود العملي للصراط المستقيم

لابد للإنسان في الاعتقاد والإدراك لمفهوم الفضيلة والخير أن يمثل له بمصداق في الواقع يقتدي به، فما هو المصداق للصراط المستقيم المتجسّد فيه؟ فإمّا إذا كان الصراط المستقيم ليس له مصداق أصبح من القضية الخيالية فيكون الدعوة إليه عبثاً. وقد أوضحت الروايات الشريفة المصداق العملي للصراط المستقيم وهم النبي ﷺ والأئمة المعصومون القائمون مقامه عليهم السلام وذلك لأن الصراط المستقيم لا يسانخه ظلم ولا شرك ولا ضلال وليس له مصداق إلاَّ العصمة من أهل بيت النبوة عليهم السلام وتشير الروايات إلى ذلك:

١- فقد روى المفضل بن عمر قال: سألت الإمام أبا عبد الله الصادق- عن الصراط فقال: (هو الطريق إلى معرفة الله عزَّ وجل وهما صراطان: صراط الدنيا وصراط الآخرة، فأما

(١٥) جوامع الجامع ١/ ٨.
(١٦) روح المعاني ١/ ٩٢.
(١٧) صدر المتألهين ١/ ١٠١.
(١٨) مجمع البيان ١/ ٥٩.
(١٩) تفسير سورة الحمد ٢٢١.

الصراط الذي في الدنيا فهو الإمام المفترض الطاعة فيمن عرفه في الدنيا واقتدى به، مرَّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة ومن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدمه على الصراط في الآخرة فتردى في نار جهنم)، لما روي عنه أيضاً قال: (الصراط المستقيم هو محمد وأهل بيته عليهم السلام)[٢٠].

وروي عن ابن عباس أنَّ الصراط المستقيم هو حب محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام[٢١].

٢- وروي عن الإمام سيد العابدين علي بن الحسين-قال: (نحن أبواب الجنة ونحن الصراط المستقيم).

وذكر صاحب روح المعاني أن المروي من مصاديق الصراط المستقيم مسند الى يعسوب المؤمنين (علي) كرم الله وجهه وابي كعب (رض)[٢٢].

فإذا قلنا (اهدنا الصراط المستقيم) وكان الصراط المستقيم هو فكر الإمام علي فيعني اهدنا للكمالات الموجودة فيه لأنه مجمع الكمالات، فالهداية هنا ليست بنحو الموضوعية بل بنحو الطريقية، فعندنا الصراط المستقيم مفهوماً ومصداقاً، وهذا المصداق لا يشخّصه إلاَّ الوحي، وذلك لأننا لا نقدر التشخيص علماً وإنْ قلنا باستطاعتنا التشخيص عملاً بما أن ركني الصراط المستقيم العلم والعمل. ومن المعلوم لم يدَّع أحد أنه مصداق للصراط المستقيم إلاَّ الأمام علي بن أبي طالب -، والإمام علي-صادق في دعواه. فتستطيع أن تقيس علمك وعملك بمقدار ما أنتَ مقترب من الإمام علي-علماً وعملاً تكون أنتَ مقترباً إلى الصراط المستقيم، فعندما توصف الروايات الشريفة بأن الإمام هو الصراط المستقيم أو هو ميزان الأعمال أي بمقايسة علمك وعملك إلى علم وعمل الأمام-فإن كان هو هو، فأنت على الصراط المستقيم وإن لم يكن هو هو، فأنت منحرف عن الصراط المستقيم. ثم إن المعنى الروائي للصراط المستقيم هو من التعبير عن الكلي بالفرد وبيان أحد المصاديق أو أظهر المصاديق، وهذا كثير موجود في

(٢٠) مواهب الرحمن ١/ ٥٤.
(٢١) المصدر نفسه ١/ ٥٤.
(٢٢) روح المعاني ١/ ١٢٥.

القرآن العظيم والسنة الشريفة وإلاَّ فإنّ المعصومين عليهم السلام جميعهم مصاديق للصراط المستقيم والوظيفة الأساسية لأصحاب الصراط المستقيم هي هداية أصحاب السبل وهذه الوظيفة تكوينية لهم.

ثالثاً

وجود الصراط المستقيم في الآخرة

إن الصراط الأُخْرَوِيَّ الذي تسلك عليه وثبّت الله أقدامك عليه يوصلك إلى الجنة وهو مادي، وهذا الصراط نشأته وصنعته من هدايتك لنفسك في دار الدنيا وبما هداك الله من الأعمال القلبية والبدنية. وقد مرَّ أن هذا الصراط جسر محسوس على متن أوله في الموقف وآخره على باب الجنة.

وكل من يشاهده يعرف أنه صَنعتك وبناؤك. ولما كان الصراط في النار وما ثمَّ طريق إلى الجنة إلاَّ عليه. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[سورة مريم:٧١-٧٢].

إن الإنسان من خلال علمه وعمله يوجد الصراط، وهذا المعنى موجود في الروايات الشريفة فإن من يمر على الصراط المستقيم يوم القيامة منهم كلمح البصر، ومنهم من يحبو عليه، ومنهم من يركض. روي عن سعدان بن مسلم عن الإمام أبي عبد الله الصادق-قال: (سألته عن الصراط فقال -: هو أدق من الشعر وأحد من السيف فمنهم من يمر عليه مثل البرق، ومنهم من يمر عليه مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر عليه ماشياً، ومنهم من يمر عليه حبواً، ومنهم من يمر عليه متعلقاً فتأخذ النار منه شيئاً وتترك منه شيئاً)[٢٣]، ومعلوم أن الرابطة بين الإنسان وعمله يوم القيامة من خلال تجسد الأعمال واتحاد العمل والعامل مثل الحديدة التي تقع في النار إلى أن تصبح هي ناراً، فبمقدار عمله تظهر آثار مجاوزته للصراط المستقيم.

ثم إنَّ ظهور الصراط المستقيم في الآخرة أبين وأوضح من ظهوره في الدنيا لأن في الآخرة ظهوره ظهور حسي إلاَّ لمن دعا إلى الله على بصيرة كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ

(٢٣) تفسير القمي ١/ ٢٨.

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [سورة يوسف:١٠٨].

وقد جاء في الخبر أيضاً أن الصراط يظهر يوم القيامة منه للأبصار على قدر نور المارِّيْنَ عليه فيكون دقيقاً في حق بعض وعريضاً في حق آخرين، يصدق هذا الخبر قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [سورة التحريم:٨]، والسعي المشي، وما ثمَّ طريق إلى الله إلا الصراط، وإنما قال: بأيمانهم لأن المؤمن في الآخرة لا شمال له، كما أن الكافر لا يمين له[٢٤].

(٢٤) تفسير صدر المتألهين: ١/ ١٠٦.

المصادر

١. البيان في تفسير القرآن/ السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (ت١٤١٣هـ)/ الطبعة الثانية/ مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

٢. تفسير جوامع الجامع/ أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)/ طهران/ مؤسسة النشر والطبع/ الطبعة الثالثة/ ١٤١٢هـ.

٣. تفسير صدر المتألهين/ صدر المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٠هـ)/ قم/ الطبعة الثانية/ ١٣٦٦هـ.

٤. تفسير فرات الكوفي/ أبو القاسم بن إبراهيم بن فرات الكوفي/ مؤسسة الطباعة والنشر/ طهران/ الطبعة الأولى/ ١٤١٠هـ.

٥. تفسير علي بن ابراهيم القمي (تفسير القمي)/ علي بن إبراهيم بن هاشم القمي/ مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر/ قم/ الطبعة الثالثة.

٦. تفسير العياشي/ أبو النضر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي (ت٣٤٠هـ)/ طهران/ المكتبة العلمية الإسلامية.

٧. التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري/ قم/ مؤسسة المهدي (عجل الله فرجه)/ الطبعة الأولى/ ١٤١٠هـ.

٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم

والسبع المثاني/ للعلامة الألوسي أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت١٢٧٠هـ)/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت.

٩. سفينة الراغب ودفينة المطالب/ محمد راغب باشا/ المطبعة الخديوية/ بولاق/ مصر/ ١٢٨٢هـ.

١٠. لسان العرب/ ابن نظور.

١١. ربيع الأحزان الموضح لكلمات القرآن/ الشيخ فخر الدين بن محمد علي أحمد طريح النجفي/ الناسخ غياث الدين محمد تبريزي/ سنة النسخ ١١٢٣هـ، مخطوطة.

١٢. المفردات في غريب القرآن/ الراغب الأصفهاني/ تحقيق: دكتور محمد أحمد خلف الله/ مكتبة الأنجلو مصرية.

١٣. مواهب الرحمن في تفسير القرآن/ السيد عبد الأعلى السبزواري/ مطبعة الآداب/ النجف الأشرف/ ١٤٠٤هـ.

١٤. الميزان في تفسير القرآن/ العلامة السيد محمدحسين الطباطبائي/ الطبعة الثالثة/ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م/ بيروت.

١٥. نهج البيان عن كشف معاني القرآن/ محمد بن الحسن الشيباني/ مؤسسة دائرة المعارف الإسلامية/ طهران/ الطبعة الأولى/ ١٤١٣هـ.

لله ما في السمو ت و
ما في الارض و ان تبد و
ا ما في انفسكم او تخفو
ه يحاسبكم به الله فيغفر لمن
يشا ء و يعذ ب من يشا ء و الله
على كل شي ء قد ير ٥ امن الر
سول بما انزل اليه من ربه و المؤ
منو ن كل امن بالله و ملئكته
و كتبه و رسله لا نفر ق بين
احد من رسله و قالوا سمعنا
و اطعنا غفرانك ربنا و ا
ليك ا لمصير ٥ لا يكلف
الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت
و عليها ما اكتسبت ربنا لا
تؤ اخذ نا ان نسينا او اخطا
نا ربنا و لا تحمل علينا اصرا
كما حملته على الذين من قبلنا
ربنا و لا تحملنا ما لا طاقة لنا
به و اعف عنا و اغفر
لنا و ارحمنا انت مولنا فا
نصرنا على القوم الكفرين ٥

تربية النزاهة في القرآن الكريم والمأثور الاسلامي

د. طالب عبد الحسين فرحان الشمري
الجامعة الاسلامية - بغداد

ملخص البحث

يبسط السيد الباحث الحديث عن موضوع يمس الحياة العلمية للمجتمع الاسلامي وهو: تربية النزاهة في المجتمع كما أمر بها القرآن الكريم والسنة النبوية المقدسة.

وقد جاء البحث ليستعرض دور تربية الثقافة الاسلامية في محاربة الرشوة والخيانة في اموال الدولة وأموال الناس والحفاظ على اداب الامانة والنزاهة والصدق، مستنداً الى آيات القرآن الكريم والمأثور من الحديث الشريف والسنة المطهرة، مقرراً عدم امكان انفصال النظرية الاسلامية في الاقتصاد والمال عن الجانب الاخلاقي للانسان المسلم. وقد ابرز السيد الباحث دور المسجد ومنبر الخطابة في تعزيز الوعي الاسلامي في هذا الجانب.

المبحث الأول

تربية الثقافة الإسلامية

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[سورة النحل: ٩٧].

يعدُ الإسلام دين الإنسانية بأسرها والحريص على خيرها وإسعادها وأن يحيوا حياة طيبة عزيزة كريمة، تتأكد بها إنسانيتهم وتتحقق لهم فيها احتياجاتهم، فدعاهم بعد الإيمان بالله (عز وجل) وبرسوله الكريم سيدنا محمدﷺ إلى الالتزام بأداء العبادات، حتى تكون حياتهم قائمة على السلوك الحميد والضمير الحي والقلب النظيف، والعمل الصالح في الحياة الدنيا، بعد أن يعملوا وينتجوا ويخترعوا ويبتكروا، كي لا يتخلفوا عن ركب الحضارة الإنسانية، لأن الإسلام دين الرقي والحضارة، ودين الحياة والعمل والنشاط والحركة الدائبة المستمرة.

النداء الرباني الذي جاء في الآية الكريمة هو إعلام وإخبار المسلم بمضمون العمل الصالح الذي يجزي به الله عز وجل عبده المطيع والمستجيب لندائه، ويأمرهُ بالبحوث العقلية والمجهودات الفكرية، والمحاولات العلمية والعملية، وبدوام العمل والإنتاج الصالح الذي يعود على البشرية بالنفع والصلاح، ويتلاءم مع التطورات الزمنية التي بشر بها سيدنا محمدﷺ بقوله: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»[1].

مهدت التربية الإسلامية للحضارة الإنسانية، تلك الحضارة التي تمتاز بمقوماتها الجوهرية التي تنبع من وحي رسالة السماء التي تمد المسلم بالروح والقوة والتماسك، وتوجهه إلى الموازنة بين مطالب البدن ومقاصد الروح، والبعد عن الزهد المعطل للعمل الصالح، وعن الطموحات المادية الجامحة الفاسدة المفسدة للنفس الإيمانية.

يحث الإعلام الإسلامي على شحذ العزائم والهمم في الشروع بالعمل

(١) رواه مسلم في صحيحه عن أنس وعائشة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي-(بيروت مطبعة الكتب العلمية) ص٧٥، قالا: مَرَ النبيﷺ بقوم يلقحون النخل، فقال: «لو لم تفعلوا لصلح فخرج شيصاً.. فذكره».

الصالح، وتنمية المواهب وتزكية الطاقات الطموحة، وتربية النفوس وتقوية الشخصية والاعتزاز بالكرامة، لأنها من أسس بناء الحضارة الإنسانية.

لم يعرف العالم بأسره ديناً من الأديان، حث على العمل الصالح ورغب فيه كدين الإسلام، بعد قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة التوبة: ١٠٥]، وعن رفاعة بن رافع: أن النبي ﷺ: «سئل أين الكسب أطيب ؟ قال: عمل الرجل بيده، كل بيع مبرور»(٢)... وعن المقداد بن معد عن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاماً قط: خيراً من أن يأكل من عمل يده»، «وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»(٣).

الأعمال الوظيفية والمسؤوليات الإدارية مشمولة بأدارة العمل الصالح والنزيه، لأداء ما تتطلبه شؤون الحياة، من الحرص على نزاهة العمل والمحافظة، على أمانته وأسرارهِ ومردوداته المالية لبناء الوطن وترفيه شعبه، ليكون كسب أجرهِ مالاً حلالاً طيباً مشروعاً في دين الله، كما أكده الله (عز وجل) في كتابه الكريم: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص: ٧٧]، فالعمل الخالص الصادق لدى الموظف دليل النزاهة والأمانة الخالصة التي تهدف إلى خير الفرد والجماعة.

أولاً: حكم الرشوة في الإسلام:

قد يلجأ بعض ضعاف النفوس والذين يشك في قوة إيمانهم بالله (عز وجل) أن يتقبلوا ما يسمى بـ (الرشوة) على أنها هدية يسمح الإسلام بتقبلها والاستفادة منها، من الموظفين والمسؤولين المتنفذين في اتخاذ القرارات المالية الصعبة... بينما هي باب من أبواب فساد الذمم وخراب الضمائر وانعدام الخوف من الله (عز وجل) واستحلال حقوق الغير... والتي توصل صاحبها إلى دار الظلم والجور الممقوت،

(٢) صحيح البخاري-كتاب الجمعة-(القاهرة دار ابن الهيثم-٢٠٠٤) ص٣٢٥.
(٣) المصدر نفسه.

فلا يفكر بعدها إلا لنفسه ولا يعيش إلا لذاته ومصلحته، فيكون عبداً لهواه طيعاً لشهواته دونما تفكير بمصلحة المجتمع وفقدان لنزاهته.

فالرشوة إذن: هي إعطاء صاحب منصب أو وظيفة أو نفوذ مالاً أو متاعاً ليسهل له أخذ شيء لاحق له فيه، ولاشك أن في هذا ضياعاً لحقوق الناس والوطن، سواء مالية كانت أو غير مالية وعدم الأمان على ممتلكاتهم، وذلك أن كلاً من الراشي والمرتشي قد أخذ ما ليس له حق، ويعد إفساداً أو تخريباً لا يرضى به الله (عز وجل) وأفراد المجتمع الصالح لدينه وأخرته.

فالراشي اقتطع حق أخيه وضمه لنفسه بطريقة محرمة بعيدة عن الأخلاق والشيم والعدل، والمرتشي أستغل بنفوذهِ طمس حقوق الآخرين لمجرد حصوله على هدية مغلفة بالإثم (رشوة) ستكون شعلة من نار في جوفه وجوف عياله، بدلاً من لقمة الحلال الطيبة الطاهرة.

ومن هنا جعل الإسلام الرشوة كبيرة من الكبائر، فنهى الله تعالى المؤمنين من أكل أموال الناس عن طريق رشوة الحكام والمتنفذين فقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٨٨]، ومعنى هذه الآية أنه لا تصانعوا الحكام ولا ترشوهم لتستولوا على مال غيركم بغير حق، فكيف تقدمون على ذلك وأنتم تعلمون أن هذا العمل باطل وقبيح.

أن حكم هذه الآية ينطبق على مجتمعنا الحاضر الذي كثرت فيه الشكاوي والدعاوي في المحاكم التي تبني أحكامها على الأدلة الظاهرة، وهم يمهدون لذلك عن طريق استغلال ضعفاء القلوب، ورشوة بعض المتنفذين والشهود والخبراء والاستعانة بالمحامين المهرة الذين يجعلون الباطل حقاً والحق باطلاً.

والملاحظ أن هذه الآية الكريمة ذكرت رشوة الحكام، والمقصود بهم أصحاب النفوذ والسلطة والوظيفة، ولم تذكر غيرهم لكثرة حدوث هذا النوع من الرشوة في هذا المجال، لأن ضررها فاحش وقبيح.

وقد جاءت السُنة النبوية تحذر الناس من الوقوع في الرشوة، وتمنع المسلمين من

التعامل بها، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي والرائش الذي يمشي بينهما»(٤).

فالراشي هو الذي يعطي الرشوة والمرتشي هو الذي يأخذ الرشوة، وإما الرائش فهو الذي يسعى بين الراشي والمرتشي، وهذا يشير إشارة واضحة إلى كل من يرتبط بعملية الرشوة من قريب أو بعيد، مشمول باللعنة والطرد من رحمة الله تعالى يوم القيامة.

وهكذا يحرم الإسلام الرشوة في أي صورة كانت، خاصةً ما جاء تحت اسم الهدية المزعومة، حيث يقول النبي ﷺ: «من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً (أي منحناه راتباً) فما أخذه بعد ذلك فهو غلول»(٥)، أي خيانة وظلم.

وبهذا يضع رسول الله ﷺ حداً لكل من يريد استغلال منصبه أو وظيفته للحصول على أية فائدة نقدية أو عينية ويبين أن من يقبل أي قسط ولو كان يسيراً عن طريق الرشوة فالله تعالى سيعرض خيانته هذه على الملأ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ... فالعمل الوظيفي والمنصب القيادي المهم في نظر الإسلام، إنما هو واجب وتكليف علمي واجتماعي وديني وأخلاقي، لا يجوز استغلاله بالحصول على مردودات غيره، باعتبارها واجباً إنسانياً وشرعياً، وتسبب الويلات على المجتمع، وتقطع أواصر الآلفة والتعاون وتلغي مبدأ العدالة بين أبنائه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦١].

أما أولئك الذين يحاولون استغلال مناصبهم في أخذ الرشوة لتغيير أوجه الحق، فأن الإسلام يعتبرهم خونة مارقين ليسوا صالحين لإدارة شؤون الوطن ومصلحة مواطنيه ضمن مجتمعه، بل ويعتبر إسناد المناصب والوظائف إليهم عملاً غير مشروع، بوصفهم غير كفوئين لانعدام صفة العدالة والمروءة فيهم، حيث يقول

(٤) رواه الترمذي، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس -والطبراني في الكبير -وصححه الترمذي: ٤/ ٥٩٥-ص٤٩٦.
(٥) سنن أبي داود: ٩/ ٤٧٢.

رسول الله ﷺ: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»(٦)، بالمقابل من ذلك فإن الموظف الصالح الذي يرعى حقوق وظيفته فيحق الحق لأهله ويدفع الباطل عمن الحق به، فهو على درجة كبيرة من الأجر والغنيمة، فيقول النبي محمد ﷺ: «العامل إذا استُعمِل فأخذ الحق وأعطى الحق لم يزل كالمجاهد في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته»(٧).

كذلك الواجب على رأس سلطة الحكومة، أن يعمل على حسن اختيار الوزراء والمسؤولين والمستشارين والمديرين العامين وأصحاب الدرجات الخاصة والموظفين المرافقين معهم، بعد أن يتحرى أصلحهم وأنزههم لكل منصب، ويختار الرجل المناسب في المكان المناسب، وضمن اختصاصه العلمي والمهني، وأكثرهم أمانة وعدلاً وإخلاصا لوطنهم ويؤكد ذلك سيدنا الرسول محمد ﷺ بقوله: «من ولي من آمر المسلمين شيئاً فولى رجلاً وهو يجد أصلح منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»(٨).

وفي مقابل ذلك فإن على الدولة أن تكفل لموظفيها جميع ما يلزمهم من المرتب والمسكن، ضمن حد الكفاية المقررة لهم شرعاً، بحيث لا تمتد عينهم إلى ما في أيدي الغير فيقدمون على التحايل أو الرشوة أو غيرها.

فقد ورد عن أعمال سيدنا الإمام علي أبن أبي طالب عليه السلام: أنه بعث بكتاب إلى أحد ولاته وكتب له فيه «أسبغ على عمالك الأرزاق فان ذلك قوة لهم على استصلاح شأنهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم واشدد عليهم أن خالفوا آمرك أو ثلموا أمانتك»(٩).

وبمثل هذه الإجراءات مع المسؤولين والموظفين يمكن القضاء على الفساد الإداري، ولا تبقى لهم الذريعة في استلام الرشوة أو ما يسمى (هدية).

وقد ضرب لنا صحابة رسول الله

(٦) ابن ماجة:٧/ ١٠١-(بيروت: دار الفكر-١٩٥٤) ص٧٨.

(٧) مسند أحمد:١٣/ ٢٨٤-تحقيق: أحمد شاكر-(مصر دار المعارف-١٩٨٤) ص٤٩.

(٨) الترمذي:٥/ ١٧٦.

(٩) الترمذي:٥/ ١٧٥.

محمدﷺ أروع الأمثلة في هذا المجال، فكانوا العمال الأمناء والأكفاء في تحمل مسؤولياتهم تجاه، ولي الأمر، فقد أورد الإمام مالك في موطئه، أن رسول الله محمداًﷺ كان يبعث عبد الله بن أبي رواحة إلى خيبر فيخرص بينه وبين يهود خيبر، فجمعوا له حلياً من حلي نسائهم فقالوا هذا لك وخففهُ عنا وتجاوز في القسم، فقال عبد الله: (يا معشر يهود: والله أنكم من أبغض خلق الله إلي، وما ذلك بحاملي على أن أضيق عليكم، فأما ما عرضتم علي من الرشوة، فإنها سحت وإنا لا نأكلها: فقالوا بهذا قامت السموات والأرض)(١٠).

وهكذا تكون الكفاءة والأمانة شرطين أساسيين لاختيار المسؤولين والموظفين المهمين، كي يتخلص المجتمع من الشرور والويلات التي تجرها الخيانة ونقص الخبرة وعدم الخوف من الله.

أن جريمة الرشوة تدفعنا إلى الحديث عن مبدأ: (من أين لك هذا ؟)، كما طبقهُ بأمانة أمراء الدولة الإسلامية في تعاملهم مع موظفيهم، فضمنوا حقوق الناس وابتعدوا عن الغش والأنانية من خلاله، أن أشد ما يفتك بالمجتمع ويقوض كيانه هذا الصنف من الناس الذي حنق في نفسه كل نوازع الخير وكل أصول الأخلاق، واستغل منصبه وفتح يده في قبول المحرمات والسحت (الرشوة) والتي قد يأخذها في صورة هدية أو معاونة، ولكنها في أية صورة من الصور، تعتبر غير مشروعة لأنها تشيع الانحطاط الخلقي وتقتل الشفقة والأمانة بين الناس، والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٧]. ومن العقوبات التي أقرها فقهاء الإسلام: على المرتشي ما قاله فقهاء المسلمين (رحمهم الله): أن الحاكم إذا قبل الرشوة وقع عزله في الحال وأن لم يعزل، ويعد كل حكم يتخذه حكماً باطلاً لا يعتد به... لاسيما لما تقدم، فأن الإسلام يعتبر المال الذي يحصل عليه المرتشي نوعاً من أنواع الربا الممقوت.

ويقول سيدنا رسول اللهﷺ: «من

(١٠) موطأ مالك: ١٠٥٥/ ٣٠٩، (مصر: مطابع الأعلانات الشرقية-د. ت) ص١١-٢٨.

شفع لرجل شفاعة فأهدى له عليها هدية، فقد أتى باباً كبيراً من أبواب الربا»[11]، ويروى عن عبد الله بن مسعود (رض) قوله: «من رد عن مسلم مظلمة فأعطاه على ذلك قليلاً أو كثيراً فهو سحت، فقيل له يا أبا عبد الرحمن ما كنا نظن أن السحت إلا (الرشوة) في الحكم، فقال إنما ذلك كفر»[12] نعوذ بالله منه.

إن المعاملات الشخصية (النفعية) المتداولة في مجتمعنا اليوم إنما هي (الرشوة)، بحيث لا يمكن لك في بعض الأحيان أن تحصل على حقك إلا بها، الأمر الذي يدعوا إلى أن يتفهم المسلم المعاصر أضرار ذلك ومخاطره، فلا يقدم على هذا العمل الردئ، لأنه مخالف لتعاليم الإسلام ومناف لروح الأحكام الشرعية، لذا فإننا نقدم دعوة مخلصة إلى كل من يؤمن بالله، أن يتجنب هذا السحت وأن يراقب الله تعالى ليحصل على الرزق الحلال البعيد عن شائبة الحرمة والمعصية.

فقد ورد عن السلف الصالح أنهم كانوا يتجنبون أبوابا كثيرة من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام، ومادام قد ثبت بالدليل القاطع حرمة هذا الأسلوب من التعامل، فأن الواجب يحتم على كل من يريد أن يعيش بعيداً عن التهم والشبهات ومواطن الفحشاء، وأن يتجنب الرشوة والهدية ليضمن له ولمن تلزمه نفقته رزقاً حسناً مباركاً طاهراً طيباً، فأن الله طيب لا يتقبل إلا طيباً. قال-تعالى-: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ [سورة النساء:٨٥]. وقد أجمع المفسرون على أن الشفاعة السيئة من معانيها الشفاعة المقرونة بالرشوة.

ثانيا: الأمانة والصدق:

الأمانة: أسم لما يؤتمن عليه الإنسان، وجاء في لسان العرب عند الكلام عن مادة (آمن) الآمان، (والآمانة بمعنى قد أمنت فأنا آمن، وأمنت غيري من الآمن والآمان، والآمن ضد الخوف والآمان ضد الخيانة)[13].

(١١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري، ص٥٥٢.

(١٢) سنن أبي داود، ١/ ١٢٥-ص١٢٧.

(١٣) مفردات القرآن: ٣٤، لسان=

وتعد الآمانة من أهم قواعد النظام في الحياة الإجتماعية، وهي طابع النبوة، وخصيصة الرسالة، وصفة المؤمنين آمر الله بها في كثير من آيات القرآن الكريم، وأمتدح المتصفين بها ونهى عن الخيانة.

وقال الله (عز وجل) في قرآنه المبين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [سورة النساء: ٥٨]، وقوله (تعالى): ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢]، وأكد على ذلك سيدنا رسول الله محمدﷺ في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة منها قوله: «أد الآمانة إلى من أئتمنك ولا تخن من خانك»[١٤]، و «إذا ضعيت الآمانة فأنتظر الساعة»[١٥]، صدق رسول الله.

وللعلماء المسلمين أقوال في المخاطب بها، فقال بعضهم: أنها خطاب لولاة المسلمين خاصة بأداء الأمانات والحكم بالعدل، وقال آخرون: أنها خطاب النبي محمدﷺ خاصته في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن أبي طلحة من بني عبد الدار، ومن أبن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، وقت فتح مكة، وكانت لهما سدانة مكة، فأمره الله برده إليهما، وقال: «خذها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»[١٦]، وروي عن كثير من الصحابة في التأكيد على حفظ الأمانة منهم: (عبد الله بن عباس-عبد الله بن عمر-البراء بن عازب -أبي بن كعب)، وأنهم قالوا حفظ الأمانة في كل شيء في: (الوضوء-الصلاة-الجنابة -الصوم-الكيل-الوزن-الودائع)[١٧]، وتشمل الأمانة جميع مشاغل الحياة لتنظيم شؤونها اليومية، سواء في الشؤون الاقتصادية أو التجارية أو الإدارية، وقد طلب الصحابي أبو ذر الغفاري) من رسول اللهﷺ أن يوليه أي يعطيه شؤون

=العرب١/ ١٤٠.

(١٤) رواه الطبراني في الكبير والصغير ورجال كثير ثقات.

(١٥) أخرجه أحمد والبخاري والمسند الجامع الباب ٩: ٤٥/ ٤٦٣.

(١٦) الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٢٦٥ -الطبرسي- مجمع البيان ٣/ ١٠٦.

(١٧) المصدر نفسه: ٥/ ٢٦٥.

إمارة دولة، فقال له ﷺ: «انها أمانة، وأنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا لمن أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها»[18]، والخزي والندامة في حق من لم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً ولم يكن يعدل فيها، فيخزيه الله، يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط، أما من كان أهلاً وعدلاً فيها فله فضل عظيم، ويكون من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما ورد في الحديث الصحيح[19].

هذا وتستثنى مجالس السوء والمنكر، وأحاديث المجون، وما لا يتفق مع توجيهات الدين إلى الخير، فليست من قبيل الأمانة المرعية في نظر الإسلام، فهذه أسرار، لا حرمة لها، لوجوب مقاومتها، وكف أصحابها، وسلامة الناس من آثارها، عملاً بواجب مقاومة المنكر وإزالته، وتدخل في فروع الأخلاق الإنسانية وعموم الفضائل، فهناك اليد التي لا تبطش إلا بالحق، والرجل لا تمشي إلا فيه، والآذان لا تستمع إلا للحق، ولا تستمر في الباطل، واللسان لا ينطق إلا بالحق ولا يعمل إلا به، وأمانة اللسان هي صلاح الأمر كله.

وقد جعل القرآن الاتصاف بالأمانة من علامات الفلاح والفوز والسعادة، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١-٨].

كما بين رسول الله ﷺ أن عدم الحفاظ على الأمانة وخيانتها، من علامات النفاق، فقال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد خلف، وإذا أئتمن خان»[20]، ولخطورة خيانة الأمانة جاء النهي عنها صريحاً في القرآن الكريم، وقرنها بالنهي

(١٨) مسلم بشرح النووي: ٤/ ٤٨٨.

(١٩) رياض الصالحين: ٢٨٣ ـ سنن النسائي: ٨/ ٢٢٣.

(٢٠) مسلم بشرح النووي: ١/ ٢٤٦ ـ والنسائي: ٨/ ١١٧.

عن الخيانة لله وللرسول، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٧]، وقال ابن عباس (رض): «خيانة الله سبحانه بترك فرائضه والرسول بترك سنته وارتكاب معصيته والأمانات والأعمال التي أئتمن الله عليها العباد»(٢١).

كان رسول الله محمدﷺ يستعيذ بالله من الخيانة، ويقول: «اللهم أني أعوذ بك من الجوع، فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنها بئست البطانة»(٢٢)، ومن أقبح الخيانات أن يأتمنك إنسان وتخونه، ويمنحك الثقة فتخونها، ويمكنك من دمه فتهدره، ويختارك لنائباته فتكون أحدها أو أشدها، ويعطيك العهد فتنكث في عهده، ويثق منك بالوفاء، فلا يكون منك إلا الغدر.

تقوم الحياة الدنيوية اليومية على أمانة الإنسان ونزاهته والجماعات المؤمنة تتكون وتأتلف وتقوى على الأمانة، فإذا ضيعت الأمانة تقطعت الأواصر وتنافرت القلوب، وحل التنافر محل التعاون، وحلت البغضاء والتناكر، محل المودة والتعاون، وحل الغدر محل الوفاء.

يؤكد الاقتصاديون أهمية شيوع النزاهة والأخلاق والمُثل النبيلة في ربوع المجتمع الحر، لأن ذلك يساعد على دعم المسيرة الاقتصادية نحو الأفضل، وأن التجرد من هذه المثل يجرد الحياة الاقتصادية من الرفاهية الإنسانية ومن السعادة الحقيقية، بل ومن الأمن والسلام، لأن ضياع الأخلاق ضياع للثروة وانهيار للقوة والعزة، أن عاجلاً أو آجلاً، سواء أكان على المستوى الفردي أم الجماعي أم الدولي، ولهذا لا يمكن للنظرية الإسلامية الاقتصادية أن تنفصل عن الجانب الأخلاقي، سواء من حيث الوسائل والنظريات، أم من حيث المقاصد والأهداف.

وعليه فإن تدعيم المبادئ الأخلاقية، يعد من أهم المقاصد الشرعية المعترف بها، ومن أهم الأسس والقيم الأخلاقية التي ينادي بها الشرع الإسلامي هي:

(٢١) رواه الترمذي، ٥/ ١٨٣.
(٢٢) رواه النسائي، ٦/ ١٩٩.

١-الالتزام بالصدق والأمانة والنزاهة، والابتعاد عن الغش، والتي قال فيها الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [سورة النساء: ٥٨]، وفي الحديث الصحيح: «من غشنا فليس منا» ، ويقول الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «الصدق أمانة والكذب خيانة»(٢٣).

٢- ولحسن المطالبة قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾(٢٤).

٣- ولحسن الوفاء: قال الله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ [سورة الإسراء: ٣٥].

٤- وفي عدم مضارة الغير: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠]، وجاء في الحديث الصحيح: «لا ضرر ولا ضرار»(٢٥).

ومن هنا يتضح أن الأمانة والأخلاق والنزاهة لا تنفصل عن التعامل اليومي الحياتي، ولا يستطيع أحد أن ينكر تأكيد التعاليم الإيمانية عليها، ويعترف بذلك المفكر الغربي (جاك أوستيري) بهذا السلوك الذي جعل الاقتصاد الإسلامي اقتصاداً أخلاقياً في تعاملاته في الأسواق العالمية(٢٦).

وقد عد الإسلام السعي إلى الرزق الحلال من خلال خدمة المجتمع وتنميته، من أفضل ضروب العبادة، فقد ذكر للنبي محمد ﷺ رجلاً كثير العبادة، فسأل من يقوم به، قالوا أخوه، فقال: «أخوه أعبد منه»(٢٧).

وقد أراد أحد الصحابة الخلوة والاعتكاف لذكر الله تعالى فقال له الرسول محمد ﷺ: «لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله، أفضل من صلاته في بيته ستين عاماً»(٢٨)، أي الأفضل في خدمة المجتمع وتنميته.

(٢٣) موطأ مالك، ١٠٥٥/ ٣٠٩.
(٢٤) الطوسي -التبيان ٢/ ٣٦٨.
(٢٥) رواه ابن ماجه والدار قطني مسنداً. ورواه مالك في الموطأ.
(٢٦) جان جبران كرم: الإعلام العربي إلى القرن الواحد والعشرين (بيروت، دار الجيل، ١٩٩٩) ص: ٢٤٤.
(٢٧) رواه الطبراني.
(٢٨) أخرجه الترمذي: ١٣/ ١٠١، والبهيقي: ٩/ ١٦٠-١٦١ ـ الحاكم: ٢/ ٦٨.

المبحث الثاني

الإسلام والتربية الاجتماعية

تناولت الآيات القرآنية جميع ما يحتاجه الإنسان من مشورة ووعظ وإرشاد خلال مسيرته الحياتية، ليتجنب الأعمال المسيئة لإتباع خطوات الشيطان، ليضمن سعادة الدنيا والآخرة هو وعائلته... ويرسم له نظاماً ومنهجاً، ويتلاءم مع حاجاته اليومية، لتكون تشريعاً حكيماً يرضي الله (عز وجل) ورسوله الكريم محمدﷺ، ويكسب رضاء والديه، وحب أبناء مجتمعه الذين يحيطون به طيلة مسيرة حياته.

أولاً

التربية البيتية

تضم التربية البيتية مجموعة من المواريث التربوية التي تناقلتها الأمم والشعوب جيلاً بعد جيل، بعد تأثرها بعوامل البيئة الدينية والاجتماعية التي نشأ عليها، ولذا كان لكل أمة من الأمم تربية خاصة تختلف عن تربية الأمم الأخرى، لأن التربية البيتية هي محصلة للعوامل المحلية الاجتماعية والتاريخية، وقد تبدو متمثلة في عقائد الأمة وآدابها وأخلاقها وتقاليدها وعاداتها وأذواقها.

وقد دلت وقائع التاريخ على أن تربية الأمة الإسلامية هي قوام حياتها، وأن الأمة ما دامت في عنفوان قوتها، اعتزت بتربيتها الإيمانية البيتية الخاصة، فإذا خضعت لأمة أخرى استسلمت لتربيتها من تلقاء نفسها.

حينما ظهر الإسلام في الجزيرة العربية في مطلع القرن السابع للميلاد، كانت تربية البداوة البيتية الغالبة على طبيعة الشعب العربي، وكانت معارفه مقتصرة على المعارف التي تسود المجتمعات البدوية مثل: (الشعر-الخطابة-القيافة-العرافة-الأنواء) وغيرها.

استطاع الدين الإسلامي منذ بداية انتشاره في الجزيرة العربية، أن يسعى بالقضاء على الموروثات الفاسدة في المجتمع العربي، ونشر بدلها تربية جديدة، تقوم على عقيدة التوحيد السليمة، وفكرة الأخوة الإنسانية التي جاء بها الله (تعالى) في كتابه الحكيم، وبلغة قريش التي أصبحت بعدها لهجة واحدة هي لغة القرآن الكريم، التي كانت عاملاً مهماً من عوامل الوحدة، ثم أنه

وحد أفكار العرب ومشاعرهم، وأهلهم لحمل الرسالة العظمى التي جاء بها سيدنا الرسول محمدﷺ إلى أرجاء المعمورة.

توصل الفيلسوف العالمي (دور كهايم): إلى أن التربية البيتية للأجيال الراشدة تثير وتنمي عند الأولاد عدداً معيناً من الحالات الجسدية الفكرية والأخلاقية، التي يفترضها المجتمع المدني في مجمله، والبيئة المميزة التي ينتمون إليها بشكل خاص[٢٩].

لقد أستخدمت وسائل الإعلام في ميادين التربية البيتية والتأهيل العلمي والثقافي، وتنمية السلوك والمدارك عند الأطفال والأولاد، وغيرها من الميادين التي تسد فراغات عميقة لتصرفات الحياة اليومية لأفراد العائلة، التي تخترق الحواجز والأماكن البعيدة عن طريق البث الفضائي المرئي والصوتي.

يتحدث اليوم التربويون المستقبليون في العالم، عن المشاريع التربوية الجديدة للخطة الخمسية والعشرية للقرن الواحد والعشرين، التي سوف تقوم ببثها وسائل الإعلام في الصحافة والإذاعة والتلفزيون والملصقات، التي هي بالضرورة من الأسس التي تبنى عليها المنظومة التربوية، ومنها المدرسة الحديثة والجامعة الحديثة ـ منهاجهاً وبرنامجاً[٣٠]، ولاسيما ضرورة وجود الأهل إلى جانب أبنائهم لدى بث المسائل التربوية السيئة مثل مشاهد الجنس والعنف والجريمة التي تعرض من المحطات الفضائية، ومتابعة المستوى العلمي والتربوي من خلال مواكبة الحضور المدرسي اليومي، وتحضير الواجبات البيتية، ومحاولة فتح الحورارات الاجتماعية والتربوية والثقافية معهم، لمعرفة مستواهم الثقافي والعلمي وتعليمهم أسلوب الحوار الإيماني الهادئ والتربية الإسلامية، التي ترفض وتحرم الأعمال والأساليب الشاذة التي حرمتها الشريعة الإسلامية والتي تخل بالإيمان

(٢٩) د. جان جبران كرم: لا إعلام العربي إلى القرن الواحد والعشرين، (بيروت: دار الجيل-١٩٩٩)، ص: ٢٤٢.

(٣٠) EMILE DURKHEIM: EDUCATION ETSOIOGIE , ED, PAIM. 1987

والـشرف، والتفريق بين أعـمال الخير والشر، والتي قد تدفعهم في المستقبل إلى القبول في ممارسة الأعمال السيئة مثل قبول الرشاوي أو سرقة أموال الدولة وغيرها.

يتهم الكاتب الدكتور (جان جبران) وسائل الإعـلام والأتصال، وخصوصاً وسيلتي التلفزيون والموبـايـل، بإيقاع الأطفال والمراهقين يومياً في شرك نفسي وعقلي قاتل، هو عدم القدرة على الفصل بين الواقع والوهم، بين الحقيقة والخيال، بين الخير والشر، بين الممكن وغير الممكن، فماذا يفعل الأهل والمسؤولون لمعالجة هذا الشرك[٣١].

ويستنتج الفيلسوف (جون ديوي) في كتابه (التربية اليوم): التربية البيتية عملية تغيير وتكييف، وتنمية مستمرة في الفرد، تعمل دائماً على إيجاد التوازن بينه وبين البيئة التي يعيش فيها، وهي ذات وظيفتين[٣٢]:

١-وظيفة فردية تقوم على مساعدة الكائن البشري على النمو نمواً صحيحاً كاملاً بحسب قواه الطبيعية.

٢-وظيفة اجتماعية تجعل هذا النمو مفيداً لصاحبه في المجتمع الذي يعيش فيه.

الكثير من الآباء والأمهات يصرفون من أوقاتهم وطاقاتهم ما يكفي لمراقبة أبنائهم عند ممارسة التربية الإيمانية في تصرفاتهم عند قضاء حاجاتهم اليومية، سواء داخل البيت أو خارجه لإرشادهم بتعلم الأخـلاق الإيـمانـية، عند قضاء حوائجهم، وتشجيعهم على ممارستها، ونهيهم عـن الـشـاذ منها، التي تخالف التعاليم التربوية الإسلامية، فإذا أحسنوا تأديبهم وتهذيبهم فعلوا الخـير، وإذا أسيء تأديبهم وصادقوا الأشرار، ضلوا وارتكبوا الرذائل والمضار المختلفة، وفي جميع مجـالات حياتهم، وعندما يقومون بالأعمال التي تخص طبيعتهم الإنسانية الخـيرة في أرقـى مراتبها عند استلام المسؤوليات والأسـاليـب التي تساعد على ذلـك، باعتبارها أسـاس الأخـلاق الإسلامية الفاضلة التي تحقق السعادة والخـير لعائلته وأبنـاء وطنـه.كـل هذه

(٣١) د. جان جبران كرم، مصدر سابق، ص: ٢٦٧.

(٣٢) JOHN DEWEY: EDUCATION TODAY, 1987 STRATBORD , 1987.

الجوانب الاخلاقية، تطرق اليها القرآن الكريم قبل (دوركهايم) و (جون ديوي) وغيرهم في آيات بينات دعت الى التزام الفضيلة وترك الرذيلة. لنقرأ معاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾...الخ [من الآية ٩٠ الى الآية ٩٧ من سورة النساء].

أو ما ورد في قوله تعالى على لسان لقمان في وصيته لولده: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ﴾..الخ [سورة لقمان-من الآية ١٣-الى الآية ١٩].

وغيرها من مئات المواقف التي وقفها القرآن الكريم داعما المنهج الاخلاقي في الحياة مما لا مجال يسع ذكره في هذه العجالة.

ثانياً

الثقافة المدرسية

ليست الفوارق بين التربية والتعليم أساسية، في عمل مدارس التعليم المختلفة، وإنما تكون ضرورية البروز في المظاهر الشكلية العامة، والتربية ذات أطر واسعة تشمل كل أنواع النشاطات التي تؤثر في طموح طلبة المدارس واستعدادهم لتنميتها، أما التعليم في معناه الحصري التقليدي، فهو نقل المعلومات المعرفية من المعلم إلى المتعلم، فهو إذاً عامل جزئي في العملية التربوية.

قدرة وسائل الإعلام - خصوصاً المرئية منها - على الوصول إلى التأثير الهائل على طلاب المدارس، باعتبار الدروس التربوية المرئية مرجعاً رئيسياً، وينبوعاً أساسياً في تحريك العملية التربوية والتعليمية ودفعها إلى واقعية حقيقية، بعيدة عن الغربة في المواضيع بالنسبة للطالب المتلقي، والأستاذ المربي، وخلق حالة من الملاءمة بين المادة الحية المعاصرة التي تعتمد على وسائل إيضاح معاصرة كثيرة التداول وسريعة الوصول والتأثير في تدريس المواد التربوية والتعليمية بواسطة البرامج التلفزيونية المقبولة في حياة الجيل الجديد، لأنها طريقة مثلى في تأمين عملية الخلق والإبداع.

الفرق الواضح بين أساليب التعليم التربوي داخل المدارس، لطريقة الأستاذ المربي الذي يقرأ على التلاميذ نظريات مبهمة وجامدة... وبين مشاهد تلفزيونية حية، مرفقة بصور ومقابلات واقعية، تضع التلميذ في أجواء الموضوع التربوي

لشرح النظريات الأساسية ضمن المواد الدراسية المطلوبة.

ويتساءل الكاتب (جان جبران) عن طريقة التعليم التربوي التي يلقيها الأستاذ التربوي داخل الصف أمام الطلاب، والتي تتطلب ساعات وساعات عن شرح حياة أديب أو مفكر مثلاً، وفي صف مغلق.... وبين مَشاهد تلفزيونية تتناول نفس حياة الأديب والمفكر، فالثانية سوف تغني الطالب بالصورة والصوت والحركة، لتحدث التأثير المضاعف لدى الطالب، وقد تكون منطلقاً لمحادثة واسعة النطاق داخل الصف ؟[٣٣].

أليس تباين الفرق بين إلقاء محاضرات تدريسيه على الطلبة، تعتمد دروساً في الأخلاق والسلوك، وبين عرض أفلام الرسوم المتحركة الطريفة والمضحكة التي تمر يومياً على الشاشة الصغيرة وكثير من أمثالها في طرح الفرق بين أعمال الخير والشر، ومَثَلُهُا في تمرير معلومات فاعلة في دروس (الإنشاء والحساب والتاريخ والجغرافيا والفيزياء والكيمياء) والتي تدخل العقول والقلوب من دون استئذان[٣٤].

استطاع الإعلام المرئي الألكتروني أن يستقطب اهتمام طلبة المدارس، بحيث يقضون نصف يومهم في المدارس، والنصف الآخر في مشاهدة برامج التلفزيون ومواقع الانترنيت، لتكون الدروس العلمية والتربوية متلازمة مع التلفزيون والحاسوب، بحيث يكتسبون أعمال الخير والشر، فالذين تحصنوا بالتعليمات التربوية الإيمانية البيتية، سوف يرفضون مشاهد الشر التي تتمثل بالسرقة والقتل وتقبل الرشوة والفساد الإداري والمالي، وأساليب قد تجعلهم يمارسون الأمانة والنزاهة والصدق والأخلاق والأخلاص في أعمالهم اليومية.

ضرورة تعميم أجهزة التلفاز على المراحل الدراسية كافة، لتلقي البرامج التربوية ضمن الخطة الدراسية للبرامج الثقافية والعلمية والاجتماعية لكسر الطوق الذي حاكته حولها المناهج المدرسية

(٣٣) د. جان جبران كرم، مصدر سابق: ص٢٤٦.

(٣٤) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الجافة، توصلاً إلى التقدم التكنولوجي الحديث، ليكون حلاً علمياً جذاباً متناغماً مع قضايا العصر، والتي كانت في الزمن القريب من المعضلات التدريبية والمهنية.

ينبغي لمدرسي المواد التربوية، أن يجعلوا منها باقة مشوقة ومثيرة أمام الطلاب، بعد فتح باب الحوار والمناقشة حولها، بحيث يبرهن عن ذكائه وتقدمه واهتمامه، بتعليم التربية الحديثة المستمرة للجيل الجديد والأجيال القادمة التي تحمل الطابع التربوي، ولاسيما البرامج التلفزيونية التربوية والثقافية والأجتماعية، لتنمية قدراتهم المعرفية والسلوكية والإدراكية، ذات طابع التذوق الفني والأدبي، وصولاً إلى إنخراطهم في مجتمع سليم معافى، مع اعتماد برامج الحاسوب وأنظمتها الحديثة، التي تسهل استيعاب البرامج التربوية، ضمن خطة تربوية شاملة، مع أسلوب الحوار والمناقشة اللذان يترسخان في الذهن.

جاء استخدام الكومبيوتر والإنترنت، ضمن عملية استكمالية للنهوض التربوي الأساسي، البديل عن التربية المدرسية التقليدية، ويقول الكاتب (جان جبران): أنه بسحر ساحر سوف يدبر لنا نظاماً تربوياً جديداً ملائماً مع البرامج والمناهج المدرسية[٣٥]، ويلبي حاجات المعلمين والمدرسين والطلاب، في استكمال ما يحتاجونه لتكملة المواد الدراسية المقررة وتنظيم الامتحانات، ومراقبة المستوى العلمي والتربوي للطلاب، ويحقق حرية التعليم، وينشأ جيلاً نزيهاً ومخلصاً لعمله ووطنه.

المبحث الثالث

الإسلام والثقافة الشعبية

يتمتع الأفراد والمسؤولون الموظفون في الدولة برغبات ومصالح (متعددة ومختلفة ومتعارضة) أحياناً، ولهم إرادات وأفكار متعددة ومختلفة... فضلاً عن النفس البشرية التي تحمل الشهوات والغرائز والدوافع المختلفة، ويجمع هؤلاء المسؤولين والموظفين مجتمع بشري واحد... فكيف يمكن أن تتحقق للجميع حرية التصرف، دون أن يعتدي بعضهم على بعض، ويحقق مصالحه وأهدافهُ الشخصية، ويشبع رغباته وغرائزه

(٣٥) د. جان جبران كرم، مصدر سابق: ص: ٢٩٨.

ونزعاته على حساب الأخرين، وبعد غياب الرقابة الصارمة والنزيهة على حركة عمل المسؤولين والعاملين، بعد أن نجعل العنان لهم مطلقاً، من غير تقنين أو تنظيم.. وتتحول ممتلكات وأموال الدولة إلى النهب والسلب بأيدي الذين لا يتبعون الآيات القرآنية الحكيمة ولا إتباع السنة النبوية الشريفة، بعد أن مارسوا تعاطي الخمور والمخدرات والأعمال الجنسية المحرمة والشاذة، وحب الميول النفسية العمياء.

دور مساجد العبادة ومنظمات المجتمع المدني

يُعد المسجد المركز الأول للإشعاع الديني الإسلامي، ومكان العبادة الأول، ومصدر الثقافة والوحي الروحي، وبداية الانطلاق في تكوين المجتمع الإسلامي، ولأهميته كان أول عمل يقوم به سيدنا المصطفى محمد ﷺ في المدينة المنورة، هو بناء المسجد، والرسول ﷺ بعمله هذا أراد تحصين القلوب بالإيمان، قبل تحصين البدن بالبنيان.... أراد تقوية النفوس وتثبيت الجنان، لأنه منه يتعلم المرء الشجاعة والإقدام والنخوة والرجولة، ولم يكن دور المسجد مقصوراً على الصلاة فحسب، بل كان مجلس شورى ومركز قيادة ومدرسة تشريعية وثقافية وتربوية، وكان معهداً للعلم وداراً للقضاء، وساحة تتجمع فيها الجيوش، ويتوجه منه المجاهدون إلى ميادين القتال.

يذكر الله (جل جلاله) أنَّ في المساجد تعتمر الأرواح والقلوب عند إقامة الصلاة وتلاوته القرآن، ودرس الوعظ والإرشاد.. وقد قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [سورة النور: ٢٦-٢٧].

من هذا نفهم أن الإسلام حث الناس على التعاون فيما بينهم، لما فيه سعادتهم وتأمين الحياة الهادئة الحرة الرغيدة لهم، ونهاهم عن كل ما يؤدي إلى تعكير صفو الأمن والاستقرار فيما بينهم، وكما جاء في حديث سيدنا الرسول محمد ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر

والحمى»[٣٦].

تعد العدالة الاجتماعية أساساً من أسس الإسلام، لتأمين التكافل المعاشي لمواجهة هموم الدنيا وويلاتها، والتي تقضي على القلق النفسي، وتشجع على ارتياد المساجد لإقامة الصلاة،التي تؤمن الاتصال الروحي بالخالق (عز وجل) بإعتبارها تبعث الاستقرار النفسي والاطمئنان الروحي وتهدئ الخواطر، فالشباب الذين يرتادون المساجد، يكونوا أكثر هدوءاً وأستقراراً عن غيرهم، وأكثر بعداً من التفكير في الجريمة، وينصرف إلى مستقبله وما يعود عليه وعلى أمته بالخير والسعادة والفضيلة، والبعد عن الرذيلة والخيانة التي تنهك قوى الأمة الروحية والمادية.

ويلعب المسجد ومنابر الخطابة دوراً توجيهياً في إصلاح الشباب، لإتباع الفضيلة والحكمة والموعظة الحسنة، وتحصنهم ضد التحلل الخلقي، وتبعدهم عن ممارسة (الغش والسرقة والرشوة) التي تحافظ على ممتلكات الدولة ومواردها المالية، وتضمن الآمان والراحة للمجتمع،لأنها تساعد على دعم المسيرة الاقتصادية.. نحو الأفضل، لأن ضياع الأخلاق ضياع للثروة وأنهيار للقوة الأقتصادية عاجلاً أو آجلاً، سواء أكان على المستوى الفردي أم الجماعي أم الدولي.

ولهذا لا يمكن للنظرية الإسلامية في الاقتصاد والمال، أن تنفصل عن الجانب الأخلاقي، سواءاً من حيث الوسائل والنظريات، أم من حيث المقاصد والأهداف.

خُلقَ الإنسان ليؤدي رسالته في أداء العمل والإنتاج والتعمير للأرض، ويُؤمن بالقيم الوحدانية لله (عز وجل) وبعجائب صنعه وأسرار خلقيتهُ ومنافع أحكامهُ، ليحياها وينعم بخيراتها، بعد أن يسعى على الرزق الحلال، وخدمة المجتمع وتنميته، والنهل من معينها العذب، وتعود أبنائه على إرتياد المساجد، والوفاء والأمانة في معاملاتهم اليومية، والتي قد ذكرها الله (جل جلاله) في كتابهُ الكريم: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٤].

(٣٦) رواه مسلم بشرح النووي، ١/ ٢٢٠.

الرؤية القرآنية لمعاني الفتنة وسبل دفعها

محمد رضا مطر الشريفي
المركز الوطني لعلوم القرآن – بغداد

ملخص البحث

يتناول البحث (تمييز معاني الفتنة ومعرفة فلسفتها واسبابها وسبل دفعها في منظار القرآن الكريم) بخمسة فصول تُظهِر موضوع تناول القرآن الكريم لهذا اللفظ بكل مشتقاته والتي بلغت ستين مرة، وكيف انه اكتسب معاني جديدة بالإضافة الى معناه الأصلي الذي هو: الاختبار والابتلاء معززاً ذلك بأمثلة من القرآن الكريم والحديث الشريف وما أُثر عن الائمة الاطهار والسلف الصالح.

ثم يعيّن السيد الباحث اسباب الفتن وقد حصر ثمانية منها اشار اليها القرآن الكريم. بعد ذلك يلتمس الباحث ما يمكن أن يكون حّلاً شرعياً لدفع الفتنة وقد حصرها في ثمانية أمور. ويتوصل الباحث أخيراً الى أن الفتنة بمعنى الاختبار والابتلاء هي سنة الهية قام عليها مبدأ العدل الأهي ولا يمكن تصور الوجود الانساني، بنظامه التكليفي بدونها.

المقدمة

موضوع الفتنة وتمييزها من منظار القرآن الكريم هو من أخطر المواضيع وأهمها في هذا الزمن المضطرب المائج بالفتن، ويكتسب هذا الموضوع أهميته من كوننا مأمورين بالرجوع إلى القرآن والتمسك بحبله إذا ما دهمتنا الفتن واعترتنا الخطوب لقول رسول الله ﷺ (فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وما حل مصدق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو الدليل يدل على خير سبيل وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة ودليل على المعرفة[1].

(١) الكليني، ١٣٦٥هـ.ش، ج٢، ص.٥٩٩

معاني الفتنة في القرآن الكريم

اولا

ورود لفظ (الفتنة) في القرآن الكريم

ورد لفظ (الفتنة) ومشتقاته في القرآن الكريم في ستين موضعاً، سبعةٌ وثلاثون موضعاً منها بصيغة الاسم، وثلاثةٌ وعشرون أخرى بصيغة الفعل. فأما التي بصيغة الاسم فإنّ منها ثمانية مواضع كان فيها اللفظ معرّفا بـ (ال) التعريف هكذا (الفتنة) وذلك في الآيات التالية:

[سورة البقرة: ١٩١]، [سورة البقرة: ٢١٧]، [سورة آل عمران:٧]، [سورة النساء: ٩١]، [سورة التوبة: ٤٧]، [سورة التوبة: ٤٨]، [سورة التوبة:٤٩]، [سورة الأحزاب: ١٤].

و منها خمسة مواضع عُرّف فيها اللفظ (فتنة) بالإضافة وذلك في كلٍّ من، [سورة المائدة: ٤١]، [سورة الأنعام: ٢٣]، [سورة الأعراف: ١٥٥]، [سورة العنكبوت: ١٠]، [سورة الذاريات: ١٤].

أما المواضع الباقية من المواضع السبعة والثلاثين التي كانت بصيغة الاسم فقد جاءت غير معرّفة (فتنة) في واحد عشرين

موضعا التالية:

[سورة البقرة: ١٠٢]، [سورة البقرة: ١٩٣]، [سورة المائدة: ٧١]، [سورة الأنفال: ٢٥]، [سورة الأنفال: ٢٨]، [سورة الأنفال: ٣٩]، [سورة الأنفال: ٧٣]، [سورة يونس: ٨٥]، [سورة الإسراء: ٦٠]، [سورة الأنبياء: ٣٥]، [سورة الأنبياء: ١١١]، [سورة الحج: ١١]، [سورة الحج: ٥٣]، [سورة النور: ٦٣]، [سورة الفرقان: ٢٠]، [سورة الصافات: ٦٣]، [سورة الزمر: ٤٩]، [سورة القمر: ٢٧]، [سورة الممتحنة: ٥]، [سورة المدثّر: ٣١]، [سورة التغابن: ١٥].

وفي موضع واحد جاءت مُنكَّرةً بصيغة المصدر (فتون) في [سورة طه: ٤٠]، وجاء اللفظ على صيغة إسم الفاعل (فاتنين) مرة واحدة في [سورة الصافات: ١٦٢]، وجاء على صيغة إسم المفعول (مفتون) مرة واحدة في [سورة القلم:٦].

أما المواضع االثلاثة والعشرون التي كانت بصيغة الفعل، فقد كانت مختلفة من حيث زمن الفعل فمنها ما كان ماضيا ومنها ما كان مضارعا ومنها ما كان بناؤه للمعلوم ومنها مابُني للمجهول وقد وردت هذه جميعا في الآيات التالية:

[سورة النساء: ١٠١]، [سورة المائدة: ٤٩]، [سورة الأنعام: ٥٣]، [سورة الأعراف: ٢٧]، [سورة التوبة: ٤٩]، [سورة التوبة: ١٢٦]، [سورة يونس: ٨٣]، [سورة النحل: ١١٠]، [سورة الإسراء: ٧٣]، [سورة طه: ٤٠]، [سورة طه: ٨٥]، [سورة طه: ٩٠]، [سورة طه: ١٣١]، [سورة النمل: ٤٧]، [سورة العنكبوت: ٢]، [سورة العنكبوت: ٣]، [سورة الدخان: ١٧]، [سورة ص: ٢٤]، [سورة ص: ٣٤]، [سورة الذاريات: ١٣]، [سورة الحديد: ١٤]، [سورة الجن: ١٧]، [سورة البروج: ١٠].

إن كثرة تردد هذا اللفظ وتنوع مفاهيمه ومدلولاته في القرآن الكريم يشير إلى أهميته البالغة في المعارف والأحكام التي تناولها القرآن الكريم. وقبل الخوض في معاني الفتنة في القرآن الكريم ومدلولاتها لا بد لنا من التعرف على الأصل اللغوي لهذه الكلمة.

ثانيا

معنى الفتنة في اللغة

الفتنة: الامتحان والاختبار. تقول: فتنت الذهب، إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته. ودينار مفتون. ويُسمى الصائغ الفتان، وقال الخليل: الفَتْن: الإحراق وورق فتين، أي فضة محرّقة. ويقال للحَرَّة فتين، كأن حجارتها محرقة. وافتتن الرجل وفُتن، فهو مفتون، إذا أصابته فتنةٌ فذهب ماله أو عقله، وكذلك إذا أُختبر. والفتون أيضا: الافتتان، والفاتن: المضل عن الحق. قال الفراء: أهل الحجاز يقولون: ما أنتم عليه بفاتنين، وأهل نجد يقولون: بمفتنين من أفتنت[٢].

وقال الأزهري وغيره: جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من الفتن، وهو إذابة الذهب والفضة بالنار لتمييز الرديء من الجيد. و زاد الراغب: ثم استعمل في إدخال الإنسان النار والعذاب، وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنة فتستعمل فيه، والفتنة: الإضلال؛ نحو قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٦٢]، أي بمضلين إلا من أضله الله تعالى، والفتنة: الجنون كالفتون. والفتنة: المحنة؛ عن ابن الأعرابي. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢]، أي لا يُمتحنون بما يبيّن حقيقة إيمانهم.[٣]

وقد اشتهر عند معظم أهل اللغة أن المعنى الأول المقصود من الفتنة هو الاختبار والابتلاء، وذهب بعضهم إلى التفريق بينهما فقال: إن الفتنة أشدُّ الاختبار وأبلغه[٤].

ومن أسماء الفتنة، الدهياء، يعني المظلمة تم تصغيرها تهويلا لها[٥]، والهوشة والهيشة[٦]، والمرج وهي الفتنة المشكلة، والهرج وهي الفتنة في آخر الزمان[٧]، والرقطاء وهي الفتنة التي لا

(٢) الجوهري، الصحاح، ج٦، ص٢١٧٦.

(٣) الزبيدي تاج العروس ج١٨، ص٤٢٥-٤٢٩.

(٤) العسكري، الفروق اللغوية، ص٣٩٦-٣٩٧.

(٥) إبن منظور، لسان العرب، ج٤ ص٤٥٩.

(٦) مختار الصحاح، ص٣٥٩-٣٦٠.

(٧) إبن منظور، لسان العرب، ج٢، ص٣٦٥-٣٨٩.

تعم[٨]، والصماء العمياء هي الفتنة التي لا سبيل إلى تسكينها[٩]، والرداح وهي الفتنة العظيمة[١٠].

مما تقدّم يظهر أن المعنى الأول للفتنة هو الاختبار والابتلاء وإن معانيَ أخرى قد أُضيفت إلى ذلك المعنى الأول بسبب إستعمالات القرآن الواسعة والمختلفة لهذه الكلمة، مما أكسبها هذا الدفق السيّال من المعاني المتجددة بحسب السياق، فقد تأتي الفتنة بمعنى الإعجاب بالشيء فيقال فُتِنَ الرجل بالمرأة بمعنى أعجب بها، وتأتي بمعنى الضلال والإثم، فالفاتن هو المضلل عن الحق، ولذلك سمِّي الشيطان فتّاناً وجمعها فُتّاناً. وتأتي بمعنى الإزالة والإمالة؛ يقال: فتنت فلانةٌ فلاناً، معناه أمالته عن القصد، والمرأة الفاتنة هي المميلة عن الحق. وتأتي أيضاً بمعنى السحر تقول: منظر فاتن وفتّان أي ساحر بجماله، يأسر الناظر إليه ويسحره من شدة جماله. لكنّ ما أحب أن أشير إليه هو إن كثيراً من معاني الفتنة قد ترتبت نتيجة للاستعمال القرآني الواسع والباذخ لهذه الكلمة.

ثالثاً: تعريف الفتنة في الاصطلاح:

إن نصاب الفتنة يقوم في أصله على البدعة والتمادي في إتباع الرأي والشهوة، والشطط ومجانبة التقوى، (وإنما بدء وقوع الفتن من أهواء تتبع وأحكام تبتدع) كما قال علي عليه السلام فالهوى مطية الفتنة، والإعجاب بالنفس لقاحها، والطيش دمنتها، والضلالة ثمرتها، والخسران مآلها. وقد توافقت آراء المفسرين والعلماء على أن أصل الفتنة في الاصطلاح هو الابتلاء والاختبار لكنهم اختلفوا في التعريف الاصطلاحي للفتنة وذلك على النحو التالي:

١-عرّفها الزمخشري بقوله: (الفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء، وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات والملاذ، وبالفقر والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم)[١١].

٢-وعرفها سيد قطب بقوله: «هي

(٨) إبن الأثير، النهاية، ج٢، ص٢٥١.
(٩) إبن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٣٤٣.
(١٠) الزبيدي تاج العروس، ج٤، ص٤٨.
(١١) الزمخشري، الفائق. أ، ج٣، ص١٩٥.

مجموعة من الابتلاءات والمشاقّ في التكاليف بقصد إعداد المسلم إعداداً حقيقياً لتحمل الأمانة، ولا يتم ذلك إلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، والصبر الحقيقي على الآلام، والثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء»[١٢].

٣-وعرف الراغب الأصفهاني الفتنة بقوله: «والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد، كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب، وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك»[١٣].

رابعاً: تعدد معاني الفتنة في القرآن الكريم:

جاءت الفتنة في القرآن الكريم على معانٍ مختلفة بحسب ورودها فيه ضمن سياقها ومناسباتها المختلفة، و القرآن بهذا الاستعمال المتكثّر لهذه اللفظة قد تقدم بهذه الكلمة وحملها إلى ساحات جديدة من المعاني المتولّدة والمتجددة التي لم تكن قد ولجتها في وضعها اللغوي الأول، وقد تيسَّرَ لي أن أحصي عددا من تلك المعاني القرآنية إعتمادا على أقوال المفسرين ومنها:

١-الابتلاء والاختبار: كما في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢]، أي وهم لا يُختبرون كما في الأصفى[١٤].

٢-الصد عن السبيل والردّ: كما في قوله تعالى ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [سورة المائدة: ٤٩]، قال القرطبي: معناه: يصدوك ويردوك[١٥].

٣ -العذاب (أذى الناس): كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة النحل:١١٠]، وقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى

(١٢) سيد قطب، في ظلال القرآن ج٥، ص٢٧٢١.

(١٣) الراغب الأصفهاني، مفردات القرآن ص٣٧٢.

(١٤) الفيض الكاشاني الأصفي، ج٢، ص٩٤٠.

(١٥) القرطبي، التفسير، ج٦، ص٢١٣.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ١٠][١٦].

٤-الشرك والكفر: كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [سورة البقرة: ١٩٣]، قال الطوسي إنما سمي الكفر فتنة لأنّ الكفر يؤدي إلى الهلاك كما تؤدي الفتن إلى الهلاك[١٧].

٥-الوقوع في المعاصي والنفاق: كما في قوله تعالى في حق المنافقين ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ [سورة الحديد: ١٤]، قال البغوي:أي أوقعتموها في النفاق وأهلكتموها باستعمال المعاصي والشهوات[١٨].

٦-اشتباه الحق بالباطل: كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[سورة الأنفال: ٧٣] فالمعنى: "إلا يوالى المؤمن من دون الكافر، وإن كان ذا رحم به (تكن فتنة في الأرض) أي شبهة في الحق والباطل. "كذا في جامع البيان لابن جرير[١٩]

٧-الإضلال: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾[سورة المائدة: ٤١]، فإن معنى الفتنة هنا الإضلال.[٢٠]

٨-القتل والأسر: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سورة النساء:١٠١]، والمراد: حمل الكفار على المؤمنين وهم في صلاتهم ساجدون حتى يقتلوهم أو يأسروهم كما عند ابن جرير[٢١].

٩-اختلاف الناس وعدم اجتماع قلوبهم: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [سورة التوبة:٤٧]، أي يوقعوا الخلاف بينكم كما في الكشاف[٢٢].

١٠-الإحراق بالنار: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [سورة البروج:١٠]، هكذا أورد القمي[٢٣].

(١٦) أنظر: إبن عطية، التفسير ج٣، ص٣٠٨.
(١٧) الطوسي، التبيان ج٢، ص١٤٧.
(١٨) البغوي، معالم التنزيل، ج٨، ص٣٦.
(١٩) الطبري، التفسير، ج١٠، ص٧٣.
(٢٠) إبن زمنين، التفسير، ج٢ ص ٢٨.
(٢١) الطبري، التفسير، ج٥، ص٣٢٩.
(٢٢) الزمخشري، التفسير.أ، ج٢، ص١٩٤.
(٢٣) القمي، التفسير ج٢ ص ٤١٤.

١١-الحُجَّة والمعذرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ [سورة الأنعام: ٢٣]، أي: لم تكن حجتهم ومعذرتهم إلا قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ الآية..، وهذا مروي عن أبي عبد الله عليه السلام[٢٤].

١٢-الجنون، من ذلك قوله تعالى: ﴿بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [سورة القلم: ٦]، أي: بأيكم الجنون،، على اعتبار كون (المفتون) بمعنى (الفتون)، من باب حمل اسم المفعول على معنى المصدر. وكون (الجنون) فتنة؛ من جهة أن العدول عن سبيل أهل العقول هو محنة وفتنة. وقيل إن المفتون هنا تعني الشيطان[٢٥].

١٣ -الفتنة بمعنى الأمراض والأسقام، لقوله تعالى ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٦]، وبه قال الطوسي[٢٦].

علائم ظهور الفتنة من إبتدائها إلى نهايتها من منظار القرآن الكريم

كانت نظرة القرآن الكريم الى الفتنة نظرة شمولية تنطلق من كون هذا الكتاب ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل:٨٩]، هذه الشمولية والكلية جعلت القرآن الكريم يتحدث عن جميع مستويات الفتنة، سواءً كانت فتنة عامة أم خاصة، مؤقتة أم دائمة، مشروعة أم غير مشروعة، والحقيقة إن القرآن قد فرّق بين تلك الأنواع تلميحاً و تصريحاً، وفي المرتين يسّر للباحث أن يتلّمس طريق التصنيف والتبويب كعادة القرآن دائما على إعانة المتدبرين في آياته والمتفكرين في حقائقه، وفي الواقع كانت تلميحات القرآن أبلغ من تصريحات غيره، وربما يكون هذا العون الدائم والعطاء الحاضر من لدن القرآن نفسه هو الذي جعله قمينا بالوصف ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ [سورة الواقعة: ٧٧]. وعليه فقد تحدث القرآن عن فتنة دائمة وفتنة مؤقتة وفتنة عامة وأخرى خاصة.

وأعني بالفتنة الدائمة هي فتنة الابتلاء والاختبار التي ترافق مبدأ وجود الإنسان

(٢٤) الطبرسي، مجمع البيان ج٤، ص٢٦.
(٢٥) الثعلبي، التفسير ج١٠، ص١١.
(٢٦) الطوسي، التبيان، ج٤، ص٥٥٥.

منذ لحظة ولادته وحتى لحظة حسابه في اليوم الآخر، داخلا فيها فتنة القبر وعذابه، وسيكون الكلام في هذه الفتنة هو مدار البحث في الفصل المخصص لبحث فلسفة الفتن في القرآن الكريم وهذا ما سيأتي لاحقا إن شاء الله. وبخلاف الدائمة فإن الفتنة المؤقتة تكون قصيرة ومنحصرة بزمن وقوعها والأفراد الداخلين فيها، كفتنة العجل التي ابتلي بها قوم موسى ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [سورة البقرة: ٩٣]، وفتنة الناقة التي إبتلي بها قوم صالح ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [سورة القمر:٢٧]، وغيرها من الفتن التي إبتليت بها الأمم السابقة، كما بين القرآن الكريم أن ميادين الفتنة قد تتسع بحيث يصبح بعض الناس فتنةً للبعض الآخر كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٢٠]، وقوله ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [سورة الأنعام:٥٣]، وتضيق الفتنة أحياناً ليكون الإنسان فتنة لنفسه، كما في قوله تعالى ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [سورة الحديد: ١٤]، فيوردها مهاوي الردى وغياهب العمى.

لكنّ التداخل والتأثير المتبادل بين الفتنتين العامة والخاصة لا يمكن التغاضي عنه لأن المفتونين من أهل الفسق والكبائر هم أكثر الناس ركوبا للفتن العامة وخوضاً في غمراتها، مثلما إن أجواء العدوان ومشاعر الإستخفاف بالحرمات المصاحبة للفتن العامة هي مغريات قوية تجذب الناس نحو الرذيلة وتجعلهم غبر مبالين بعظم الخطيئة، فالفتن العامة تكون مصحوبة دائما بالطيش وعدم الاحترام وقلة الاكتراث و عدم المبالاة وبالتالي التهاون في الإقدام على الذنوب.

ولكون الفتنة سنة كونية، ولأن هذه الأمة ليست بمنأى عن سنن الكون الطبيعية والاجتماعية فسيصيبها ما أصاب الأمم السالفة إن هي سارت على

ما سارت عليه القرون الأولى، وإلى ذلك أشار الرسول الأكرمﷺ صراحة فقد روي (عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع وباعا بباع حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم وحتى لو أن أحدهم جامع أمه لفعلتم. رواه البزار ورجاله ثقات)[٢٧]، وأخرج الطبراني من حديث سهل بن سعد (قال رسول اللهﷺ والذي نفسي بيده لتركبن سنن الذين من قبلكم حذو النعل بالنعل)[٢٨].

لقد أُخبر رسول اللهﷺ عن أول فتنة تصيب أمته من بعده ورأى تلك الفتنة وعرف أشخاصها وعرّفهم للأمة وحذرها منهم (فقد جاء في الاخبار الشائعة المستفيضة في كتب المحدّثين أن رسول اللهﷺ أخبر أن بنى أمية تملك الخلافة بعده، مع ذم منهعليهم، نحو ما روى عنه في تفسير، قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾[سورة الإسراء:٦٠]، فإن المفسرين قالوا: إنه رأى بنى أمية ينزون على منبره نزو القردة، هذا لفظ رسول اللهﷺ الذي فسر لهم الآية به، فساءه ذلك ثم قال: الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة ونحو قولهﷺ: " إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلا اتخذوا مال الله دولا وعباده خولا " ونحو قولهﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [سورة القدر: ٣]، قال: ألف شهر يملك فيها بنو أمية. وورد عنهﷺ من ذمهم الكثير المشهور)[٢٩]، وقال الطبرسي (إن ذلك رؤيا رآها النبيﷺ في منامه ان قرودا تصعد منبره وتنزل، فساءه ذلك، واغتم به. روى سهل بن سعيد عن أبيه أن النبيﷺ رأى ذلك، وقال إنهﷺ لم يستجمع بعد ذلك ضاحكا حتى مات، وروى سعيد بن يسار أيضا، وهو المروي عن أبي جعفرعليه السلام وأبي عبد اللهعليه السلام وقالوا على هذا التأويل: إن الشجرة الملعونة في القرآن هي بنو أمية، أخبره الله سبحانه

(٢٧) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٧ ص٢٦١.
(٢٨) الطبراني، المعجم.أ، ج٦، ص٢٠٤.
(٢٩) ابن أبي الحديد، شرح المنهج ج٩، ص٢١٩-٢٢٠.

بتغلبهم على أنامه، وقتلهم ذريته)[٣٠]، وما يؤكد هذا التفسير ما (روي عن ابن مردويه عن عبد الرزاق عن أبيه عن مينا، مولى عبد الرحمن بن عوف: أن عائشة رضي الله عنها، قالت لمروان: أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول لك ولأبيك ولجدك: إنكم الشجرة الملعونة في القرآن)[٣١]، أن فتنة بني أمية لا يمكن النظر إليها الآن بعد هذه القرون المتطاولة على إنها فتنة خاصة أو فردية أو منحصرة بزمنها، لأنها أصبحت مثالا صارخا لنهج منحرف في الحكم والقيادة طالما تكرر في الماضي والحاضر ودفعت الإمة بسببه أبهض الأثمان.فالفتنة العامة من منظار القرآن الكريم تقوم على إن سببها هو تسلط الطغاة والظالمين الذين لا يرقبون في المؤمنين إلاّ ولا ذمة، تسلطهم على الأمة وإستئثارهم بمقاليدها، وإن الانحراف الكبير الذي يصيب الأمة يأتي نتيجة دفع المتقين والأبرار عن قيادتها أوما بقية الانحرافات الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية إلا نتائج مترتبة على ذلك الانحراف الكبير، وعليه فأن فتنة آخر الزمان هي فتنة سياسية دينية تتبدى للمراقب بتمظهرات أخلاقية واجتماعية واقتصادية، نصابها الابتعاد عن الإسلام وصراطه القويم وركوب موجات الضلالة الغربية والشرقية، وبالتالي الاضطراب والتردد بين المذاهب الفكرية والسياسية الجانحة عن الإسلام أو المعادية له، لقد أخبر القرآن إن ذلك سيحدث فقال ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [سورة الانشقاق:١٩]، (أي إن حوادث الأمم السابقة تجري بعينها في هذه الأمة)[٣٢].

لقد أعلن القرآن بحزم إن مبدأ الفتنة في هذه الأمة يكون باتباع الشهوات وإضاعة الفرائض وعلى رأسها الصلاة فقال واصفاً حال الناس بعد الرسل ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [سورة مريم: ٥٩]، وقد فسّر لنا الرسول ﷺ -هذه الآية فقد روي عن (الوليد بن قيس التجيبي

(٣٠) الطبرسي، مجمع البيان، ج٦-ص٢٦٦.
(٣١) العيني، شرح صحيح البخاري ج١٩، ص٣٠.
(٣٢) الخوئي، البيان، ص٢٠.

أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ويقرأ القرآن ثلاثة مؤمن ومنافق وفاجر)[٣٣]، أي إنهم: (أنفذوا الشهوات فيما حرم الله عليهم. فخلف من بعدهم خلف شرابون للقهوات، لعابون بالكعبات، ركابون للشهوات، متبعون للذات، تاركون للجمعات، مضيعون للصلوات)[٣٤].

أخبر القرآن بالمستقبل المنتظر لأمة تبتعد عن منابعها الصافية فأعلن للناس أَن الحل لن يكون بعيداً عن الأسلام، بل أعلن أَن الإسلام هو الحل فقال ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران: ١٩]، وقال ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران٨٥:]، فجعل القرآنُ الإسلام أولوية دينية وأخلاقية وتشريعية وحضارية أيضا بناءً على اكتمال هذا الدين وخلوّه من النواقص لقوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣].

وصف القرآن الكريم فتنة آخر الزمان بأنها ستكون عامة وشاملة فقال ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الروم٤١:]، (فالحوادث الكونية تتبع الأعمال بعض التبعية، فجري النوع الإنساني على طاعة الله سبحانه وسلوكه الطريق الذي يرتضيه يستتبع نزول الخيرات، وانفتاح أبواب البركات، وانحراف هذا النوع عن صراط العبودية، وتماديه في الغي والضلالة وفساد النيات وشناعة الأعمال يوجب ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الأمم بفشو الظلم وارتفاع الامن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الانسان واعماله)[٣٥]، فالأمن منوط بالأيمان، قال تعالى ﴿وَلَوْ

(٣٣) الطبراني، الكبير.ب، ج٩، ص١٣١.
(٣٤) الطبرسي، مجمع البيان، ج٦، ص٤٣١-٤٣٢.
(٣٥) الطباطبائي، الميزان، ج٢، ص١٨١.

أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ٩٦].

ومن المفارقات العجيبة التي أشار إليها القرآن إن انفتاح آفاق المعرفة للإنسان و ترقّيه في التحضر والبناء المادي قد لا يكون عاصما من تّرديه في الفتنة واستحقاقه للمقت والعذاب، بل إنه في كثير من الأحيان قد يكون سببا في غروره و انحداره الروحي والأخلاقي قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة يونس ٢٤:].

الأمر المذهل الآخر في شأن الفتنة هو أَن الفقر قد يستوي مع الغنى في تحريك الفتنة ليس لأنهما يفعلان ذلك دائما، وإنما بسبب أَن الناس يكونون ميّالين للإفتتان ومستعدين للغواية تحت أيّ ظرف. الناس المفتونون هم هم في أيام الشدّة والرخاء، فهؤلاء يُفتنون بالفقر، كما في قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [سورة الحج:١١]، هولاء لا يصبرون على فقر و فاقة ويسقطون في أول اختبار، مثلما إن إخوانهم في الغي لا يصبرون على غنىً و رخاء فيفتنهم الله تعالى بأن يفتح عليهم أبواب الثروة فيسقطون فيها أيضا كما قال تعالى ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [سورة فصلت: ٥١]، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا المعنى الدقيق بقوله: «والله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[٣٦]. وعندما تقبل الدنيا على أهل البصيرة فأنهم يستعملونها

(٣٦) البخاري، الصحيح ج٥، ص١٩، الحديث رقم ٤٠١٥.

في كلّ خير وتكون سببا لنجاتهم، لكنها عندما تقبل على أهل الفتنة فأنها لا تزيدهم إلا خسارا، قال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[سورة الأنعام: ٤٤].

إن ما أجمله القرآن في وصف الفتنة المستقبلية -التي ربما يكون هذا زمنها-بيّنه الرسولﷺ، ففي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده(٣٧)، و البيهقي في سننه(٣٨) من حديث أبي موسى الأشعري أن النبي الأعظمﷺقال: «إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي فكسروا قسيكم وقطعوا أوتاركم واضربوا بسيوفكم الحجارة فإن دُخِل على أحدكم فليكن كخير ابني آدم» أي: الذي قُتل. فلا شك إذن أنها فتنة مخيفة ومرعبة هذه التي يمسي فيها المرء مؤمنا ويصبح كافراً، فهذا الإنقلاب الحرج في المواقف يشير إلى إنقلابات حادة في الواقع اليومي والأستناد الفكري والعقائدي للأشخاص والجماعات. حتى يكون المرء الماسك على دينه في تلك الأيام العصيبة كالماسك على الجمر، وقد يكون ما تقدّم مدعاة للياس والقنوط والتوهم بأنعدام الحل وضياع الأمل، لكنّ القرآن دائما عندما يذكر المشكلات لا يكتفي بذكر حلولها فقط وإنما يقدم قبل الحل وصفة مضمونة للوقاية. وقد يكون الأمر الواحد في القرآن حلاً للمشكلة ووقايةً منها في الوقت نفسه وذلك من كرم القرآن وخصائصه الفريدة، قدّم القرآن بعض الوصايا والإجراءات الوقائية التي تمنع وقوع الإنسان في الفتن بل إنها تمنع حصول الفتن أصلا، وذلك ما سأعرض له في الجزء المخصص لسبل دفع الفتنة، ولكنّ القرآن قبل كلّ شيء أمرَ بواجبٍ مؤكد لا مراء فيه وجعله من أصل الدين والأعتقاد وشرطا لقبول الأعمال ألا وهو طاعة الرسول والتمسك بسنته وسنة الأولياء الهادين الراشدين من بعده ثم

(٣٧) الأمام أحمد، المسند ج٣٢، ص٥٠٤.
(٣٨) البيهقي، السنن ج٨، ص١٩١.

العودة إلى أولي العلم فيما يعرض للأمة من مستحدثات الأمور والمسائل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[سورة النساء: ٥٩].

وعلى الرغم من اختلاف المسلمين في تحديد وتطبيق مصداق (أولي الأمر) على الواقع إلا أن ذلك الاختلاف لا يغيّر من حقيقة وجوب الرجوع إلى سنة النبيﷺ-لدى الجميع مع إنه لا يزيل الفرق بين من قال بوجوب الرجوع إلى أئمة أهل البيتعليهم السلام في التعرّف على سنة النبيﷺ-وبين من أجاز الرجوع إلى غيرهم فأن المطلب في الحالتين هو سنة النبيﷺ-و إلى ذلك أشار الآمدي في تعليقه على قول رسول اللهﷺ(عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)[٣٩] فقال: (أن سنة النبي، صلى الله عليه وسلم، أصل، وسنة الخلفاء الراشدين تبع لسنة النبي، صلى الله عليه وسلم، ومقصود الصحابي إنما هو بيان الشرعية. ولا يخفى أن إسناد ما قصد بيانه إلى الأصل أولى من إسناده إلى التابع.)[٤٠].

ومع إن هذا البحث غير مخصص لبحث مسألة الخلاف في تحديد مصداق (أولي الأمر) الخلفاء للرسولﷺ-، لكنّه على أقل تقدير لا يستطيع تجاوز مسألة الرجوع الفقهي في العصر الحاضر للظفر بسنة الرسولﷺ، لأنها مسألة ملحة لدى جميع الأطراف وعلى مستوى واحد من الخطورة والأهمية، مع توقف الإجتهاد في مدرسة الخلفاء وغياب الأمام الثاني عشرعليه السلام-في مدرسة أهل البيت. ومرة أخرى يكون الحل لدى القرآن ! فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة النساء٨٣:]، إن الأمور التي

(٣٩) حديث صحيح أخرجه الدارمي، ج١، ص٤٥، والسجستاني ج٢، ص٣٩٣.

(٤٠) الآمدي، الإحكام ج٢-ص٩٨.

ترشد إليها هذه الآية الكريمة كثيرة ولكن أوضح ما فيها هو إستطالتها الإجرائية العابرة للأجيال والتي يُفهم منها مباشرة ضرورة الرجوع إلى العلماء المتفقهين في الأمور العامة حذراً من السقوط في الفتنة فإنّا نعلم (علما ضروريا)، بأن النبيﷺ المبعوث بالنبوة الختمية أكملَ النبوات وأتمَ الأديان، بعد عدم إهماله جميع ما يحتاج إليه البشر حتى آداب النوم والطعام، وحتى أرش الخدش، لا يمكن أن يهمل هذا الأمر المهم الذي يكون من أهم ما تحتاج إليه الأمة ليلا ونهارا، فلو أهمل- والعياذ بالله-مثل هذا الأمر المهم، أي أمر السياسة والقضاء، لكان تشريعه ناقصا، وكان مخالفا لخطبته في حجة الوداع. وكذا لو لم يعين تكليف الأمة في زمان الغيبة، أو لم يأمر الإمام بأن يعين تكليف الأمة في زمانها-مع إخباره بالغيبة وتطاولها-كان نقصا فاحشا على ساحة التشريع والتقنين، يجب تنزيهها عنه. فالضرورة قاضية بأن الأمة بعد غيبة الإمامعليه السلام في تلك الأزمنة المتطاولة، لم تترك سدى في أمر السياسة والقضاء الذي هو من أهم ما يحتاجون إليه، خصوصا مع تحريم الرجوع إلى سلاطين الجور وقضاتهم، وتسميته: رجوعا إلى الطاغوت، وأن المأخوذ بحكمهم سحت ولو كان الحق ثابتا، وهذا واضح بضرورة العقل، وتدل عليه بعض الروايات. فإذا علم عدم إهمال جعل منصب الحكومة والقضاء بين الناس، فالقدر المتيقن هو الفقيه العالم بالقضاء والسياسات الدينية العادل في الرعية. خصوصا مع ما يرى من تعظيم الله تعالى ورسول الأكرم والأئمةعليهم السلام العلم وحملته وما ورد في حق العلماء من كونهم (حصون الاسلام)، و (أمناء)، و (ورثة الأنبياء)، و (خلفاء رسول الله)، و (أمناء الرسل)، وأنهم (كسائر الأنبياء)، و (منزلتهم منزلة الأنبياء في بني إسرائيل)، وأنهم (خير خلق الله بعد الأئمة إذا صلحوا)، وأن (فضلهم على الناس كفضل النبي على أدناهم)، وأنهم (حكام على الملوك)، وأنهم (كفيل أيتام أهل البيت)، و (أن مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه)... إلى غير ذلك[٤١].

أما الذي يجب أن نعرفه عن الفتنة فهو

(٤١) السيد الخميني، الاجتهاد والتقليد ص٢٢ -٢٨ بتصرّف.

إنها تحدث في زمن مختلط وملتبس تتداخل فيه الخطوط وتنتعش فيه البدع، تفشو فيه الرذيلة وتنتشر، وتقل فيه الفضيلة وتنحسر، والذي يتتبع أحاديث الرسول الأكرم وأهل بيته الطاهرين (عليهم الصلاة جميعاً) في وصف أزمان الفتنة يجد أنهم -عليهم الصلاة والسلام -قد أفاضوا في وصفها وعلّموها بعلائم مميزة بغية تحذير المؤمن من شرورها ومن تلكم الأوصاف: ظهور الفحش والتفاحش، أن يؤتمن الخائن. أن يخون الأمين. قطيعة الرحم، سوء المجاورة. أن يصدَّق الكاذب، أن يكذب الصادق، إسناد الأمر إلى غير أهله، انتشار النساء الكاسيات العاريات، نزع البركة من الوقت، نقص المكيال والميزان، منع الزكاة. نقض عهد الله وعهد رسولهﷺ، عدم الحكم بكتاب الله تعالى، انتشار الزنا، التنافس على الدنيا. شرب الخمر، ظهور القينات والمعازف، استشارة الجهلاء، إتباع سنن الأمم الأخرى، فشو التجارة، التطاول في البنيان، بيع الحكم، الاستخفاف بالقتل، كثرة الشرطة، كثرة المال. ارتكاب الفاحشة على الطريق العام.. وغير ذلك من أخلاق السوء وسنن الباطل. وبكلمة واحدة أقول إن من عرف مبدأ الفتنة على حقيقته لهو أقدر على معرفة منتهاها، فمبدؤها البدعة والضلالة ومخالفة القرآن والسنة، ومنتهاها الخسران مع الغفلة أو النجاة مع التمسك بحبل الله ورسولهﷺ.

أسباب وأرضيات وقوع الإنسان في الفتن من منظار القرآن الكريم

ثبّت القرآن الكريم الأسباب التي تؤدي إلى الفتنة والدوافع التي تدفع بأتجاهها، وفي الأمور والمشكلات الخطيرة يكون ذكر الأسباب أمرا مطلوبا و مقدّما على ذكر الحلول. ومن أهم أسباب الفتنة التي ذكرها القرآن الكريم ما يأتي:

أولا

غواية الشيطان واتباع خطواته

عداوة الشيطان لبني آدم هي القصة الأولى على سطح هذه البسيطة ولولا مكائد الشيطان وحبائله لما وقع الأنسان في شرك المعاصي قط، وقد أخبر الله تعالى آدم بجذر تلك العداوة بقوله ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا

﴿ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [سورة طه: ١١٧]. ولكن قدر الله وقضاءه إستوجب حرية التكليف لغرض العدل في الجزاء، فكانت الغواية من الشيطان والأتباع أو الممانعة من الإنسان وحدث ما حدث بين آدم وزوجه وبين الشيطان ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [سورة البقرة: ٣٦]، ومنذ زمن التكوين الأول حتى يرث الله الأرض ومن عليها فأن حرب الغواية التي يشنها الشيطان على ولد آدم حسدا وحقدا لا تفتر وعداوته لا تنقطع لقوله تعالى ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف:٢٧].

كانت تلك القصة أول فتنة يتعرض لها الإنسان بسبب الأستماع إلى صوت الشيطان وأمن مكره، وبالإضافة إلى دأب الشيطان المستمر في فتن الإنسان وإيقاعه في المعاصي، فأن سعيه دؤوب أيضا في تهييج الناس وإيقاع الفتنة والبغضاء بينهم وذلك ما حذر منه قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[سورة البقرة٢٠٨:] وقوله تعالى ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[سورة الإسراء: ٥٣].

ثانيا

كثرة المعاصي في المجتمع وشيوع الفاحشة فيه

من آثار المعاصي والقواحش إنها تفسد الدنيا قبل أن تورث الخسران والعذاب في الآخرة وهي سبب كبير ومؤشر خطير لحصول الفتن والاضطرابات والشرور في الأمم والشعوب، قال تعالى ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الروم: ٤١]. والفتنة التي تصيب الأمة مجتمعة هي أظهر وجوه الفساد الجماعي الذي يوجب الحياة المضطربة الضنكة المليئة بالفتن لقوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [سورة طه: ١٢٤]، يجب أن لا ننسى أن مراتع الشيطان الخصبة تكون في الأوساط الموبوءة بالخطايا والفواحش، وإن المجتمعات التي تنعم بالفضيلة هي حقا أرض جدباء للشيطان لا حرث له فيها ومن هنا نفهم قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النور:١٩] قال الشوكاني في تفسيرها: أي يحبون أن تفشو الفاحشة وتنتشر من قولهم شاع الشيء يشيع شيوعاً وشيعا وشيعانا).[٤٢]، وليس أضر على الأمة وأفتك بها في هذا العصر من شيوع الفاحشة بين رجالها ونسائها عن طريق وسائل الأتصال والأعلام وصيحات الأزياء والتشبه بأهل الفجور والرذيلة وثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: (لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)[٤٣].

(٤٢) الشوكاني، فتح القدير ج٤، ص٢٤.

(٤٣) رواه الحاكم، في المستدرك ج٤، ص٥٨٣ = = ، وقال صحيح الإسناد.

ثالثاً

إتباع الهوى وركوب البدعة

حذر القرآن الكريم من إتباع الهوى المفضي إلى الحيد عن الحق فقد قال تعالى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٣٥]، ولا يكون إتباع الهوى إلا مع الغفلة عن ذكر الله لقوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [سورة الكهف٢٨:].

وربما لا يكون العلم عند بعض النفوس المريضة عاصما من الميل إلى الضلالة فقد قال تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية: ٢٣]، وقال الطباطبائي في تفسيره لهذه الآية (وهذا هو المصحح لتصوير ضلال الانسان في أمر مع علمه به فلا يرد عليه أن لبس الانسان على نفسه الحق بالباطل إقدام منه على الضرر المقطوع وهو غير معقول. على أنا لو تعمقنا

في أحوال أنفسنا ثم أخذنا بالنصفة عثرنا على عادات سوء نقضي بمساءتها لكنا لسنا نتركها لرسوخ العادة وليس ذلك إلا من الضلال على علم، ولبس الحق بالباطل على النفس والتلهي باللذة الخيالية والتوله إليها عن التثبت على الحق والعمل به، أعاننا الله تعالى على مرضاته)[٤٤]، وفي تحذير مخلص من إتباع الهوى الموصل إلى ركوب الفتنة قال علي بن أبي طالب عليه السلام (ألا إن أخوف ما أخاف عليكم خلتان: اتباع الهوى وطول الامل أما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الامل فينسي الآخرة، وإنما بدء وقوع الفتن من أهواء تتبع وأحكام تبتدع، يخالف فيها حكم الله يتولى فيها رجال رجالا)[٤٥].

رابعا

الجهل وعدم الرجوع إلى أهل العلم:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ما قسم الله للعباد شيئا أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل)[٤٦]، وقد أفاض القرآن في ذم الجهل والجاهلين ونهى عن صحبتهم فضلا عن إتباعهم فقال ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٩٩]، وقال ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[سورة الأنعام: ٣٥]، ومن بؤس الجاهل وإحباطه أن تكون عبادته -إن كان عابداً-ليست بذات فائدة فهو إنما يعبد وهما وخيالا، ولذلك قرر الله -تعالى -عدم التسوية بين الجاهل والعالم فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الزمر: ٩]، وقال ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة الجاثية: ١٨].

والفتنة في أصلها إنما تقوم على دعوة جاهل خبيث يُفتَتن بها وينساق وراءها مجموعة من الجاهلين الأغرار فهم جميعاً خباطون في العشوات قال عنهم الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾[سورة الأنعام: ١١٩].

خامساً

مخالفة سنة الرسول صلى الله عليه وآله

حذّر الباري عزوجل من أن مخالفة الرسول صلى الله عليه وآله ستوقع المخالفين في شراك

(٤٤) الطباطبائي، الميزان ج٧، ص٢١.
(٤٥) الكليني، الكاشاني. ش، ج٨، ص٥٨ -٥٩.
(٤٦) الكليني، السابق. ش، ج١، ص١٣.

الفتنة وتجعلهم عرضة للعذاب و ذلك بقوله تعالى ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[سورة النور: ٦٣]. وقد ورد تفسير الفتنة في هذه الآية عن بعض السلف بتسليط السلطان الجائر(٤٧) وذلك عقوبة للعباد بسبب تركهم سنة النبيﷺ، وقد تحدث ابن القيم حول هذا الأمر مبيناً أن تسلط الظلمة من الحكام يكون غالباً بسبب مخالفة الرعية لسنة نبيهمﷺ حيث يقول: «وتأمل حكمته في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقام ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن أخذوا ممن يتضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقون وضربت عليهم المكوس، والوظائف وكل ما يستخرجونه من الضعيف، يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم وليس في الحكمة الإلهية أن يولي على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم»(٤٨).

(٤٧) الألوسي، روح المعاني ج١، ص٢٢٧.

سادسا

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ترجع الفتن العامة التي أصابت وتصيب الأمة الإسلامية إلى إهمال جانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنت ترى الناس إذا فشا فيهم المنكر ولم يكن معه ناهٍ، وقلّ فيهم المعروف ولم يكن معه آمر ومحرّض، تراهم قطيعا هائما دونه قطعان الغاب في الهمجية والعدوان، وقد وصف القرآن الكريم أهل السوء والفسوق من الأمم السابقة بأنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[سورة المائدة: ٧٩]، وقد قال النبيﷺ: (لا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسلط بعضهم على بعض، ولم

(٤٨) إبن القيم، مفتاح دار السعادة، ج١، ص١٥٣.

يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء وقال الكاظم عليه السلام: «لتأمُرُونَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم». وعن الباقر عليه السلام: قال: «ويل لقوم لا يدينون الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر». والأخبار في ذلك كثيرة[٤٩].

سابعاً

موالاة الكافرين

موالاة المؤمنين للكافرين من أعظم أسباب الفتنة التي تحدث عنها القرآن الكريم حيث يقول-سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [سورة الأنفال: ٧٣]. وقال تعالى ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾[سورة آل عمران: ٢٨]، وتقدير الكلام في الآية الأولى (الا تفعلوا ما أمرتم به من التناصر والتعاون والبراءة من الكفار "تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" على المؤمنين الذين لم يهاجروا. فالفتنة هاهنا المحنة بالميل إلى الضلال لأنه إذا لم يتوال المؤمن المؤمن على ظاهر حاله من الايمان والفضل، ولم يدعه إلى التبري من الضلال أدى ذلك إلى الضلال)[٥٠].

ويقول سيد قطب: «إن المجتمع الجاهلي لا يتحرك كأفراد، إنما يتحرك ككائن عضوي تندفع أعضاؤه بطبيعة وجوده وتكوينه للدفاع الذاتي عن وجوده وكيانه، فهم بعضهم أولياء بعض، ومن ثمَّ لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا في صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى، فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلي، لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفراداً، وتقع الفتنة في الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده»[٥١].

ثامنا

اتباع متشابه القرآن

المتشابه هو ما كان معناه ملتبساً على

(٤٩) العلامة الحلي، ج٢، ص٢٣٩ -٢٤٠.

(٥٠) الشيخ الطوسي، التبيان، ج٥، ص١٦٣.

(٥١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣، ص١٥٥٩، ١٥٦٠.

الأفهام، ذلك بأن يكون لفظه يشبه لفظ غيره، ومعناه يخالف معناه[٥٢]. وقد بيّن الله تعالى أن أصحاب القلوب المريضة والذين لم تخالط بشاشة الإيمان قلوبهم لا يتبعون إلا المتشابه من القرآن، وذلك بغرض إثارة الفتنة، وبهدف تأويله بما يتناسب مع معتقداتهم ومصالحهم ومبادئهم الفاسدة، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[سورة آل عمران:٧]. والآية تصف حال الناس بالنسبة إلى تلقي القرآن بمحكمه ومتشابهه وأن منهم من هو زائغ القلب ومائله ومضطربه فهو يتبع المتشابه ابتغاءا للفتنة والتأويل ومنهم من هو راسخ العلم مستقر القلب يأخذ بالمحكم ويؤمن بالمتشابه ولا يتبعه ويسأل الله تعالى أن لا يزيغ قلبه بعد الهداية. ومن هنا يظهر أن المراد باتباع المتشابه اتباعه عملا لا إيمانا وان هذا الاتباع المذموم اتباع للمتشابه من غير ارجاعه إلى المحكم. والمراد بابتغاء الفتنة طلب إضلال الناس فإن الفتنة تقارب الاضلال في المعنى)[٥٣]. قال علي عليه السلام (ألا وإن أبغض خلق الله إلى الله رجل قمش علما غارا في أغباش الفتنة عميا بما في غيب الهدنة، سماه أشباهه من الناس عالما، ولم يغن في العلم يوما سالما، بكّر فاستكبر فما قل منه فهو خير مما كثر حتى إذا ما ارتوى من ماء آجن وأكثر من غير طائل قعد للناس مفتيا لتخليص ما التبس على غيره، إن نزلت به إحدى المبهمات هيأ حشوا من رأيه، فهو من قطع المشتبهات في مثل غَزْلِ العنكبوت، لا يعلم إذا أخطأ لأنه لا يعلم أخطأ أم أصاب خباط عشوات ركاب جهالات، لا يعتذر مما لا يعلم فيسلم، لا يعض في العلم بضرس قاطع، ذراء الرواية ذرو الريح الهشيم، تبكي منه الدماء، وتضرخ منه المواريث، ويستحل بقضائه الحرام، لا ملئ والله باصدار ما ورد عليه، ولا أهل لما فرط به)[٥٤]، [٥٥].

(٥٢) الخازن، التفسير، ج١، ص٢٥٥.

(٥٣) الطباطبائي، الميزان، ج٣، ص٢٣-٢٤.

(٥٤) المتقي الهندي، كنز العمال، ج١٦، ص١٩٨.

(٥٥) الغار: الغافل المغتر، الأغباش: جمع غبش وهو الظلمة، الهدنة: مغتر بتسليم الجهلة=

السبل العملية لدفع الفتنة من منظار القرآن الكريم

لم يكتفِ القرآن الكريم بكشف أسباب الفتنة وتحديد مقترباتها، وإنما أردف ذلك بوضع خطته المحكمة ورسم معالم تحصيناته المنيعة باتباع منهج عملي قائم على تحديد أهداف سلوكية محددة ومعروفة وضعها نصب عيني المؤمن وزوّده بأدوات يومية في سبيل الوصول إليها، وبخلاف الكتب الأخرى فإن مواعظ القرآن تجاوزت إطارها النظري والإرشادي ودخلت إلى حيّز التطبيق من خلال إجراءات ولوائح نظام وأحكام عملية قام عليها الفقه الإسلامي بتشريعاته الغنية، في الحقيقة يمكن النظر إلى تشريعات الإسلام جميعاً على إنها سبل عملية ناجعة لدفع الفتنة، ولكننا سنذكر بعض المعالجات المهمة والخطط السريعة التي أتى بها القرآن لضمان حماية المؤمنين أفرادا وجماعات من أخطار الفتن الداهمة وأهمها:

أولا

التقوى ومخالفة الشيطان

هذه هي الجنة هيأها الله لأهل كرامته، وتلك هي النار نصبها لأهل عداوته، فلا تُنال هذه إلا بالتقوى، ولا تُجتنب تلك إلا بالتقوى، ولذلك أمر الله بها على كلّ حال فقال ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: ١٩٧]، على أن التقوى ليست من عُدد الآخرة فحسب، وإنما هي من لوازم إصلاح الدنيا أيضا وهي الضابط الأول لتمييز العلاقة بين الأفراد داخل المجتمع الإسلامي لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[سورة الحجرات: ١٣]، وجعل الله التقوى منهج عمل للمؤمن في السر والجهر وجعلها موجّها للعمل الجماعي برمته فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[سورة المجادلة: ٩]، وأكّد إن أي جنوح نحو العصبية سواء كانت عنصرية أم قبلية أم قطرية سيجعل

= له، المبهمات: المسائل الشائكة، العشوة: الظلمة، أنظر: الزمخشري، الفائق، ج١، ص٤٠٤-٤٠٥.

المجتمع مجتمعاً جاهلياً، قال تعالى ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[سورة الفتح: ٢٦]. كما إن التقوى لا تقوم وتثبت إلا بمخالفة الشيطان، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور: ٢١]. ولكلّ هذا تكون التقوى هي المانع الأول الحائل دون حصول الفتنة على المستويين الفردي والجماعي.

ثانياً

حماية الهيئة العامة للمجتمع الإسلامي من الفواحش الظاهرة

مع أن الإسلام أكدّ على الطاعة والفضيلة في السرّ والعلانية، إلا إنه أولى الصلاح الظاهر العام واستتباب الفضيلة في المجتمع الإسلامي عناية كبرى، لأنه يعلم أن ازدهار قيم الإسلام وظهورها في المجتمع تمثّل عونا كبيراً في دعم الأفراد وحملهم على الالتزام بالقيم والأخلاق النبيلة، فوضع الحدود والتعزيرات المترتبة على المتجاهرين بالفاحشة أو الساعين لإثارة البلبلة وعدم الثقة داخل المجتمع حفاظاً على ذمم المؤمنين وكرامتهم وحصراً للرذيلة في مواطنها المحدودة، ومن أجل ذلك قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[سورة النور: ٤]، و قرر القرآن هذا العقاب لمن تسوّل له نفسه العبث بالهيئة العامة للمجتمع وسمى عمله هذا إفكا وتعهد بحماية المؤمنين من آثاره الريبة وإشاعة السيئة فقال ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ﴾ [سورة النور: ١٢]. ومن الواضح إن مهمة الحفاظ على الهيئة العامة للمجتمع هي من أقدس مهمات الحكومة الراشدة التي تحترم الهوية الإسلامية للمجتمع.

ثالثا: التمسّك بالسنة ومحاربة البدعة:

أمر القرآن الكريم في غير موضع بإتباع الرسول وجعل طاعته وصلة لطاعة

الله ونيل رضاه فقد قال تعالى ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾[سورة آل عمران٣٢:] وقال ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[سورة النساء٨٠:]، وأردف الله طاعة الرسول بطاعة أولي الأمر من بعده فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[سورة النساء: ٥٩]، إن مصداق طاعة الرسول اليوم هو في إتباع سنته والثبات على نهجه ونبذ البدع والمحدثات فقد روي عن رسول الله ﷺ- إنه قال (شر الأمور محدثاتها وكلّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)[٥٦] و أخرج ابن ماجة حديثا تحت رقم ٣٩٥٧ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كيف بكم وبزمان يوشك أن يأتي، يغربل الناس فيه غربلة، وتبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، فاختلفوا، وكانوا هكذا (وشبك بين أصابعه) قالوا: كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذلك ؟ قال " تأخذون بما تعرفون. وتدعون ما تنكرون. وتقبلون على خاصتكم. وتذرون أمر عوامكم)[٥٧].

رابعا: الرجوع إلى أهل الذكر والعلماء:

لن تجد كتابا في الأرض ولا في السماء فضّل العلماء وبوأهم تلك المكانة العلية في الوجود كما فعل القرآن عندما جعلهم الله تعالى شهودا مع ذاته وملائكته على وحدانيته فقال ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[سورة آل عمران١٨:] ورفعهم في الدرجات عندما قال ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [سورة المجادلة: ١١]، وأحال الناس عليهم في المسألة عندما قال ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة النحل٤٣:]، وقد لا تكون بلية الأمة بالجاهل الذي إعترف بجهله شيئا مذكورا إذا ما قيست ببليتها بأنصاف المتعلمين الذين يلبسون على الناس دينهم ويفسدون

(٥٦) النسائي، السنن، ج٣، ص١٨٨.

(٥٧) ابن ماجة، ج٢، ص١٣٠٧ -١٣٠٨.

عليهم عقولهم، فبقاء هذه الأمة ببقاء العلم والعلماء فيها وإلاّ فإنها سوف تصطلم بنيران الجهل والغي والفتنة مع فقدهما.

خامساً

إلتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أدرك المسلمون أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إقامة الدين والترويج للفضيلة ودفع الفتنة من خلال القرآن الذي أعلن خيرية هذه الأمة وأفضليتها على الناس جميعا مادامت آمرةً بالمعروف ناهيةً عن المنكر بقوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٠]، (ومعناه: صرتم خير أمة خلقت لأمركم بالمعروف، ونهيكم عن المنكر، وإيمانكم بالله. فتصير هذه الخصال على هذا القول شرطا في كونهم خيرا. وقد روي عن بعض الصحابة أنه قال: من أراد أن يكون خير هذه الأمة، فليود شرط الله فيه من الايمان بالله، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر).[٥٨] و قد بيّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن الفتنة لا تقتصر على الظالمين فحسب، بل تتعداهم إلى الساكتين عن ظلمهم وقد قال الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [سورة الأنفال: ٢٥]وقيل في تفسيرها: «واحذروا فتنة إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالمين خاصة بل تتعدى إليكم جميعاً وتصل إلى الصالح والطالح»[٥٩].

سادساً

ردّ المتشابه إلى المحكم

تحدثنا عن أثر الخوض في متشابهات القرآن في الإنزلاق نحو الفتنة، وقلنا إن الأمن من ذلك الإنزلاق والتردي لا يكون إلا برد المتشابه إلى المحكم (وحكم المتشابه أن يحمل على معنى المحكم ويرد إليه بقوله تعالى «منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات» إلى قوله «وابتغاء تأويله» فأمر الله تعالى برد المتشابه إلى المحكم لأن وصفه للمحكم بأنه أم الكتاب يقتضي أن يكون غيره محمولا عليه ومعناه معطوفا عليه إذ كان أم الشيء ما منه ابتداؤه وإليه مرجعه ثم ذم من اتبع المتشابه واكتفى بما

(٥٨) الطبرسي، مجمع البيان، ج٢، ص٣٦٣.

(٥٩) الرازي، مفاتيح الغيب، ج١٥، ص١٥٤.

احتمله اللفظ من تأويله من غير رد له إلى المحكم وحمله على موافقته في معناه وحكم عليهم بالزيغ في قلوبهم بقوله «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله»(٦٠).

سابعاً

الوقار والتثبت وعدم الجَرْي وراء الشبهات

وصف الله أهل النفاق بالخفة والإسراع وراء كلّ فتنة وتحت أيّة ذريعة فقال تعالى ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾[سورة الأحزاب:١٤]، وقد طلب القرآن من المؤمن أن يكون نابها متثبّتا لا ينساق وراء الأخبار والشائعات ولا يبني مواقفه إلا بعد اليقين والتاكّد فقال تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[سورة الإسراء: ٣٦]، وقال أيضا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة الحجرات: ١٢]. حيث أن أغلب الفتن تقوم بعد إنسياق الناس وراء الإشاعات والأراجيف.

ثامناً

الفرار من أرض الفتنة

أمر الله تعالى المؤمن بمقاومة الباطل ما استطاع إلى ذلك سبيلا، لكن بعض الظروف قد لا تسمح للإنسان بالمقاومة ولا تعينه على الصمود، وهنا رخص الله لعباده بالهجرة من الأرض التي يفتنون فيها ويخشون فيها على دينهم ويكون فيها الإبتلاء عظيما، وربما يصل الحكم في بعض الإحيان إلى وجوب الهجرة من أرض الفتنة لقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ٩٧]واستثنى من ذلك بعض الفئات فقال ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾[سورة النساء: ٩٨]، وقد أخرج البخاري في (بَاب مِنْ الدِّينِ

(٦٠) الجصّاص، احكام القرآن، ج١، ص١٩١.

الْفِرَارُ مِنْ الْفِتَنِ) حديثا برقم ١٨ «عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ»(٦١)، وقال إبن البطّال في شرحه على الصحيح (هذا الحديث يدل على إباحة الانفراد والاعتزال عند ظهور الفتن، طلبًا لإحراز السلامة فى الدين، خشية أن تحل عقوبة فتعم الكل، وهذا كله من كمال الدين)(٦٢).

فلسفة الفتنة في القرآن الكريم

فلسفة الفتنة هي القضية التي تقوم عليها فلسفة التكليف البشري في الدنيا أصلا وما يرتبط به من إستحقاق أخروي يحقق مفهومي الرحمة والعدل الإلهيين. هذان المفهومان المتساوقان اللذان لا يمكن التفكيك بينهما البتة لفهم حقيقة وجود الإنسان في الكون وحقيقة تكليفه. فعلى الأول قام الله بإغداق فيضه على الإنسان فأخرجه من العدم إلى الكون إنجازاً لرحمته الشاملة فهو الذي ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[سورة الأنعام: ١٢]، فكانت الرحمة هي الداعي لخلق الخلق كما صرّح بذلك قوله تعالى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود: ١١٩]، وعلى الثاني قام قوله تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[سورة المؤمنون: ١١٥]. وقوله تعالى ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة القلم: ٣٥]،

وهذا الكون الذي خلقه ويدبره إلهٌ رحيم عادل لا يمكن أن يكون إلا كونا إختباريا وإبتلائيا، وذلك ما يخبرنا به قوله تعالى ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[سورة العنكبوت: ٢-٣]، هذه الفتنة الدائمة هي من لوازم الوجود الإنساني بطبيعته، ولا يمكن إنفكاكها عنه إلا مع تصوّر وجود نظام آخر غير هذا النظام الذي قرره الله لهذا الوجود الدنيوي الممهد للوجود الدائم والذي أخبر القرآن عن صفاته.

هنا تظهر الفتنة الإلهية سنةً كونية لا

(٦١) البخاري، الصحيح، ج١، ص٢٣.
(٦٢) إبن بطّال، شرح صحيح البخاري، ج١، ص٧١.

صلاحَ للوجود بدونها، سنة تجري على الجميع ويتحسسها الجميع، ولا أبالغ إذا قلت يُطالِب بها الجميع، هي تكتسب أهمية قصوى إلى الدرجة التي يُفهم فيها من بعض الآيات القرآنية إنها غاية الوجود أو هدف من أهدافه مع إنها في الحقيقة شرط من شروطه ووسيلة من وسائل تطبيق العدل الإلهي والتكامل الإنساني فيه وذلك ما يقرره قوله تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الكهف:٧]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [سورة الملك٢:]، وقوله ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [سورة الإنسان: ٢]وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الأنعام١٦٥:]، وقوله ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[سورة يونس١٤:]، وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[سورة هود٧:]، وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[سورة المائدة: ٤٨]، وقوله ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة الأنعام١٦٥:]، وغيرها من الآيات الكريمة، والفتنة بما إنها تعني الأختبار والإبتلاء فقد كانت علة اختلاف الأمم والألسن واللغات هو الابتلاء كقوله عزوجل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [سورة المائدة: ٤٨]، وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ

﴿ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[سورة النحل: ٩٣]، وكانت أيضا علة لاختلاف الأرزاق وتقديرها كقوله تعالى ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [سورة الزخرف:٣٣]، وقوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾[سورة الشورى: ٢٧]، ومع أن الله تعالى قد علم قبلا أحوال عباده على وجه اليقين القاطع وسبق في علمه معرفة أهل السعادة والشقاوة منهم، إلا إن عدله اقتضى اختبارهم لتقع أعمالهم وفق ما سبق علمه فيهم من دون جبرٍ ولا تفويض،

كما أشار تعالى إلى حكمة اختبار الصادق في إيمانه وغيره بالجهاد في آيات من كتابه، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [سورة الفتح:٤]وكقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [سورة آل عمران:١٧٩] وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [سورة التوبة:١٦]وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٤٢]وقوله تعالى:﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [سورة محمد:٣١]إلى غير ذلك من الآيات وكقوله تعالى في حكمة الابتلاء المذكور، وتسهيل الشهادة في سبيله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[سورة آل عمران: ١٤٠-١٤١].

ومعلوم أن حكمة الابتلاء والتكليف

لا تتم إلا بالجزاء على الأعمال. وقد بين تعالى أن من الحق الذي خلق السماوات والأرض خلقا متلبسا به جزاء الناس بأعمالهم، كقوله تعالى في النجم: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [سورة النجم:٣١]. ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [سورة يونس:٤]. ولما ظن الكفار أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا، لا لحكمة تكليف وحساب وجزاء، هددهم بالويل من النار، بسبب ذلك الظن السيىء، في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص:٢٧]. وقد نزه تعالى نفسه عن كونه خلق الخلق عبثا، لا لتكليف وحساب وجزاء، وأنكر ذلك على من ظنه، في قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون:١١٥-١١٦].(٦٣)

وبعد هذا الحشد الرائع من هذه الآيات البينات الكريمات التي لا مزيد عليها، والتي يكون عمل من يتكلّف الجهد لتوضيح بيناتها الناطقة وحجتها البالغة عملا فائضاً عن الحاجة، فبيانها أبلغ من كلّ توضيح، ووضوحها أقطع لكلّ حجة، أقول بعد هذا يتضح لنا بجلاء إن الفتنة بمعناها الواسع -الإبتلاء والإختبار -هي روح الوجود ومزاجه الحقيقي، وذلك ما أردنا الوقوف عليه من حقيقة فلسفة الفتنة في القرآن الكريم.

وأخيراً: ظهر لنا من خلال كمّ كبير من آيات القرآن الكريم أن الفتنة -بمعنى الاختبار والابتلاء -هي سُنّة إلهية قام عليها مبدأ العدل الإلهي، ولا يمكن تصور الوجود الانساني، بنظامه التكليفي، بدونها.

(٦٣) أنظر: الشنقيطي -اضواء البيان، ج٧، ص٢١١.

المصادر والمراجع

أولا

القرآن الكريم

ثانيا

١. إبن الأثير، المبارك محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، قم -ايران، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع -١٣٦٤ هـ. ش.

٢. الأمام أحمد، بن حنبل، مسند الإمام أحمد، بيروت، مؤسسة الرسالة.

٣. الألوسي، محمود أبو الفضل، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٥ م.

٤. الآمدي، علي بن محمد أبو الحسن، الإحكام، الرياض، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ج٢.

٥. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجعفي، الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، بيروت -لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ج١، ج٥.

٦. إبن بطّال، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك البكري القرطبي، شرح صحيح البخاري، الرياض، مكتبة الرشد، الطبعة: الثانية، ج١.

٧. االبغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٩٩٧م.

٨. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، السنن الكبرى، مكة المكرمة، مكتبة دار الباز-١٩٩٤ م.

٩. الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، الكشف والبيان، بيروت-لبنان، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ٢٠٠٢م.

١٠. الجصّاص، أحمد بن علي الرازي أبو بكر، أحكام القرآن، بيروت، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ١٤٠٥ هـ.

١١. الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، بيروت -لبنان، دار العلم

للملايين.

١٢. ١٢-الحاكم، أبو عبدالله النيسابوري، المستدرك، بيروت، دار ثابت العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.

١٣. ابن أبي الحديد، أبو حامد عز الدين بن هبة الله بن محمد بن محمد المدائني، شرح نهج البلاغة، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية ١٩٩٨م.

١٤. الحلي، العلامة أبو منصور الحسن بن يوسف بن مطهر الأسدي، تحرير الأحكام، قم، مؤسسة الإمام الصادق ١٤٢٠ هـ.

١٥. الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٥م.

١٦. السيد الخميني، الاجتهاد والتقليد، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.

١٧. الخوئي، السيد أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، بيروت -لبنان، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٧٥م.

١٨. الدارمي، عبد الله بن بهرام، سنن الدارمي، سوريا -دمشق، مطبعة الاعتدال، ١٣٤٩ هـ.

١٩. الرازي، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين أبو عبد الله، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب،، بيروت، دار الفكر ١٩٩٤ م.

٢٠. الرازي، محمد عبد القادر، مختار الصحاح، بيروت -لبنان، دار الكتب العلمية ١٩٩٤م.

٢١. الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد بن المفضل، مفردات غريب القرآن، دفتر نشر الكتاب ١٤٠٤ هـ.

٢٢. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس، بيروت -لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤م.

٢٣. الزمخشري، جار الله محمود، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٩م.

٢٤. ٢٣-الزمخشري، جار الله محمود، الفايق في غريب الحديث، بيروت، دار الكتب العلمية-١٩٩٦م.

٢٥. إبن زمنين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، مصر-القاهرة، الفاروق الحديثة.
٢٦. السجستاني، سليمان بن الأشعث أبو داود الأزدي، سنن أبي داود، بيروت -لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٠ م.
٢٧. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، بيروت -لبنان، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٩٩٥ م.
٢٨. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، القهرة -مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، الطبعة الثانية، ١٩٦٤ م.
٢٩. الفيض الكاشاني، الملا محسن، التفسير الأصفى، تحقيق: مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، إيران، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ.
٣٠. القرطبي، أبو عبد الله بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، بيروت -لبنان دار إحياء التراث العربي ١٩٨٥ م.
٣١. قطب، سيد، في ظلال القرآن، مصر، دار الشروق ـ الطبعة ١٧، ١٩٩٢ م.
٣٢. القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم، تفسير القمي، قم-ايران، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر-١٣٨٧ هـ.
٣٣. ابن القيّم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، بيروت، دار الكتب العلمية.
٣٤. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، بيروت -لبنان ن مؤسسة الأعلمي، الطبعة الثالثة، ١٩٧٣م.
٣٥. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، بيروت -لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥ م.
٣٦. الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، السعودية، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥ م.

٣٧. الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت -لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة: الأولى ١٩٩٥ م.

٣٨. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، بيروت -لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع-١٩٩٥م.

٣٩. الطوسي، الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، إيران، مكتب الإعلام الإسلامي ١٤٠٩ هـ.

٤٠. العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، قم -إيران، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ١٤١٢ هـ.

٤١. بن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي، ا لمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لبنان -بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.

٤٢. العيني، بدر الدين الحنفي، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بيروت -لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥ م.

٤٣. الكليني، الشيخ محمد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥ هـ. ش.

٤٤. ابن ماجة، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني، سنن ابن ماجه، بيروت -لبنان، دار الفكر.

٤٥. المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، كنز العمال، بيروت -لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩م.

٤٦. إبن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، قم -ايران، نشر أدب الحوزة، ١٤٠٥ هـ.

٤٧. النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، سنن النسائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت -لبنان، ١٩٣٠ م.

٤٨. الهيثمي، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، بيروت -لبنان، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥ م.

البعد الاخلاقي في آيات التشريع

د. وئام كاظم سميسم
جامعة الكوفة

ملخص البحث

قدمت السيدة الباحثة لبحثها بمقدمة مختصرة تعرضت فيها لمفهوم الاخلاق وعلم الاخلاق وفلسفة الأخلاق ثم عرضت للدعائم الخلقية في الاحكام الشرعية و العبادية كما وردت في القرآن الكريم ومنها: الصلاة، والصيام والزكاة وبر الوالدين ومعاملة الزوجة و آداب الحوار وغيرها. وخلصت الى أن لآيات الشريع مغزىً اخلاقياً يتجلى بشكل واضح في آيات الأمر والنهي، ليس في حدود النص وانما في حدود ما يخرج اليه النص من الدلالات.

إن المعرفة الاخلاقية على نمطين: ما كان نظرة وصفية للاخلاق باعتبار ان موضوعها هو تحديد القواعد التي يسلك الانسان بمقتضاها في الواقع[١]، فهي مجموعة القواعد السلوكية التي تعارف عليها مجتمع في حقبة من التاريخ[٢]، وعلى هذا يكون علم الاخلاق وثيق الصلة بعلم النفس؛ لانه مقدمة لعلم الاخلاق[٣].

ذلك بأنّ المفهوم الاخلاقي يخالجنا من الداخل على شكل مشاعر، ويخالجنا من الخارج تحت ضغط الاخلاق حينما تكون مقابلة بين الخير والشر[٤]، فيكون وثيق الصلة بعلم الاجتماع، اذ ان دراسة السلوك من اعمال الانسان الارادية وهي موضوع الاخلاق التي تحتم على دراسة الحياة الاجتماعية التي هي موضوع علم الاجتماع[٥].

وتأتي النظرة الفلسفية، التي تجعل علم الاخلاق فرعا من فروع الفلسفة[٦]، في حين أن موضوعه هو فرض القواعد التي ينبغي ان ياخذ بها الانسان في سلوكه أي يعدونه علما معيارياً، يقوم على الأحكام التقويمية وان موضوعه هو قيمة الخير والشر، لان مهمة الاخلاق، انما تنحصر بوصف المثل الاعلى وبيان الكمال الاخلاقي او تشريع القانون الاخلاقي والحجة في ذلك ان الاخلاق علم عقلي يدرس ما ينبغي ان يكون، فهي ليست دراسة تقريرية للعادات والسنن والطبائع الخلقية بين الناس؛ بل هي دراسة معيارية للخير والشر، اذ اصبحت الاخلاق عند الفلاسفة نظرية المثل الاعلى[٧].غير ان المفهوم العام يثير العديد من الصعوبات ما ان يتناوله التفكير اذ تتحدد المشكلة الاخلاقية عندما توافق الحدث الاخلاقي[٨].

(١) الاخلاق والمجتمع: ٣.
(٢) م.ن: ٣.
(٣) الاخلاق: ١٧.
(٤) المذاهب الاخلاقية الكبرى: ٦.
(٥) الاخلاق: ١٧.
(٦) م.ن: ١٦.
(٧) الاخلاق والمجتمع: ٤، الاخلاق والحياة الاقتصادية: ٥، ان الاعتقاد الاخلاقي هي تجربة المثل الاعلى وهي ليست تجربة حادث بل هي مستمدة من الحقيقة الموضوعية.
(٨) المذاهب الاخلاقية الكبرى: ٧.

ويظهر ذلك من خلال الذات والزمان والمكان اذ ان وجود مفاهيم اخلاقية لدى شعوب او جماعات تختلف بصورة كاملة عن مفاهيم غيرها، وغريبة عنها كل الغرابة، وللازمان مفاهيمها وقيمها التي تخالف ازمان اخرى[٩]، إلا انه لايعدم هناك قواعد اساسية لا يمكن لمجموعة انسانية الاستمرار بها او من دونها. وعليه تبين هذه التناقضات وجود مشكلة، يدركها من يمتلك عمقا عقليا أن يفهم فكرة الاخلاقية وان يوحدها وان ينسقها.

ويرى بعضهم انه ليس يسيراً تعريف المواقف الاخلاقية الاساسية «ولعل من الافضل بوجه من اوجه الاعتبار ان نجهلها ما دامت لا شعورية دوما، فالافعال وحدها هي الجديرة بالعناية... فمن المشروع اعتبار الفعل مركز الحياة الاخلاقية»[١٠].

وعلى وفق هذه الرؤية شهدت الازمنة الماضية نتاجات فكرية في الاخلاق متمثلة بمذاهب اخلاقية، غايتها انشاء اخلاقية عقلانية، ولهذا يرى هيغل: «ان البناء الاخلاقي؛ أي بناء اخلاقي شأنه شأن أي حدث تاريخي، واية نظرية فلسفية او اية ظاهرة انسانية فهو يشكل مرحلة ضرورية من مراحل تطور الانسانية»[١١].

اما الوجوه الاسلامية للاخلاق فلها بعد اخر، فهي قائمة على الشريعة الاسلامية التي دعت الى الاعتقاد بان الله (عز وجل) مصدر كل شيء في العالم وواضع النظام والطريق الذي يسير عليه الانسان، ومشرّع القوانين والأحكام التي يجازي عليها في الدنيا والاخرة، وان الله تعالى لم يأمر ولم ينهَ اعتباطا، بل انه عز وجل جعل صلاح الدنيا وانتظام شؤونها يتوقف على قيم اخلاقية فأمر بها وجعل فسادها باضدادها فنهى عنها[١٢].

ولذلك كان الدين عماد كثير من

(٩) م.ن: ٨.
ان المشكلة الاخلاقية هي فقدان اليقين الاخلاقي، واليقين الاخلاقي هو احساس ذاتي في الفرد بانه يملك حقيقة ما هو فاضل ورذيل وطيب وخبيث، فهو قاعدة للافعال الانسانية؛ اذ ان السلوك يبنى على اساس القناعات الاخلاقية التي يحملها الفرد، ظ: دراسة في الاسس العلمية للفلسفة الاخلاقية عند سبينوزا، زيد عباس كريم، رسالة دكتوراه: ٢٢.

(١٠) المواقف الاخلاقية: ٥.
(١١) المذاهب الاخلاقية الكبرى: ١٤.
(١٢) الاخلاق: ١٣٦.

النظريات الفكرية لدى علماء الاسلام، وهذا ما اوقفهم عن البحث في اساس الخير والشر ذلك بان تعاليم القرآن، ليست مجرد مجموعة من الطقوس والعبادات وانما هو نظام شامل للحياة المدنية والاخلاقية، لا لما ينطوي عليه من مباديء غيبية، بل للحلول التي قدمها لمشكلات الانسان الاخلاقية(١٣).

وهذا ما جعل للنص سلطة واضحة المعالم ومطلقة الفعالية في الكشف عن الحقائق الكلية.

فالغزالي يرى ان علم الاخلاق هو تكييف النفس وردها الى ما رسمته الشريعة وخطَّه رجال المكاشفة من علماء الاسلام، ومن سبقهم من الانبياء والصديقين والشهداء(١٤).

وقد عَرَّف الخلق بانه «عبارة عن هيأة في النفس راسخة عنها تصدر الافعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية فإن كانت الهيأة بحيث تصدر عنها الافعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعا سميت تلك الهيأة خلقا حسنا، وان كانت تصدر عنها الافعال القبيحة سميت الهيأة التي هي المصدر، خلقا سيئا»(١٥).فاذن الخلق عنده هو عبارة عن هيأة النفوس وصورتها الباطنة.

وذهب الى تعريف الخلق الحسن بانه: اصلاح القوى الثلاثة، قوة الفكر، وقوة الشهوة، وقوة الغضب(١٦).

أمّا الفارابي فقد ركز على مفهوم السعادة وهي في نظره الغاية القصوى للانسان، وهي تنال بممارسة الاعمال المحمودة عند الارادة والارادة عنده دعامة الاخلاق(١٧).

ومن خلال البحوث الاسلامية في الاخلاق تحدَّد مقدمة مهمة تتضح بموجبها نتائج البحث الاخلاقي الاسلامي، وهي ان علم الاخلاق هو علم السلوك لتمييز الصالح عن الشائن، ولما كان علم التشريع (الفقه) المنبثق عن آيات الأحكام القرآنية يمثل العدل الالهي، وان العدل جزء من الاخلاق، اذ

(١٣) الاخلاق عند فلاسفة المغرب العربي: (رسالة دكتوراه): ٢٠.
(١٤) احياء علوم الدين:الغزالي: ٣/ ٥٣.
(١٥) احياء علوم الدين، الغزالي: ٣/ ٥٦.
(١٦) الاخلاق عند الغزالي: ١١٥.
(١٧) تحصيل السعادة: ٣٢.

ان قضيته الرئيسة هي ادراك حسن العدل وقبح الظلم، كان علم التشريع كله ناشئا من منشأ اخلاقي(١٨).

ومن جانب اخر، فان التشريع وُجِد من اجل ايجاد السلوك الصالح وعلم الاخلاق علم السلوك فكان الالتقاء والتداخل بين العلمين الى «حد يكاد يكون احدهما عين الاخر»(١٩).

وان كان اهتمام المتشرعة الى ما تؤول اليه الأحكام من ثواب وعقاب وطاعة ومعصية إلا انه كان من صميم السلوك الاخلاقي العام، وهو مقدمة للاخلاق العليا بل انه مقدمة للفرد السالك في مدارج الكمال، مهما كان مرتفعا اذ ان «جميع العلوم الشرعية مقدمة لمعرفة الله تبارك وتعالى ولحصول حقيقة التوحيد في القلب، فعلم الفقه مقدمة للعمل، والاعمال العبادية هي بنفسها مقدمة لحصول المعارف وتحصيل التوحيد والتجريد، ان أُديِّتَ بآدابها الشرعية القلبية والقالبية والظاهرية والباطنية»(٢٠).

وبالنتيجة، فان مقصد القرآن الكريم هو تصفية العقول وتزكية النفوس لحصول المقصد الاعلى وهو التوحيد(٢١).

فالتشريع في القرآن، هو تنظيم للعلاقات الدنيوية وهي من ثم تمهيد للصلات الروحية بين الانسان والله الكبير المتعال، ذلك بان سياق القرآن كله يتجه وجهة روحية ويذكر الانسان بالله تعالى خالقه مخوفا اياه من بطشه ومطمعا في جزيل ثوابه للصالحين(٢٢).

وعلى هذا الاساس يكون علم الاخلاق، على نمطين: الاول، هو الجانب الظاهري من الشريعة وهو السلوك الحسن ومعاملة الاخرين ويخص العامة من الناس، وبذلك تُحَدَّد بالتكاليف العامة من الواجبات والمحرمات أي الجانب الالزامي في الشريعة.

اما الثاني فهو الجانب الباطني ويقصد به السلوك الاخلاقي العرفاني الذي يمثل العمق الاخلاقي، وهو يخص الخاصة من الناس القادرين على بلوغ ذلك العمق وهذه التكاليف المعَمَّقة تشمل المستحبات

(١٨) فقه الاخلاق: ٥.
(١٩) م.ن: ٢٧.
(٢٠) جنود العقل والجهل: ٩.
(٢١) م.ن: ١٠.
(٢٢) التصوف الاسلامي: ٢/ ٦-٨.

والمكروهات وهي غير الزامية في الشريعة، فتكون أحكاماً اخلاقية بطبيعتها فهي تربي الفرد من خطوة اعلى من مجرد الالتزام بما هو الزامي في الشريعة.

وهي تعد اولى الخطوات نحو الكمال الاخلاقي اللائق والعالي تتبعها مستويات ورياضات من التعاليم المُعَمَّقَة للسلوك الاخلاقي العالي، الذي يختص بالقلة من الافراد ممن يتحملونه وهم اهل العرفان والتصوف.

ان هذا المستوى العالي من الاخلاق يبدأ من ادنى مستويات الفرد ويتدرج به الى الكمال، وان اولى الخطوات في ذلك هو الالتزام بالشريعة الظاهرية حتى ما اذا حصل ذلك بالاخلاص كان الفرد مستحقا للخطوة الثانية في طريق الكمال[٢٣].

وفي ضوء ما تقدم تنقسم الشخصية الانسانية على شخصية مادية وشخصية روحية فالاولى هي الشخصية التي تتأدب بالقانون أي التي يخصها الجانب الالزامي (الواجبات والمحرمات) والثانية هي الشخصية التي تتأدب بفضل الروح أي الجانب غير الالزامي من الشريعة[٢٤].

واذا نظرنا في تلك الرؤية في علم الاخلاق والمشاكل عند الفلاسفة وعلماء الاخلاق نجد ان قيمة المعرفة الاخلاقية تتجلى من خلال الكيفية التي ساق بها الله سبحانه وتعالى الأحكام فالقرآن الكريم حدد المفاهيم الاخلاقية، حينما ربطها بتفاصيل الأحكام وهذا الاخير مرتبط بتفاصيل افعال الانسان العبادية والعملية.

وانتقالا الى التطبيق الاجرائي تتجلى الاخلاق المثالية من خلال توظيف القيم داخل النص الكريم، في الاتي:

اولاً: في آيات العبادة، بعد اخلاقي وهذا ما نلحظه من خلال التركيز على اقامة الصلاة فهي نوع من الانضباط للاوامر الالهية وطاعة له، والتزاما بما اقره، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَاتَّقُوهُ﴾[سورة الانعام: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة النور: ٥٦].

فالصلاة قيام بين يدي الله (عزوجل)،

(٢٣) ينظر: فقه الاخلاق: ١/ ١٠-١١.

(٢٤) التصوف الاسلامي: ٢/ ٤.

يكبح غرور الانسان ويأخذه بالخشوع والتواضع امام عظمته وقدرته وجلال خلقه وياخذه، نحو الصلاح وسمو الروح وتهذيب السريرة عن الفحش والمنكر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥].

وحين لا تؤدي الصلاة غايتها من النهي عن الفحشاء والمنكر، فانها تعود بذلك طقوسا شكلية وحركات آلية مجردة عن معناها وحكمتها.

والنص الكريم لايقبل ان تكون الفرائض فارغة من مضمونها؛ بل يتجه بالعبادات الى ان تكون تهذيبا للنفس ورياضة للضمير وهداية الى خير الفردوالجماعة[٢٥]، وهذا ما توضحه الاية الكريمة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧٧].

(٢٥) التفسير البياني للقرآن الكريم/ بنت الشاطيء: ٢/ ١٩١.

في هذه الكتلة السياقية تكثيف واختزال لمكارم الاخلاق وفضائل الاعمال تبدأ من التوحيد بالله الى الصبر في البأساء[٢٦].

وقد استثمر النص الاسلوب الايحائي الذي تمركز في كلمة (البر) وانتهى بالصورة الوصفية لاولئك الصادقين والمتقين لتحقيق غاية اخلاقية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [سورة طه: ١٣٢].

إنّ اظهار فرائض العبادة لها دلالة اخلاقية من حيث اظهار العمل الصالح المتحقق في تادية الصلاة ومن ثمة الاقتداء به.

ولابد من ملاحظة القيمة التربوية للاية حيث انها تأمر النبي ﷺ وغيره بالصبر على الصلاة وعدم الانشغال عن

(٢٦) التوحيد غاية الاخلاق عند الصوفية، والصبر احد مقاماتهم، ينظر: مجلة المبين/ ع٢/ ٢٠٠٥م/ سير السلوك في فكر اهل العرفان دراسة اخلاقية/ د. نعمة ابراهيم.

وقتها بالرزق، فالله تعالى تكفل به، فالتفرغ للعبادة وقت الصلاة له قيمة تربوية في البناء الروحي للمجتمع الاسلامي.

وتتعدى الوظيفة الاخلاقية الى اجزاء الصلاة اذ يُلمح البعد الاخلاقي في زمانها ومكانها وفي الستر، والذكر، والتعوذ، والطهارة، والخشوع[٢٧].

ففي قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [سورة هود: ١١٤].

إنّ لتقارب أوقات الصلاة وظيفة اخلاقية، في كونها تضّيق الوقت على المرء في ارتكاب الفواحش والالتزام في النهي عن المنكر، فالصلاة معراج المؤمن فلا ينبغي له ان يعرج بنفس خبيثة، وصفات دنيئة؛ بل لايمكن ذلك على الاطلاق، فحقيقة الصلاة تتناقض وتتقاطع مع اتيان الفواحش والمنكر، اذن هي تقييد للسلوك الاخلاقي السلبي وقتيا. وفضلا عن، ذلك فان الله سبحانه وتعالى اختار للصلوات اليومية افضل الاوقات دنيويا ودينيا[٢٨]، بلحاظ قوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [سورة الاسراء: ٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [سورة آل عمران: ١٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [سورة المزمل: ٦].

اما من الناحية الدنيوية فان اوقات الصلاة اليومية هي ليست وقت عمل عادة او هي وقت راحة وهدوء وفيها يكون المرء في توجه لله سبحانه باعثا على الخشوع والخضوع والتضرع[٢٩].

وللمكان بُعْدٌ اخلاقي اذ لايمكن ان تقام الصلاة في مكان مغصوب او غير طاهر، وقد نتلمس الايماءات الاخلاقية في استحباب تأديتها في المساجد فالمسجد هو مكان مشاع للجميع فضلا عن مدح المصلين فيه بالطهارة ونهي المشركين من الاقتراب منه لقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [سورة التوبة: ١٠٨].

(٢٧) ينظر: موسوعة اخلاق القرآن: ٣/ ٥٦٢.، ١٥٤، ١٤٢، ينظر: فقه الاخلاق: ١/ ٥٧، ١٨٧.

(٢٨) ينظر: فقه الاخلاق: ١/ ١٧١

(٢٩) فقه الاخلاق: ١/ ١٧٢.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [سورة التوبة: ٢٨].

إنّ المساجد ذات تأثير وضعي او موضوعي في زيادة التقرب المعنوي الى الله تعالى والخشوع له والتضرع اليه وقد تكون القبلة الى بيت الله احدى هذه العبر الاخلاقية التعبدية[٣٠]، فضلا عن ذلك يعد المسجد مدرسة تربوية متكاملة لبناء اواصر المحبة بين الناس لاجتماع المؤمنين فيه لطاعة الله تعالى لذلك نهى من اقتراب المشركين اليه كي لا يفسدوا تلك الروح الجماعية السامية.

وهكذا فان معظم تعاليم الشرع وما افترض من فرائض يتعلق بالظاهر ولكن الدين يدعو الى الاعمال الباطنية، أي ان للشريعة حكما على المُكلَّفين من حيث ظاهر اعمالهم، وحكما عليهم من حيث باطن اعمالهم.

ففي الصلاة معانٍ باطنة، فما أن يستقبل المُكَلف القبلة فقد وجب عليه ان يصرف قلبه عن سائر الامور إلا الى الله سبحانه، وحركات الصلاة ليست إلا لتحريك الباطن وضبط الجوارح[٣١]، بل ان النية[٣٢] في بدء الصلاة تعني عزم الانسان على الامتثال لله تعالى والكف عن المعاصي، وهكذا في كل جزئية مغزى اخلاقي يحث المرء على لزومه.

وقد يلحظ البُعد الاخلاقي بشكل كبير في النصوص الكريمة التي تحث على (الطهارة) فهي في اللغة النظافة والتنزه عن الادناس، وفي الشرع هي رفع الحدث وازالة النجاسة او ما في معناهما.

والطهارة في النص القرآني ضربان طهارة حسية وطهارة معنوية، واغلب الآيات التي جاء فيها ذكر التطهر لاتخرج عن ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾[سورة الانفال: ١١].

أي ينزل عليكم ماءً طاهراً مطهراً، فالماء للطهارة الحسية.

وفي الوقت نفسه ترتكز هذه الطهارة

(٣٠) ينظر: فقه الاخلاق: ١/ ١٧٣-١٧٤.

(٣١) ينظر: الفلسفة الاخلاقية في الفكر الاسلامي: ٢٨٨.

(٣٢) ينظر: فقه الاخلاق: ١/ ١٩.

على معنى اخلاقي؛ اذ ان القصد من الطهارة تطهير السرائر؛ اذ يبعد ان يكون المراد مجرد نظافة الظاهر بالماء، مع خبث الباطن.

فالغرض من التطهير تعمير القلب بالاخلاق المحمودة والعقائد المشروعة، وذلك يقتضي تطهُّره من نقائضها من الرذائل الممقوتة والعقائد الفاسدة، وغرس الاخلاق الفاضلة، وقد صرح النص الكريم بالطهارة الاخلاقية او الوجدانية(٣٣)، في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ [سورة التوبة: ١٠٣]، وكذلك نجد المعنى الاخلاقي في قوله تعالى ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٢]، أي ذلك خير لكم وافضل وأطهر لقلوبكم من الريبة، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [سورة الاحزاب: ٥٣]، أي احفظ لقلوبكم وقلوبهن من الشك وخواطر السوء فدل على معنى اخلاقي كريم في العفة والتصوّن عن ارتكاب الفاحشة.

وعلى هذا الاساس استنبط اهل الباطن (الصوفية) من ظواهر الاوامر التعبدية معاني خلقية غاية ما افترض على المسلم من فرائض، وهم يعدون ان الباطن اصل الظاهر فقد ذهبوا الى طرق في المقابلة بين طهارة الحس وطهارة النفس(٣٤).

إنّ الغاية الاخلاقية الظاهرة ترتكز في غرس بذور الاخلاق الفاضلة في نفوس المصلين منمية روح البر والألفة في اعماقهم، ولذلك حذر النص القرآني من (الرياء) في اداء العبادة، فالمصلون الذين يؤدونها اداءً شكليا يراؤن بها غافلين عن حكمة اقامتها وهي مراءاة وتظاهر بالعبادة والتقوى، قصدا الى جلب منفعة او دفع اذى.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا

(٣٣) الفلسفة الاخلاقية في الفكر الاسلامي: ٢٨٨.

(٣٤) ينظر: موسوعة اخلاق القرآن: ٣/ ٦٦.

يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة النساء: ١٤٢].

وفي موضع اخر ينذر بالويل (للمصلين)[٣٥] الساهين، وهو بهذا يقرر صفة اخلاقية ذميمة مقابل تلك الفضيلة المخلصة لله تعالى، فالمراءاة ان يُظهِر الانسان خلاف ما يُبطِن، فهو يُري الناس ظاهرا محمودا، ويضمر ما ينقضه، فهو للنفاق اقرب الذي يكتم الكفر ويظهر الاسلام.

ولا نعدم البُعد الاخلاقي في فريضة الصوم ما دام المرء يدأب في تحصيل فضل الله تعالى ويسعى الى رضوانه في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٣-١٨٥].

تدلّ الآيات الكريمة على تشريع الصوم في حق المؤمنين وانه ثابت عليهم كما هو ثابت على الامم السالفة.

وان اختيار فريضة الصوم لشهر رمضان فيه فضيلة زمانية، فهو افضل الاوقات دينيا لما اشار اليه النص في نزول القرآن وهذا له مردود اخلاقي في وصول المرء الى عدة مستويات[٣٦]، من عمق درجة الايمان وصفاء القلب ولما كان الصوم يقصد القربة الى الله تعالى؛ يعني رمزية واضحة عن الامساك من اللذائذ المحرمة والاندفاعات النفسية والكف عنها، والصبر على تركها، حيث ان المعنى اللغوي للصوم الامساك عمّا تنازع اليه النفس، وفي الشرع الامساك عن المفطرات، فالمراد هنا-والله اعلم- المعنى اللغوي والشرعي، ويكون في

(٣٥) ينظر: [سورة الماعون: ٦].

(٣٦) ينظر: فقه الاخلاق: ١/ ٣١٧.

تركها تكاملا معنويا مرضيا لله سبحانه، وهذا ما اشار اليه النص الكريم في ذيل الايـة في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥].

وقد سبق ذلك مطلب في جملة ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ايضا مادامت الاية الكريمة مجملة من هذه الناحية.

ونخلص الى الدلالة الاخلاقية التي اشارت اليها الاية من ابعادها المصلحية هو التذكير بجوع يوم القيامة وعطشه والتذكير بجوع الفقراء والمعوزين، وهو من ثم تحريك عاطفة الشفقة.

إنّ عاطفة الشفقة لاتأتي إلا لبث معنى التضامن الانساني، وفي الوقت ذاته نداء للعاطفة ووضـع المـرء وجها لوجه امام الواقع، وانعاش الارادة الاخلاقية، وايقاظ الفكر العملي[٣٧]، فضلا عن تعويد الفرد على قوة الارادة والتحمل والصبر، وتوجيه تلك الارادة للخير، ولذلك كان الصوم تطهيرا للقلب وصفاء للنفس.

أمّا الدلالة الاخلاقية في الزكاة فهي أوضـح من سائر العبادات فـان المعنى الاصطلاحي او الشرعي للزكاة منحدر من المعنى اللغوي؛ الذي يعني النمو او بمعنى طـاب، ويستعمل في المعنويات بملحظ من الخير والبركة.

ومنـه قـولـه تـعـالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [سـورة التوبة: ١٠٣].

فالتزكية هنا بمعنى التهذيب والتطهير اما في الشرع فهي تخص ما يدفعه المؤمن من ماله فريضة، فيزكو المال ببركة الله تعالى وثوابه، وان ارتباط (تطهرهم وتزكيهم) جاء اوثق للمعنى الاخلاقي في ان البذل للمال لم يكن عن قصد جزاء لاحد او من احد، وانما هو خالص لله سبحانه، وقوله ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي بعضاً من امـوال الاغنياء لتطهرهم من الخصال المذمومة كـ (البخل، والتعلق بالدنيا)، وتحليهم بالصفات الحميدة التي تشعرهم بوجوب مساعدة الضعفاء.

ثانياً: آيات التعامل الاجتماعي، تبرز اهمية الوظيفة الاخلاقية من خلال اهتمام

(٣٧) الاخلاق والحياة الاقتصادية: ٧.

النص القرآني في الحث على الاخلاق الحسنة في التعامل بين الانسان والاخر حيث يدعو بشكل صريح الى التمسك بالاخلاق الفاضلة التي تطهر النفس وتحذره من الاخلاق السيئة، وقد هيّأ الله سبحانه وتعالى حججا باطنة وظاهرة تعرف المرء بالحسن والقبيح، او الخير والشر، ونستظهر القيم الانسانية العليا التي أمر الله تعالى بها في كتابه الكريم من خلال النصوص المباركة الاتية في قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة الحجر: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة الشعراء: ٢١٤-٢١٥]

وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[سورة الاسراء: ٢٤].

انبثقت عن جملة (خفض الجناح) دلالة اخلاقية اكد النص المبارك عليها، واوضح قيمتها حينما وجه الخطاب الى الرسول ﷺ في النص الاول والثاني اما النص الثالث فكان المعنى فيه يدور حول شخصيتين يعلو حقهما على حقوق سواهما.

ويلحظ من اسلوب الامر والطلب العناية القرآنية بهذه الفضيلة ليدل على علو مكانة هذه الفضيلة الاخلاقية القرآنية وتشريفا لهذه المعاملة الانسانية عن طريق مطالبة الرسول ﷺ بها في اكثر من موضع؛ ليكون خير اسوة للناس في الالتزام بهذا الخلق القرآني.

ففي النص الاول تواضع ولين عام شامل لكل المؤمنين والرفق بهم والحلم عليهم، اما في النص الثاني، بدأ الاية بالانذار وفيه شدة وصلابة، ثم ذكر خفض الجناح وفيه رفق ولين وتواضع، فالنص يحدد آليات المعاملة على وفق مقتضى المقام، فاستعمل اللين في مواطنه، والرفق في مواضعه، والانذار والحزم في حاله.

أمّا في النص الثالث فهو تواضع للوالدين فوق طاعتهما وحفظ حقوقهما، بلحاظ جعله للذل جناحاً، مبالغة في التذلل والتواضع لهما والرحمة.

ومن الملاحظ في هذه النصوص

الكريمة استثمار جمال التصوير الاستعاري في (خفض الجناح) للتعبير عن الدلالة الاخلاقية.

واذا كان لـ(خفض الجناح) مدلول اخلاقي في آيات الأحكام نجد ان كلمة (المعروف) تأخذ بعدا اخلاقيا واثرا كبيرا في سياق النص القرآني واستعمالاته في كثير من المواضع المتباينة الأحكام بنفس قوة الدلالة وفاعلية المعنى.

و(المعروف) لفظة مأخوذ من مادة (المعرفة) وهي ادراك الشيء بتفكر وتدبر لاثره، ثم استعمل هذا اللفظ في الامر المستحسن الذي هو ضد المنكر، فالمعروف اسم لكل فعل يعرف الانسان حسنه في العقل او الشرع[٣٨].

وتتحدد الوظيفة الاخلاقية لفضيلة (المعروف) في المصاحبة او المعاشرة مع الوالدين وهي تلزم الولد نحو والديه في قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[سورة لقمان: ١٥].

(٣٨) ينظر: لسان العرب، مادة (عرف: ١٠/ ١١٢، وهو اسم جامع لكل ما عرف من الله والتقرب اليه والاحسان الى الناس وكل ما ندب اليه الشرع. ينظر: معجم مفردات الفاظ القرآن: ٣٤٣.

وتأتي المصاحبة بالمعروف او المعاشرة بالمعروف بين الزوجين فقد وصف النص القرآني الزوجة بـ (الصاحب بالجنب) في قوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾[٣٩] [سورة النساء: ٣٦]، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ١٩].

أي الاحسان في عشرة النساء والمصاحبة بالذي تعرفه وتالفه طبائعهن والذي لايستنكر شرعا ولاعرفا ولامروءة.

ومن براعة التعبير القرآني في استعماله للفظة (المعروف) قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[سورة البقرة: ٢٢٨].

يحدد النص توازنا في المعاملة الزوجية

(٣٩) يقول ابن كثير في تفسيره: «هي المرأة او الرفيق في السفراو الرفيق الصالح او جليسك في الحضر ورفيقك في السفر».
وفي تفسير فتح القدير: «جليسك في الحضر ورفيقك في السفر». وفي مجمع البيان اربعة اقوال: ١-الجار ٢-الزوجة ٣-الخادم الذي يخدمك ٤-المنقطع الذي يرجوك: ٣/ ٤٦.

من خلال الاسلوب الوصفي الموحي لتلك الموازنة في جميع الشؤون والاحوال أي ان الحقوق بينهما متبادلة وانهما اكفاء وكما انهما متماثلان في الذات والاحساس والادراك، كانا ايضا متماثلين في الواجبات.

ويصل كرم الاخلاق القرآنية حدا يفوق كل تصور في الحث على حُسن المعاشرة للزوجة حتى في حال الطلاق في قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[سورة البقرة: ٢٢٩].

ويعود النص في السورة نفسها فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[سورة البقرة: ٢٣١].

فالنص القرآني تضمن الامر بحسن العشرة فاما تخلية من غير ضرار، واما قيام بحق المعاشرة على الحسنى والوفاء.

ويلحظ في النص التعبير بالسراح مكان الفراق ويبدو ان القصد من ذلك ان لفظة (الفراق) اقرب الى الاساءة منه الى الاحسان فاراد النص تحسين العبارة مع تحصيل المقصد فاستعمل لفظة (التسريح).

وتأتي الدلالة الاخلاقية في معرض الحديث عن السفهاء الذين لايحسنون التصرف في اموالهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[سورة النساء: ٥].

إن القول الطيب يدل على حسن المعاملة والتوجيه والارشاد الى الخير ومن الواجب الانفاق عليهم من اموالهم في حدود حاجتهم ومصلحتهم، فالكلمة الطيبة يعدها النص الكريم نوعا من انواع المعاملة الحسنة والاخلاق الفاضلة وذلك في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[سورة البقرة: ٢٦٣].

فللقول صدى مؤثر على النفس في بعض الاحيان واشد وقعا من الفعل اذا كان طيبا حميدا، وبخلافه يكون وقعه، فالقول افضل من العمل في هذه القضية (الصدقة) حصرا لما لها من ردود فعلية نفسية، فاذا كانت مع الغلظة او المن فقدت قيمتها العبادية والاخلاقية، وعاد القول

بالمعروف عملا متساميا نبيلا.

وقد وجه النص الكريم الى اتباع طريق المعروف حتى في مواطن القصاص ومواقف الدية فيكون المقتص غير متجاوز حد العدل وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾(٤٠)[سورة البقرة: ١٧٨].

ثالثاً: آيات المحادثة او فن الجدل:

ان عرض الافكار والمجادلة في الاحاديث امر في غاية الاهمية ولذلك جاءت النصوص المباركة واضعة ضوابط الكلام ولياقة الحديث في عرض الافكار وطرح الموضوعات.

ونلتمس ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[سورة آل عمران: ١٠٤].

وفي قوله تعالى: ﴿صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[سورة فصلت: ٣٣]. وفي قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾[سورة الاسراء: ٥٣].

حث النص المبارك على الدعوة الى الخير ولاتكون إلا بطيب الكلام واحسن القول والدعوة الى الخير فضيلة اخلاقية قرآنية تدعو الى الصلاح والاصلاح وتقوية الخير والبر، لما في الكلمة الطيبة من فعل في طمأنينة النفس وانشراح القلب.

ونلحظ السمة الاخلاقية في اصول المجادلة وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [سورة النحل: ١٢٥].

يعين النص الكريم ثلاث مراتب للدعوة: فالاولى لاتكون إلا للحكماء واصحاب المعارف الحقيقة ولذلك جاءت الدعوة لهم على اساس مقامهم بالحكمة، وهي البراهين القطعية، اما المرتبة الثانية فتخص العوام من الناس وتكون بالموعظة الحسنة التي تألفه القلوب وتستهوي النفوس وهي الدلائل اليقينية الاقناعية، اما الجدل فيكون لاصحاب المخاصمة والمجادلة ولاتكون إلا بالاحسن والاكمل للانتهاء الى الخير والاهتداء الى الحق وهي

(٤٠) ينظر: [سورة الاسراء: ٣٣].

المرتبة الاخيرة[41].

نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٦].

إنّ منهج القرآن الكريم يحض على حسن الخلق؛ اذ يعد خير وسيلة للاقناع والهداية والارشاد، وان الخلاف في العقيدة والفكر ليس مدعاة الى اساءة الخلق فليس للجدل كثير نفع اذ ان الاحاسيس تتهيج في اثنائه وله الاثر السيء في قلب الخصم مما يحمله على الاصرار والعناد في مدعاه وحينئذ تكون الكلمة التي تؤدى بخشونة ان تقطع اواصر المحبة بين الطرفين[42].

كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾[سورة آل عمران: ١٥٩].

فضلا على ذلك حرص النص الكريم على ادب الحديث وطيب القول وحسن الكلام عند مخاطبة الرسول ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات: ٢].

ولعظيم شأن الوالدين ورفع مكانتهما دعا النص المبارك الى التمسك بأدب القول عندهما ونهى من سوء الخطاب لهما وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾[سورة الاسراء: ٢٣].

فالآية الكريمة منعته من اظهار الضجر منهما بقوله (أفٍ) وهي اقل ما يصدر من الانسان من كلام للدلالة على ضجره، ثم ألزمه بالقول الكريم لهما.

وبجانب ذلك يحدد النص الكريم انحرافات اللسان الى ما لايليق من الكلام والاخلاق الفاضلة؛ بل يتعدى الى الاخلاق الذميمة من قول البهتان[43] والغيبة[44] والنميمة[45] واللغو[46] وفحش الكلام[47].

(٤١) موسوعة اخلاق القرآن: ٣/ ١٩٩.
(٤٢) دراسة في المشاكل الاخلاقية والنفسية: ١٩٤.
(٤٣) ينظر: [سورة النساء: ١١٢].
(٤٤) ينظر: [سورة الحجرات: ١٢].
(٤٥) ينظر: [سورة القلم: ١١-١٣].
(٤٦) ينظر: [المؤمنون: ٣١].
(٤٧) ينظر: [النساء: ١٤٨].

واذا استقرأنا آيات الاحكام نجد ان في كل منها مغزى اخلاقياً وتتجلى ابعاد القيم الاخلاقية بشكل اوضح في آيات الامر والنهي.

فكأن ما تخرج اليه من قيم اخلاقية امراً الهياً وما تنهى عنه نهياً إلهيا، ليس في حدود النص وانما في حدود ما يخرج اليه النص بالدلالات التي تكفَّل البحث باظهارها.

وبقيت قضية مهمة لابد من الاشارة اليها وهي اقرار الاسلام لما عند عرب الجاهلية من كريم الصفات وجميل الخِلال مثل الوفاء بالعهد، والصدق، ورد الامانة، والشجاعة، والكرم، والايثار، بعد ان شذّب بعضها فالشجاعة محمودة اذا كانت في سبيل الحق واعلاء كلمة الله تعالى، لافي سبيل طلب العلو على رقاب الناس ونشر الفساد، والكرم محمود ما دام في محله لا لطلب الرياء، واقر الاسلام اكرام الضيف وايثار الغير، وهي من ثم ابقت من عادات عرب الجاهلية ما كان صالحا منها ومتفقا مع قوانين السماء وألغت وشذَّبت ما كان فاسدا منها ولايتفق مع مباديء شريعة الله فاعطت الصالح حقه من الابقاء كما اعطت الطالح حقه من الالغاء[٤٨].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[سورة الحشر: ٩].

تدل الاية الكريمة على فضيلة الايثار، ورجحانه وان المؤمن يؤثِر غيره على نفسه وهو في امس الحاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾[النحل: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[٤٩] [سورة المؤمنون: ٨]، وقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٠].

وصفوة القول، إن آيات التشريع في كل منها مغزى اخلاقي، يتجلى بشكل واضح في آيات الآمر والنهي ليس في حدود النص وانما في حدود ما يخرج اليه النص من الدلالات وتظهر قيمة

(٤٨) المدخل لدراسة الشريعة الاسلامية: ٢٣-٢٤.

(٤٩) [سورة المعارج: ٣٢].

المعرفة الاخلاقية من خلال الكيفية التي ساق بها الله تعالى الاحكام، فالنص الكريم حدد المفاهيم الاخلاقية حينما ربطها بتفاصيل الاحكام، وهذا الاخير مرتبط بتفاصيل أفعال الأنسان العبادية والعملية.

المصادر

القرآن الكريم.

١. إحياء علوم الدين، الغزالي (ابو محمد عبد الله مسلم)، تح: محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر ط.ع، ١٩٦٣م.

٢. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (ابو العذاء عماد الدين بن كثير القريشي الدمشقي، ت ٧٧٤ هـ) مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٦ م.

٣. فتح القدير بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني (محمد بن علي الشوكاني، ت، ١٢٥٠هـ)، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٥٠هـ.

٤. لسان العرب، ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري، ت ٧١١هـ). طبعة مصورة عن طبعة بولاق، القاهرة، (د.ت).

٥. مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ٥٤٨هـ) مطبعة العرفان، حيدا، ١٣٣هـ.

٦. معجم مفردات الفاظ القرآن، الاصفهاني (الراغب ابو القاسم الحسين بن محمد) تح: نديم مرعشلي، القاهرة، ١٩٧٣م.

٧. الاخلاق عند الغزالي، د.زكي مبارك، منشورات المكتبة العصرية حيدا، بيروت، (د.ت).

٨. الاخلاق والحياة الاقتصادية، فرنسواسلية، ترجمة: د.عادل العوّا، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط٣، ١٩٨٤م.

٩. الاخلاق والمجتمع، د. زكريا ابراهيم، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٠. التصوف الاسلامي، د.زكي مبارك، القاهرة، (د.ت).

١١. جنود العقل والجهل، آية الله العظمى الامام الخميني، تعريب: العلامة أحمد الفهري، مؤسسة النبراس للطباعة،

العراق، النجف الاشرف، ط١، ٢٠٠٤م.
١٢. دراسة في المشاكل الاخلاقية والنفسية، مجتبى الموسوي اللاري، تعريب: محمد هادي اليوسفي، مكتبة النشر للثقافة الاسلامية، ايران، ط٣، (د.ت).
١٣. فقه الاخلاق، آية الله العظمى الشهيد الثاني السيد محمد الصدر، مطبعة الآداب، النجف الاشرف، (د.ت).
١٤. الفلسفة الاخلاقية في الفكر الاسلامي، د. أحمد محمود صبحي، دار المعارف، مصر (د.ت).
١٥. كتاب الاخلاق، احمد أمين، الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩م.
١٦. المذاهب الاخلاقية الكبرى، فرنسوا غريغوار، ترجمة: قتيبة المعروف، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط٣، ١٩٨٤م.
١٧. المواقف الاخلاقية، روجيه ميل، ترجمة، د.عادل العوّا، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط١، ١٩٨٧م.
١٨. موسوعة أخلاق القرآن، د.أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٧١م.
١٩. البحوث المنشورة والرسائل الجامعية:
٢٠. سير المسالك في فكر اهل العرفان(دراسة اخلاقية)، د. نعمةابراهيم، مجلة المبين، ع٢، ٢٠٠٥م.
٢١. الاخلاق عند فلاسفة المغرب العربي، سامي شهيد الميالي، رسالة دكتوراه، مقدمة الى مجلس كلية الآداب. جامعة الكوفة، ٢٠٠٥م، طباعة الكترونية.
٢٢. دراسة في الاسس العلمية للفلسفة الأخلاقية عند سبينوزا، زيد عباس كريم، رسالة دكتوراه، مقدمة الى مجلس كلية الآداب-جامعة الكوفة، ٢٠٠٧م، طباعة الكترونية.

التنمية في القرآن الكريم

محمد جواد عباس شبع
كلية الآداب. جامعة الكوفة

ملخص البحث

يقرر السيد الباحث أن التعريفات اختلفت في تحديد مفهوم التنمية ويعزو سبب ذلك الى اختلاف الآراء حول عملية التنمية من حيث مجالاتها وما تشتمل عليه.

وهو يرى أن التنمية موصولة بالآخرة وبالأهداف الكريمة للحياة التي نلتمس ثوابها في الآخرة. وبذلك فان القرآن الكريم حدد معالم التنمية بشكلها المتكامل ومن نواحيها المختلفة، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية في اطار التنمية المتكاملة والمتوازنة للانسان الذي تتم التنمية به وله ومن اجل تحقيق سعادته وكرامته ورفاهيته في الدنيا والآخرة. والسيد الباحث يتخذ من آيات القرآن الكريم شواهد على ما يقول ليثبت أن الانسان هو محور التنمية القرآنية وهدفها الوحيد.

المقدمة

أنّ موضوع التنمية يعدّ من الموضوعات المهمة التي تشغل الناس أفراداً وجماعات، شعوباً وحكومات. والسبب في ذلك أنّ النّاس يسعون جاهدين للتنمية، كُلاً حسب مجالات عمله، فالهدف الأساس للتنمية هو تحسين حياة البشر والازدياد من ذلك على حسب قدرات الناس وعزائم كلّ فرد، وعلى قدر أهل العزم تكون التنمية. والتنمية عملية حضارية تشمل مختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية الإنسان وكرامته، فضلاً عن بناء الانسان وتحريره وتطوير كفاءته وإطلاق قدراته، كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع وتنميتها وحسن الاستفادة منها، بحيث تعود بالنفع على المجتمعات الإنسانيّة، من دون المساس بسعادتها وأمنها.

إنّ مفهوم التنمية أصبح عنواناً للكثير من السياسات والخطط والأعمال، على مختلف الصُّعُد، وإنها باتت تشغل حيّزاً كبيراً من كتابات المهتمين بأمر التطوير والرقي والازدهار والنهضة في المجتمعات الإنسانيّة، وليس الاهتمام بها لدى شعوب العالم الثالث، أو ما يعبّر عنه بالشعوب النامية، فحسب، بل إنّ الشعوب التي حققت تطوراً وازدهاراً وشهدت نهضة كبيرة في عصرنا، والمتمثلة في العالم الغربي لا تنفك عن الاهتمام بأمر التنمية، اهتماماً بكيفية الزيادة في حجمها، كماً وكيفاً، والمحافظة عليها أيضاً ولو بحجبها عن الآخرين.

اختلفت التعريفات في تحديد مفهوم التنمية، وسبب ذلك اختلاف الآراء حول عملية التنمية من حيث مجالاتها وشموليتها، فبعضهم يقتصر في تحديد مفهوم التنمية على مجال معيّن كالمجال الاقتصادي مثلاً، فيقوم بتعريفها من خلال هذا المجال المحدد للتنمية، بينما بعضهم الآخر يرى أنها عملية شاملة لمختلف المجالات، فيكون تحديد المفهوم تبعاً لهذه الرؤية الشمولية للعملية التنموية. وعلى الرغم من ذلك فإنّ كلمة التنمية بوصفها مصطلحاً ذا معنى محدداً إذا أطلقت فتنصرف إلى معنى التنمية الاقتصادية في الغالب، ذلك أنّ الفكر الاقتصادي الغربي هو الذي وضع سمات التنمية في العصر

الحديث، من خلال منظور اقتصادي.

فهذا الخلل في مفهوم التنمية جعل المهتمين بها يعيدون النظر في تحديد معنى التنمية إدراكاً منهم لحقيقة أنّ عملية التنمية ليست بمقصورة على الجانب الاقتصادي، لأنّ هناك جوانب أخرى لها أهميتها في تحقيق نجاح التنمية الاقتصادية، فضلاً عن الاهتمام بالإنسان بوصفه المحور الأساس للتنمية. وبناءاً على ذلك بدأ يظهر التوجه نحو التنمية الشاملة لمختلف مجالات الحياة المتعددة.

ونجد أن المشاريع التنموية مهما اختلفت أهدافها أو تعددت أغراضها، فإنها تتفق في الهدف العام والمتمثل في تحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته، وتقدم وتطور المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً. فمن يرى أنها غاية في ذاتها فيجعل الإنسان خادماً لها ولو كان ذلك على حساب سعادته، وفي هذا الموقف تكون التنمية من أجل التنمية وليست من أجل الإنسان. أما الذي يرى أنّ التنمية وسيلة لتحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته، ففي هذه الحال تكون التنمية خادمة للإنسان محققة لمصالحه، وهذه هي التنمية التي يهدف إليها القران.

١. مفهوم التنميّة:

إن المصطلحات التي تعبّر عن تغير الحالة إلى حالة أفضل، كثيرة ومختلفة مثل (التنمية، النماء، النمو)، إن التنمية هي عملية مقصودة ومخطط لها تهدف إلى تغيير البنيان الهيكلي للمجتمع بأبعاده المختلفة لتوفير الحياة الكريمة لأفراد المجتمع. ولهذا فان التنمية أشمل واعم من النمو، إذ إنها تعني النمو زائداً التغيير، وان التنمية ليست ظاهرة اقتصادية فحسب وإنما تتضمن محتوى اجتماعياً أيضاً.[1] فمصطلح النمو يطلق على الحالة التي تحدث فيها زيادة في الكمية أو القيمة للإنتاج في القطاع المستهدف، بينما يطلق مصطلح التنمية على الحالة التي تتغير إلى حالة أفضل بصورة إرادية مخطط لها وتتحقق بوساطة وسائل وإجراءات معينة تتمثل بخطط وسياسات هدفها زيادة

(١) د. مدحت القريشي، التنمية الإقتصادية، نظريات وسياسات وموضوعات، ط١، دار وائل للنشر، عمان ـ الأردن، ٢٠٠٧، ص١٢٥.

الرفاه الاجتماعي للسكان.[٢]

أصبح مصطلح التنمية مثقلاً بالكثير من المعاني والإعمام، برغم اقتصاره أحياناً كثيرة على الجانب الاقتصادي، ويرتبط إلى حدّ بعيد بالعمل على زيادة الإنتاج الذي يؤدي بدوره إلى زيادة الاستهلاك، لدرجة أصبحت معها حضارات الأمم تقاس بمستوى دخل الفرد، ومدى استهلاكه السنوي للمواد الغذائية والسكنية بعيداً عن تنمية خصائصه ومزاياه وإسهاماته الإنسانيّة، وإعداده لأداء الدور المنوط به في الحياة، وتحقيق الأهداف التي خلق من أجلها.[٣] فضلاً عن أنّ هذه النظرة المادية لعملية التنمية قد استكنت في عقول معظم شعوب العالم الإسلامي، وسيطرت على تفكيرهم، نتيجة الهيمنة الغربية.

وتختلف الدراسات التي تناولت التنمية باختلاف الموضوعات التي تدرسها والمجال الذي ينظر من خلاله إليها، ففي المجال الاقتصادي ينظر إليها في إطار استخدام المجتمع المتزايد للتكنولوجيا بهدف تحقيق زيادة ملموسة في نصيب الفرد في الدخل القومي. أما في المجال الاجتماعي فإنها عملية تحول حضاري في الدول الأقل تطوراً كدول آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والتي تعكس تحولات اجتماعية وتغير من التنظيم الريفي الزراعي الرعوي إلى التنظيم الصناعي بما يتضمنه هذا من استيعاب وتقنين للتكنولوجيا المادية الاجتماعية الحديثة[٤]، كذلك تعني التنمية من وجهة النظر الاجتماعية إنها المعرفة وبواسطتها نستطيع اكتشاف الموارد البشرية والمادية والسيطرة عليها واستغلالها بشكل كفوء.[٥]

(٢) محمد جواد عباس شبع، الصناعة وأثرها في التنمية الإقليمية في محافظة النجف الأشرف، رسالة ماجستير «غير منشورة»، كلية الآداب ـ جامعة الكوفة، ٢٠٠٧، ص٩.

(٣) إبراهيم العسل، التنمية في الإسلام، مفاهيم، مناهج وتطبيقات، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٦، ص ١٣.

(٤) وزير غازي عمر، التنمية المكانية والمواقع الصناعية في محافظة نينوى (منطقة الدراسة قضاء تلعفر)، رسالة ماجستير، كلية التخطيط الحضري والإقليمي، «غير منشورة»، جامعة بغداد، ١٩٨٧، ص٤.

(٥) د. طه النعيمي، وآخرون، رؤيا لعقد الثمانيات في التنمية العلمية والتكنولوجيا، مجلة النفط والتنمية، العدد الأول، السنة=

فيما يمكن تعريفها بأنها مجموعة التحولات الاجتماعية التي تؤدي إلى نمو اقتصادي تلقائي وذاتي. وهي أيضاً بمنظورها الواسع عملية تتخطى مجرد تحقيق نمو مقبول في الناتج القومي الفردي، لتتضمن تحقيق عدد من التبادلات الجوهرية في المعطيات والمؤسسات الاقتصادية والديمقراطية والتكنولوجية والاجتماعية والسياسية.(٦)

ويمكن التمييز بين الجوانب الاقتصادية للتنمية والتي أطلق عليها التنمية الاقتصادية(٧) وهي التي تتجه إلى تنمية الإنتاج وزيادة الدخول القومية والفردية إي زيادة الثروة. والجوانب الاجتماعية والتي عرفت بالتنمية الاجتماعية وهي التي ترمي إلى رفع مستوى الحياة الاجتماعية من حيث الصحة والتعليم والمستوى المعيشي والخدمات بشتى أنواعها.(٨)

ولذا فان التنمية تتمثل في تلك التغييرات العميقة في الهياكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للدولة، وفي العلاقات التي تربطها بالنظام الاقتصادي العالمي التي يكون من شانها تحقيق زيادات تراكمية قابلة للاستمرار في الدخل الفردي الحقيقي عبر فترة ممتدة من الزمن إلى جانب عدد من النتائج الأخرى غير الاقتصادية، والمفهوم العكسي للتنمية هو التخلف.(٩) ونتيجة لذلك فان التنمية تشمل النمو الاقتصادي ولكنها في الوقت نفسه ذات أبعاد أخرى كثيرة، وهي تؤدي بالفعل دور عملية دمج لجميع أبعاد

=التاسعة، بغداد، ١٩٨٤، ص٤٤.

(٦) يوسف صايغ، التنمية والمثلث الحرج، في التنمية العربية: الواقع الراهن والمستقبل، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤، ص.١٠٠

(٧) للمزيد راجع: د. محمد علي الحسيني، الإسلام والتنمية الإقتصادية، مجلة النبأ، المستقبل للثقافة ولإعلام، العدد٥٨، بيروت، لبنان، ٢٠٠١، ص٦٦-٧٣. د. محمد بن موسى باباعمي، الإنسان محور التنمية في المنهج القرآني، مجلة حراء، السنة الاولى، العدد٤، ٢٠٠٦، ص٣٤-٣٧.

(٨) صالح الطيطي، غالب محمد اسماعيل، التنمية العربية وافاقها المستقبلية، دار حنين، عمان، ١٩٩٥، ص١١٨.

(٩) ابراهيم العيسوي، التنمية في عالم متغير دراسة في مفهوم التنمية ومؤشراته، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٨.

النشاط البشري.[١٠] وهناك من يراها مجموعة من الأنشطة الاقتصادية التي تسبب زيادة إنتاجية كل من الاقتصاد ككل والعامل في المتوسط، وزيادة نسبة المشتغلين إلى إجمالي السكان، وإنها عملية مستمرة تتضمن تغييرات هيكلية تؤدي إلى تحسين في أداء الاقتصاد حاليا وفي المستقبل، يقاس بصورة دخل فردي حقيقي، وتمتد لفترة ضريبية من الزمن، وإنها تقوم على جعل الناس أكثر قدرة على التحكم في بيئتهم الاقتصادية نحو تحسين مستوى المعيشة.[١١]

ويمكن إيجاز مفهوم التنمية بأنه كل الجهود البشرية التي تبذل من اجل النمو والتطور وتحقيق الرفاهية للمواطن والمجتمع، والتنمية كلمة جامعة لا تعني إنها خطة أو برنامج أو مشاريع للنهوض بواقع السكان اقتصادياً و اجتماعياً فحسب بل تعني أيضاً كل عمل إنساني بنّاء في جميع القطاعات وفي مختلف المجالات وعلى المستويات كافة.[١٢]

٢. مفهوم التنمية من المنظور القرآني:

لم نجد في القران الكريم استعمالاً لمصطلح النمو أو التنمية، في معرض الحث والأمر ولكننا نجد بدلاً من ذلك عدداً من المصطلحات المرادفة، ومنها الإعمار والابتغاء من فضل الله والسعي في الأرض، وإصلاح الأرض وعدم فسادها، ونشدان الحياة الطيبة. وليس معنى ذلك زهد القرآن في الرخاء الاقتصادي، ذلك المعنى الذي تمحورت حوله عملية التنمية في المصطلح الاقتصادي المعاصر، وإنما هو حرص القرآن وتأكيده على ان المطلوب والمستهدف هو شيء اكبر من ذلك واجل منه، انه طيب الحياة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ومدلول يتجاوز إلى حد بعيد الحدود الاقتصادية، محتويا جميع جنبات الحياة الاجتماعية والسياسية

(١٠) منشورات اليونسكو، الاسكوا، البعد الثقافي للتنمية: نحو مقاربة عملية، ترجمة يوسف سماحة، ١٩٩٥، ص١١١.

(١١) محمد عبدالمنعم عفر، التخطيط والتنمية في الإسلام، دار البيان العربي، جدة،١٩٨٥، ص١٢٢.

(١٢) د.عدنان مكي عبد الله البدراوي، د.فلاح مجال معروف العزواي، التنمية والتخطيط الإقليمي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٩١.ص٢٥.

والثقافية فضلاً عن الاقتصادية. كما انه في الوقت نفسه مشغول كل الشغل بالإنسان نفسه، بكل مقوماته الذاتية والخارجية، الروحية والفكرية والوجدانية والمالية.(١٣)

معنى ذلك بوضوح ان موضوع التنمية في المفهوم القرآني هو الإنسان بكل مقوماته، بما فيها عنصر الأموال، فالمستهدف هو ترقية هذه المقومات الإنسانية وتحسينها وحمايتها، وهي التي جمعها علماء الإسلام في خمس (الدين والنفس والعقل والنسل والمال). والوسيلة لتحقيق ذلك هي نفسها إي الإنسان نفسه بما لديه من مقومات. وهنا نجد المفهوم القرآني للتنمية يتميز عن المفهوم الوضعي لها، الذي جعل موضوعها الأموال والأشياء، ووسيلتها في المقام الأول، ومن ثم فهي تنمية ما بيدي الإنسان وليست تنمية الإنسان نفسه. وقد نتج عن هذا المفهوم المادي للتنمية على المجتمعات المعاصرة الكثير من المتاعب والأوزار. مما جعل المنصفين من فلاسفة الغرب وعلمائه والكثير من علماء الاقتصاد أخذوا في مؤلفاتهم الحديثة يصرون على ضرورة إحداث تغيير جذري في مفهوم التنمية، وأبعادها، وأهدافها، ووسائلها، وبعضهم اخذ يقترب رويداً رويداً من المفهوم القرآني للتنمية، مؤكدا على ان المستهدف من عملية النمو لا يُبتغى ان يكون هو الكثرة والتكاثر المادي، بل حياة أفضل «بما تنطوي عليه من أبعاد غير اقتصادية، لا تقل أهمية عن البعد الاقتصادي.(١٤)

ومفهوم التنمية في القرآن مفهوم شامل متكامل يهدف إلى تحسين حياة الإنسان من مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية وفق شرائع الله المقررة، ويحرص على التنمية الشاملة للإنسان من الزوايا المادية والروحية والخلقية كافة. فالإنسان ليس مادة فقط كي تنحصر التنمية في مجال التنمية الاقتصادية «رغم أهميتها» وإنما الإنسان مادة وروح وعقل وقلب وجسم، يعيش في هذه الحياة الدنيا،

(١٣) د. شوقي دليا، دولة الدولة في التنمية في المنظور الإسلامي، وقائع ندوة التنمية من منظور الإسلامي،ج٢، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية «مؤسسة آل البيت»، عمان، ١٩٩٤، ص١١٣٩.

(١٤) د. شوقي دليا، مصدر سابق، ص١١٤٠.

وله حاجات يجب العمل على تلبيتها، إلا ان هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، فلا بد للإنسان من الانضباط في عمله الدنيوي بما لا يتعارض مع حياته الآخروية. من خلال هذا التصور يبرز القرآن مفاهيمه للتفوق والتقدم في المجتمع لتنسجم مع عقائده وأسسه الإيمانية والأخلاقية، وهذا بحد ذاته يعتبر من أهم دوافع التنمية لان الإنسان يعمل وفق معتقداته وإيمانه، ولا يتعارض معها، إذ ان إي خطة تنمية منقولة من مجتمع مختلف في المعتقدات والتصورات لابد ان تلاقي صعوبات عدة في التطبيق.

وقد أكد القرآن «وهو يرسي مفهومه الشامل للتنمية» على إن التنمية التي تقتصر على التقدم المادي تفقد الأمن والطمأنينة من الأنفس، وسيادة روح الغلبة والسيطرة والتنافس غير الشريف والأنانية المفضية إلى التظالم ومن ثم اكتواء الشعوب بويلات الحروب والدمار وما ينتج عن ذلك من فقر وحرمان.

فقد حدثنا القران الكريم عن أمم سابقة أخذت بحظ وافر من التقدم المادي، ولكنها لم تحفظ النعمة بالشكر، ولم يواكب قوتها المادية، طاعة الله وإقامة منهجه في الأرض، مما كان سببا في هلاكها، ولم تغن عنها قوتها ورخاؤها المادي من الله شيئاً. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[سورة الأنعام:٦].

فالذين عصوا الله ولم يسيروا على نهجه ولم يراعوا البعد الروحي في التنمية، أهلكهم الله برغم ما كانوا يتمتعون به من التنمية المادية. ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[سورة الأعراف:٩٦].

فالآية الكريمة توضح ان التقدم المادي وحده لا يكفي، وان التكذيب وعدم السير على نهج الرسل القويم سبب لأهلاك الناس رغم ما هم فيه من تقدم مادي. مثلما توضح الآية من ناحية أخرى شمول التنمية في المفهوم القرآني، وتوازن الروح والمادة فيها، وان التنمية الروحية

دافع وحافز نحو التنمية المادية، حيث يلتقي عطاء الله من السماء والأرض نماء وبركة بعطاء الإنسان إيماناً وطاعة وتقوى، وتكون النتيجة ان يحفظ الله الخيرات على اهل المجتمع المتصف بهذه الصفات، ويفتح لهم البركات. ونلاحظ ما في استخدام لفظ "بركات" على آثار هذه التنمية في المجتمع المؤمن من دلالات لطيفة وربط في مفهوم التنمية بين الدنيا والآخرة، ليجد المسلم الدافع على أعمار الأرض وتقديم الخير للناس وهو الثواب الآخروي.

ففي التصور القرآني تكون التنمية موصولة بالآخرة وبالأهداف الكريمة للحياة التي تجد ثوابها في الآخرة. أما المجتمعات المادية فمحرومة من هذه العقيدة ومحكومة لقيمتها المادية الدنيوية فالمسلم الحق هو الذي يسعى للتنمية الشاملة ويتحمل في سبيل ذلك التعب والضنك، لان هذا جزء من مهمته التي استخلفه الله لتحقيقها. فالدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا، لذا أمر الله سبحانه وتعالى بالربط بين الدنيا والآخرة في أعمالنا، فنحن نعمل في دنيانا وفق أمر ربنا، ولكن هدفنا الأعلى والأسمى هو إرضاء الله، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة القصص:٧٧].

خصائص التنمية في القرآن

تعد التنمية وسيلة لتحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته في الدنيا والآخرة. وهذا الموقف مبني على التصور القرآني للكون والحياة والإنسان حيث إنّ الإنسان غاية جميع ما في الطبيعة، وكّل ما في الطبيعة وجد لخدمته، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية:١٢-١٣]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة الملك:١٥]. وأنزل القرآن من أجل الإنسان أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ

﴿الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل:٤٤].

لذلك فإنّ هدف التنمية هو الإنسان، ولذا تكون العملية التنموية وسيلة غايتها تحقيق سعادة الإنسان المادية والمعنوية، فالإنسان هو محور التنمية القرآنية التي تتميز بالآتي:(١٥)

أ. التطوير والتغيير: إنّ أهم خاصية للتنمية هي كونها عملية تهدف إلى تطوير وتغيير حياة الناس في مجتمع ما، ولذلك لا يكاد يخلو تعريف من الإشارة إلى هذا العنصر الأساس في عملية التنمية أو ما يشاكله، مثل التقدم والرقي والتحسين وغيرها. ولكن عملية التطوير والتغيير هذه لابد أن يراعى فيها مدى قابلية الأفراد واستطاعتهم لذلك، حتى لا يكلف الناس أكثر من وسعهم أو يحملوا ما لا يطيقون فتفشل العملية من حيث يراد لها النجاح. ولذا، ورد في التعريف تقييد عملية التطوير والتغيير بعبارة «قدر الإمكان» مراعاة لاختلاف الناس من حيث قابليتهم للعملية التنموية.

ثم إنّ عملية التغيير تكون في التنمية دائماً نحو الأحسن فالأحسن، وذلك لوجود فرق مهم بين كلمتي التغيير والتنمية، فالتنمية دائماً تعني التحسين والرقي والزيادة في الشيء، بينما التغيير قد يكون لما هو حسن كما يكون لما هو سيئ. وقد ورد لفظ التغيير في موضعين من القرآن الكريم، أولهما في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال:٥٣]، وثانيهما في سورة الرعد وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[سورة الرعد:١١]. فالتغيير الوارد في الآية الأولى إنما هو تغيير نحو السيئ، بحيث إنّ الله لا يُغيِّر نعمته إلى نقمة إلا إذا حصل ما يقتضي ذلك، وهو التغيير السيئ لأنفس قوم ما. فنظراً لهذا الفرق المهم بين التنمية والتغيير قيّدت التغيير الوارد في التعريف بكونه «نحو الأحسن فالأحسن».

(١٥) مفهوم التنمية، الشبكة الإسلامية، شبكة المعلومات العالمية (الانترنت):
http: //www.islamweb.net

ب. الاستمرارية: إنّ العملية التنموية وتحقيق مهمتها الحضارية لا تتم بين عشية وضحاها، بل تأخذ زمناً يطول ويقصر على قدر عزائم الناس الساعين إلى التنمية. ولكن عملية التنمية لا تتوقف عند تحققها، بل لابد من المحافظة عليها وتحقيق المزيد منها، وبذلك تكون التنمية عملية مستمرة نحو الأحسن فالأحسن. وهذه الديمومة والاستمرارية للعملية التنموية تكون مستغرقة لحياة الأفراد والمجتمعات على حدٍ سواء؛ بمعنى أنّ الأفراد يستنفدون أعمارهم من أجل التنمية، ويحرصون على نقل ذلك لمن يخلفهم في المجتمع.

إنّ خاصية الاستمرارية في التنمية نابعة من النظرة القرآنيّة السامية للكون والحياة والإنسان، فالإنسان خلقه الله ليكون خليفة له في الأرض كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[سورة البقرة:٣٠]. وهذا الاستخلاف لا مجال فيه للعبث وإضاعة الوقت فيما لا ينفع: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[سورة القيامة:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥].

ثم إنّ هذه النظرة السامية للحياة مبنية على التصور القرآني لخلق هذا الكون وأنه ليس لِلَّعب ولا للعبث كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[سورة الأنبياء:١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[سورة الدخان:٣٨]. إذن، فالإنسان لم يخلق سدى، ولا الكون خلق عبثاً أو لعباً، فلابد أن يستثمر الإنسان حياته لتنمية ما في الكون، وهي المتمثلة في عملية التعمير: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [سورة هود:٦١]، حتى يؤدي مهمّة الاستخلاف التي نيطت به من قِبَل خالقه، ويقوم بعملية التنمية والتعمير خير قيام.

ويضاف إلى ذلك، أنّ الله عز وجل كلّف الإنسان بتعمير الارض، وتنمية ما فيها، واستثمارها. وهذا كلّه في مقدور الإنسان واستطاعته وليس فيه تكليف له بما لا يطيق، لأنّ المولى سبحانه وتعالى

حين كلّف عباده بذلك يسّر لهم القيام به، وذلك بأنْ سخّر لهم ما في الكون وذلل لهم الأرض تذليلاً. وقد وردت عدّة إشارات إلى ذلك في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الجاثية: ١٢-١٣]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [سورة الملك:١٥].

ج. الشمولية: إنّ العملية التنموية لا تقف عند التطوير والتغيير المستمر نحو الأحسن فالأحسن، بل لابد أنْ يضاف إلى ذلك كلّه ميزة أخرى وهي الشمولية. والمقصود بالشمولية في عملية التنمية القرآنيّة أنْ تكون فيها مراعاة لقدرات الإنسان وإمكانياته المختلفة، سواء أكانت مادية أم معنوية (روحية، نفسية، عقلية..). فهذه الشمولية بالمعنى المتقدم تعد من خصوصيات التنمية القرآنيّة التي تنفرد بهذه الخاصية عن سواها، حيث إنّ القرآن الكريم يخلو تماماً من ثنائية النفس والجسد التي شغلت الفكر الأروبي الديني والفلسفي، ذلك أنّ الإنسان في المنظور القرآني هو روح وجسم، ولم يرد في القرآن قط ما يحط من قدر الجسم(١٦).

د. الوعي بمقصود الشارع من الاستخلاف: غني عن البيان أنّ الله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان في الأرض، وسخر له ما في الكون جميعاً، وجعل الأرض له ذلولاً، ليسر له عملية القيام بمهمّة الاستخلاف وتعمير الأرض. ولكن الأمر المعضل الذي يعسر علاجه هو غياب الوعي من قِبل أبناء العالم الإسلامي بمقصود الشارع من الاستخلاف.

إنّ الوعي بمقصود الشارع من الاستخلاف يكون خير دافع للعالم الإسلامي من أجل قيامه بالعملية التنموية وتحقيق عمارة الأرض واستثمار ما في

(١٦) محمد عابد الجابري، الروافد الفكرية العربية والإسلاميّة لمفهوم التنمية البشرية، ندوة التنمية البشرية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص ٤٩.

الكون. وسبب ذلك أنّ الإنسان لابد أن يكون له هدف يسعى إليه، ودافع ديني أو عقدي يكون حافزاً له للعمل وبذل الجهد، بغض النظر عن قيمة هذا الدافع ونوعيته. وكلّما كان واعياً ومستحضراً لذلك الدافع الديني أو العقدي كان جهده أكثر وعمله أفضل، ولاسيما إذا كان المطلوب منه مستمراً طيلة حياته ومتواصلاً بين الأجيال، مثلما هو الحال بالنسبة للاستخلاف في التصور القرآني. وينبغي أنْ يكون هذا الوعي مقترناً بالعمل. إذ عندما يكون مجرّداً عن العمل، وهو حال الأكثرية من أبناء العالم الإسلامي اليوم، لا يحقق المراد منه، ولذا اقترن الاستخلاف بالعمل والتكليف، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة يونس:١٤].

هـ. الرعاية: إنّ ما نقوله عن التنمية والتعليم وما ينتج عن ذلك من نهوض حضاري، كلّه يبقى حبراً على ورق إذا لم تتم رعايته، لأنّ التنمية التي تحقق نهضة حضارية ليست بعملية فردية، بل هي عملية حضارية يشترك فيها أفراد العالم الإسلامي جميعاً، وتتضافر جهودهم لتحقيق التنمية المطلوبة للنهضة. ولذا، فمن الأهمية بمكان أن يتولى أولو الأمر في العالم الإسلامي تبني المشروع التنموي والسهر على تنفيذه وأنْ يحظى برعايتهم ويحثوا الناس على ذلك فـ«إنّ الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».(١٧)

و. التعاون والتكامل: فإذا قام أولو الأمر في العالم الإسلامي بواجب الرعاية للتنمية، من حيث الاهتمام بها والتخطيط لها وتنظيمها وتوفيرها لأفراد المجتمع جميعاً، فبعد هذا كلّه لابد من استجابة المعنيين بعملية التنمية وهم أفراد الأمة الإسلاميّة وذلك بالتعاون فيما بينهم، ولاسيما أنّ شرعنا الحنيف يحثنا على التعاون فيما فيه خير وصلاح كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة:٢]،

(١٧) علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق محمد عمر الدمياطي، الدار العلمية للكتب، بيروت، ١٩٩٨، ص٢١٣.

وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء:٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾[سورة المؤمنون:٥٢]. لذا فإنّ عملية التنمية لابد أنْ تكون تنمية للأمة الإسلاميّة كلّها، من خلال تعاونهم فيما بينهم وتكاملهم.

ز. الاستقلالية: لكلّ أمة خصائص تميّزها عن غيرها، ولها تراثها الديني والمعرفي الذي يكوِّن بمجموعه ثقافتها الخاصة بها. وبناء على ذلك، فإنّ العملية التنموية لابد أنْ تكون نابعة من خصائص ومميِّزات تلك الأمة، منسجمة مع تراثها الديني والمعرفي، ولا تكون مستعارة أو مستوردة. وبعبارة أخرى، فإنّ عملية التنمية لابد أنْ تتم بعيداً عن أيّ نوع من أنواع التبعية بحيث يصح أنْ نطلق عليها «تنمية مستقلة». وعليه، فإنّ العالم الإسلامي إذا أراد أنْ يقوم بعملية تنموية ناجحة وأنْ يحقق نهضة حضارية فليس من سبيل أمامه إلا التنمية المستقلة التي يعتمد فيها على ذاته، ولا ينتظر تنميةً أو تطويراً من الآخرين ولكن ينتظر منهم تعميقاً لتنمية التبعية ومزيداً من الاستغلال.

أبعاد التنمية في القرآن الكريم:

ان مفهوم التنمية في القرآن يشمل تحسين ظروف حياة الإنسان من مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية. ذلك ان هدف التنمية هو الإنسان. وهو كما تقدم لا يعيش بزيادة الدخل المادي فقط بل يعيش في مجتمع له سياسته، ولا شك إن نظم مجتمعه تؤثر عليه، فلا بد من تحسينها،كما انه لا بد كي تكون الحياة مريحة ان تكون البيئة نقية ما أمكن وصالحة للحياة. لذا دخلت كل هذه الأبعاد في مفهوم التنمية، ويمكن تلخيصها على النحو الآتي:

١. البعد الاقتصادي:

لقد اهتم القرآن بالجانب الاقتصادي في حياة الإنسان اهتماما كبيرا، ذلك ان الإنسان لا يستطيع ان يعيش من دون تلبية احتياجاته من طعام وشراب وكساء وسكن، وكل ذلك يتطلب الاهتمام بالتنمية الاقتصادية لإشباع ما فطر الإنسان عليه. لذا فقد وردت في القران

الكريم آيات عديدة تمتن على الإنسان بنعمة المال والأمن، وتبين ما فطر عليه من حب المال والشهوات في حدود المباح. يقول تعالى ممتناً على قريش ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾[سورة قريش].

فالله تعالى يمتن على قريش بان يسّر لهم نظام الإيلاف التجاري لما له من أهمية اقتصادية، ويسر لهم سبل الأمن لتجارتهم مما سبب إشباع حاجاتهم المادية.

ويتحدث تعالى عما أودعه في النفوس من حب المال والشهوات فيقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.[سورة آل عمران:١٤] ويقول عز وجل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [سورة الكهف:٤٦].

ويدعونا الله سبحانه وتعالى إلى التمتع بحدود المباح فيما انعم علينا من نعم، والظهور بالمظهر اللائق، فيقول عز زجل ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. [سورة الأعراف: ٣١-٣٢]

ومن الأسس العقائدية للاقتصاد الإسلامي ان الله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان في الأرض لعمارتها واستثمار خيراتها، وقد أعطاه الله القدرة بما وهبه من قوة العقل والجسم لتحقيق هذا الاستخلاف، يقول عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.[سورة البقرة:٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾.[سورة الأنعام:١٦٥] ويبين ان الكون وما فيه مسخر للإنسان ومذلل له ليتمكن من تحقيق هذا الاستخلاف. وقد عبر القران الكريم عن هذا المعنى

بآيات كثيرة أوضحت ان التسخير شامل للأرض والبحر والجو وما فيها. ومن هذه الآيات الجامعة قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[سورة الجاثية: ١٢-١٣]

وبديهي ان تسخير الكون للإنسان، واستخلاف الله تعالى له في هذه الأرض، يقتضيان انتفاع الإنسان بما خلق الله في الكون، واستثماره لما فيه من خيرات وثمرات بالطرق التي شرعها الله الخالق والمالك لهذا الكون لما فيه ومن فيه.

وهذه الأسس بحد ذاتها دليل على ما للنشاط الاقتصادي من أهمية بالغة في النظرة القرآنية. ولكن من المهم الإشارة إلا انه لا ينبغي ان يكون النشاط الاقتصادي غاية قصوى بحد ذاته، وإنما وسيلة لمرضاة الله وشكره. لذا وجب ان يتقيد بكل القيود الأخلاقية والشرعية، إذ الهدف النهائي هو مرضاة الله. يتضح هذا مما تقدم ذكره من قول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.[سورة القصص:٧٧]

٢. البعد الاجتماعي:

لقد أولى القرآن بالعدالة الاجتماعية، كأحد أبعاد التنمية، أهمية بالغة لكي لا تظهر في المجتمع فجوات واسعة في الدخول يبني عليها نظام طبقي بغيض، بحيث يعيش أناس حياة متفرقة بينما يوجد غيرهم يعانون من الفقر والحرمان، ويتعرضون لصنوف الظلم والاستغلال والهوان مما ينافي القاعدة العامة التي أرساها القرآن بوجوب إقامة العدل الذي بنى الله عليه الكون. يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.[سورة النحل:٩٠]

وقد أرسى القران الكريم قاعدة عامة هي وجوب توزيع الدخل بشكل عادل، وعدم جواز تداوله بين الأغنياء فقط، يقول تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ

أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[سورة الحشر:٧].

البعد السياسي:

اهتم القرآن بهذا البعد من أبعاد التنمية عن طريق تقديره لمبدأ الشورى، وحثه الناس على الاهتمام بالشؤون العامة للأمة والمساهمة في حلها وتقريره مبدأ تكريم الإنسان ومراعاة العلاقات الإنسانية في التعامل بين الرئيس والمرؤوس وبين أفراد الأمة بشكل عام. فالشورى احد المبادئ الرئيسة في الحياة الإسلامية العامة، وهو احد أركان القيادة، كما في قوله تعالى في أوصاف الأمة المؤمنة: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[سورة آل عمران:١٥٩].

على كل فرد من أفراد المجتمع الاهتمام بالشؤون العامة الذي عبر عنه ﷺ بقوله:"من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم" كانت النتيجة هي المشاركة الفعالة بين القيادة ومجموع الأمة بما يأخذ بيد الجميع نحو الخير. لذا فقد كان الرسول ﷺ يستشير أصحابه فيما يحزب الأمة من أمر، وكان الصحابة يستشيرون عليه، ومن ثم يتخذ القرار المناسب، فيسارعون في تنفيذه عن قناعة ورضا، لأنهم أسهموا في صنعه وأدركوا أبعاده ومراميه. فقد استشارهم بوقائع متعددة ومن أمثلة ذلك استشارتهم في مكان الجيش في غزوة بدر، ومعاملة أسرى بدر.. وغيرها الكثير. يجعل لمبدأ الشورى حيوية متجددة في الأمة انه جاء عاما غير مقيد بصورة تنفيذية محددة مما يفتح المجال إمام الأمة لإيجاد الصيغة أو الطريقة العملية المناسبة لتحقيق الشورى في حياتها حسب تغيير ظروفها ودرجة تطورها ليكون هذا المبدأ ذو اثر فعال في حياة الأمة بشكل دائم.

٤. البعد البيئي:

اهتم القرآن بضرورة المحافظة على البيئة وتوازنها الطبيعي، وقد بين الله سبحانه وتعالى انه خلق الكون متوازنا في

مجالاته المختلفة يقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[سورة الحجر:١٩].

ويقول تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.[سورة الرعد:٨] وقد وردت أحكام إسلامية كثيرة تأمر بالمحافظة على البيئة نظيفة ونقية كي تكون صالحة لحياة كريمة للإنسان، فقد أمر المسلمين بالنظافة ونهى الرسول ﷺ عن إلقاء الفضلات في المياه. وفي ظل الأشجار وأمر بالاقتصاد في استعمال الموارد لضمان عدم استنزافها. ونحن نرى الآن المخاطر الكبيرة للتلوث سواء أكان التلوث كيميائيا ام ناتج عن المخلفات النووية، بسبب التسارع في زيادة الإنتاج الصناعي.

من هنا ندرك حكمة القرآن بالحد من هذا المسبب عن طريق الأمر بالتوازن في حياة الإنسان المعيشية، بحيث لا يبذر ولا يسرف في الاستهلاك فالاستهلاك باسراف يستوجب زيادة الإنتاج عن طريق المصانع التي تلوث البيئة أو عن طريق استخدام السماد الكيمياوي ورش المنتجات الزراعية بكثرة، ما يؤدي إلى التلوث واستنزاف الموارد معا. لذلك أمر الله بالاعتدال فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [سورة الإسراء:٢٩].

الخلاصة

لا شكَّ أنَّ القرآن الكريم كتاب «حياة»، وليس من طبيعة الحياة التجزؤ ولا الانحياز، فالحديث عن التنمية حديث عن جوانب "الحياة"، وإنَّ شمولية التنمية وتكاملها هي أبرز سمة من سمات التنمية في القرآن الكريم، والقرآن في عرضه لمختلف مجالات التنمية وأنواعها دقيق كلَّ الدقَّة، واضح غاية الوضوح، وكلَّما غاص باحث في آية من آيات التنمية في القرآن الكريم، إلاَّ وبهرته هذه الدقة وذلك الوضوح، من سمات منهج القرآن في معالجته لموضوع التنمية.

و يعد مفهوم التنمية في القرآن مفهوماً شاملاً متكاملاً يهدف إلى تحسين حياة الإنسان من مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية وفق شرائع

الله المقررة، ويحرص على التنمية الشاملة للإنسان من الزوايا المادية والروحية والخلقية كافة. فالإنسان ليس مادة فقط كي تنحصر التنمية في مجال التنمية الاقتصادية (برغم أهميتها) وإنما الإنسان مادة وروح وعقل وقلب وجسم، يعيش في هذه الحياة الدنيا، وله حاجات يجب العمل على تلبيتها، إلا ان هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا، فلا بد للإنسان من الانضباط في عمله الدنيوي بما لا يتعارض مع حياته الآخروية. من خلال هذا التصور يبرز القرآن مفاهيمه للتفوق والتقدم في المجتمع لتنسجم مع عقائده وأسسه الإيمانية والأخلاقية، وهذا بحد ذاته يعدّ من أهم دوافع التنمية لان الإنسان يعمل وفق معتقداته وإيمانه، ولا يتعارض معها، إذ ان أي خطة تنمية منقولة من مجتمع مختلف في المعتقدات والتصورات لابد ان تلاقي صعوبات عدة في التطبيق.

تكون التنمية موصولة بالآخرة وبالأهداف الكريمة للحياة التي تجد ثوابها في الآخرة. أما المجتمعات المادية فمحرومة من هذه العقيدة ومحكومة بقيمتها المادية الدنيوية فالمسلم الحق هو الذي يسعى للتنمية الشاملة ويتحمل في سبيل ذلك التعب والضنك، لان هذا جزء من مهمته التي استخلفه الله لتحقيقها. فالدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا، لذا أمر الله سبحانه وتعالى بالربط بين الدنيا والآخرة في أعمالنا، فنحن نعمل في دنيانا وفق أمر ربنا، ولكن هدفنا الأعلى والأسمى هو إرضاء الله، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[سورة القصص:٧٧].

يمكننا القول في ضوء ما تقدم ان القرآن الكريم حدّد معالم التنمية بشكلها المتكامل ومن نواحيها المختلفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والبيئية في إطار التنمية المتكاملة والمتوازنة للإنسان الذي تتم التنمية به وله ومن اجل تحقيق سعادته وكرامته ورفاهيته في الدنيا والآخرة. وهذا الموقف مبني على التصور القرآني للكون والحياة والإنسان الذي هو غاية جميع ما في الطبيعة، وكلّ ما في الطبيعة وجد لخدمته، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ

تَشَكُّرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[سورة الجاثية: ١٢-١٣]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [سورة الملك:١٥]. وأنزل القرآن من أجل الإنسان أيضاً كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل:٤٤]. لذلك فإنّ هدف التنمية هو الإنسان، ولذا تكون العملية التنموية وسيلة غايتها تحقيق سعادة الإنسان المادية والمعنوية، فالإنسان هو محور التنمية القرآنية وهدفها الوحيد.

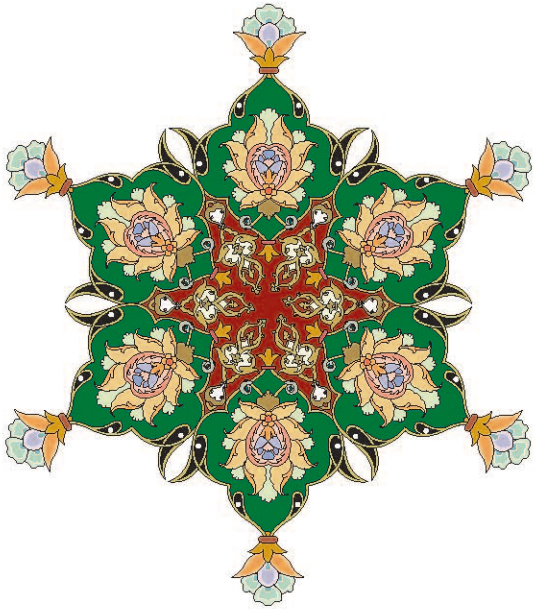

الرحمن ومضامين الرحمة الإلهية في القرآن الكريم

د. مهدي حسين التميمي
جامعة بغداد

ملخص البحث

يتحدث السيد الباحث عن مضامين الرحمة في القرآن الكريم والتي تأتي اما بصيغة (الرحمن) أو الرحيم أو ما يضافان اليه من اسماء الله الحسنى مما يوحي باقتران الرحمة بها.

يبدأ البحث ببسط (المعنى الدلالي والاعتباري) للرحمن في بحث صوفي إحصائي لموارد الكلمة في القرآن الكريم اذ يحصر معظم الآيات التي اشارت الى وصفه -تعالى -بالرحمة. ثم يقوم ببيان ارتباط اسم (الرحمن) بأخص اسمائه الحسنى (الرحيم، الغفور، التواب، الحليم... الخ) وهي الموارد التي تظلل فيها الرحمة الألهية ساحات الوجود.

● ليس ثمة ما يعبر عن فيوض الله وألطافه بعباده كمثل ما يستدل عليها من مضمون اسمه تعالى «الرحمن»، وقد اشتمل موضوعنا بهذا الشأن على العرض للمضمون الدلالي والاعتباري لذلك، مع الشواهد من تأثيرات الرحمة الإلهية والتي يأتي النص القرآني على ذكرها ما تفيض من الرحمة الإلهية على الوجود الكوني والإنساني.

المضمون الدلالي والاعتباري لـ «الرحمن»: تكتسب الرحمة الآلهية مضمونها الأعتباري في القرآن الكريم من إرتباطها بالذات الآلهية والتي خُصت بمسمى «الرحمن» في موارد كثيرة من النص القرآني، وفي الصفة والمقام الأخص من أسماء الله الحسنى والتي يرد ذكرها في ذلك مشفوعا بالمآثر الرحمانية وعلى نحو ملفت في الذكر في بعض سور القرآن الكريم، كمثل ما هو في «سورة مريم»، والتي يرد فيها ذكر «الرحمن» عوضا عن عبارة «الله» لعشرين مرة وبدلالتها الأعتبارية الخاصة بمقامه الأسمى، وفيما يرد البيان في سورة الإسراء باستواء ذكر «الله» و«الرحمن».

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [سورة الإسراء: ١١٠].

وان التحري عن مدلول عبارة «الرحمن» «يقف بنا عند حقيقة العناية بهذا اللفظ مقابل لفظ الجلالة «الله» واعتباراً بالوظائف الاساسية التي تمثلت فيها الإرادة الإلهية وفيوضها، فالرحمن، وكما يورد محي الدين إبن العربي: «هو المفيض للوجود والكمال على الكل بمقتضى الحكمة وتحمل القوابل على وجه البداية، و«الرحيم» هو المفيض للكمال المعنوي بالنوع الإنساني بحسب النهاية، ولهذا قيل «يارحمن الدنيا والآخرة فمعناه بالصورة الإنسانية الكاملة الجامعة الرحمة العامة والخاصة التي هي مظهر الذات الإلهي والحق الأعظمي من جميع الصفات»[1].

وفي الحديث: قال الله تبارك وتعالى: «انا الله وأنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت له من اسمي فمن وصلها وصلته، ومن قطعها مقتّه».

وفي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ

(١) تفسير القرآن الكريم، مج١، ص: ٧٠.

﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: ٥] ما يفيد استقامة امر الله وسلطانه على الرحمة، وهو ما نراه في تقريره تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٦].

وقد كان من دواعي الإشعار بسلطان الله الأعظم والأوسع مدى في الوجود، ودواما في النفوذ أن يستهل الخطاب القرآني وفي كل سورة من سوره-ما عدا سورة التوبة-باسم الله تعالى مقترناً بعبارتي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾-صفتين متلازمتين بالتتابع والتكامل لأخص السمات المميزة للذات الآلهية، وقد وردت صيغة المبالغة بالرحمة الآلهية بعبارة ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾:

﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥١].

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: ٦٤].

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٣].

﴿ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة يوسف: ٩٢].

وبعبارة ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾:

﴿وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٩].

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٨].

ويرد في «الميزان» ان الرحمن (فَعْلان) صيغة مبالغة تدل على الكثرة، والرحيم (فعيل) صفة مشبهة تدل على الثبات والبقاء ولذلك ناسب الرحمن ان يدل على الرحمة الكثيرة المقاضة على المؤمن والكافر، وهو الرحمة العامة، وعلى هذا المعنى يستخدم كثيراً في القرآن: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: ٥]، وناسب الرحيم أن يدل على النعمة الدائمة، الثابتة الباقية التي تفاض على المؤمن كما قال تعالى ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣] و﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١١٧]، ولذلك قيل ان الرحمن عام، والرحيم خاص بالمؤمن[٢]، وقد وجدنا، من ملاحظة التركيب النصي للكثير من الآيات القرآنية-وكما سيلي بيانه-أن جملة من الايات تنفرد بذكر الرحمن، على أنه دلالة عن عمومية الدور الآلهي

(٢) الميزان، مج١، ص: ١٨-١٩.

وشموليته في الرحمة، إذ الله تعالى: ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [سورة الأنعام: ١٤٧]، وأنه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢].

وإن سَبْقَ الذكر لعبارة ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لعبارة ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ كما في سورة الفاتحة انما هو تأكيد للصفة العامة الغالبة لله تعالى في الرحمة، وباستباق العام للخاص وتقديمه في مجال الرحمة الآلهية، ويفيد السيد عبد الله شبر بشأن ذلك بأن الله تعالى قد وُصف بهما باعتبار غايتهما، والرحمن ابلغ لاقتضاء زيادة المباني وزيادة المعاني، اما باعتبار الكم لكثرة افراد المرحومين وقلتها وعليه حمل «يارحمن الدنيا» لشمول المؤمن والكافر، «ورحيم الآخرة» للاختصاص بالمؤمن او باعتبار الكيف وعليه حمل «يارحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما» لجسامة نعم الآخرة كلها بخلاف نعم الدنيا، وانما قدم الرحمن ومقتضى الترقي لصيرورته بالاختصاص كالواسطة بين العلم والوصف فناسب توسيطه بينهما، لان الملحوظ في تمام التعظيم جلائل النعم وغيرها كالتميمة فقدم واردف بالرحيم تنبيها على جلائلها ووقائعها منه تعالى[٣].

وانه تعالى قد خص الاتقياء بعبارة «عباد الرحمن» لما امتازوا به من الصفات الأيمانية، والتي هي جماع التقوى ما اشتملت عليه الآيات الكريمة التالية:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ

(٣) تفسير القران الكريم، ص: ٣٨.

﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٣-٧٤].

وينوه المؤرخ «ول. ديوارنت» بذلك الوجه من التشديد والتوكيد-في النص القرآني-على مبدأ الرحمة الآلهية، وبأن الله مع سلطانه وعدله رحيم أبداً. فكل سورة من سور القرآن ما عدا سورة التوبة، وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وأن النبي وهو لا يفتأ يذكر الناس بأهوال النار، فأنه لا يمل من الثناء على رحمة الله الأبدية(٤).

نداء الوحدانية نداء رحماني:

وقد كان نداء الوحدانية والذي تمثل في كل بلاغات القرآن الكريم نداء رحمانياً، يعبر عن المضمون الشمولي لرسالة الإسلام:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: ١٦٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ﴾ [سورة طه: ٩٠].

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [سورة الملك: ٢٩].

﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة النبأ: ٣٧].

وقد وصف مكرمة الله بالقرآن الكريم وجل كتب الرسالات السماوية بانها الرحمة والهدى للمؤمنين:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٢].

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [سورة هود: ١٧].

﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٤].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل: ٨٩].

وأن الإبلاغ الرسالي في جملته هو عنوان لرحمة الله لعباده في ارشادهم لسبيل الله القويم في الوحدانية:

(٤) قصة الحضارة، مج٤، ص: ٥٤، ٦٩.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧-١٠٨].

وقد أشار القرآن الكريم إلى جوانب من فيوض الله بالرحمة على الأنبياء بما منحهم من الكتاب والحكمة، وما هيأ لهم من الأسباب التي مكنتهم من أداء مهماتهم في التكليف الرسالي ومن جملة ما ذكر في ذلك:

-اسباغ الله الرحمة على رسوله الكريم محمدﷺ في ابقائه القرآن الكريم محفوظاً في الصدور وفي المصاحف:

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ [سورة الإسراء: ٨٦-٨٧].

-إدخال الانبياء، ومن ضمنهم اسماعيل وادريس وذا الكفل-في منظومة الرحمة لصبرهم وصلاحهم:

﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٥-٨٦].

-مثول الرحمة للنبي لوط بما اوتي من الحكم والعلم ونجاته «من القرية التي كانت تعمل الخبائث»:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَآئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٤-٧٥].

-رحمة الله لزكريا أن وهبه يحيى وقد بلغ به الكبر وكانت امراته عاقراً

﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ

خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [سورة مريم: ٢-٩].

-رحمة الله النبي أيوب لصبره واحتماله للمكاره، أن استجيبت له دعوته فكشف عنه الضر وحسنت أحواله، فكان المثال الحي لجزاء الصابرين:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٨٣-٨٤].

-وهب الله تعالى سيد الانبياء ابراهيم المكارم الرحمانية في نسله:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤٩-٥٠].

-رحمة الله للسيدة مريم بأن هوَّنَ عليها ولادتها عن طريق الروح القدس للسيد المسيح والذي استحق من كرامات الله ما لا يوصف:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢١].

-شمول النبي الخضر برحمة الله بما اتاه الله من العلم:

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: ٦٥].

-ووهب للنبي موسى «اخاه هارون نبيا» ومع كل تلك الهبات الأعجازية التي مكنته من بلوغ الغاية في تحرير بني اسرائيل من عبودية فرعون وملئه:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٥٣].

وبعدئذ فإن الله تعالى إذ اشتق اسمه وصفته من الرحمة فانه اقر بالالتزام بموجبات هذه الرحمة كما يستدل من قوله تعالى:

﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٤].

وفي عبارة (كتب) كما يرد في تفسير التحرير والتنوير ما يفيد أن ارادته تعالى قد تعلقت بأن جعل رحمته الموصوف بها الذات متعلقة تعلقا تاما مطرداً بالنسبة للمخلوقات وان كان خاصا بالنسبة

للازمان والجهات فلما كان ذلك مطردا اشبهت ارادته بالالتزام فأستعير لها فعل (كتب) حقيقته في الأيجاب، والقرينة هي مقام الألوهية إذ جعل ذلك على نفسه لأن احدا لا يلزم نفسه بشيء إلا اختيارا والا كان غيره يلزمه، والمقصود أن ذلك لا يتخلف كالأمر الواجب المكتوب(٥).

وبالمقابل وضمن النشاط الحياتي فأن التراحم بين الناس هو عنوان الاستحقاق للرحمة الآلهية، وقد ورد في ذلك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أحب أن يرحمني ربي؟ قال: «أرحم نفسك وارحم خلق الله يرحمك الله»(٦).

والواضح من تمام رحمة الله أنه تعالى يتنزه عن الظلم ولا يوجب العذاب الا على من يستحقه، وقد تكرر البيان لنفي ارادة الله في ظلم العباد لمرات عديدة وفي نسق تعبيري واحد لدلالة تاكيد تنزه الرحمن عن الظلم، وهو ما يقع من البشر دونه تعالى:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٢].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة الحج: ١٠].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة فصلت: ٤٦].

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [سورة ق: ٢٩].

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٠٨].

﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [سورة النساء: ١٤٧].

وبين العام والخاص من موارد الرحمة الآلهية تبرز مأثرة الله الكبرى في ذلك أنه ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥١]، [سورة يوسف: ٦٤، ٩٢]، [سورة الانبياء:٨٣] و ﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٩، ١١٨].

الرحمن واسماء الله الحسنى:

وارتبط اسم الله الكريم «الرحمن» باخص اسمائه الحسنى (الرحيم، الغفور، التواب، الحليم، الودود، الرؤوف، البر،

(٥) تفسير التحرير والتنوير، ج٧، ص: ٢٤٢.
(٦) التفسير المعين-نقلا عن كنز العمال-ج١: ٤٤١٥٤، ص٢.

العزيز)، وهي الموارد التي تظلل فيها الرحمة الآلهية أفنية الوجود فيضاً من المكرمات الرحمانية، وقد وجدنا من متابعة مجرى الخطاب القرآني في جملة السور أن ارتباط اسم الجلالة «الرحمن» ببعض اسمائه الحسنى هي الخاصة الأكثر تعبيراً عن مضامين وأوجه هذه الرحمة، وهي التجسيد لجوهر وحقيقة التميز في تسميته تعالى واتصافه بها، وفيما يلي بيان ذلك:

١- الرحمن الرحيم:

ورد اقتران صفة «الرحيم» بـ«الرحمن» وكلتاهما من اسماء الله الحسنى لثمان وخمسين مرة، وكان [لسورة مريم]منها النصيب الأوفر إذ وردت فيها (١٦ مرة)، وفي [سورة الزخرف] (٧ مرات)، وفي الفرقان (٥ مرات)، وفي كل من [السور طه، الانبياء، يس، الملك] (٤ مرات)، ومرتين في [سورة النبأ]، ووردت مرة واحدة في كل من سورة [البقرة، النمل، فصلت، الحشر].

والملاحظ في سورة مريم أنه مع كثرة ورود عبارة الرحمن فيها، فأن اسم الجلالة المعهود «الله» لم يرد فيها غير مرتين، و«ربّ» مرة واحدة..، وفيما لم يذكر «الرحمن» الا مرة واحدة في أكبر سور القرآن وهي البقرة، فقد ورد اسم الجلالة «الله» في هذه السورة مائة وسبع عشرة مرة، ووردت فيها عبارة «رب العالمين» لمرة واحدة، و«ربَّ» في دعاء النبي ابراهيم عليه السلام مرتين، بينما وردت كلمة «ربك» سبع مرات و«ربكم» ثمان مرات، وكمثل ذلك بالنسبة لسائر السور الأخرى.

٢- الغفور الرحيم-غفوراً رحيما:

ولكون الغفران من أخص أبواب الرحمة الآلهية فقد توافر ذكرها مقترناً بالرحمة وعلى نحو وافر، فقد وردت بذلك لثلاث وسبعين مرة في ثنايا السور وتركز ورودها بشكل اساسي في [سورة النساء](٨ مرات)، وفي كل من سور [المائدة، التوبة، الأحزاب] (٥ مرات)، وفي [سور الانعام، النور، النمل] ثلاث مرات، وفي سور [الاعراف، الانفال، يوسف، الحجرات، الممتحنة] مرتين، ومرة واحدة في سور متفرقة أخرى.

وورد ذكر الغفران مرتبطاً بما في الرحمة الآلهية من استحقاقات الأثابة، كما في قوله

تعالى:

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة النساء: ٩٦].

﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٧].

٣- التواب الرحيم:

وجاء النص القرآني على ذكرها تسع مرات، منها أربع مرات في[سورة البقرة]، وجاءت مقترنة بالغفران في [سورة غافر]، كما في قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [سورة غافر: ٣].

وذكر ابن حيان الأندلسي بشأن عبارة (التواب الرحيم): أن التواب جاء على وزن فعّال، والرحيم على وزن فعيل وهما من الأمثلة التي صيغت للمبالغة، وهذا كله ترغيب من الله تعالى في التوبة والرجوع الى طاعته وإطماع في عفوه تعالى واحسانه لمن تاب اليه، والتواب من اسمائه الحسني وهو الكثير القبول لتوبة العبد وكثير الأعانة عليها، وقد ورد هذا الاسم في كتاب الله معرفا ومنكراً ووصف به تعالى اسمه فدلّ ذلك على انه مما استاثر به تعالى، وذهب بعضهم الى انه تعالى لا يوصف به الا تجوزاً وأجمعوا على أنه تعالى لا يوصف به تائب ولا آيب ولا راجع ولا منيب، وفَرْقٌ بين اطلاقه على الله تعالى وعلى العبد وذلك لاختلاف صلتيهما الا ترى قوله تعالى «فتاب عليه»، و«توبوا الى الله»، فالتوبة من الله على العبد هي العطف والتفضل عليه، ومن العبد الرجوع الى طاعته تعالى لطلب ثواب أو خشية عقاب، أو رفع درجات، وأعقب الصفة الأولى بصفة الرحمة لأن قبول التوبة سببه رحمة الله لعبده..[٧].

ومعلوم أن أول قبول للتوبة كان بحق آدم عليه السلام إذ خالف أمر الرحمن بالأقتراب من الشجرة التي نهاه الله عنها:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: ٣٧].

ويرى الالوسي أن في ذكر (الرحيم) بعد (التواب) في الآية مارة الذكر هو على سبيل الترحم والتفضل، فأنه الذي سبقت رحمته غضبه كمثل ما جعل هبوط آدم سبب إرتفاعه، وأنه إذا ما فسر التواب بالرجّاع الى المغفرة كان الكلام تذييلاً

(٧) الأندلسي، ابن حيان، البحر المحيط. مج١، ص١٦٧.

لقوله تعالى «فتاب عليه»، أو بالذي يكثر الأعانة على التوبة كان تذييلا لقوله تعالى: «فتلقى آدم»[٨].

٤- رؤوف رحيم:

ووردت في النص القرآني تسع مرات، مرتين في كل من سورتي [التوبة، والنحل]، ومرة واحدة في كل من سور [البقرة، والحج، والفوز، والحديد، والحشر]، وقد إختصت الآية ١٢٨ من [سورة التوبة] منها بوصف النبي محمد ﷺ بهذه الميزة من ميزات الرحمة في تعامله مع المؤمنين.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ١٢٨].

٥- العزيز الرحيم:

وورد ذكرها ثلاث عشر مرة وابتداءً من سورة الشعراء التي حفلت بذكرها بالتتابع في تسع آيات ضمن الجملة القرآنية ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ متبوعة بذكر شواهدها من الأحداث الجارية للانبياء الأكرمين (محمد، وموسى، وابراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوطا) في عنت قومهم معهم.

وذكر الفخر الرازي: أنه إنما قدم ذكر "العزيز" على ذكر "الرحيم" لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل انه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فأنه رحيم بعباده، فكأن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعا، والمراد أنهم مع كفرهم وقدرة الله عليهم على أن يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم[٩].

٦- البر الرحيم:

ويذكر مرة واحدة في [سورة الطور]، وهي ترد ضمن قول أهل الجنة:

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [سورة الطور: ٢٨].

وذكر الأصفهاني في مفردات ألفاظ القرآن: أن من معاني البر: التوسع في الخير، وينسب ذلك الى الله تعالى نحو: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾، ويقال بر العبد ربه، أي توسع في طاعته، وهو ما أشتملت عليه «الاية ١٧٧» من [سورة البقرة] وهي

(٨) روح المعاني، الآلوسي، ج١، ص:٣٣٢.

(٩) التفسير الكبير، ج٢، ص:١٢٠.

متضمنة الاعتقاد، والأعمال، والفرائض، والنوافل، ومن بعض الخير المتوسع فيه القول: بّر في يمينه، وفي القول: حج مبرور: أي مقبول، والقول في الملائكة «كرام برزة» [سورة عبس: ١٦][١٠].

ومن موارد الرحمة الإلهية التي ترد في الذكر القرآني وصف الرحمن لذاته تعالى بـ «اللطيف الخبير»، واقتران اللطف بالخبرة دالة معبرة في السلوك التدبيري (الأداري) في عمل السلطة الأدارية الكفوءة في نظم الحكم الوضعية، فلطافة التعامل هي ناتج الخبرة التي تلهم الرؤساء الحكمة، إذ ينتقلون من دورهم التقليدي في الأدارة الى دور رائد وطليعي مميز ليصبحوا خبراء ومحللين نفسانيين، كما نفهم من كتب الأدارة الحديثة، ما ينبغي أن نفهمه وعلى النحو الأخص من مجال التعامل التدبيري ضمن مجال السلطة الإلهية في الملكوت الأعلى وهو ما سنفرد له موضوعا خاصا نتمنى أن نوفق له ان شاء الله.

(١٠) مفردات ألفاظ القران، ص: ٥١.

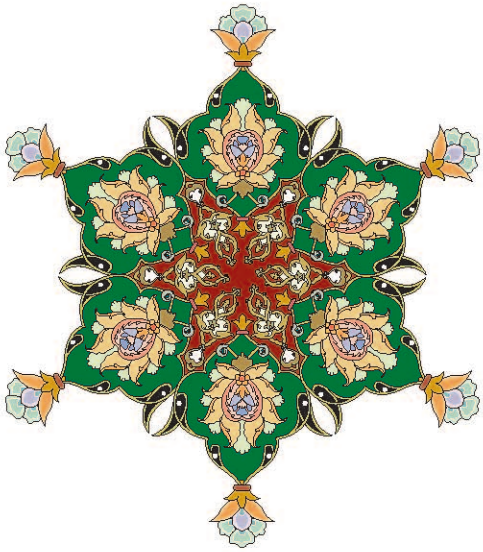

الدلالة المعنوية للمفردة القرآنية في سياق علم اللغة التوحيدي

العلامة الدكتور السيد محمد علي الحسيني
جامعة طهران

ملخص البحث

علم اللغة التوحيدي أو: Unithetical Linguistics

ينضوي تحت مفهوم علم اللغة الحديث الذي يرى وحدة الدلالة الصوتية على المعنى في كل اللغات، القديمة والحديثة. وبعبارة اخرى: مركزية اللغة في العقل البشري.

وقد طاف السيد الباحث بمفردات انتقاها من القرآن الكريم، يستدل بها على صحة هذه النظرية ومنها: القرآن، القلم، القسطاس، الصلاة، الايمان. اذ يثبت البحث أن دلالة اللغة عند الانسان اصطلاحية، اما دلالة سائر الاشياء فانها طبيعية، وانه يمكن التفاهم بين بني البشر كافة ضمن هذا الإطار. ولا يتوسع السيد الباحث في بسط هذه النظرية بل يحصر الحديث بما تحمله مفردات القرآن الكريم من دلالات في هذا الباب.

مدخل تمهيدي

إن علم اللغة الحديث يبحث اللغة تحت نظرية العلامات sign theory فهو يقرر ان هدفها وظيفي وهو الاتصال communication وهو ضرورة ملازمة للانسان، وبدونه لا يتكون مجتمع انساني بمعنى الكلمة. وانها تقوم على نظام من انظمة العلامات والاشارات الاصطلاحية بين افراد مجموعة بشرية ضمن عوائل لغوية معروفة مصنفة. ليس هنا مقام البحث فيها. وهذه العلامات والاشارات المصطلحة بقسميها البسيط simple sign والمعقّد complex sign هو في حقيقة الأمر، وسيلة (البيان) الذي امتاز به الانسان والمشار اليه في الايات الكريمة في سورة (العلق) وفي مطالعها ايضاً: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة العلق: ١-٥]. فالرب الاكرم هو الذي تكرم على الانسان (بخلقه) وبخلق سائر المخلوقات، غير انه ميّزه بالعلم وبوسيلته، وقد رمز اليه (بالقلم) الذي هو سلاح العلم والمعرفة والبيان عند الانسان، وبالعلم والايمان صار رفيعاً: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [سورة المجادلة: ١١] وبالعلم صار مخترعاً ومكتشفاً وما اخترعه من آلات ذات قابلية على البيان والنطق كالعقل الالكتروني الذي ليس له الا خزن المعلومات وهو يعمل بارادة الانسان لا بارادته، وكما هو معروف أنّ اذكى عقل الكتروني هو اغبى الاغبياء في ابسط الاختبارات العقلية.

ويقول لنا علم اللغة الحديث إن كل شيء له دلالة بالمعنى العام، كما سيتبين من سياق الكلام الآتي، وإن القرآن الكريم اشار الى ذلك في معرض لفت النظر الى آيات الله (البيّنات) في الآفاق والانفس ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [سورة فصلت:٥٣]، ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة النحل:١٦]، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [سورة يس: ٣٨] وبطلوعها يتبين النهار وبغروبها يكون الليل، ولها في النهار والليل آناء

واوقات ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [سورة يس: ٣٩] فاوله هلال واوسطه قمر واخره سرار ومحاق، ﴿ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [سورة الاعراف: ٥٧] و [سورة الفرقان: ٤٨] و [سورة النمل: ٦٣]. فهي (الحواشك) المختلفة والشديدة، و (البوارح) الشمال الحارة في الصيف، و(الاعاصير) التي تهيج بالغبار، و(اللواقح) التي تلقح الاشجار، و (المعصرات) التي تسقي التراب [(١)].

وذكر المفسرون انه لم يأت في (القرآن) لفظ الامطار ولا لفظ الريح الا في الشر، كما لم يأت لفظ الرياح الا في الخير، وهذا معنى دعائه عليه السلام عند عصوف الرياح، اللهم اجعلها ((رياحاً)) ولا تجعلها ((ريحاً))[(٢)] ويستطيع علم الانواء الحديث ان يعرف متى واين وكيف، وباختصار (أنّى) تسقط الامطار، ولأكبر مخلوق في الكون بيانه ودلالته، كما انه لاصغر مخلوق كالذرة والنواة او ما تركبت منه دلالته، وللحويمنات و(العلق) والجينات دلائلها ومعلوماتها genetic information وتتجلى هذه الدلالات والآيات البينات في عين الشاعر الحكيم بقوله:

وفي كل شيءٍ له آيةٌ
تدلُّ على انه واحد

ولو اراد الانسان ان يستعرض دلائل المخلوقات وآيات الخالق وانى له ذلك، او ان يستقرئ كلمات الله وهيهات، لعلم سرّ ما يحاول ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [سورة لقمان: ٢٧].

فاذا كانت كل هذه المخلوقات دالة ومبينة بهذا المعنى وهي تسبح بحمده تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [سورة الاسراء: ٤٤] إذن ما ميزة (بيان الانسان) موضوع البحث؟ يجيب علم اللغة الحديث بتمييزه بين نوعية بيان (العلامات والاشارات) على انهما مصطلحان دقيقان لهما دلالتهما في ضوء ما اصطلحت عليه بعض المدارس اللغوية الحديثة بان (بيان الانسان) ولغته اشارة اصطلاحية conventiona بين طرفين

(١) الثعالبي. فقه اللغة ص ٢٥٤ (القاهرة ١٣٧٣/ ١٩٥٤).

(٢) الحريري. درة الغوّاص. (ليبزك ١٨٧١). ص ٨٠.

في الاقل: مشير ومشار اليه، يستقبل ما خوطب به، او ما هو بهذه المنزلة، وبيان سائر المخلوقات ولغاتها –ان صح التعبير– طبيعية natural وبعبارة اخرى بيانه (إشارة) مقصودة، وبيانها (علامة) مستوحاة.

وتؤكد التجارب العلمية مركزية اللغة في العقل البشري، وانها تصدر عن قوة الفكر والمنطق بل (النطق هو المنطق) بمفهومه المجرد، وان هذا الفهم التجريدي abstract هو من خصائص الانسان التي لا ترقى اليها سائر المخلوقات، وقد جاء في الحديث القدسي مخاطباً (العقل) وعظمته في الانسان ((وَعِزَّتي وَجلالي ما خلقْتُ شيئاً اشرفَ منك)) وان لغة الانسان الصادرة عن عقله وفكره هي وسيلة اتصاله بخالقه واخيه الانسان، وبها تكون (صِلاته) – بكسر الصاد– و (صَلاته)–بفتحها – وبها يستطيع ان يكون مبيناً بانواع (البيّنات) ومدلاً ومدللاً بمختلف الدلالات من أصوات وحروف ونصب وإشارات[٣] مستخدماً لغة العقل Mind Language ولغة الجسد Langwage Body التي هي أداة التنفيذ.

واذا قرر العلم الحديث ايضاً بان لبعض الحيوانات لغاتها فهي ليست بمفهوم لغة البشر، بل من قبيل ما اشار اليه القرآن الكريم ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ [سورة النمل: ١٨] ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [سورة النحل: ٦٨] وما نسمع من أصواتها فليست لغة مصطلحة معقّدة، وحتى لو بولغ فيها فهي لا تستطيع أن تخبر عن أحداث الماضي والمستقبل مثلا[٤] فالانسان هو المخلوق السعيد الذي اعطي هذه الموهبة الالهية العجيبة التي حيّرت ذوي الالباب والعقول المفكرة، وبهذه الموهبة يستطيع ان يتكلم باكثر من لغة مصطلحة ويتعلم اكثر من علم حتى قرر العلم الحديث عجزه عن ادراك كنهها، بقوله كيف نستطيع ان نعرف حقيقة اللغة ونحن نفكر باللغة نفسها وهي اداة البحث والمعرفة؟ وكيف نبحث عن كنه

(٣) ينظر الهادي الحسيني. امالي الهادي. ص ١٠.

(٤) ينظر كندراتوف. الاصوات والاشارات، ص ١٤.

العقل وهو وسيلة البحث عندنا؟ فكل ما يستطيع العلم ان يقدمه هي النظريات والآلات الدقيقة التي تساعد على وصف الظواهر وتسجيلها Description اما بواطن الامور واسرارها فمهما بالغ العلم في محاولة فهمها والوقوف على كنه الكنه وسر السر فشيء وراء العقل المحدود، وخير مثال على ذلك الذرة، هل استطاع احد ان يقف على آخر اسرارها ؟ هيهات!

وفي ضوء التمييز بين (الاشارة والعلامة) يحاول بعض علماء اللغة المحدثين [٥] ان يجعل بينهما عموماً وخصوصاً كما يقول (المناطقة) فكل اشارة علامة، وليست كل علامة اشارة، فعلامة الدخان دليل على وجود النار او نظيرها، وليست في الاصل اشارة مرسلة الا ان يصطلح عليها من قِبَل جهتين مثلاً بأنها امارة الهجوم أو آية دلالة أُخرى. وعلامة الصوت دليل على وجود المصوّت، وان لم تره، ومن هنا افيد فائدة عرفانية للدلالة على وجود الخالق، فقد جاء في الاثر ((البعرة تدل على البعير، وأثر الاقدام يدل على المسير، أفسماواتٌ ذات ابراج، وأرض ذات فجاج، لا تدلاّن على اللطيف الخبير؟؟!)) وجاء في دعاء الامام الحسين عليه السلام يوم عرفة: ((ألغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج الى دليل؟! عَمِيَتْ عينٌ لا تراك عليها رقيبا، وخسرت صفقةُ عبدٍ لم تجعل له من حُبّكَ نصيباً)) [٦] غير انها تحتاج الى تدبر وتفكر ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة آل عمران:١٩١].

وخلاصة القول: إن دلالة الانسان ولغته -كما أشرنا سابقاً- اصطلاحية، ودلالة سائر الاشياء طبيعية، وبالاصطلاح الدقيق غير المبهم -وهو مايسعى اليه علم اللغة الحديث- يمكن الاصطلاح والتفاهم بين البشر كافة، ومن سوء الاصطلاحات وفهمها يحصل سوء الفهم والاختلاف، ومنه الى العداوات والبغضاء، وبالتالي الى الويلات والحروب

(٥) المصدر نفسه، ص ١١.

(٦) القمي. كليات مفاتيح الجنان. (طهران ١٣٧١). ص ٢٥٩.

والدمار والبوار، ولذلك أرسل الله سبحانه وتعالى (الرسل) مصلحين ومصطلحين، مبشّرين ومنذرين بالمحجّة الواضحة والبينة اللائحة، حاملين (رسالات السماء) الى الأرض (بياناً ونوراً) مخاطبة البشر، والبشرَ وحدَهُم ليكونوا هادين مهديين الى (طريق الحق) غير ضالين ولا مُضلّين، وباتباع (رسالة الاسلام) الخالدة واتخاذ (القرآن) الكريم شريعة ومنهاجاً وعقيدة ونظاماً وبياناً وبرهاناً نحظى بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

مصطلح القرآن: -

القرآن Quran– Qur an– Koran: -

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [سورة الاسراء: ٨٩].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [سورة الكهف: ٥٤].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [سورة الزمر: ٢٧].

ان الآيات الثلاث المتقدمة على ما فيها من تغييرات جزئية بنيوية Structural تتصف باسلوب ((التوكيد والتخصيص)) في الكلام على الموضوع المسوق له الكلام، وقد جاءت هذه التغييرات البنيوية ((لاغراض بلاغية)) بحسب السياق القرآني، الذي يمكن التعمق فيه بمراجعة كتب التفسير والبلاغة واللغة، وان هذه الآيات جميعاً تبدأ بلام التوكيد و ((قد)) التي تفيد التحقيق، او بكلمة ((لقد)) التي تفيد التوكيد والتحقيق على راي من قال بعدم تجزئتها، وكذلك جاءت جميعاً بسياق الفعل ((الماضي)) الذي يدل على تنجُّز الشيء وتحققه ايضاً، كما وردت لفظة ((الناس)) مدخولة للام الجرّ التي تفيد اكثر من دلالة على ((الاختصاص)) واهمية ((الناس)) و ((كونهم المخاطبين من قبل الرسالة)): القرآن الكريم الذي ((صرَّف فيه)) و ((ضرب فيه)) من ((كل مثل)). وان دلالة ((صَرَّفَ)) هي: ((الفضلة)) والزيادة في البيان والتبيين، كما يقال ((بين الدرهمين صرف: أي فضلة لجودة فضّة احدهما))[٧] وان دلالة ((ضرب)) هي ((الوصف والبيان))[٨]

(٧) الرازي، المختار، مادة صرف. ص٣٦٢.

(٨) الرازي، المختار، مادة ضرب. ص ٣٧٩.

كما ان دلالة ((المثل)) هي ((الصفة)) و((مَثَلُ الشيء- بفتحتين -صفته))[٩].

واما دلالة ((القرآن)) اللغوية فهي الجمع والضم، والنظم القانونية والشمول والوضوح في الامر -كما سنتبين من خلال البحث الدلالي المقارن لمختلف الاشتقاقات وفي مختلف اللغات- وخلاصتها انه جامع لأُصول الحقائق وشامل لجواهر الأُمور، ومضرب لأُمّاتِ الامثال، وامهاتها. والاهم من كل ذلك انه ((رسالة عالمية جامعة)) للناس: لكل الناس: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الانبياء: ١٠٧] و ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سورة سبأ: ٢٨] نوراً، وهدى، وبلاغاً.

واذا كان ((الكون)) كتاب الله الاكبر المفتوح للحياة وبالحياة وكما يقول ((كتاب التكوين)) ((فالقرآن)) الكريم كتاب الله الاعظم للحياة وبالحياة وهو كتاب التشريع، وهو ((الجامع المانع)) الاكمل على حد تعبير المناطقة وهو ((القرآن: الفرقان)) على حدِّ تعبير القرآن نفسه.

والعلاقة بين ((الكون)) و ((القرآن)) صوتية ودلالية بحسب ما سنوضحه من دراسات اشتقاقية ولغوية، كما ان علاقة ((قانون)) الشيء بالكون والنظام واضحة اذ الفساد ضدٌّ الكون وضدٌّ القانون، وليست علاقة ((قانون)) و((كانون)) و ((كيان)) بمختلف اللغات ببعيدة عن الجذر المشترك اذ ورد Canon بمعنى قانون الشيء ((كينونيته)) بالانجليزية وباللغات المنحدرة عن اللاتينية. وان كلمة ((كيان)) هو الطبع والطبيعة بالسريانية و((الكيان هو الطبع بالسريانية وبه سُمِّي كتاب سمع الكيان وهو بالسريانية شمعا كيانا))[١٠]. فالشيء اذا جاء على الطبع والطبيعة والوجود الفطري والكوني جاء على القانون والقاعدة، وبخلافه يكون الفساد والدمار وليس لذلك المجتمع او الانسان من ((كيان)) اذا لم يحكمه القانون او النظام، والقانوني الفطري الذي ينظم حياة البشرية جمعاء وهو ((القرآن))، الجامع لاصول الدساتير الالهية والاديان.

والعلاقة كما ذكرنا بين الكتابين: ((التكويني والتشريعي)) طبيعية

(٩) الرازي، المختار، مادة مثل. ص ٦١٤.

(١٠) الخوارزمي. مفاتيح العلوم، (دار الكتب العلمية -بيروت). ص ٨٤.

وواضحة، فكلاهما رحب وفياض وغير متناهٍ، وكلاهما صادر عن خالق الوجود وصانعه، ومبدأ الفيض والكمال المطلق، وليس في حقيقة كل منهما نقص او خلل، او فساد او بطلان، وقد صرح الله تعالى في القرآن الكريم عنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[سورة فصلت:٤٢].

والبحث في دلائل القرآن العظيم ودلالاته العميقة الدقيقة، كالبحث في اسرار هذا الكون الرحيب العجيب ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [سورة آل عمران: ٧] اولئك الذين اصطفاهم الله وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، وفتح لهم خزائن علمه وأسرار معرفته، والذين اتقوا الله حق تقاته وائتمروا بالتقوى فعلَّمهم من لدنه علماً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢] والذين هم ابواب ((لمدينة العلم)) الالهية الفاضلة، حيث استجابوا للرسول حين دعاهم لما يُحييهم [١١]: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [سورة الانعام: ١٩] وراح يفسره لهم ويطبقه عليهم ((قولاً)) و ((عملاً)) و ((تقريراً)) فكانت سنته ﷺ –شارحة للقرآن، وكان اهل بيته عليهم السلام– القرآن الناطق الذي يترجم ما بين الدفتين، فقد قال الامام علي عليه السلام في امر التحكيم ((إنّا لم نُحكِّم الرجال وانما حكَّمنا القرآن)) وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين الدفتين لا ينطق بلسان ولابُدَّ له من تُرجمان))[١٢]. كتبت فيه الترجمات والتفاسير الغزيرة، وأُلفتْ في علومه الكتب والمصنفات الكثيرة، وما يزال غضّاً طرياً أعلاه مورق، واسفله معرق، وفيه حلاوة، وعليه طلاوة –كما وصفه خصومه واعداؤه– بادئ ذي بدء– ((والفضل ما شهدت به الاعداء)) وارضه بكر صالحة للحرث والزرع والثمر والينع، وهو كما عبر عنه الامام علي عليه السلام تارة ((بالنهر الجاري)) واخرى ((بالنور)) الذي لا يخبو توقُّدُه ولا تنطفئ مصابيحه، وكما قال عنه في بعثة الرسول ﷺ: ((ابتعثه بالنور المضيء وبالبرهان الجلي، والمنهاج البادي))[١٣].

(١١) ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة الانفال: ٢٤].

(١٢) شرح نهج البلاغة لفيض الاسلام، مج ١-٣، ص ٣٧٧.

(١٣) المصدر السابق. ص ٥٠٥.

وخلاصة القول فيه ما ورد عنه عليه السلام ايضاً: ((ألا إن فيه علم ما ياتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم))(١٤). فهو كما تدل عليه مادته اللغوية ((جامع)) لاخبار الماضين والآتين عبرة، وفيه صلاح الدنيا والدين رحمةً، وهو هادٍ الى اقوم السبل محجة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الاسراء: ٩]. وقد جمع بين اصول الشرائع السماوية السابقة كما اكمل الدين واتم النعمة اللاحقة، وهو –كما جاء في وصف الرسول– الخاتِمُ لما سبق والفاتِح لما استُقْبِل، والمهيمن على ذلك كله.

فبالنسبة لكونه جامعا لاصول الشرائع السابقة، نلاحظ قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [سورة الشورى: ١٣] و﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٣٣-٣٤]. وبالنسبة لكونه نظاماً كاملاً ونعمة تامةً، نلاحظ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: ٣].

والطريف في الموضوع ان مادة ((القرآن)) اللغوية واشتقاقاتها في العربية وفي مختلف اللغات تساوق دلالاتها المعنوية والاصطلاحية، وان كلمة ((قَرَأَ)) التي منها ((القرآن)) تدل على الجمع والنظم والضم، وان اظهر دلالات كلمة ((القرآن)) مدلولها على ((القراءة)) وهي في معناها المعجمي: الجمع والضم، وفي هذا المعنى جاء تفسير الاية الكريمة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة: ١٧-١٨]. أي: قِراءته، ويكفي البشرية فخراً ان تكون اول سورة من كتابها الذي أُمرتْ باتباعه واتباع الرسول الذي انزل عليه، سورة ((اقرأ)) او سورة ((العلق)) التي تبدأبكلمة ((إقرأ)) والسورة الثانية هي سورة ((ن والقلم))(١٥) والقراءة والكتابة هما سبيلا المعرفة المنظمة، والآيات الاوائل هي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [سورة

(١٤) شرح نهج البلاغة، المصدر السابق، ص ٤٩.

(١٥) انظر تاريخ القرآن للزنجاني، ط. طهران. ص ٩.

العلق:١-٥].

وقد تناولت هذه الآيات الكريمة أمر ((القراءة)) باسم الرب الخالق، ولما كان المخلوق الاكمل في هذا ((الكون)) الرحيب والموجود الاشرف، في هذا الوجود العجيب، هو الانسان، فكان ذكره هنا لتبيان اصدق مصاديق الخلقة واشرفها، كما ان ذكر ((العِلم)) يدل على شرفه وكرمه، وان تكرار كلمة ((اقرأ)) يدل على اهمية القراءة وعظمتها ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فمن كرمه ونعمه تعليم الانسان ((بالقلم)) وهو من اعظم النعم ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [سورة ابراهيم:٣٤] و[سورة النحل:١٨].

والمتتبع لدلالة كلمة (قرأ)) بشتى اشتقاقاتها في القرآن الكريم يجدها مساويةً معنى ((قراءة القرآن)) و ((تلاوته)) وليست التلاوة الا ((المتابعة والضم)) وجمع الآيات بشكل ((ترتيليّ)) كما تشير الآيات التي وردت فيها كلمة ((قرأ)) ومشتقاتها. وإن معنى القراءة الاظهر هو ((الجمع)) و ((النظم)) سواء أكان جمع الاصوات ونظمها بترتيل ((مسموع)) ام ((بصمت)) او حتى بجمع بين المعاني والافكار، ومنه قيل: قراءة الافكار أي جمعها وفهمها، وان الراغب الاصفهاني في ((مفرداته))[١٦] ركّز على ((جمعها)) مقروءة بمعنى القراءة المتعارفة، غير ان دلالات القراءة اوسع، والذي نذهب اليه انها مطلق((الجمع)) وليست حكراً على العربية، بل نراها سارية في اغلب اللغات حقيقة ومجازاً، ومنها في Reading The Mind أي: قراءة الفكر. وحتى ان ((الكتاب)) الذي يُقرأ، انما سُمِّي كتاباً لانه يجمع بين هذه الافكار والعبارات عنها، ومن دلالات مادته ((كُتُب)) على الجمع ((الكتيبة: الجيش))[١٧] وكذلك سائر المفردات القريبة صوتاً ودلالة من مادة ((قرأ)) وما يبادلها فونيمياً Phonemic في مختلف اللغات، كما هي نظرتنا او قل

(١٦) ينظر الرغب الاصفهاني، مفردات غريب القرآن –مادة قرأ–.

(١٧) الرازي، المختار، مادة كتب. (ط. دار القلم– بيروت). ص ٥٦٢.

نظريتنا التي نذهب اليها في سلسلة من المقالات والاصطلاحات المبحوثة بهذا المنهج المقارن، والذي يتبنى اساساً النظرية العالمية او الكونية Universality. ففي ((المختار)): ((قرأ الكتاب قِراءَةً وقُرآناً –بالضم وقرأ الشيء قُرآناً –بالضم ايضاً– جمعه وضمه، ومنه سُمّي القُرآن، لانه يجمع السور ويضمها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة: ١٧] أي: ((قِراءَتِه))[١٨].

ويمكن التوسع بدلالة كلمة ((جامع))، بحيث لا تقتصر دلالة القرآن على كونه جامعاً للسور فحسب، بل هو جامع لكل شيء، كما تشير بعض آياته الى ذلك ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو يجمع بين اسباب سعادة الدنيا ونعيم الاخرة، وفيه اسرار ما كان وما هو كائن وما يكون، كما ألمح الى ذلك الامام علي عليه السلام وتقدمت الاشارة اليه وكما ورد عن الامام الصادق عليه السلام: ((فيه خبر ما كان قبلكم ونبأ ما يكون بعدكم، وفصل ما بينكم))[١٩]

فاذن هو ((جامع)) –بكل معنى الكلمة– لجميع الخيرات والسعادات– وهو دستور لكل العصور والازمان وفيه ((جِماع)) الشرائع والدساتير الالهية، والانظمة والقوانين الفطرية، والعلوم والفلسفات الحقة، واصول مكارم الاخلاق والاداب، وخلاصة الحقائق والدقائق، وجوهر الامور والاشياء، وهو باختصار كلام الله المعجز الذي لا يرقى اليه كلام المخلوق، وقد أُلفت في ((اعجازه)) مكتبات، وفي علومه خزائن، ولا يسع هذا المقام الضيق حتى الاشارة الى بعض ما نطق به القرآن من الكلام الموجز المعجز، اذ نحتاج في ذلك الى رسالة خاصة[٢٠]، كما قد الف العلماء فيه رسائل ومنها ((ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)) بتحقيق محمد خلق والدكتور محمد زغلول سَلاّم. وعلى سبيل المثال ((رسالة الايجاز والاعجاز)) لابي منصور الثعالبي النيسابوري، وقد جاء في عنوان

(١٨) الرازي، المختار، مادة ((قرأ)). ص ٥٢٦.
(١٩) الحسني، دراسات في الكافي للكليني والصحيح للبخاري، (ط. ١٣٨٨هـ= ١٩٦٨م)، ص ٣٤٦.
(٢٠) عرضنا الى الموضوع ((الاعجاز)) واصطلاحه والرسائل المؤلفة فيه في كتابنا دراسات وتحقيقات، (ط. بيروت– ١٩٧٤م). ص ٦٧.

الباب الاول منها: ((في بعض ما نطق به القرآن الكريم من الكلام الموجز المعجز: من اراد ان يعرف ((جوامع)) الكلم وينبه لفضل الاعجاز ويحيط ببلاغة الايماء، ويفطن لكفاية الايجاز فليتدبر القرآن وليتأمل علوّه على سائر الكلام))[٢١] ثم يعرض لبعض الآيات ويدلل على اعجازه وايجازها، ويشير الى بعض الوجوه المعجزة فيها، وما لم يكتشف منها اكثر، وستنكشف هذه الوجوه بحسب مقتضيات الأزمنة والاجيال، وتطور العلوم والفنون، والمعارف والآداب، وبحسب استعداد الانسان في علم الامكان، وقد تقدمت الاشارة الى ذلك في قول الامام علي عليه السلام: ((لا تنطفي مصابيحه ولا يخبو توقده)).

وفي مقام((معرفة القرآن تحليلاً)) يقول الاستاذ الشهيد المطهري: ((نريد في هذا الفصل ان نبحث في محتويات القرآن. وطبيعي اننا لو اردنا تناول موضوعاته موضوعاً موضوعاً لاقتضانا ذلك ((أمْنَاناً)) من الورق. وعليه فسوف نعالج الكليات اولاً ومن ثم نعود على بعض من الجزئيات))[٢٢].

ويبدأ بتعريف القرآن تحت عنوان ((كيف يُعَرِّفْ القرآن نَفْسَهُ)) ويقول: ((من الافضل في تحليل القرآن ان نبدأ من ملاحظة رأيه في نفسه، وكيف يعرف نفسه إن اول ما يطالعنا بهذا الشأن هو قوله ان هذه الكلمات والعبارات هي كلام الله. انه يُعلن صراحة ان الرسول ليس هو منشئ القرآن، بل انه انما يبين ما ينزل به روح القدس او جبرئيل باذن الله. والامر الآخر الذي يوضّحه القرآن هو تعريف رسالته، وهي انها هداية ابناء البشر وقيادتهم للخروج بهم من الظلمة الى النور: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٢٣] [سورة ابراهيم: ١].

والذي نريد ان نؤكده في هذه المقالة هو دلالة كلمة ((القرآن)) وجذرها وسائر الكلمات المتشابهة في العربية

(٢١) خمس رسائل، ومنها رسالة الايجاز والاعجاز للثعالبي. ط. دار الكتب العلمية –النجف الاشرف، ص٤.

(٢٢) الاستاذ المطهري: معرفة القرآن، الجزء الاول. ص ٢٤.

(٢٣) الاستاذ المطهري –معرفة القرآن –ج١ ص٢٥.

وغيرها على معاني الجمع والضم والنسق والنظم بمختلف الابعاد والدلالات. فمن المواد الغريبة منها جذراً واشتقاقاً وصوتاً ودلالةً كلمة ((قرن)) اذ يقال للرجل قرنان أي ضفيرتان، وذو القرنين لقب اسكندر الرومي، والقرن مئة سنة، والقرن مثلك في السن تقول هو على قرني أي على سني، والقرن في الناس اهل زمان واحد قال الشاعر:

اذا ذهب القرنُ الذي انت فيهِمُ

وخُلِّقْتَ في قرن فانت غريبُ

((والقرن: قرن الهودج. والقرن: جانب الرأس، وقيل منه سُمي ذو القرنين، لانه دعاهم الى الله فضُرِب على قرنيه، وقرن الشمس اعلاها، واول ما يبدو منها الطلوع))[٢٤]. فانت تلاحظ كل دلالات ((قرن)) على الجمع، اما بين الاشياء او الاشخاص، او الازمان، وحتى تشمل الجمع بين جوانب الشيء الواحد نفسه بالنظر الى جانبيه او أعلاه وأسفله او طلوعه وغروبه، وما الى ذلك من دلالات الجمع والمقارنة.

(٢٤) الرازي، مختار الصحاح، ص ٥٣٢.

واذا حركنا وسط القرن واصبح ((القَرَن)) بالفتح فيدل دلالات متشابهة ((فالقَرَن –بالتحريك موضع، وهو ميقات اهل نجد، ومنه اويس القَرَني –رضي الله عنه– قلت: هو في التهذيب. بسكون الراء نقله عن الاصمعي، وانشد عليه بيتاً وتحقيقه في ((المُغرب)) والقرن ايضاً مصدر قولك رجل اقرن بيّنُ القرن: وهو ((المقرون)) الحاجبين وبابه طَرِبَ.

و ((القِرْن)) –بالكسر– كفؤك في الشجاعة و ((القُرْنة)) –بالضم– الطرف الشاخص من كل شيءٍ يقال قُرْنَة الجبل وقُرْنة النصل. وقرن بين الحج والعمرة يقرن –بالضم والكسر– قِراناً: أي جمع بينهما. وقرن الشيء وصله به، وبابه ضرب ونصر، وقُرِّنت الاسارى في الحبل شُدِّد للكثرة، قال الله تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [سورة ص: ٣٨] و[سورة ابراهيم: ٤٩] واقترن الشيء بغيره. و ((قارنه قِراناً)) صاحبته، ومنه قران الكوكب. واقرن له: أطاقه وقوى عليه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [سورة الزخرف: ١٣] أي: مطيقين

و ((القرين)): الصاحب، و ((قرينة الرجل)): امرأته[٢٥].

ولو تتبعنا المواد اللغوية الاخرى القريبة منها جذراً واشتقاقاً لرأيناها قريبة المعنى صوتاً ودلالة، فعلى سبيل المثال لا الحصر مادة (قرا) –بلا همز– نجد فيها: ((القَرَا: الظهر))[٢٦] والظهر والظهير هو الشخص او الشيء الثاني المؤيد والمساند للشيء الاول، ومنه الآية الكريمة: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [سورة التحريم: ٤] وكذلك ((القِرية)): التي هي ((جِماع)) لعدة بيوت متعاضدة يتاخم بعضها بعضاً، والى اليوم تستعمل بعض الالفاظ في الريف مثل ((الجِماعة)) –بكسر الجيم– للدلالة على القرية. و ((القرية: معروفة، والجمع ((القرى)) والقياس ((قراء)) كظبية وظباء، و ((القرية)): –بالكسر– لغة يمانية. والقريتين في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [سورة الزخرف:٣١]: مكة والطائف. و ((استقرى)) البلاد تتبّعها يخرج من ارض الى ارض. وقرى الضيف يقريه قِرىً– بالكسر– وقَراء –بالفتح والمدّ– أحسنَ اليه. والقرى ايضاً: ((ما قرى به الضيف))[٢٧]. فكل ذلك ((باضافة)) شيءٍ الى ((الضيف)) وقراه بزاد او راحلة او هدية، او ببذل الزاد والراحلة معاً.

واذا توسعنا في هذه المواد جذراً واشتقاقاً، فتلاحظ كلمة ((القيروان)) – بضم الراء– القافلة: فارسي معرّب، وفي حديث مجاهد ((يغدو الشيطان بقيروانه الى السوق))[٢٨]، ولعل كلمة قيروان معربة عن الفارسية((كاروان)) ومنه في الفارسية ((كاروان سراى)) أي منزل القافلة، وقد وردت كلمة ((كاروان)) في الشعر الفارسي كثيراً وفي كثير من كتب الادب والدواوين. وحتى اننا نجد كلمة Caravan الانجليزية والتي تستعمل في اغلب اللغات الاوربية الحديثة تحمل الدلالة نفسها على القافلة او ما هو

(٢٥) الرازي، مختار الصحاح، ص ٥٣٣. وقد جاء في هامش ص ١٨١ ((موجز علوم القرآن)) للدكتور العطار ما يأتي: ((تدعى سورتا الانفال والتوبة القرينتين لانهما لم يفصل بينهما (بسم الله الرحمن الرحيم) فربما عدّها القارئون واحدة)).

(٢٦) الرازي، المختار ص ٥٣٣.

(٢٧) الرازي، المختار. ص ٥٣٠.

(٢٨) المطرّزي، المصدر السابق، ص ٣٧٥.

بديلها، ويقال للجماعة المسافرين النازلين معاً مكان معين للاصطياف والتنزه: Cara-van site وهي تشبه ((كاروان سراى)) الفارسية لفظاً ودلالة، ولعل في تسمية طير ((الكروان)) دلالة على ذلك النوع من الطيور التي تصادفه القوافل في مسيرها ذاهبة وآئبة وتتمتع بلحنه ودعائه: ((دعاء الكروان)).

ولو رجعنا الى نظرية ((الاشتقاق الاكبر)) التي اسسها الخليل بن احمد الفراهيدي في القرن الثاني الهجري وبلورها ابن جنّي في القرن الرابع الهجري، لرأينا المواد مثل: ((قنن، قرن، قرأ، قرب، قلم، وما اليها تدل على الجمع والمقارنة، والنظم والنسق بين الاشياء او الاشخاص او الافكار ولا نريد هنا الخوض في غمارها فلتراجع في المظان والمعجمات اللغوية، وكأنَّ الجذر الاساس حرف واحد او حرفان وما يُثنّيها او يثلّثها مخصص للمعنى العام المشترك، فانت تلاحظ في كتاب ((العين)) للخليل هذه الظاهرة وكذلك في كتاب ((الخصائص)) لابن جنّي، و ((معجم مقاييس اللغة)) لابن فارس، وسائر المعجمات التي تبنت هذه النظرية، وفي ((المُغرِّب)): باب القاف مع الراء المهملة))[٢٩]. ثم يسرد ما يثلثها للتخصيص، وقد جاء في اول الباب ((قرأ الكتاب قراءةً وقرآناً وهم قارئ وهو قُراء، واقرأ سلامي فلاناً، وقولهم اقرأ سلامي عامّ و((القرآن)): اسم لهذا المقر (كذا). والمجموع بين الدفتين على هذا التاليف، وهو معجز بالاتفاق، الا ان وجه الإعجاز هو المختلَفُ فيه، واكثر المحققين على ان الوجه هو اختصاصه برتبة من الفصاحة خارجة عن المعتاد، وتقريره في ((المغرِّب))[٣٠].

و ((القُرء)) –بالضم والفتح– الحيض في قول الاكثرين، وقيل انه يصلح لهما[٣١]. وقد جاء في هامش ((المعرَّب)) القَرء– بفتح القاف ويجمع على اقراء وقروء، وهو من ((الاضداد)) يقع على ((الطهر)) واليه ذهب الشافعي واهل الحجاز، وعلى ((الحيض)) واليه ذهب ابو حنيفة واهل العراق – ((نهاية))[٣٢].

وقد جاء في الباب نفسه تحت مادة

(٢٩) ينظر المطرّزي، المصدر السابق، ص ٣٧٥.
(٣٠) المطرّزي، المصدر السابق، ص ٣٧٥.
(٣١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٣٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

((قرن)): ((قَرْن البقرة وغيرها، وشاة قَرْنَاء، خلاف جَمَّاء، وقَرْن الشمس اول ما يطلع منها، وقرنا الرأس: فُوْداه أي: ناحيتاه. و ((القَرْن)): الجعبة الصغيرة تضم الى الكبيرة. والقرن: الحبل يُقرن به بعيران [٣٣]. كما جاء في كتاب ((مفاتيح العلوم)): ((القِران: يعني اجتماع زُحل والمشتري خاصة اذا اطلقت، فاذا عنى قِران كوكبين آخرين قُيد بذكرهما))[٣٤].

وقد جاءت كلمة Chronicles في الالفاظ الكتابية وهي تدل على الاوقات و ((القرون)) وانها تشابه كلمة ((قرون)) صوتاً ودلالة، كما انها جاءت في اللغات الاوربية مشتقة من اصل يوناني Kronika وعبر اللغة اللاتينية المتأخرة Chroniea ومنها الى الفرنسية القديمة Cronique والانجليزية الوسطى Cronique حيث ورد في تفسيرها الايتيمولوجي Etymological ما ياتي:

(٣٣) المصدر السابق، ص ٣٨٠.

(٣٤) الخوارزمي، مفاتيح العلوم، ص ١٣٤. ومنها ((اقتران زحل والمريخ في برج العقرب الذي كان على احدقول بعض المنجمين عام ولادة النبي ﷺ وقبلها بقليل، واستدلوا على ظهور ملة الاسلام عن تاريخ القرآن للزنجاني، ط. طهران.

Chronicle Ckronikel) M.E.and o.f. Cronique, Late L. Chronica, Sing , from gr Kronika...a register or history fo Events in order of time; A history, A record, v.t, to record in a chronicle; to register, N.Pl. the two Books of The Old testament immediately following 1 and 2 (kings. Chronicler n [٣٥].

فانت تلاحظ دلالاتها على ((الجامع)) لكتابي العهد القديم، وهو الكتاب السماوي اصلاً، او منها دلالة chronic المنحدرة من اصل (اغريقي) Chronikos وجذرها Chromos على ((القرون)) والزمن.

وقد استعملت في المصطلحات الطبية للدلالة على الحالات ((المزمنة)) والقديمة، واصبحت كلمة Chrono بادئة Prefix لكل شيء يصطلح به على معنى معين مضاف اليه البعد الزماني او ((القروني)):

(٣٥) معجم كاسل.

Chronic a.Continuing for) a Long time: of Disease ,deep seated lasting)[٣٦].

ومنها المصطلحان اللغويان في علم اللغة الحديث اللذان يعتمدان النظر العلمي المبرمج في الدراسات اللغوية: (diachronic) وهو منهج البحث الذي يسير طولاً ويعتمد التطور التاريخي والزمني للغة، و (Synchronic) وهو منهج البحث الذي يسير عرضاً ويعتمد الحقبة التاريخية المعينة والملابسات البنيوية لذلك المقطع العرضي من الزمن للغة. وقد ضرب رائد علم اللغة الحديث دي سوسور: de Saussure مثلا لهاتين الدراستين مقارناً اللغة بالشجرة الضخمة المعمرة، اذ تارة يدرسها بشكل عمودي longitudinal يستقري خلاياها وطبقاتها طولاً ويلاحظ نموها عبر الزمن تطوراً، واخرى يدرسها بشكل عرضي transversely يستقري خلاياها وتراكيبها في مقطع افقي خاص يحكي ترابط اجزائها وعلاقاتها القائمة فعلاً[٣٧].

والعجب ان كلمة century الانجليزية التي هي من الجذر cent والدالة على ((القرن)) المعادل مئة سنة [٣٨] ((period of 100 years)) والتي تقابل كلمة ((صد)) الفارسية والكردية صوتاً ودلالة، وهي بعض دلالات ((قَرْن)) اذ مر انها كانت تدل على ثمانين او ثلاثين سنة، ولا تخفى العلاقات التاريخية بينها.

وان ((القرآن)) بين الراس والتاج، او ما يوضع عليه من زينة وحُليّ مادية –ومنها ينتقل الى المعنويات –يُسمى في الانجليزية corona وهذه الكلمة تساوق كلمة crown بمعنى التاج صوتاً ودلالة، وهي من اصل لاتيني، وقد ارتبطت بدلالات تزيينية بالكنائس والمعابد، كما انها ذات دلالة على ((الهالة)) halo التي تحيط الشمس او القمر ((مقترنة)) و ((مقرونة))

(٣٦) ينظر دي سوسير، علم اللغة العام: (DE SAUSSUER, COURS ,IN GENERAL LINGUISTICS .(P.88 Glasgow. 1978

(٣٧) معجم اكسفورد الصغير the oxford minidictionary. p.64. (oxford. .(1981

(٣٨) معجم وبستر: (webster's dictionary, .(p.63. ney York. 1980

بمعنى النور او الضياء ((كالثريا)):

Corona (korona) (l.,crown), n. (pl. nae) a broad projecting face forming the principal member of a cornice; a circular chandelier hanging from the roof, esp. in churches; (bot) the circumference or margin of a compound radiated flower; a disk or halo round the sun or the moon, an anthelion radiance round the moon in total eclipse of the sun)[٣٩].

واية دلالات لغوية متقاربة بين مادة ((قرآن)) في العربية و corona المذكورة في هذا النص الدالة جميعاً على الضياء والزينة والهالة المقترنة بمنبع الاشعة المادية التي ينتقل منها الى النبع العرفاني الفياض ((والنور الذي لا يخبو توقده)). ولو اردنا استقراء الكلمات المرتبطة بها صوتاً واشتقاقاً لطال البحث وتشعبت بنا السبل، ونحن هنا نشير الى علاقتها بـ coronal و coronation و coronate و coro- و nary و coronet و coroner وجميعها تحمل الدلالة نفسها على التتويج والاقتران والجمع والعقد والانعقاد حتى جاء في الكلمة الشهيرة coronation ما يدل على الاحتفال التتويجي والاحتفال ((بعد القَسَم)) الذي يرتبط بالحكم والحاكم.

n. the act or ceremony of) solemnly crowning a sovereign. coronation) oath , n. the oath taken by a sovereign at the coronathion)[٤٠].

Coronation: (koronashun) as prec).

فاذا لم يلتزم بالقسم (the oath) فقد (احنث) وهنا تجدر الاشارة الى العلاقة الصوتية والدلالية ايضاً بين ((oath)) والحنث، مما يدعم النظرية التي نذهب اليها ونحن بصدد جمع المعطيات اللغوية data و ((دادنيها)) التي هي ايضا تحمل الرابطة

(٣٩) انظر معجم كاسل: cassell's English dictionary, p 252(London. 1968).

(٤٠) انظر معجم كاسل: cassell's English dictionary, p 252(London. 1968).

((الدلالة)) وتؤدي ((المؤدّى)) نفسه.

وان الجامع بين ((عقد القِران)) في الزيجات والدلالة اللغوية الاصلية هو ((التناسب والجمع)) بين الزوجين المناسبين المُساكِن كل للآخر: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [سورة البقرة: ٣٥] فالزوج سكن للزوج الآخر و((قرين)) له. وكذلك قيل في الصديق والصاحب: ((القرين)). وقديماً قيل في الشعر الذي ذهب مضرب الامثال:

((عن المرء لا تسأل وسَلْ عن قرينهِ

فكل قرين بالمقارن يقتدي))

ولعل البادئة –con المتبادلة مع com في مفرداته معينة بالانجليزية حسب الاقتضاء الاصواتي والنظام الصوتي تحمل نفس دلالة ((قرن)) اينما صدرت في الكلام والاصطلاحات التي تبلغ المئات بل الآلاف، وهي تدل على معنى عام مشترك، وهو ما يصطلح عليه في علم اللغة بـ cognate والذي يشير الى انها جميعاً ذوات جذر مشترك واصل جامع، وحتى ان كلمة cognate نفسها من هذه الكلمات حيث تبدأ بـ ((co)) هي تخفيف لها وكذلك الكلمات com-mon و combination و contact و connection و contract و ما شابه وشاكل، وهي ذات جذر لاتيني واصلها ((cum)):

Com. (1., the combining from cum. Cchiefly before b,f,m,p), pref. with; (together in combination; completely) (٤١).

وفي نهاية المطاف لا بد لنا من العرض السريع لاسماء القرآن ومصطلحاته الخاصة به والتي اصطلح بنفسه عليها والاشارة الى مناسباتها. وقد اختلف الباحثون في النظر الى هذه الاسماء هل هي اسماء متعددة لمسمى واحد، أو انها صفات والاسم واحد؟ حتى ان المرحوم الدكتور العطار عد ذلك الخلط بين الاسماء والصفات وهماً من بعض المعنيين، فقد قال في كتابه موجز علوم القرآن: ((تناول العلماء اسماء القرآن بالبحث، فقال (ابو المعالي عُزيزي بن عبد الملك المعروف بشيدلة –بضم عين عُزيزي– في كتاب

(٤١) انظر معجم كاسل: cassell's English dictionary, p. 223.

البرهان: اعلم ان الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسماً)[٤٢]. وهذا وهم منه، اذ انه خلط بين الاسماء والاوصاف، واكثر ما ذكر من اسماء القرآن ان هي الا اوصاف، مناسبة لكتاب الله العزيز))[٤٣]. وفي نظرنا ان الاسماء في العربية غالباً ما تلمح فيها صفة المسمى واقعاً او تفاؤلاً، حقيقةً او مجازاً. واذا اشتهرت الصفة لذلك الموصوف فقد تصبح اسماً ولا تناقض في جعل الاسماء صفة للشيء اذا لمح فيها الوصفية كدلالة اسمي الحسن والحسين على صفة الحُسْن. ومهما يكن من شيء ((فلكلّ اسم من اسماء القرآن او وصف من اوصافه مناسبة مضمونية: فوصفه بـ (الحكيم) مثلاً لإحكام صياغته واحتوائه على الحِكَم والعبر، اذ الحكيم صفة تناسب مضمون القرآن، وكذا وصفه بـ (النور) لان الرؤية لا تتم –مع وجود البصر– الا بالنور، والعقل مع قدرته على الادراك فانه لا يدرك كثيراً من الحقائق ولا يهتدي اليها الا بالقرآن وتوجيهاته النيرة. قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾[٤٤] [سورة المائدة: ١٥-١٦].

ومن الاسماء والاوصاف القرآنية التي وصف القرآن بها نفسه: ((شِفاء))، و ((قصص)) و ((حكيم)) و ((حِكمة)) و ((حَبْل)) و ((صراط مستقيم)) و ((عزيز)) و ((موعِظة)) و ((مجيد)) و ((بلاغ)) و ((بصائر)) و ((بيان)) و ((مثاني)) و ((تنزيل)) و ((وحي)) و ((رَحْمة)) و ((نذير)) و ((مُهَيْمن)) و ((ذكر)) و ((كلام)) و ((فرقان)) و ((هُدى)) و ((كتاب)) وما اليها، اذ انها جميعاً مستنبطة من الآيات التي وردت مصرحة بكونه كذلك.

وقد عدها بعض العلماء توقيفية، وبعضهم قال غير ذلك، غير انها جميعاً تهدف الى مناسبات دقيقة وشاملة تتلخص دلالةً في كلمتي: ((القرآن)) و ((الفرقان)) ايجابا وسلباً وهما متلازمتان

(٤٢) نقل هذا الدكتور العطار عن السيوطي، الاتقان، ج١ ص ٥٠.

(٤٣) الدكتور العطاء، موجز علوم القرآن، ص٤٢.

(٤٤) د.العطار –موجز علوم القرآن– ص٤٢.

كصفتي ((الجامع والمانع)) في التعريفات المنطقية: ((جامع ايجاباً للافراد ومانع سلباً للاغيار)).

فالقرآن مناسبته في التسمية انه: ((جمع احكام الامم الغابرة، واخبارها، وجمع بين رقة الشعر وجزالة النثر البليغ، وجمع بين اصول العقيدة ومبادئ الاخلاق والاحكام العملية، وجمع –للمتمسك به – خير الدنيا والاخرة، وجمع بين متطلبات الانسان الجسدية والروحية، وهكذا، والى هذا المعنى ذهب جماعة كبيرة من اللغويين، وانه الاصل في اللغة العربية [٤٥].

والفرقان ومادته في التسمية ((تفيد معنى التفرقة، ومناسبتها الإشعار بالدور الذي ادّاه كتاب الله تعالى في التفريق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، وطريق الجنة وطريق النار، وسبيل الحلال وسبيل الحرام، ومنهج العبودية في عبادة المخلوق، ومنهج التحرر في عبادة ربّ الارباب الخ، وقيل سُمي بذلك لانه يؤدي الى النجاة والمخرج نظير قوله تعالى: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [سورة الانفال: ٢٩].

(٤٥) الدكتور العطار، المصدرالسابق. ص ٤٣.

وخلاصة القول في دلالات (القرآن) اللغوية والاصطلاحية هو وجود التناسب والتساوق في الدلالة على كونه ((جامعاً)) لجميع ما عرضنا له اضافة الى كونه نزل (مجموعاً) ودفعة واحدة على قلب النبي الكريم ﷺ في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [سورة الفرقان: ٤١] في السابع عشر منه سنة خمس وخمسين من عمره الشريف في واقعة بدر الكبرى، وهذا لاينافي ما ورد فيه من كونه نزل ((منجّماً)) أي مفرقاً بعد حين وحسب الظروف المناسبة واسباب النزول المذكورة في المظانّ، في مدة ثلاث وعشرين سنة حتى كان تنجيمه مثار اعتراض المشركين، وقد ذكر ذلك القرآن واجاب عنه، وقال في [سورة الفرقان]: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [سورة الفرقان: ٣٢]، لما في تنجيمه وتكرار الوحي واشراق نور العلم على قلبه من التثبيت لفؤاده الشريف، ولا تنافي بين نزوله مفرقاً ومنجماً وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [سورة

القدر: ١] و ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] و ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [سورة الدخان: ٣] لصحة اطلاق القرآن على بعضه، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾[سورة هود: ١] مع العلم بان أُخَرَ منها متشابهات، على انه يمكن ان نقول بان روح القرآن، وهي ((اغراضه الكلية)) التي يرمي اليها تجلت لقلبه الشريف في تلك الليلة ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [سورة الشعراء: ١٩٣]. ثم ظهرت بلسانه الاطهر ((مفرَّقة)) في طول سنين: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [سورة الاسراء: ١٠٦].

وهذا تفسير لطيف ودقيق لدلالة الصيغتين: ((الافعال)) و ((التفعيل)) اللتين وردتا في القرآن الكريم في بنيتي ((الإنزال))، و ((التنزيل)) واللتين يدلان على كون الشيء ينزل او يرسل او يُعلم دفعة واحدة، والثانية تدل على ان الشيء ينزل او يرسل او يعلم على مراحل ودفعات، كمثل الفرق بين دلالتي الإعلام والتعليم او الإرسال والترسيل وما الى ذلك من مواد اخرى يمكن استعمالها في هاتين الصيغتين القياسيتين، كما يقرر ذلك علم الصرف في اللغة العربية، وبالتفسير المذكور يرتفع الاشكال ويدفع اللبس والابهام اللفظي.

مصطلح القَلَم

قَلَم (٤٦): (qalamn: column)

ان مصطلح ((القلم)) من المصطلحات الحضارية المهمة، التي لعبت دوراً خطيراً في تثقيف الانسان وتعليمه، وبناء فكره ومجتمعه، منذ ان عرف الانسان الكتابة و ((الآلة)) التي يكتب بها؛ لذلك سنعرض لهذا المصطلح باسلوب مقارن –كما هو الغالب في منهجنا– نتتبّع فيه المفردات المشابهة له ((صوتاً ودلالة)) في مختلف اللغات والثقافات التي التمع فيها ((القَلَم)) مع مراعاة الاختصار والاقتصار.

فنحن نعلم ان اول سورة نزلت على النبي الاعظم ﷺ ذكرت اسم ((القلم)) الذي هو ((آلة)) التعلم والتعليم واداتهما

(٤٦) يبدو أن الصوت (n) من بقايا ((التنوين)) في بعض اللغات، لذلك اكتفينا به في آخر كلمة qalamn ليشاكل column وغالباً ما يختفي في النطق بهذه الصورة.

عبر العصور والاجيال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [سورة العلق: ١-٤] كما نعلم ان سورة في القرآن تُسمى باسم ((القلم)) اذ يُقسم الله تعالى به لعظمته وخطورته: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [سورة القلم: ١].

وقد استعمله فلاسفة الاسلام واهل العرفان منهم بسياق خاص ودلالة اصطلاحية معينة افادوها من هاتين الآيتين الكريمتين[٤٧]، وقد ورد في الحديث الشريف ((اول ما خلق الله القلم))[٤٨].

وفي الحكمة المتعالية لمدرسة ملا صدرا الفلسفية، جاءت الاشارة الى القلم بذلك المعنى الاصطلاحي ووظيفته: ((فان الذي كتبه القلم الاعلى في اللوح المحفوظ لا يتبدل))[٤٩] ومحلها اللوح، والقلم: احدهما على سبيل القبول والانفعال وهو اللوح بقسميه والاخر على سبيل الفعل[٥٠]. اما اللوح والقلم فبيان القول فيها: الباري جل كبرياه اول ما برز من ذاته ونشأ هو جوهر قدسي في غاية النور والضياء والسناء بعد الاول تعالى[٥١].

واذا تاملنا في دراسة هذا المصطلح صوتاً ودلالة، أي من ناحية الاشتراك اللفظي والمعنوي، او ما يصطلح عليه الدراسات اللغوية (syno. Hom-onyms) نجد مشابهات له ومرادفات في مختلف اللغات والثقافات، وان كانت للوهلة الاولى قد تبدو بعيدة الصلة، لكن علم المعاني semantics يؤيد ذلك.

والذي يبدو لنا ان تسمية ((القلم)) بالقلم لم يُنظر فيها الى مادته التي صنع منها او يصنع، ولا الى سائر خصائصه الاخرى الا خصيصة واحدة، وهي ((شكله ورسمه)) او على الاقل، ان الاشياء التي شابهت شكله ورسمه سميت باسم مشابه له، كما يتجلى ذلك في مختلف اللغات والاشتقاقات.

فكلمة culm في الانجليزية تدل

(٤٧) ينظر: دكتر سجّادي، فرهنك علوم عقلي، (بالفارسية)، (ط. طهران-١٣٦١ هـ.ش) ص ٤٦٩.

(٤٨) ينظر المصدر السابق. ص ٤٧٠.

(٤٩) الاسفار، ج٣ ص ١٠٨.

(٥٠) الاسفار، ج٣ ص ٦١.

(٥١) الدكتور سجّادي، المصدر السابق، ص٤٧٠.

على ((سويقة العلف)) وتذكرنا هذه العبارة بكلمة مرادفة للقلم بالعربية، وهي ((القصبة)) والتي كانت تستخدم –وما زالت احياناً –من القصب الخاص الذي ((يُقلم)) ويعد اعداداً خاصاً ليكون ((قلماً)). وقد جاء في (المُغرِّب المطرّزي) ما نصه:

((القَصَب: كل نبات كان ساقه انابيب وكعوباً، والواحدة قصبة. والقصباء واحد وجمع عن سيبويه، وقيل هي القصب الكبير النابت في الغيضة. وانواع ((القصب الفارسي)) وهو ما يتخذ من انابيبه الاقلام)) (٥٢).

وقد تستعمل كلمة ((القلم)) بهذا الاسم والدلالة في التركيبة ايضاً، وبنطق خاص حسب ما تقتضيه قواعد الاصوات فيها، وغالباً ما يكون اقرب الى نطق ((كَلم)).

ومن الاسماء الدالة على الكتابة و ((آلتها)) ولا سيما منها القريبة من ((القلم)) صوتاً ودلالة: ((الرَّاقم)) و ((المِرْقم)) و ((الارقم)) و ((الرقيم)) –بمعنى فاعل او مفعول– وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [سورة الكهف: ٩] وهم من اهل ((الكتاب)) و ((الرقيم)) بمعنى ((المرقوم)) و ((الرَقَم)): العلامة الدالة على ((العدد)) وغيره من هذا المعنى، وقد جاء في ((المغرب)): ((رقم الثوب وشّاهُ رقما، ومنه بُرد الرقم، وهو نوع منها مُوَشّى، والتاجر يرقم الثياب أي يعلّمها بان ثمنها كذا، ومنه ((لايجوز بيع الشيء برقمه))، و ((الارقم)) من الافاعي الارقش، وبه سمي ارقم بن ابي الارقم وهو الذي استُعمِل على الصدقات فاستتبع ابا رافع، واسم ابي الارقم عبد مَناف)) (٥٣).

القسطاس

قسطاس(٥٤): (justice: Justus)

تحقيق ((القِسط)) والعدل، واحقاق الحق والسلام على الارض حُلُم الانبياء والمرسلين، والائمة الصالحين. وقد

(٥٢) المطرّزي، المصدر السابق ص ٣٨٤.

(٥٣) المطرّزي، المصدر السابق، ص ١٩٥-١٩٦.

(٥٤) انظر الملحق رقم: (٨).

تحققت ((العدالة)) في فترات معروفة من التاريخ، وبقي هذا الحلم يراود الصلحاء والاتقياء، والفقهاء والاولياء، واصحاب النفوس الطاهرة النقية وما يزال. والمتتبع لجذور كلمة ((القِسط)) يجدها ضاربة في اعماق اللغات والحضارات، وانها مصطلح مشترك، او بالاحرى من ((المصطلحات المشتركة)) صوتاً ودلالة في كثير منها.

وقد خلدت معاني ((القِسط)) و ((القصد)) –بمعنى العدل– و ((القِسطاس)) و ((القِصاص)) وما اليها في الآثار الحضارية، والتراث البشري الثرّ، ولكنها اكثر التماعاً وازدهاراً في الكتب السماوية وعلى راسها القرآن الكريم، حيث وردت في كثير من الآيات لفظاً ومعنى، اذ هي الهدف الاسمى من اقامة حكم الله في الارض، ونذكر هنا بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [سورة المائدة: ٨] و﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة النساء: ٥٨] و ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩].

و﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [سورة الانبياء: ٤٧] و﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [سورة الاسراء: ٣٥] و﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ [سورة الحجرات: ٩].

و﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة المائدة: ٤٢]. وما الى ذلك من الآيات، ولا يتسع هذا الموضوع لذكر الاحاديث الكثيرة الواردة في المقام.

وعند الرجوع الى المعجمات اللغوية والمصادر المعنية نجدها متعاضدة في الدلالات والاشتقاقات، وتكاد تجمع على ان ((اقسط إقساطاً)) عَدَلَ. ومنه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ [سورة النساء: ٣] والاسم القِسط وهو العدل والسوية. وفي التنزيل: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [سورة النساء: ١٣٥] أي مجتهدين في اقامة العدل حتى لا تجوروا))[٥٥].

كما ان دلالة ((القسطاس)) في اللغة على الميزان والمكيال مُجمَعٌ عليها، ومن دلالاته الاخرى دلالته على ((الفن)) و ((المنطق)) ؛ لانهما اداتان لمقياس الفكر، وقد سُميا

(٥٥) المطرّزي، المصدر السابق، ٣٨٢.

بالقسطاس وعلم القسطاس، كما ورد ((القِسط)) مصطلحاً من مصطلحات (مكاييل العرب واوزانها)[٥٦].

ونجد في الانجليزية كلمة just – وكذلك سائر الاشتقاقات المشابهة لها في اللغات المتفرعة عن اللاتينية كالفرنسية مثلاً تحمل نفس الدلالة على العدل، وهي مشابهة تماماً لكلمة ((قسط)) العربية صوتاً ومعنىً، الا ان التعريب او التعجيم –وليس هنا مقام تبيان الاصل –يضع اثراً كلياً او جزئياً على المفردات والمصطلحات المتداولة، فتتغير بعض الاصوات وتتبدل، وتتخصص بعض المعاني او تتسع، كل ذلك بحسب ظروف الاستعمال وتاريخه، وقوانين اللغات وقواعدها العامة، وهي التي تتحكم في بناء مفرداتها وجملاتها وتراكيبها، وهذا ما توضحه النظرية البنيوية structuralism.

وقد جاء في معجم كاسل عن كلمة (just و justice) ما يؤكد انحدارهما عن اللاتينية justitia وقد استعملتا في الفرنسية القديمة والانجليزية الوسطى ايضاً بهذه المعاني تقريباً:

Justice (justis) [o.f. from l. justitia, from Justus , just]

n. the quality of being Just, fairness in dealing with others, uprightness, (rectitude, honesty[٥٧].

ومن الطريف جداً ان نلاحظ كلمة (القَصْد) التي هي مشابهة ((للقسط)) صوتاً ومعنى ذات استعمالات ودلالات متساوقة والنظرية الاسلامية الشاملة التي يبني الاسلام عليها فلسفته عن الكون والحياة والانسان: فرداً ومجتمعاً جسداً وروحاً، دنياً واخرى، الا وهي العدل والموازنة والقسطاس في كل شيء، حتى ان ((الاقتصاد)) وعلمه الذي اصبح الهم الاكبر للنظريات والمذاهب الاجتماعية الحديثة قد قام في الاسلام على هذا المنظور

(٥٦) انظر الخوارزمي، المصدر السابق، ص ١١ (مكاييل العراب واوزانها): ((القِسط: نصف الصاع)). المصدر السابق.

(٥٧) Cassell's English dictionary ,p. 639, london, 1975. And cf. the art. (justice) in the concise oxford dic. p. 545 (new edit. 1982).

الشامل: ((العدل)) و ((الميزان)).

وقد ورد في مادة ((قصد)) اللغوية في المعجمات العربية بهذه الدلالة:

((القصد: بين الاسراف والتقتير، يقال فلان مقتصد في النفقة. والقصد: العمل))[٥٨] وكذلك هو المقصود العام من الاية الكريمة: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾ [سورة لقمان: ١٩]. أي السير المعتدل مادة ومعنى في كل شيءٍ كما جاء مضاداً للظلم والسوء ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ﴾ [سورة فاطر: ٣٢] و ﴿مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: ٦٦] والاعتدال والاقتصاد صيغتها ((الافتعال))، وهما يحملان الدلالة نفسها وهي ((الاتزان الكامل)) perfect balance والموازنة المطلقة: وهي النظرية التي اشرنا اليها آنفاً، موازنة بين الفرد والمجتمع، الدنيا والآخرة، الجسد والروح، المادة والمعنى الكمية والكيفية: ﴿وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[سورة الفرقان: ٦٧]، ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٖ﴾ [سورة الرعد: ٨]

(٥٨) الرازي، المصدر السابق، ص ٥٣٦.

وكل شيء في الاسلام يقوم على الاعتدال والوسطية بمعناها القرآني: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [سورة البقرة: ١٤٣].

وان كلمة just الصفة للشيء العدل او الشخص العدل، وكلمة justice الاسم او المصدر الدال على العدل، و justify الفعل، و justly الظرف جميعاً من جذر لغوي واحد، ولها علاقة ((بالقسط)) و ((القَصد)). كما ان علاقة justice بالقسطاس صوتاً ودلالة لا تحتاج الى تدليل ولا سيما اذا كان لدينا بعض المام بالقوانين الصوتية phonetic ونظام الاصوات اللغوية phonology او علم اللغة الحديث عموماً modern linguistics.

كما ان علاقة ((القِسطاس)) بكلمة ((القِصاص)) صوتا ًودلالة واضحة ايضاً، اذ القصاص في حقيقته الموازنة والعدالة بين ((الجُرم والعقاب)) ومطابقة كل منهما الآخر، او بعبارة اخرى شهيرة هو: ((الجزاء العادل)). و((منه القِصاص، وهي مقاصّة ولي المقتول القاتِلَ والمجروحِ

الجارَح وهي مساواته اياه في قتل او جرح ثم عمَّ في كل مساواة، ومنه تقاصّوا اذا قاص كل منهم صاحبه في الحساب فحبس عنه مثل ما كان له عليه))[٥٩].

وقد وردت الاشارة الى ذلك في القرآن الكريم:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [سورة المائدة: ٤٥].

وفي ضوء هذه الاية الكريمة، فقد تناولت كتب الفقه والشريعة الاسلامية ((القِصاص)) في فصلين:

الاول: (قِصاص النفس).

والثاني: (قِصاص العضو)[٦٠].

وان المثل العربي الشهير ((القتلُ انفى للقتل)) والذي هو مضرب المثل في البلاغة اقل بلاغة من: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة: ١٧٩]؛ اذ الآية الكريمة اشمل منه وادل على تحقيق العدالة والسلام بشكل مطلق كما فُصّل ذلك في كتب التفاسير والبلاغة[٦١].

واذا توسعنا في الاشتقاقات نجد كلمة judge الانجليزية ترادف كلمة ((قاضي)) الذي يقضي بالعدل اساساً، ولاسيما اذا عرفنا ان الحرف [j] ينطق [i] في اللاتينية، كما ان القاضي تنطق [آدي] في اللهجة الشامية والمصرية و [قازي] بالفارسية. وما يلاحظ من بُعد للوهلة الاولى فذلك بسبب مقتضيات التطور الصوتي والدلالي في اللغات واللهجات.

وان كلمة jury الدالة على الهيئة الحاكمة والتي تطورت دلالتها سلباً في العربية على مر الاجيال ؛ لغة ((الجَوْر)) والحكم ((الجائر)) والحكام ((الجائرين)) حتى اصبحت كلمة ((جَوْر)) ترادف ((الحكم الجائر)) في مفردات العربية، وهي اصلاً ذات دلالة على الحكم والهيئة الحاكمة في اللغات السامية القديمة، ومن

(٥٩) المطرّزي، المصدر السابق، ص٣٨٥.

(٦٠) انظر منها كتابي مسالك الافهام للشهيد الثاني، وشرائع الاحكام للمحقق الحلي، وقد ترجمها للفارسية الدكتور محمّدي في كتاب واحد تحت عنوان ((قصاص)) من منشورات جامعةطهران، ١٣٦١ هـ.ش.

(٦١) تراجع كتب البلاغة والتفاسير المتعرضة لهذه الآية الكريمة لزيادة الاطلاع.

اشتقاقاتها في الانجليزية juror الهيئة القانونية المحلّفة.

وان كلمة jurist تدل على العالم بالحكم والقانون و(jurisprudent) وو القاضي او الحقوقي او القانوني و (-ju risprudence) تدل على الفقه او علم القانون والشريعة.

وان كلمة juridical الدالة على الحكم القضائي والتشريعي ذات صلة بجذر كلمة juridical المشتقة من القضاء والحكم (judgment) او القاضي judge المتقدمة الذكر، وان للقوة القضائية في الانجليزية تكون -ju diciary وهكذا قل في سائر الاشتقاقات والدلالات التي تبدو لنا مترابطة من حيث الاصل والجذر، او هي من جذر مشترك بمثابة الأُمّ، وما يصطلح عليه cognate وهذا ما تدعمه الدراسات الايتيمولوجية ((etymological studies)) وان مبدأها المشترك هذا يؤكد وحدة الانسانية والحضارات والديانات وتكاملها اصلاً، وهذا ما كان فعلاً، ويجب ان يكون مستقيلاً ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (٦٢) [سورة البقرة: ٢١٣].

مصطلح الايمان

إيمان: أَمان (jmmune: amenity)

آمين: أمانة (amen: ammunition).

كان الايمان منذ وُجِد الانسان، وكان الكفر ضده منذ وُجد الايمانُ، وكان الصراع دائماً وأبداً وسيبقى الصراع دائماً وأبداً.

ذلك لان الله تعالى لم يرد ان يجبر الانسان على الايمان، بل اعطاه ((قُوة الاختيار)) وقدرة التمييز وقابلية الانتخاب. فاذا ((آمَنَ)) طواعيةً واختياراً عُدَّ مؤمناً وحظي بجزاء أَهل الايمان في الدنيا والآخرة، وان كفر طواعيةً واختياراً عُد كافراً وجوزي بجزاء اهل الكفر في الدنيا والآخرة.

فما معنى ((الايمان)) لغةً واصطلاحاً؟ وما معنى ضده وهو ((الكفر))، وهما اللذان يُشكلان طرفي الصراع والنزاع.

الايمان من مادة ((أمن)) وعند

(٦٢) التقدير كان الناس امة واحدة ((فاختلفوا)) فبعث الله النبيين لتوحيدهم ووحدتهم.

الرجوع اليها في كُتُب اللغات والمعجمات اللغوية، نجد: ((الايمان)) و ((الامانة)) بمعنىً، وقد (أمِنَ) من باب فهم وسَلِمَ و (اماناً) و (أمنةً) –بفتحتين– فهو (آمِن) و (آمنهُ) غيره من (الامن) و (الأمان). و (الايمانُ): التصديقُ، والله تعالى (المؤمن) ؛ لانه بهمزتين لُيِّنت الثانية، ومنه المهيمن، واصله مؤامن لينت الثانية، وقُلبت ياءً كراهة اجتماعهما وقلبت الاولى هاءً كما قالوا: اراق الماء وهراقةُ. و (الامْنُ: ضدُّ الخوف، والامنةُ: الامن –كما مر– ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [سورة آل عمران: ١٥٤]، والامنة ايضاً: الذي يثق بكل احد، وكذا الأُمُنَّة –بوزن الهُمزة– وأمِنهُ على كذا وأتمنهُ بمعنى، وقُرِىء: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [سورة يوسف: ١١] بين الإدغام والإظهار، وقال الاخفش: والادغام احسن، وتقول: (اؤتُمِنَ) فلان –على ما لم يُسمَّ فاعله– فان ابتدات به صيرت الهمزة الثانية واواً وتمامه في الاصل. و (استأمن) اليه دخل في أمانه. وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [سورة التين: ٣] قال الاخفش: يريد البلد الآمن وهو الامن. قال وقيل: الامين: المامون. و (آمين) في الدعاء يُمد ويُقصر، وتشديد الميم خطأ، وقيل معناه: ((كذلك فليكن)) وهو مبنى على الفتح مثل ((اين)) و ((كيف)) لاجتماع الساكنين، وتقول منه أمَّن فلان تأميناً)) [٦٣].

وبمعرفتنا ((للايمان)) وجذره واشتقاقاته لغةً ودلالةً نعرف ((الكفر)) وجذره واشتقاقاته والذي هو ضده، ولكن بالرجوع الى مادة ((الكفر)) في المعجمات اللغوية وكتب اللغة نجد بعض التوضيحات التي قد لا تستحضر عن طريق معرفة الضدية فقط.

ففي مادة ((كفر)) نجد: الكفر ضد الايمان، وقد (كَفَرَ) بالله من باب ((نَصَرَ))، وجمع الكافر (كُفار) و (كفرة) و (كِفَار)- بالكسر مخففاً – كجائع وجياع، ونائم ونيام، وجمع الكافِرة (كَوافِرُ)، والكفر ايضاً: جُحُود النعمة، وهو ضد الشكر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ [سورة القصص: ٤٨] أي:

(٦٣) الرازي، المصدر السابق، مادة (أمن)، ص ٢٦- ٢٧.

جاحدون، وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [سورة الاسراء: ٩٩] قال الاخفش: هو جمع ((كُفر)) مثل بُرد وبرود. و (الكفر) –بالفتح –التغطية [٦٤] ؛ وبابه ((ضَرَبَ))، والكفر ايضاً: القرية. و (الكافِر): الليل المظلم، لانه سَتَر بظلمته كل شيء وكل شيءٍ غطى شيئاً فقد كفره قال ابن السكيت: ومنه سُمي ((الكافِر))؛ لانه يُستر نِعَمَ الله عليه. والكفار: الزُّراع. و (أكفَرَهُ): دعاه كافِراً، يقال لا تُكفِر احداً من اهلِ قبلتك، أي لا تنسبه الى الكفر. و (تكفير) اليمين: فعل ما يجب بالحنث فيها، والاسم: (الكفارة) [٦٥].

ان قصة الصراع بين الايمان والكفر قصة طويلة، وقد عرض لها القرآن الكريم باسلوبه الموجز المعجز وبين بعض فصولها وشخوصها في مختلف سُوَره وآياته، ويكفي انه سُميت احدى سُوره باسم ((المؤمنون)) [٦٦] وأُخرى باسم ((الكافرون)) [٦٧] ويكاد يكون القرآن الكريم جميعه عرضاً لهذا الصراع العقائدي وادواره وابعاده، ولا يتسع هذا الموضوع لذلك البيان العظيم والكتاب المبين، بل ننصح بالرجوع اليه والالتزام به والاخذ بمعاييره الحقة ومقاييسه العادلة ودلالاته الصادقة.

فحين قالت الاعراب آمنا، فماذا كانت الحقيقة؟!

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الرعد: ٣٠].

اذن الايمان شيء أخص من الاسلام وهو جوهره ولُبُّهُ، يدخل في القلب ويستقِرُّ بالجنان ويمس الشغاف، ولعل العلاقة بين الايمان والاطمئنان ظاهرة صوتاً ودلالة، فلا اطمئنان بلا ايمان، كما انه لا ايمان بلا اطمئنانٍ وثبات يجسده، وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [سورة الرعد: ٢٨].

(٦٤) تلاحظ في الانجليزية مادة cover وهي متساوقة صوتاً ودلالةً بمختلف اشتقاقاتها.

(٦٥) الرازي، المصدر السابق، مادة ((كفر)) ص٥٧٣- ٥٧٤.

(٦٦) هي سورة مكية وآياتها مئة وثمان عشر وقد= =سُميت سورة أُخرى ((بالمؤمن)) وهي مكية وآياتها خمس وثمانون.

(٦٧) هي سورة مكية وآياتها تسع.

ولما كان الايمان سبباً للاطمئنان والائتمان، والامن والامان، والركون الى رُكن وثيق والاعتقاد بالله الحق الحقيق، كان الكفر سبباً للحيرة والقلق، والضلالة والوبال، وستراً للحق والحقيقة ظاهراً، اذ هو في الواقع محال، كما اشار الى ذلك الشاعر الحكيم زهير ابي سلمى:

فلا تكتُمُنَّ الله ما في نفوسكمْ

ليخفى ومهما يُكتمِ اللهُ يَعْلَمِ

ومن معاني الايمان ودلالاته اشتق الانسان في مختلف لغاته مفرداتٍ كثيرة خَلُدت عبر الزمان والمكان وتنوعت بتنوع تجارب الانسان.

والعجيب الغريب ان كثيراً من هذه المفردات والاشتقاقات تتشابه صوتاً ودلالة في مختلف اللغات. ونحن هنا نعرض لهذه المفردات والاشتقاقات ؛ لنؤكد على وحدة الانسانية والمعرفة الشاملة في مسيرتها اصولا وفروعاً، وجذوراً وثماراً، اسباباً ونتائج، وهذا ما تتبناه النظرية الكونية العالمية universality في علم اللغة الحديث.

ونحن نلاحظ هنا بشكل جيد علاقة hymn بكلمة (هيمنة)) و ((هينمة)) اذ احداهماسبب للاخرى في كثير من الحالات، ومنه قيل ((للمهيمن)): المسيطر على وجود الشيء ((هيمن)) والمهيمن من اسماء الله تعالى المشتركة مثل ((المؤمن)) يُطلق على الله –سبحانه– وعلى العبد المؤمن بالله، وقد قيل: إن المهيمن اصل مشترك مع المؤمن ومادتها الامن والامان والايمان))[٦٨].

وإن كلمة ((آمين)) المستعملة في الادعية والصلوات الدينية في مختلف الاديان واللغات تدل على هذا الارتباط الوثيق بالله: المؤمن، المهيمن، الامين المامون. حتى جاء معناها في المعجم الكتابي انها ترادف: الحق، والوعد الحق، والامان، والاطمئنان لاهل الايمان:

Amen (true). A Final Word) Used To Fix The Stamp Of Truth Upon An Assertion promises of God are Amen) (ises of God are Amen[٦٩].

(٦٨) مجلة التوحيد، العددالخامس ص ٨٩.

(٦٩) المعجم الكتابي webster's bible dictionary, p. 498, (newyork, 1980).

وان كلمة ((آمين)) amen قد وردت في شتى اللغات القديمة والحديثة واستعملت في اليونانية والعبرية والعربية واللغات السامية، كما استعملت في اللاتينية وما تفرع منها من اللغات الاوربية، كما ان كلمة ايمان استعملت في اللغات المتاثرة بالثقافة الاسلامية كالفارسية والتركية والاردية بلهجات شتى. فقد جاء في الفارسية: ((إيمن)) و ((إيمني)) بمعنى الامن والامان- كما جاء معنى كلمة ((أمون)) الكتابية -am mon الامان والاخلاص، او الشخوص المامون الامين المخلص: (ammon: faithful)) [٧٠].

مصطلح الصلاة

صلاة، صلادة، سلام، ثناء (salute solidarity, solemn. Song).

اصوات، شعارات، سبحات، صلات (slogans, sonants, salutary supplications).

صلوة، صلابة، خلوص، إخلاص (absolutely, slaughter, salva-tion, salutation).

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة الانعام: ١٦٢-١٦٣].

حقيقة الصلاة صلة وارتباط بين المخلوق والخالق تعبداً وربوبية، وهي اعتراف قلبي ولساني بهذه الصِلات التكوينية والتشريعية، المتبلورة بالكيفية التي جاءت بها الرسل والانبياء، انسجاماً مع الفطرة والطبيعة الانسانية المتناغمة مع حركة عالم الإمكان نحو عالم الوجوب، وانطلاق المقيد نحو المطلق في سيره التكاملي الصادح الصاعد.

والصلاة بمعناها المظهري هي هذه التسبيحات والسبحات الروحانية الموسقة المنسقة، التي تعتمد التكرار اليومي والازمنة المحددة والشعائر المتكررة في كتاب موقوت ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾[سورة النساء: ١٠٣] وفي الواقع لا يمكن حصر

(٧٠) webster's bible المعجم الكتابي dictionary, p. 498, (newyork, 1980).

ابعادها وفوائدها في كلمات وحروف، او رسوم وحدود، بل لا يمكن حتى الاشارة الى عوالمها ومعالمها المتشعبة، اذا ادركنا انها شيء لا كالاشياء اذ هي عروج وانطلاق نحو المطلق في صراط مستقيم ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [سورة الفاتحة: ٦] هذا الصراط الذي مبدؤه الله ومنتهاه الله، واوله الاول الذي لا اول لاوليته وآخره الآخر الذي لا آخرية له، غير ان الكمال – كما قيل– هو ((طلب الكمال)) وليس هذا السير التكاملي الصادح الصاعد تكويناً وتشريعاً، غير الاطلاق والانطلاق وهي ((صلات)) في هذين البعدين المتلازمين. فاما بُعدها التكويني فهو ارتباط المعلول بعلته، والمخلوق بخالقه، والمربوب بربه، ارتباط قيومي وقيمومي، واما بعدها التشريعي، فقد جاءت الاديان جميعاً – وجوهرها واحد- بنسخة ((الصلاة)) كل حسب عصره ومصره حتى انتهت الى الرسالة الخاتمة والشريعة العالمية الموحدة على يد سيد الانبياء وخاتم المرسلين محمد ﷺ بهذه الكيفية الكاملة المكملة التي يتعبد بها المسلمون والتي: ((اولها تكبيرة الاحرام وآخرها السلام)) مع مقدمات وتعقيبات وشروط وكيفيات بعضها واجب وبعضها مستحب كما هو مفصل في كتب الفقه والرسائل العملية والمظان.

ولما كانت الصلاة أمراً تكوينياً اولاً، فكل شيء في الوجود يصلي لرب العالمين، ويسبح بحمده وثنائه وسنائه ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [سورة الاسراء:٤٤]، وامراً تشريعياً ثانياً، فقد وردت كلمة ((الصلاة)) بشكل أو بآخر في جميع الاديان واللغات واللهجات، وقد عاشت وما تزال وستبقى في ضمير الانسان وعقله، وروحه وقلبه، ولسانه وشفته، ومن اظهر مجاليها هي هذه التسبيحات والتمتمات، والترنيمات والهينمات الدينية، ولا شك ان هذه الاصوات المنغمة المنسجمة تحكي حقيقة ارتباط منظم يناظم الوجود، وليست هي الا رموزاً للتعبير عن جلال الله وكبريائه، وجماله وعليائه، ونعمه وآلائه. وبالتالي فشكر المنعم- ولا سيما مُنعم الوجود –واجب، وحمده- ولاسيما رب العالمين- لازم. ويجب ان تكون الصلاة –بمعناها الاصطلاحي –

بالكيفية التي يريدها الرب الجليل نفسه، وكما يجب ان يُحمد ويُعبد، ويُذكر ويُمجد، وقد ارسل رسله الكرام وانبياءه العظام بتلكم الكيفيات التي هي كمال وتكميل للعبد، وليس له- سبحانه- غاية لذاته، اذ هو الكمال المطلق، ولا يهدف الى شيءٍ من اجل نفسه، بل الهدفية والغائية لعبيده ومخلوقاته، اذ كل فاعل في الوجود الممكن يهدف في فعله الى الكمال بشتى انواعه المادية والمعنوية، ولكنما ((الكمال المطلق)) والوجود الواجب لا يهدف الى شيء لذاته، بل لتكميل الخلائق رحمةً ولطفاً، وتحنناً وكرماً.

وقد عين الله -سبحانه وتعالى- هذه الكيفية الى الرسول الخاتم ﷺ وقد وردت مجملة في القرآن الكريم في عدة آيات ومنها ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [سورة الاسراء: ٧٨-٧٩] و ﴿فَسُبْحَٰنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [سورة الروم:١٧-١٨]، وما اليها من آيات وروايات. وقد ورد عن النبي ﷺ: صلوا كما رأيتموني أُصلي. فقد علمه ((الكمال المطلق)) كيف يُصلي ويحمد -وهو المحمود الاحمد- وكيف يسبح في عوالم الكمال والجمال والجلال.

وقد ورد في العربية -لغة القرآن الكريم- عن كلمة الصلاة في بعض المعجمات المختصرة ما يأتي: ((الصلاة: الدعاء، والصلاة من الله تعالى الرحمة، والصلاة واحدة الصلوت المفروضة، وهو اسم يوضع موضع المصدر، يقال صلى صلاةً ولا يقال تصليةً. وصلى على النبي ﷺ)) [٧١].

ولهذه الكلمة دلالات ومعانٍ أُخرى ذات ارتباط بالمعنى الاساس وبسائر اشتقاقاتها وصيغها، فتارة ينظر الى طبيعة الاثر والهدف، فيقال: ((صَلَى العصا بالنار: لينها وقومها)) [٧٢]، اذ ان من اهداف الصلاة تليين ((العبد)) وتقويمه، كما هو الامر بالنسبة ((للعود)) وتليينه.

(٧١) الرازي، المصدر السابق، ص ٣٦٨.
(٧٢) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

وتارة ينظر الى الولاية والموالاة فيها، فيقال: ((المصلي تالي السابق، يقال صلى الفرس اذا جاء مصلياً، وهو الذي يتلو السابق، لان راسه عند صلاة أي: مغرر ذنبه)) (٧٣).ولعل في هذه اشارة الى كيفية الصلاة من حيث الركوع والسجود، ولمّ الاطراف امام عظمة الخالق والخضوع في حضرته بشكل متوال رعاية للموالاة، واذا ما لوحظ منها الحرارة واللهب المقدس عند اشتعاله في خَلَد الانسان وروحه، فيقال: ((صليتُ اللحم وغيره- من باب رَمَيَ- شويته، وفي الحديث: انه أُتي بشاةٍ مصليةٍ: أي مشوية. ويقال ايضاً: صليت الرجل ناراً. اذا ادخلته النار وجعلته يصلاها، فان القيته فيها القاء كانك تريد احراقه، قلت: اصليته- بالألف- وصليته- تصلية، وقُرئ: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾(٧٤) [سورة الانشقاق: ١٢] ومن خفف فهو من قولهم صَلِيَ فلان النار- بالكسر- يصلي صِلياً أي احتراق. قال تعالى: ﴿هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [سورة مريم: ٧٠]، واصطلى بالنار وتصلى بها. ((فلان لايُصطَلى بناره اذا كان شجاعاً لايطاق))(٧٥).

واذا ما لوحظ الهوي والسقوط والهبوط من خشية الله فهي الصلاة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ٧٤] حيث التفسير العرفاني لحركات المصلي وسكناته في الصلاة ذات دلالات ومعانٍ لا يعرفها الا الله والراسخون في العلم، وما يترشح من اولئك الراسخين على بعض اهل المعرفة والتقوى، فيرون في الركوع انه ((نصف الفناء)) بعد ان يطوي المصلي مراحلها من المقدمات الواجبة والمستحبة، من الطهارة والاذان والاقامة وتكبيرة الاحرام والفاتحة والسورة بنيةٍ خالصة ((قربةً الى الله تعالى)) وبوعي تام لمضامين البسملة والتحميد والتوحيد، بقوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وصولاً لمرحلة الشهود والتعبيد، بقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(٧٣) المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٧٤) في المصاحف المتناولة بالتخفيف: ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾.

(٧٥) الرازي، ص ٣٦٨- ٣٦٩.

ثم مرحلة القرب والدنو في المناجاة والمخاطبة، والدعاء والسؤال بطلب الهداية في السير في مدارج الكمال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي هو سير تكاملي دائم نحو المطلق والمعرفة اللامتناهية، كما ألمعنا الى ذلك في بحثنا المختصر حول (فاتحة الكتاب)[٧٦]، وكذلك بعد طيّه مرحلة السورة الثانية، ولا سيما في اختياره سورةَ التوحيد –سورة الاخلاص– التي فيها يتجلى التعريف الدقيق لمعنى التوحيد، كما عرف نفسه رب العالمين ووصفها بالاحدية والصمدية، وعدم المثلية بقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ –كما عرضنا لذلك في بحث خاص– [٧٧]، بعد ذلك كله لا يتمالك العبد الا ان يركع متفانياً في عظمة الله التي وصل اليها في عروجه الصلواتي حيث (الصلاة معراج المؤمن) فيقول: (سبحان ربي العظيم وبحمده) وما شاكل من تسبيحات وتنزيهات، وحتى اذا ما ذاق طعم (الركوع) لله وحده فيقوم منه منتشياً ليهوي الى (السجود) الذي هو (فناء تام) لا في الذات المقدسة –فهذا محال –وانما بادراك علوها وعلاتها من خلال هذا الهوي والهبوط والنزول.

واذا ما أردنا الاشارة الى بعض ((معاني الصلاة)) الاخرى، فنجدها في مادة ((صول)) وهي الوثوب الى الحق وتلبية نداء المؤذن بصولةٍ وجولةٍ روحانيةٍ وحركةٍ ورياضة جسمانية، فيقال: ((صالَ عليه: استطال، وصال عليه: وثب، وبابه ((قال))، وصولةً ايضاً. يقال: ربَّ قولٍ أشدُّ من صولٍ، والمصاولة: المواثبة، وكذلك الصيال، والصيالة ولعل كلمة صولجان المعربة عن الفارسية –كما يقال –تحمل بعض هذه الدلالة وهي متشابهة صوتاً ومعنى، وقد جاء في مادة ((صلج)) عنها ما يأتي: ((الصولجان –بفتح اللام – المحجن: فارسي معرَّب. وكذا كل كملة فيها صاد وجيم، لانهما لايجتمعان في كلمةٍ واحدة من كلام العرب، والجمع:

(٧٦) ينظر البحث: فاتحة الكتاب بحث لغوي عرفاني، مجلة التوحيد، العدد ٢٤ ص٥٨-٦١.

(٧٧) ينظر البحث: الوعي الاسلامي سبيل التوحيد والوحدة الشاملة، مجلة التوحيد، العدد ١٩.

الصولجة ((- بكسر اللام-))[٧٨].

وبعد... فهذا ما يتسع له المقام من بحث عريض مترامي الاطراف كهذا وقد نوفق للكتابة فيه بتوسّع اكبر في كتاب مستقل إن شاء الله أن يوفقنا الى ذلك. . وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب...

(٧٨) الرازي –المصدر السابق- ص ٣٦٧.

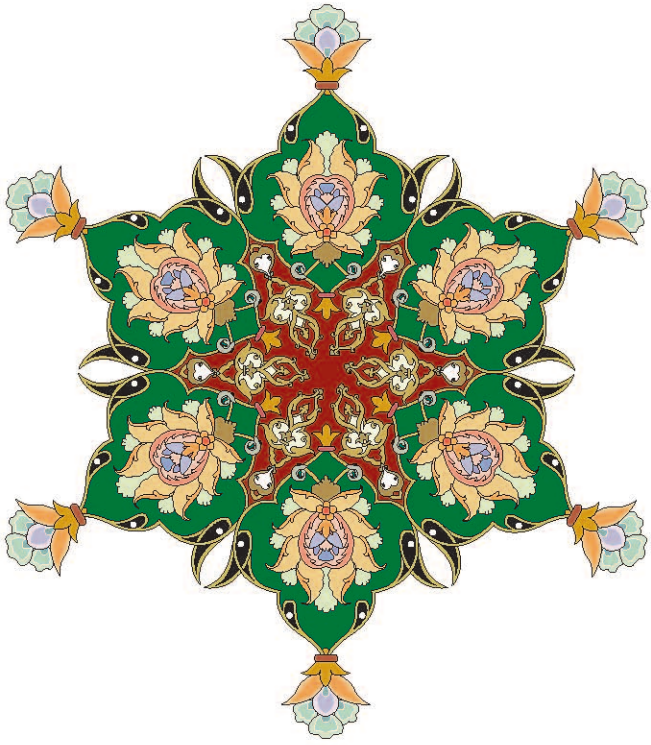

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

(قراءة في ضوء معطيات المنهج اللغوي)

د. حيدر عبد الزهرة التميمي
جامعة بغداد

ملخص البحث

يخلص السيد الباحث الى أن القرآن الكريم معجز في عرضه للحقائق التي يألفها العرب الذين نزل فيهم وخاطبهم، ويرى ان ذلك هو من اروع صور الاعجاز.

ثم يلفت الباحث انتباه من يطلع على القرآن الكريم، أنه يجد أن الله -سبحانه- يفصّل القول في كثير من آياته التشريعية مثل آيات الحج والصيام والنكاح وغير ذلك، فلماذا لا يفصّل الكلام في الحديث عن آيات الإعجاز العلمي، بل يطلق اشارات يستفاد منها معاني ودلالات في عصور متقدمة...

ويرى السيد الباحث أن هذا النوع من الإعجاز يحتاج الى أن يعاد النظر فيه من قِبَل الباحثين. وأن هذا البحث لم يكن محيطا بكل المستويات اللغوية في تحليله للنماذج التي اختيرت من النصوص القرآنية الشريفة. فهو يترك الباب مفتوحاً لمن اراد أن يتعمق أو أن يزيد.

من المسلمات القول بأنّ القرآن الكريم هو المعجزة الإلهيّة الخالدة، الخاتمة لرسالات السماء، وهو كتاب سماوي معجز لا يستطيع الانسان مهما عظمت طاقاته من الإتيان بمثله.

وقد اتسع الحديث عن القرآن، وفضله، وأسراره، وعظمته، فقد كدّ العلماء فيه أذهانهم، وسخروا أقلامهم، وحاولوا الوقوف على تجلياته، واكتشاف أسراره؛ لأنّه كتابهم الخالد الذي أنزل على نبيّ الرحمة محمدﷺ.

ومن الأمور التي تجاذب فيها العلماء أحاديثهم، واختلفت أقوالهم، وتباينت رؤاهم، مسألة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. إذ وقف منها الدارسون موقفين فرأى فريقٌ منهم أنّ القرآن كتاب هداية، وليس كتاب كيمياء، أو فيزياء. وإنكار الإعجاز العلمي في القرآن ليس كفراً، ولا هو إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة. وإنّ عدم وجود إعجاز علمي في القرآن لا ينتقص من قدر القرآن ككتاب مقدَّس وعظيم ومُعْجِز أيضاً.

وراح فريق آخر إلى وجهة مغايرة فرأى أنّ القرآن صوّر مظاهر الكون، وعرض صورة البحر، وصوّر الظواهر الخارقة في البحار، وعرض صور الظواهر الطبيعية في السماء وعلاقتها بالارض، وعرض صورة الماء والنبات، وأنواع الثمار، وبيّن أطوار الحياة الانسانية... وغير ذلك.

ومن الطبيعي أن يكون ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [سورة المؤمنون:٥٣] فراح كل فريق منهم يدلو بدلوه، ويؤيد ما ذهب إليه بأدلة وبراهين، وحجج يثبت بها وجهته، ويدحض حجج من خالفه.

ونحن بين هذين الخطين المتجاذبين حاولنا أن نلتمس سبيلاً للوقوف على حقيقة هذا الأمر، بعد ذكر تعريف الإعجاز العلمي في القرآن، وذكر أدلة المؤيدين له، فضلاً عن أننا عرجنا بالحديث على المنكرين له، وثبتنا أدلتهم التي من اجلها ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه.

ولكي يكون كلّ من الإنكار أو التسليم في محله تلمسنا إيجاد ضابطٍ يحكم في هذا الموضوع، وكان الضابط اللغوي هو السبيل إلى هذا الأمر، وهو الفيصل في تحديد هذه المسألة؛ لأنّ الذي لا ينكر أنّ

القرآن نزل بلسان عربي مبين، ومن يختلف في إعجازه العلمي لا يختلف في اعجازه البياني ودقة استعماله للألفاظ الواردة فيه. فالتحليل اللغوي هو المحدد فيما إذا كان المراد من الآية القرآنية يحتمل ما ذهب إليه من ادعوا وجود حقائق علمية في القرآن اكتشفت في العصر الحديث أم لا.

ومن الطبيعي أننا لن نستطيع الاحاطة بكلّ الآيات التي اشتملت على هذه الأفكار؛ لذا سيكون منهجنا الانتقاء لا الاستقراء. بأخذ عينات من هذه الآيات وتحليلها تحليلاً لغويا.

بعد ذاك سيشير البحث إلى النتائج التي سيتوصل إليها إن شاء الله.

المحور الأول

رؤية المؤيدين للإعجاز العلمي

الإعجاز في القرآن يتجلى في أكثر من مظهر. فهو معجز كذلك في استعراضه التاريخي لعدد من الأمم السابقة، ولكيفية تعاملها مع رسل ربها، ولأسلوب مكافأتها أو عقابها، ومعجز في أسلوبه التربوي، وخطابه النفسي، وفي إنبائه بالغيب، وفي إشاراته العديدة إلى الكون ومكوناته وظواهره. وهذا الجانب الأخير من جوانب الإعجاز فيه هو المقصود بتعبير «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم»، والباعث عليه وجود آيات تشير إلى حقائق علمية وهذه الآيات تحرض على التطلع والبحث والتنقيب؛ لذلك اتجه بعض العلماء إلى استنباط طائفة من العلوم من آيات القرآن[1].

ويقصد به: «إخبار القرآن الكريم، أو السنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول ﷺ»[2].

والدعوة إلى الإعجاز العلمي لم تكن وليدة العصر الحديث بل تمتد جذورها إلى أبعد من ذلك إذ نادى بها الغزالي الذي يقول: «كل ما أشكل فهمه على

(١) ينظر: مباحث في علم التفسير، الدكتور عبد الستار حامد، جامعة بغداد-بغداد-١٩٩٠ -ص١٣٦.

(٢) الإعجاز العلمي تأصيلًا وفهما (مقالة)، عبد المجيد الزنداني، مجلة الإعجاز العلمي -هيئة الاعجاز العلمي-مكة المكرمة -يوليو ١٩٩٥ -ص ١٤٠.

النظار، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات في القرآن. إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بإدراكها»[٣].

ومن المحدثين الذين أقروا وجود الإعجاز العلمي حنفي أحمد إذ يقول: «إنّ رسالة القرآن قد أتت فيما أتت بوصف شامل دقيق للعالم المادي في صورة أصول وجوامع من العلم الصحيح تارة بصريح النص، وغالباً بإشارات فيه واضحة ومحدودة»[٤].

ولم يكن المؤيدون للإعجاز العلمي على مستوى واحد، فهم متفاوتون في الغرض منه «فمنهم من يعتقد أنّه من المزايا التي امتاز بها على سائر الأديان أن كتابه المقدس يحث على العناية بعلوم الكون ودراستها. ومنهم من يتوسع في ذلك حتى يجعل من القرآن إعجازاً علمياً باشتماله على كلّ المخترعات والمستحدثات، وما سيحدث من طيارات وغواصات وقنابل ذرية وصواريخ وأقمار صناعية وأجهزة للتدمير وآلات للتخريب»[٥].

والسبب الذي دفع من ينادي بوجود هذا النوع من الإعجاز في القرآن أنه وجد فيه «تأكيد أن القرآن الكريم هو كلام هذا الإله الخالق، وتصديق للنبي والرسول الخاتم في نبوته ورسالته وفي التبليغ عن ربه»[٦].

علاوة على ذلك فقد عدّوه أسلوباً في الدعوة إلى دين الله بلغة مناسبة لعصر تفجر المعرفة العلمية وتطور الوسائل التقنية الذي نعيشه، وقد سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى ذلك[٧].

ومن أسباب الجنوح إلى الإعجاز العلمي قولهم إن الأصل في الحضارات أنها تتكامل فيما بينها ولا تتصارع، ولكن في زمن العولمة الذي نعيشه تحاول الحضارة المادية الغالبة-بما فيها من كفر بواح أو

(٣) إحياء علوم الدين دار المعرفة -لبنان-١/ ٢٨٩..

(٤) معجزة القرآن في وصف الكائنات (بحث)، د.حنفي احمد -مجلة (المسلمون) -جنيف- ع٤-١٣٧٣هـ-ص ٣٩٣.

(٥) مباحث في علم التفسير،مصدر سابق-١٣٨.

(٦) ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي، زغلول النجار (بحث انترنت) من موقع http: //www.ibnalislam.com تاريخ الزيارة ١١/ ١١/ ٢٠١١.

(٧) ينظر: المصدر السابق.

شرك صراح -أن تمد بقيمها الهابطة وأخلاقياتها الساقطة وماديتها الجارفة على غيرها من الحضارات، وتوظف في ذلك كل ما توفر لها من وسائل الغلبة المادية وأسبابها[٨]. وهذا يدفعنا إلى البحث عما يفوقهم ويتغلب عليهم ولا سبيل إلا إلى الالتجاء إلى قرآننا العظيم لوجود أسباب الغلبة فيه.

وسبب آخر هو أن كلا من الإسلام والمسلمين يتعرض اليوم لهجوم شرس في وسائل الإعلام كافة بغير حق، وهم في هجومهم هذا ينكرون سماوية الإسلام، وربانية القرآن، ونبوة خاتم المرسلين ﷺ في وقاحة سافرة، وأهم الوسائل وأنجعها للرد على هذا الهجوم هو إثبات الإعجاز العلمي لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بالكلمة الطيبة والحجة الواضحة البالغة والمنطق السوي.

ولأن العالم اليوم يتحرك في اتجاه كارثة كبرى، وقودها تطور علمي وتقني مذهل، يطغي أصحابه ويغريهم بإفناء وإبادة غيرهم، في غيبة الوعي الديني الصحيح، والالتزام الأخلاقي والسلوكي الذي يرعى حقوق الأخوة الإنسانية حق رعايتها، والمخرج من ذلك هو الدعوة للدين الحق، ومن أوضح وسائل الدعوة إليه هو ما في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ من إعجاز علمي واضح وضوح الشمس في رابعة النهار.

وقد وجدوا أن في إثارة قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ استنهاضا لعقول المسلمين واستثارة للتفكير الإبداعي فيها، وتشجيعا على استعادة الاهتمام بقضية العلوم والتقنية التي تخلفت فيها الأمة مؤخرا تخلفا كبيرا في الوقت الذي تقدمت فيه دول الكفر والشرك والضلال تقدما مذهلا.

وقبل هذا وذاك أنهم فسروا بعض نصوص القرآن الكريم بوجود هذا النوع من الإعجاز في القرآن فاستشهدوا بطائفة من الآيات القرآنية، ومنها:

قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[سورة الأنعام: ٣٨]. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ

(٨) ينظر: المصدر السابق

﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[سورة فصلت: ٥٣].

وغير هذه النصوص القرآنية.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما سبب تأخرنا في فهم الإشارات الغيبية التي نص عليها القرآن الكريم وعندنا رسول الله ﷺ وإنه لا ينطق عن الهوى ولا يأتيه الباطل من بين يديه، وأهل البيت ترجمان القرآن، والصحابة والتابعون أين كلّ هؤلاء من التفسيرات العلمية التي ما ظهرت إلا في العصر الحديث. ؟!

والمتطلع إلى كتب الإعجاز العلمي وأبحاث المؤيدين له يجد أنّهم وضعوا مجموعة من الضوابط التي يجب أن يلتزم بها محلل القرآن في ضوء فكرة الإعجاز العلمي، ومنها:(٩).

-حسن فهم النص القرآن الكريم على وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، وقواعد تلك اللغة العربية، وأساليب التعبير فيها، وذلك لأن القرآن الكريم قد أنزل بلسان عربي مبين فعلى المفسر أن لا يخالف القواعد اللغوية الواضحة المقررة.

-جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد، ورد بعضها إلى بعض بمعنى فهم دلالة كل منها في ضوء الآخر، لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما يفسره الصحيح من أقوال رسول الله، ولذلك كان من الواجب توظيف الصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بموضوع الآية المتعامل معها كلما توفر ذلك، وذلك لحسن فهم النص القرآني الكريم.

-مراعاة السياق القرآني للآية أو الآيات المتعلقة بإحدى القضايا الكونية، دون اجتزاء للنص القرآني عما قبله وعما بعده.

-مراعاة قاعدة أن العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب-.عدم

(٩) ينظر: الإشارات العلمية في القرآن الكريم ٢٨٤، وضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي، زغلول النجار (بحث انترنت) من موقع http: //www.ibnalislam.com تاريخ الزيارة ١١/ ١١/ ٢٠١١.

التكلف، أو محاولة لَيِّ أعناق الآيات من أجل موافقتها للحقيقة العلمية، وذلك لأن القرآن الكريم أعز علينا وأكرم عندنا من ذلك لأنه كلام الله الخالق، وعلم الخالق بخلقه هو الحق المطلق، الكامل، الشامل، المحيط بكل علم آخر، وهو لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

-توظيف الحقائق العلمية القاطعة (التي لا رجعة فيها) في الاستشهاد على الإعجاز العلمي للآية أو الآيات القرآنية في الموضوع الواحد أو في عدد من الموضوعات المتكاملة، وذلك في جميع الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، فيما عدا قضايا الخلق، والإفناء، والبعث، التي يمكن فيها توظيف الآية القرآنية الكريمة للارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة.

-مراعاة التخصص الدقيق في مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي في الآية القرآنية الكريمة، لأن هذا مجال تخصصي على أعلى مستويات التخصص لا يجوز أن يخوض فيه كل خائض، ولا يمكن لفرد واحد أن يغطي كل جوانب الإعجاز العلمي في أكثر من ألف آية قرآنية صريحة، علاوة على آيات أخرى عديدة تقترب دلالتها من الصراحة، وتتخطى هذه الآيات مساحة هائلة من العلوم الكسبية من علم الأجنة إلى علم الفلك، وما بينهما من مختلف مجالات العلوم والمعارف الإنسانية.

هذه وضوابط أخرى ذكرت في مسألة البت بحقائق الإعجاز العلمي. يبقى علينا أن ننظر إلى كتب الإعجاز العلمي، ونقف على مقدار التزام مؤلفيها بهذه الضوابط.

المحور الثاني

رؤية المعارضين للإعجاز العلمي

وعلى الرغم من الكم الهائل من المؤلفات في الإعجاز العلمي في عصرنا الحالي والعصور السابقة إلا أنّه لاقى سيلاً من الاعتراضات ووقف له طائفة من العلماء والباحثين يعترضون عليه وينتقدون أصحابه وليس الاعتراض على هذا الموضوع حديثاً إذ نقرؤه في قول الشاطبي الذي يقول: «إنّ كثيراً من الناس تجاوزوا الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كلَّ علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق

وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها»[١٠].

ومن المحدثين الذين اعترضوا على الإعجاز العلمي الشيخ عبد الله الفوزان إذ يقول: «بل بلغ الأمر ببعضهم أن يفسر القرآن بالنظريات الحديثة ومنجزات التّقنية المعاصرة ويعتبر هذا فخراً للقرآن حيث وافق في رأيه هذه النظريات ويسمي هذا (الإعجاز العلمي)»[١١].

والدكتور خالد منتصر الذي يرى أن «القرآن كتاب دين وهداية وليس كتاب كيمياء، أو فيزياء وإنكار الإعجاز العلمي في القرآن ليس كفراً ولا هو إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة»[١٢].

وقدم المعترضون طائفة من الأدلة التي تؤيد خطأ تفسير القرآن بالنظريات الحديث، ومنها:

١- إنّ الفهم الدقيق للألفاظ يحتم علينا فهمها في حدود الاستعمال اللغوي الذي نزلت فيه.

٢-يجب أن نقف بعبارات القرآن عند ما فهمه العرب الخلص ولا نتجاوز ما ألفوه من علومهم.

٣-إنّ مهمة القرآن الكريم دينية اعتقادية وليست علمية.

٤-ينبغي ألا نقحم النظريات العلمية على القرآن الكريم أو نعد أن القرآن الكريم مطالب بموافقتها.

٥-التفسير العلمي يحمل أصحابه على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز.

ومن أسباب عدم تقبله وجود الحرمة التي يعتقد بوجودها المعارضون لهذا المنهج «فتفسيره بالنظريات الحديثة من أقوال الأطباء والجغرافيين والفلكيين وأصحاب المركبات الفضائية باطل لا يجوز لأن هذا تفسير للقرآن بالرأي وهو حرام شديد التحريم لقوله ﷺ: (من قال في القرآن برأيه وبما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار)[١٣] رواه ابن جرير والترمذي

(١٠) الموافقات -الشاطبي-تح/ مشهور آل سلمان-دار عفان، د.ت.-٢/ ٧٩.

(١١) الخطب المنبرية ٢/ ٢٦٨. (خطبة الحث على تعلم العلم النافع» من موقع // :http www.ebnmaryam.com

(١٢) وهم الإعجاز العلمي، الدكتور خالد منتصر، ٥.

(١٣) ينظر: سنن الترمذي -تحقيق محمد احمد شاكر واخرين-بيروت-٥/ ١٩٩.

والنسائي و في لفظ (من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ)[١٤]»[١٥] وإن تعذر علينا فهم النص القرآني علينا أن نلجأ لفهمه إلى الصحابة» لأنهم أدرى بذلك لمصاحبتهم رسول الله ﷺ وتعلمهم على يديه وتلقيهم القرآن وتفسيره منه حتى قال أحدهم: (ما كنا نتجاوز عشر آيات حتى نعرف معانيهن والعمل بهن)[١٦]»[١٧].

(١٤) ينظر: المجتبى من السنن -النسائي-مكتب المطبوعات الاسلامية-حلب/ ١٩٨٦- ٥/ ٣١.

(١٥) الخطب المنبرية ٢/ ٢٦٨. (خطبة الحث على تعلم العلم النافع) من موقع // :http www.ebnmaryam.com تاريخ الزيارة 11/ 11/ 2011.

(١٦) ينظر: السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ١١٩ والحديث في على النحو الآتي: (أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظُ حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ: مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ مُحَمَّدٍ الدُّورِيُّ حَدَّثَنَا شَاذَانُ الأَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ حَدَّثَنَا شَرِيكٌ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كُنَّا إِذَا تَعَلَّمْنَا مِنَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ نَتَعَلَّمْ مِنَ الْعَشْرِ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَهَا حَتَّى نَعْلَمَ مَا فِيهِ. قِيلَ لِشَرِيكٍ مِنَ الْعَمَلِ قَالَ نَعَمْ.) رقم الحديث ٥٤٩٥.

(١٧) الخطب المنبرية ٢/ ٢٦٠ (خطبة الحث على تعلم العلم النافع» من موقع // :http www.ebnmaryam.com تاريخ الزيارة ١١/ ١١/ ٢٠١١.

وهذا الكلام مهم جداً فما دام الصحابة الكرام يتدارسون الآيات القرآنية التي تنزل على رسول الله ﷺ لم لا يشيرون إلى الآيات التي تحوي حقائق كونية أو علمية أو أياً من الأمور التي تبنى ذكرها المعاصرون من الذين فسروا القرآن بهذه الحقائق ولا يخفى على أحد أن صحابة رسول الله أقرب إلينا من القرآن وأشد إخلاصاً من غيرهم بالعناية به فلم غاب عنهم كل تلك الحقائق إذا كان القرآن حاوياً كلّ شيء ؟!.

ويضيف الدكتور خالد منتصر أدلة أخرى للاعتراض على أصحاب الإعجاز العلمي فهو يرى أنّ «منهج العلم مختلف عن منهج الدين، وهذا لا يعيب كليهما ولا يعني بالضرورة أنّ النقص كامن في أحدهما، فالمقارنة لا محل لها، ومحاولة صنع الأرابيسك (العلمديني) بتعشيق هذا في ذاك محاولة محكوم عليها بالفشل مقدماً، فالعلم هو تساؤل دائم أمّا الدين فيقين

ثابت»[١٨].

ويضيف قائلاً: «القرآن كتاب سماوي محكم وشامل، أحدث ثورة وتغييراً شاملاً في مجتمع صحراوي بدوي ضيق ومنه إلى الكون كلّه ولكي تحدث هذه الثورة كان لابد أن يتكلم القرآن مع أصحاب هذا المجتمع البدوي بلغته ومفاهيمه بما فيها المفاهيم العلمية السائدة في هذا الوقت»[١٩].

وقال في موضع آخر: القرآن «كتاب ديني يضع ضوابط وخطوطاً عامة للأخلاقيات والسلوك والمعاملات، ويتعامل مع المطلق والعموميات وربطه بالعلم الذي يتعامل مع النسبي والمتغير فيه خطورة شديدة على الدين وعلى العلم كليهما»[٢٠].

ومما دفع به الدكتور خالد منتصر لردّ فكرة الإعجاز العلمي على أصحابها هو أنّ «كلمات القرآن كانت موجودة في قاموس العرب حين نزل القرآن عليهم، وإذا لم تكن لهذه الكلمات دلالة عندهم في ذلك الحين لكان القرآن قد تحول إلى مجموعة ألغاز وأحاجي لغوية، وكان معطلاً عن الفهم ومن ثم الإيمان به، وحتى الكلمات البسيطة التي لم تكن موجودة في قاموسهم، ولم تكن لها مدلولات حينذاك تولى الرسول شرحها»[٢١].

المحور الثالث

قراءة لغوية لطائفة من آيات الإعجاز العلمي

إنّ الاختلاف الذي وقع بين المؤيدين لظاهرة الإعجاز العلمي والمعارضين له يدفعنا إلى البحث عن سبيل للبت بين هذين الاتجاهين. والعلاقة التلازمية بين اللغة العربية والنص القرآني مسوغ لجعل أحكام اللغة هي الفيصل في هذا الموضوع إذ لا يختلف اثنان في أنّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب وجارى أساليبهم في الاستعمال اللغوي، وحاكى طرائق نسجهم التعبيرية. فضلاً عن أنّ من يدعي وجود الإعجاز يجعل اللغة العربية ضابطاً

(١٨) وهم الإعجاز العلمي،-د.خالد منتصر -ط١/ ٢٠٠٥ -ص٨.

(١٩) المصدر السابق، ١٠.

(٢٠) المصدر السابق، ٢١.

(٢١) وهم الإعجاز العلمي -مصدر سابق-ص٢٤.

من أهم الضوابط التي يجب أن يلتزم بها من يفسر القرآن بالظواهر العلمية.

وقد تحدث العلماء قدماء ومحدثون عن أهمية اللغة العربية في استيعاب النصوص القرآنية، والوصول إلى الأحكام الشرعية فالمعرفة اللغوية العربية من أهم الأدوات التي استعان بها العلماء في فهم النصوص القرآنية والحديثية واستنباط الأحكام الشرعية منها، وقد جُعل العلم بأسرار العربية شرطا أساسيا من شروط الاجتهاد. يقول الزمخشري: «وذلك أنهم لا يجدون علماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمَيْ تفسيرها وأخبارها؛ إلا وافتقاره إلى العربية بيِّن لا يُدفع، ومكشوفٌ لا يتقنَّع، ويَرَوْن الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنياً على علم الإعراب»(٢٢).

فلا يستغني الناظر إلى الكتاب والسنة عن التبحر في معرفة موضوعات اللغة من جهة (الحقيقة والمجاز)، والعموم والخصوص، والإطلاق، والتقييد، والحذف والإضمار، والمنطوق والمفهوم، والاقتضاب، والإشارة، والتنبيه وغير ذلك؛ مما لا يعرف في غير علم العربية(٢٣).

وعدم معرفة قواعد اللغة مدعاة إلى سوء فهم النص وعدم الوصول إلى مراده قال ابن جنِّي: «إن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها؛ فإنما استهواه واستخف حِلْمَه ضعفُهُ في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطب الكافة بها»(٢٤).

وليس المقصود من تعلم اللغة العربية، الاقتصار فقط على القواعد الأساسية التي تتوقف وظيفتها على معرفة ضوابط الصحة والخطأ في كلام العرب، وإنما المقصود من تعلم اللغة العربية لدارس الكتاب والسنة والمتأمل فيهما؛ هو فهم أسرارها والبحث عن كل ما يفيد في استنطاق النص، ومعرفة ما يؤديه التركيب

(٢٢) المفصل، الزمخشري-دار الجيل-بيروت.د.ت. ص٣.

(٢٣) ينظر: الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي تحـ: د. سيد الجميلي-ط١-دار الكتاب العربي-١٠/ ٨٢٧.

(٢٤) الخصائص -ابن جني -تحـ: محمد علي النجار-عالم الكتب/ بيروت-٣/ ٢٤٥.

القرآني على وجه الخصوص؛ بعدّه أعلى ما في العربية من بيان. فالمصدر اللغوي يحتاج إليه كلُّ مفسّر؛ لأنّ اللغة في ذاتها أداة التعبير ولا يمكن الاستغناء عنها في أيّ منهج من مناهجه، ولا نعني بهذا المصدر الوقوف على الألفاظ وحدها بل إنّه يشمل كلّ جوانب اللغة من أصول الألفاظ المفردة إلى أساليب تراكيبها، وما يتخللها من قواعد النحو، والصوف، وعلوم اللغة وقد نبه على هذه الخاصية الزجاجي في حديثه عن أهمية علم النحو إذ يقول: «فإن قيل: فما الفائدة في تعلم النحو ؟... فالجواب في ذلك أن يقال له: الفائدة فيه للوصول إلى التكلم بكلام العرب على الحقيقة صواباً غير مبدل ولا مغير، وتقويم كتاب الله عز وجل الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وإقامة معانيها على الحقيقة؛ لأنه لا تفهم معانيها على صحة إلا بتوفيتها حقوقها من الإعراب»[٢٥].

ولهذه الأهمية التي نبه عليها العلماء السابقون جُعِلَت اللغة العربية شرطاً من شروط المفسر، وفي ذلك يقول الزركشي: «واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها؛ فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين والمراد المعنى الآخر»[٢٦].

ولأجل هذا كلّه ينبغي لنا أن ننظر إلى النص القرآن في ضوء معطيات المنهج اللغوي، ولا نتعدى حدوده، ولا نستنبط أموراً، أو نقر بحقائق لا تشير إليها المعطيات اللغوية.

ومن هذا المنطلق سنعمد إلى قراءة طائفة من آيات الإعجاز العلمي قراءة لغوية. ليتسنى لنا الإقرار بوجود الحقائق العلمية التي قال أصحاب الإعجاز العلمي بوجودها فيها، أو رفض كلامهم.

١ـ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [سورة

(٢٥) الإيضاح في علل النحو، للزجاجي، تحـ: د.مازن المبارك-ط٢-دار النفائس-بيروت-ص ٩٥.

(٢٦) البرهان في علوم القرآن الزركشي-تحـ: محمد ابو الفضل ابراهيم-دار المعرفة/ بيروت-١٣٩١هـ-١/ ٢٩٥.

النجم: ٤٥].

وبهذه الآية يستدل أصحاب الإعجاز العلمي على أن الله عزّ وجل أشار إلى «إن الرجل هو المسؤول عن تحديد جنس المولود لأنّه يحتوي على (xy) أي من الجنسين، أمّا المرأة فتحتوي على واحد (x) وهي ليست مسؤولة»(٢٧).

وتفصيل هذا الكلام هو أن «النطفة هي المسؤولة عن تحديد الجنس لأنّها تحمل الأشكال المتغايرة من الصبغيات الجنسية فإذا حملت نطفة صبغي من نوع (y) فاتحدت مع صبغي من نوع (x) في البويضة كان المولود ذكراً، وإذا اجتمعت نطفة من نوع (x) مع البويضة ذات النوع (x) من البويضة كان المخلوق أنثى»(٢٨).

يقول محمد حسني يوسف: «وهذا ما ذكره القرآن الكريم قبل أربعة شر قرناً حين أرجع مسؤولية تحديد الجنس إلى مني الرجل ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾»(٢٩).

ويرى أصحاب الإعجاز العلمي أنّ هذه الحقيقة غائبة عن عقول الناس فـ«كان السائد في أذهان الناس على عهد قريب أن المرأة بتركيبها البيولوجي وبما ترثه من خصائص وراثية عن طريق الكروموسومات له دخل في تحديد نوع الجنين ذكراً أم أنثى»(٣٠).

ويرى الدكتور حميد النجدي أنّ القرآن صرح في آية أخرى بأنّ المرأة غير مسؤولة عن تحديد نوع الجنين في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٣] ويقول: «هنا شبّه القرآن الكريم المرأة بالأرض الصالحة للزراعة. فالأرض تعطيك من المحاصيل الزراعية محصولاً يناسب البذور التي تبذرها فيها، ومع الشروط المتوفرة للإنبات»(٣١).

والعجيب أن هذا التشبيه قد ورد على

(٢٧) إضاءات علمية في القرآن الكريم، الدكتور عبد الجبار ثجيل، ط١ -بغداد -٢٠٠٨ - ص٢٢٩.

(٢٨) الإعجاز العلمي في أسرار القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد حسني يوسف -القاهرة -٢٠٠٥ -ص٣٨.

(٢٩) المصدر السابق ٣٩.

(٣٠) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. حميد النجدي، م.سيد الشهداء -العراق-ص١٧.

(٣١) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ١٩.

لسان امرأة بدوية في قولها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا وظل في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
ونحن كالأرض لزارعينا ننبت ما قد زرعوه فينا

وقد أورد هذه الأبيات الدكتور خالد منتصر وقال: «هل نصرخ كما صرخ الإعجازيون ونقول إنّ هذه المرأة البدوية يتساقط من فمها إعجاز علمي»[٣٢].

وإذا ما اطّلعنا على التفسير اللغوي لهذا النص القرآني ونظرنا إليه أولاً نظرة معجمية: نرى أنّ

(الخلق): «ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه»[٣٣].

أمّا (الزوجين) فتطلق على: «الجنسين المختلفين نحو الأسود والأبيض والحلو والحامض»[٣٤].

وقد أشار الباري في النص القرآني الى أنّ المراد بالزوجين (الذكر والأنثى).

أمّا النطفة فهي في أصل وضعها تشير إلى الماء القليل، يقول: أبو منصور: «والعرب تقول للمويهة القليلة نطفة وللماء الكثير نطفة، وهو بالقليل أخص... وبه سمي المني نطفة لقلته»[٣٥].

«وقال بعض العلماء في معنى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي تقدر بأن يكون الله قادراً على أن ينشيء منها حملاً، من قول العرب: منى الماني إذا قدر»[٣٦].

فالنظرة إلى معاني هذه الألفاظ التي نسج منها هذا النص القرآني تشير بجلاء إلى أنّ عناية الباري عزّ وجل لم تكن منصبة على ما أضفاه أصحاب الإعجاز القرآني عنوة عليه في مسألة تحديد جنس المولود إنّما كانت تشير إلى حقيقة علمية باهرة وهي أنّ الله خلق الانسان من هذه النطفة، وهذا الأمر فوق تصورات المالوف يقول سيد قطب عن فحوى هذا النص الكريم: «وهي الحقيقة الهائلة الواقعة المتكررة في كل لحظة. فينساها الإنسان لتكرارها أمام

(٣٢) وهم الإعجاز العلمي، ٢٩.
(٣٣) لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٨٥ (خلق)
(٣٤) المصدر السابق ٢/ ٢٩١ (زوج).

(٣٥) لسان العرب ٩/ ٣٣٥ (نطف)
(٣٦) أضواء البيان، الشنقيطي ط١ -دار الفكر -١٩٩٥- ٧/ ٤٧٢.

عينيه، وهي أعجب من كل عجيبة تبدعها شطحات الخيال! نطفة تمنى.. تراق.. إفراز من إفرازات هذا الجسد الإنساني الكثيرة كالعرق والدمع والمخاط! فإذا هي بعد فترة مقدورة في تدبير الله.. إذا هي ماذا؟ إذا هي إنسان! وإذا هذا الإنسان ذكر وأنثى! كيف؟ كيف تمت هذه العجيبة التي لم تكن-لولا وقوعها-تخطر على الخيال؟ وأين كان هذا الإنسان المركب الشديد التركيب، المعقد الشديد التعقيد؟ أين كان كامناً في النقطة المراقة من تلك النطفة. بل في واحد من ملايين من أجزائها الكثيرة؟ أين كان كامناً بعظمه ولحمه وجلده، وعروقه وشعره وأظافره. وسماته وشياته وملامحه. وخلائقه وطباعه واستعداداته؟! أين كان في هذه الخلية الميكروسكوبية السابحة هي وملايين من أمثالها في النقطة الواحدة من تلك النطفة التي تمنى؟! وأين على وجه التخصيص كانت خصائص الذكر وخصائص الأنثى في تلك الخلية. تلك التي انبثقت وأعلنت عن نفسها في الجنين في نهاية المطاف؟!»[٣٧].

(٣٧) في ظلال القرآن -سيد قطب -ط٧ -دار= =الشروق -بيروت-١٩٧٨-٧/ ٦٦.

وهذه الحقيقة العلمية وحدها تحتاج إلى تأمل كبير، ووقفة وعناية فهي بحد ذاتها معجزة عظيمة، وسر من أسرار العظمة الإلهية التي عبّر عنها النص القرآني وليس بنا عوز أن نحمّل النص أكثر مما يحتمل، ونطيعه لنقرأ منه حقيقة علمية اكتُشفت بعد حين، فالآيات لم تكن بصدد تفصيل القول في من هو المسؤول عن تحديد جنس الجنين فهذا أبعد ما يكون عن النص، وهو تمحل واضح وتكلّف بعيد يتوجب أن ننزه تفسيراتنا للنصوص القرآنية منه.

٢-قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [سورة النازعات: ٣٢].

من هذا النص انطلق أصحاب الإعجاز العلمي ليقولوا إن القرآن الكريم صرّح بما توصل إليه العلم الحديث في علم الجيلوجيا إذ أنّ البحث العلمي يدل على أنّ تحت القشرة الأرضية سائل مادته أثقل من مادتها[٣٨].

فالجبال تطفو فوق هذا السائل

(٣٨) ينظر: الإسلام في عصر العلم، الدكتور محمد أحمد الغمراوي -م/ السعادة-مصر-١٩٧٣-ص ٢٩٣.

وتنطبق عليها قوانين الطفو لأرخميدس فكثافة ذلك المنصهر أعلى من كثافة صخور الجبل، كما نجد كثافة ماء البحر أعلى من متوسط كثافة السفينة (أي من خارج قسمة وزن السفينة على حجمها) وإلا لما طفت السفينة، فإلى هذا الحد من الدقة الشبه بين ارساء الجبال وارساء السفن[٣٩].

وليس هذا فحسب بل إنّ هناك إشارة أخرى بالنسبة للجبال الرسوبية التي ثبت علمياً نشأتها أولاً في البحار قريباً من الشواطئ والمصبات والأنهار التي تحمل الطمى والرمل وغيرها من الرواسب إلى البحار لترسب فيه طبقات بعضها فوق بعض، حتى إذا تراكمت وعظم سمكها عبر حقبة طويلة من الزمن، رفعها الله بقوى من تحتها ومن جانبيها لتصبح جبالاً شاطئية ذات طبقات رسوبية واضحة بعد رفعها، نتعرف عليها الآن بما نكتشفه من مواقع وحفريات بحرية مطمورة في صخورها مما يدل على نشأتها الأولى في البحار القديمة، وتطل علينا كالسفن الراسية بقوله عزّ من قائل: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ لتشير الى نوعي الجبال سواء كانت جبال نارية أو رسوبية[٤٠].

وهناك جبال أخرى تتكون من رسوب الجبال النارية «فكلما جرفت عوامل التعرية قمم الجبال، ارتفعت الجبال إلى الأعلى حتى تخرج امتداداتها الداخلية من نطاق الضعف الأرضي بالكامل، وحينئذ تتوقف الجبال عن الحركة»[٤١].

والجبال الالتوائية ذات أصل رسوبي نشأت طبقاتها أول ما نشأت في البحر قريباً من شواطئ القارات مما كانت تحمله الأنهار من قمم الجبال الأولى النارية وسفوحها من طمى ورمال ومعادن (ومواد عضوية تحللت بعد طي الجبال وكوّنت البترول والغاز) ثم ترسبها على شكل طبقات بعضها فوق بعض... حتى إذا تراكمت وعظم سمكها في الحقب الطوال خفض

(٣٩) ينظر: المعارف الكونية بين العلم والدين، نخبة من العلماء، ٣١٤.

(٤٠) ينظر: المعارف الكونية بين العلم والدين ٣١٤، وهندسة النظام الكوني، الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر ١٦٦-١٦٧.

(٤١) المفهوم العلمي للجبال، الدكتور زغلول راغب -ط/ مكتبة الشروق -ص ١٨.

الله جذورها في الطبقة اللينة بقوى الثقل، وانحصرت بين الكتل القارية النارية القديمة الصلبة الزاحفة زحفاً جانبياً فالتوت وانطوت انطواءً وانضغطت انضغاطاً وبرزت بروزاً في شكل سلاسل جبلية عظمى حديثة التكوين وهذه الجبال راية على شواطئ البحار(٤٢).

وقد أشارت الباحثة هدى هشام الزيدي إلى أنّ كلَّ هذه المعلومات ذكرت في لفظتي ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ فتقول: «ومن هنا يمكن القول أنّ القرآن عبر عن هذه المعاني التي ذكرنا وعن أنواع الجبال وغيرها من الأوصاف بلفظين وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ وهذا من إعجازه العلمي والبلاغي الذي تكمن بهذا اللفظ الموجز أن يختزن جميع هذه المعلومات التي لم تكتشف إلا بعد عصور من نزوله»(٤٣).

ولا أعلم من أين تأتّى للباحثة أن هاتين اللفظتين حملتا كلّ هذه المعاني، وما هي الأدلة التي استعانت بها لتضيف إلى النص ما ليس فيه، وما لا يتحمله. لأنّ أهل اللغة يشيرون إلى أنّ معنى الإرساء هو الثبات، يقول ابن منظور: «رسا الشيء يرسو رسوا وأرسى: ثبت، وأرساه هو. ورسا الجبل يرسو إذا ثبت أصله في الأرض، وجبال راسيات. والرواسي من الجبال الثوابت الرواسخ، قال الأخفش واحدتها راسية. ورست قدمه: ثبتت في الحرب. ورست لسفينة ترسو رسوا: بلغ أسفلها القعر، وانتهى إلى قرار الماء وثبتت وبقيت لا تسير»(٤٤).

فالذي يدل عليه أصل الاستعمال اللغوي للفظة (أرسى) هو التثبيت وهذا ما قال به المفسرون:

يقول الطبري: «وقوله: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ يقول: والجبال أثبتها فيها، وفي الكلام متروك استغني بدلالة الكلام عليه من ذكره، (وهو فيها)، وذلك أن معنى الكلام: والجبال أرساها فيها.»(٤٥).

(٤٢) ينظر: الكون والإعجاز العلمي للقرآن، الدكتور منصور محمد حسب النبي، ط/ القاهرة-١٩٩١ ص ٣١٩-٣٢٠.

(٤٣) الضابط اللغوي في التفسير العلمي للقرآن الكريم (رسالة دكتوراه)، جامعة بغداد-٢٠٠٥-ص١٨٢.

(٤٤) لسان العرب ١٤/ ٣٢١. (رسا).

(٤٥) جامع البيان في تفسير آي القرآن -دار=

ويقول الشربيني: «﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي: أثبتها على وجه الأرض لتسكن»(٤٦).

وهذا الأمر أثار حفيضة أصحاب الإعجاز العلمي من جانبين:

الأول: اقتصار المفسرين على التثبيت للجبال من دون الإشارة إلى أنّ هذا المعنى يستعمل للسفن أيضاً «مما يشير إلى أنّ الجبال استقرت ورست على الأرض كما رست السفينة واستقرت في مرساها بتوازن القوى المؤثرة عليها»(٤٧).

لكنّ كلامهم مردود من جانبين:

الجانب الأول: أنّ الإرساء استعملت في أصل استعمالها للجبال لأنّ وجود الجبال اسبق من وجود السفن، ثم أصابها التطور الدلالي الذي هو سمة من سمات اللغة العربية فاستعملت لتعبر عن وضع السفينة الثابتة غير المتحركة.

الجانب الثاني: أنّ إرساء السفينة يكون معناه ثباتها الذي يقابل حركتها

=الفكر -بيروت-١٤٠٥هـ-٢٤/ ٢١١.

(٤٦) السراج المنير، الشربيني، دار الكتب العلمية -بيروت -٤/ ٣٥٠.

(٤٧) الكون والإعجاز العلمي للقرآن (م.س) ص ٣٢٠.

ودليل ذلك قوله تعالى في حديثه عن سفينة نوح: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة هود: ٤١] ومعنى الآية هو «بسم الله يكون جريها على وجه الماء، وبسم الله يكون منتهى سيرها وهو رسوها»(٤٨).

والأمر الآخر: الذي لا يرتضيه أصحاب الإعجاز العلمي هو توجيه الطبري لهذه الآية بوجود حذف فيها وتقدير الكلام هو (الجبال أرساها فيها) لأنه يتعارض مع التفسير العلمي الحديث إذ «إنّ هذا الحذف وهو (فيها) سوف يقصر المعنى على الثبات والرسوخ في الأرض. وكما رأينا أنّ الفعل أرساها يدل على الرسو في المنصهر وغيرها من المعاني التي ذكرناها وهكذا نجد أن التعبير القرآني يشير الى معانٍ عدة تدل على دقة التعبير القرآني وإعجازه العلمي والبلاغي.»(٤٩)

وواقع الحال يشير إلى أن اقتصار معنى الثبات والرسوخ على الفعل هو أرسى

(٤٨) أضواء البيان (م.س) -٢/ ١٨٣.

(٤٩) الضابط اللغوي للتفسير العلمي للقرآن الكريم، ١٨١.

للمراد فعلاً من الآية الكريمة وليس الأمور الكثيرة التي قُرئت من النص وأضافت إليه ما ليس منه. علاوة على ذلك أنّ العربية تألف الحذف وهو وارد في أغلب اساليبه وليس هنالك محذور من رفضه في هذا المحل، ولا يجوز أن نتقبل شيئاً في حال انسجامه مع ما نريد، ونرفضه إذا ما عارض افكارنا التي نؤمن بها.

ولأننا لسنا بصدد أن نرفض تأويلاً في آية معينة، اقصرنا على النماذج التي ذكرت في هذا البحث ويبقى على الباحثين أن يعيدوا النظر بعين منصفة في كلّ آيات الإعجاز العلمي ويجعلون الضابط اللغوي دون أية أفكار أخرى هو السبيل للكشف عن المعنى المُراد من النصوص القرآنية.

الخاتمة

وفي خاتمة هذا البحث أشير إلى أهم ما توصلت إليه.

- إنّ القرآن الكريم معجز في عرضه للحقائق التي يألفها من أُنزل فيهم، وخاطبهم، وهذا أروع صور الإعجاز فلا يتوجب علينا أن نجر النصوص القرآنية التي تدل على الثبات وراء الحقائق العلمية التي من سماتها عدم الاستقرار وليس عيباً أن لا يوجد في القرآن الكريم حقائق يكتشفها اليوم العلم الحديث، أو سيكتشفها في قابل الأيام لأنّ غاية القرآن شيء وغاية العلوم الكسبية شيء آخر.

- وإذا شعر بعض الناس أننا ابتعدنا عن الفهم الحقيقي للقرآن، فإنّهم من غير الممكن أن يقولوا بابتعاد الرسول الأعظمﷺ، وأهل بيتهعليهم السلام، وصحابته المقربين عن كتابهم المقدس الذي شغلهم وأخذ حيزاً كبيراً من وقتهم يتدارسونه ويتأملون فيه. وهنا سيتبادر سؤال مهم هو ما سر عدم تصريحهم بحقائق علمية وجدت في القرآن الكريم، وتأخر ذكرها إلى أن تُكتشف من قبل علماء آخرين لنقول بعد ذلك أنّ هذه الحقائق موجودة في كابنا المقدس.

-والأمر المهم الذي يُلفت انتباه من يطلع على القُرآن الكريم يجد أنّ الباري عزّ وجل يُفصل القول في كثير من آياته التشريعية كآيات الحج، والصيام، والنكاح، والحدود... وغير ذلك فلماذا

لا يفصل الكلام في الحديث عن آيات الإعجاز العلمي بل يُطلق إشارات يُستنبط منها معاني ودلالات في عصور متقدمة.

ومن أجل هذا كله أقول أنّ هذا النوع من الإعجاز يحتاج الى أن يُعاد النظر فيه من قبل الباحثين فينظرون إلى الآيات التي يُقال عنها أنّها حاملة لحقائق علمية ويفوضون المنهج اللغوي بكل مستوياته: المعجمية، والصرفية، والنحوية، والدلالية للبتّ في حقيقة ذلك. ومن المؤكد أنّ هذا الأمر سيغير كثيراً من الحقائق، ويفند كثيراً من المسلمات في هذا الجانب

وما نود أن ننوه به هو أنّ هذا البحث لم يكن محيطاً بكل المستويات اللغوية في تحليله للنماذج التي اختيرت من النصوص القرآنية، وعذري في ذلك أنّ مقام البحث لا يتحمل ورود عدد أكبر من الأمثلة، فضلاً عن أنّ هذا البحث اتسم بطابع الدراسة التنظرية التي تحتاج أن تردف بدراسة تطبيقية تحلل فيها النصوص بطريقة أوسع، وبتوظيف كلّ الآليات اللغوية التي يُستعان بها في تحليل النصوص اللغوية، فضلاً عن الركون إلى القرائن الأخرى التي قد تُسهم في الكشف عن مضمون النص.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

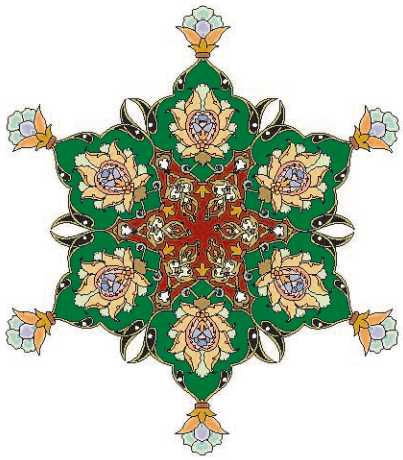

موقف القرآن الكريم من حرية اختيار الاسلام ديناً

الباحث الشيخ
نعيم خماس الساعدي
قم – ايران الاسلامية

ملخص البحث

من خلال دراسة السيد الباحث لهذا الموضوع، يتوصل الى ان: لا يوجد ما يوحي بالشك في دلالة الآيات القرآنية على اثبات حرية اختيار الانسان لدين الاسلام، اذ يُثبِت بالدليل أن مسألة الإكراه على الدين اما مخالفة للبدهيات أو مخالفة للمسلّمات في الدين الاسلامي بما في ذلك القول بنسخ الآيات الدالة على مبدأ حرية اعتناق الاسلام، وانه مخالف لشروط النسخ الثابتة لدى الباحثين في علوم القرآن الكريم.

كما تطرق البحث الى ان الاستدلال بالقرآن الكريم على الإكراه في الدين مردود لانه يواجه اشكالات حقيقية تطرق الباحث اليها بالعرض المسهب وعالج البحث فريضة (القتال) وانه لم يكن الهدف منه إجبار الأخرين على الدخول في الاسلام وبذلك فهو يبعد عن الدين شبهة أن الاسلام قام على السيف، بل انه قام على الحجة الدامغة والبرهان القاطع والإقناع العقلي وهو ما جعله دينا خالداً الى يوم القيامة.

الحرية أمنية حلمت بها البشرية منذ أقدم العصور وهي مفردة تكتسب معناها مما يتعلق بها فتارة تتعلق بالسياسة وأخرى بالقلم وثالثة في الاقتصاد و...

ولاشك في أن اعتناق الديانة هو من أهم متعلقات الحرية التي كافحت الشرائع من اجلها وبذلت الغالي والنفيس لتحقيقها لما لها من ارتباط وثيق بحياة الناس الدنيوية إذ على أساسها يحدد الإنسان علاقاته مع أبناء جنسه فيجالس ويعاشر ويتزوج، ويتفق مع من يشاطره في الاعتقاد، وكذلك لما لها من ارتباط متين بتحديد مصير الإنسان في الحياة الآخرة التي هي من الأهداف السامية للأنبياءﷺ والصالحين، والقرآن الكريم هو الدستور الذي ختم الباري تعالى به الديانات السماوية، والكتاب الذي لم تمتد له يد التحريف والتزوير باتفاق أهل القبلة، فما هو موقفه من اعتناق الانسان الرسالة الخاتمة؟ هل سنّ نهج القسر والإكراه لاعتناق الإسلام أم أنه رفض ذلك المبدأ؟

تعددت الرؤى والأفكار في الجواب عن هذا السؤال حيث ذهب بعض إلى أن الإسلام هو دين السيف والرمح وقد انتشر بمبدأ التخويف والإرهاب، وخالف بعض في ذلك حيث ذهب إلى أن الإسلام هو دين العقل والمنطق وأنه يدعو إلى الحق بالحجة الدامغة والمنطق السليم والموعظة الحسنة.

والإنصاف أنّ تحديد الموقف الصحيح ليس بالأمر السهل؛ لأننا عندما نطالع كتاب الله تعالى نتلو آيات يلوح منها مبدأ الإكراه على اعتناق الإسلام كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة التوبة: ٥]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[سورة التوبة: ٧٣].

وعندما نقرأ آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[سورة البقرة: ٢٥٦].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة: ٨].نستشف منها أنها تدل على مبدأ حرية اعتناق الإسلام، فما هو الرأي الصحيح يا ترى؟ هذا ما سنحاول معرفته لاحقاً ان شاء الله تعالى.

حرية اعتناق الإسلام في القرآن

قبل أن ندخل في تفاصيل هذا الموضوع والآراء المطروحة فيه لابد أن نبين المعنى المراد من حرية اعتناق الإسلام لأن هذا العنوان تارة يطلق ويراد منه أن الانسان حر في اعتناق أي دين ومذهب ومع ذلك فان الله تعالى يدخله الجنة يوم القيامة.

وتارة يطلق ويراد منه أن الانسان حرّ في اعتناق اية ديانة وأن الاسلام لا يكره الآخرين على اعتناقه لأن الدين والعقيدة من الأمور القلبية وهي من سنخ القضايا التي لا سبيل للإكراه عليها وان الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يدعو الى مبدأ التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة لعلمه تعالى أن أسلوب القسر تنفر منه الطباع وإن كان المنهي عنه من الأمور الصحيحة، والله تعالى بمقتضى لطفه على العباد يوجد جميع الأمور التي من شأنها أن تقرب العبد اليه ويبعدهم عن الأمور التي تبعد عبيده عن ساحته تعالى فإذا اختار العبد طريق الهدى وآمن بالدين الإسلامي الحنيف الذي جاء به النبي ﷺ كان نصيبه الفوز بالجنة وإذا اختار طريق الضلالة والكفر فلا يأمر الباري تعالى نبيه الكريم ﷺ بقسره على الإسلام ويكون مصير هذا الكافر جهنم التي أعدها الله لمن عصوا أوامره باختيارهم.

ومعنى حرية اعتناق الاسلام المبحوثة هنا ليست هي التي بالمعنى الأول لأن ذلك لا يختلف على بطلانه أحد من المسلمين وإنما المراد منها هي الحرية بالمعنى الثاني حيث اختلف علماء المسلمين والمفسرين على رأيين.

الرأي الأول حرية اعتناق الاسلام

يرى جمع من مفسري الاسلام ومفكريه أن الإسلام لا يكره أحدا على اعتناقه[1] واستدلوا بجملة من الآيات

(١) انظر: رضا رشيد محمد، تفسير المنار: ج١=

القرآنية منها:

١ـ قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[سورة البقرة: ٢٥٦].

٢ـ قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[سورة ق: ٤٥].

٣ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [سورة هود: ٣٨].

٤ـ قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [سورة الغاشية: ٢١ ـ ٢٤].

=ص٢٧٢،. محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن: ج٢ ص٢٤. جوادي املي، تفسير التسنيم ج١٢ ص١٧٠. [باللغة الفارسية] عبد الأعلى السبزواري، مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ج٤ ص٢٩٤. مرتضى المطهري، الجهاد (باللغة الفارسية): ص٣٣ ـ ٣٧. رمضان سعيد السيوطي، الجهاد في الاسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه: ص٥٨ ـ ٦٢.

تقييم أدلة الرأي الأول

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]. فقد وردت على الاستدلال بالآية الشريفة على حرية اعتناق الإسلام عدة إشكالات.

الإشكال الأول: نحن نلتزم بهذا الأمر ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ في بداية الدعوة لكن هذه الآية نسخت فيما بعد بآيات القتال.(٢)

جوابه: ذهب جل العلماء الباحثين في علوم القرآن الى أن من شروط النسخ هو تحقق التنافي التام بين النص الناسخ والنص المنسوخ، بحيث لا يمكن العمل بهما معا، (٣)والحال أن القتال أجنبي عن الإكراه على الدين وذلك لأن الجهاد شرعه الإسلام لرفع الظلم عن المسلمين بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

(٢) انظر: الجصاص، أحكام القرآن: ج١ص ٥٤٨.

(٣) ابن الجوزي، نواسخ القرآن: ص٣٣.

ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [سورة الحج: ٣٩ ـ ٤٠].

وهي الآية الأولى التي أمرت الرسول ﷺ بالقتال، وهذا باتفاق أكثر المفسرين(٤).

نعم هنالك أسباب أخرى للجهاد سوف نتعرض لها لاحقاً ان شاء الله، وعليه فلا يوجد أي تناف بين آيات القتال وآية عدم الاكراه على الدين وذلك لأن تلك النصوص الشريفة من واد وهي من واد آخر اذ القول بنسخها بتلك الآيات يلزم منه محذوران كلاهما باطل.

المحذور الأول: أن يدخل المكرِه إلى قلب الشخص المراد إكراهه ويفتش في قلبه فاذا وجده قد اعتنق الاسلام تركه والا فيكرهه وهذا باطل بالضرورة وذلك لأن العقائد من الأمور القلبية التي لا سبيل للقسر عليها.

المحذور الثاني: أن يجبر المراد اكراهه على لفظ الشهادتين وان كان نطقه بهما مخالفا لما في قلبه، وهذا الأمر وان كان ممكناً من الناحية العملية إلا أنه يلزم منه أمور باطلة، منها:

أ- أن عملية الإكراه على اعتناق الإسلام عملية عبثية والحال، لا شيء من تعاليمه يمكن ان يكون عبثياً.

بيان ذلك: إن الذي أكرهناه على النطق بالشهادتين هل نسميه مسلما؟ كلا، «لأن المكره على النطق بهما غير معتقد لا بأصول الدين ولا بفروعه وذلك لأن الشهادتين تعربان عما في ضمير المكلف»، (٥) والحال نحن نقطع بكذب المكره عليهما، فهل نسميه كافراً؟

نعم، بطبيعة الحال لأن المكلف اذا لم يكن مسلما فهو كافر، فإذا كان كذلك تكون حالة إجبار الناس على الدخول في الإسلام واعتناقه هي نقل الآخرين

(٤) انظر: الطبرسي، مجمع البيان: ج٤ ص٨٦. مكارم الشيرازي، الامثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج١٠ ص٣١٩.

(٥) الشهيد الثاني، مسالك الافهام الى تنقيح شرائع الاسلام: ج٣ ص٢٠.

من الكفر الى الكفر، فالمسلمون يقاتلون ويبذلون النفوس ويخلفون وراءهم الأيتام والأرامل، والنتيجة النهائية هي جلب الآخرين من الكفر الى الكفر.

ب- إنّ الله تعالى بمقتضى لطفه يقرب العبيد إلى طاعته ويبعدهم عن معصيته.(٦) وهنالك حالة وجدانية موجودة عند الإنسان يعرفها ويحس بها جميع أبناء البشر، وهي: لو أمرك شخص أن تجلب له قدحاً من الماء أو شيئاً أقل من ذلك، وقال لك: إمّا أن تجلب ذلك القدح أو أقتلك، سوف يكون الموقف هو الرفض وبكل ما أتيت من قوة وإذا لم تستطع الرفض سوف يبقى النفور من ذلك الأمر ملصقاً في ذاكرتك ما دمت حياً.

فكيف يأمر الله تعالى بإكراه الناس على الدخول الى الإسلام، إن هذا الأمر يخالف اللطف الالهي ولذلك يبين الباري تعالى لرسوله ﷺ كيفية الدعوة إلى الدين، قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[سورة النحل: ١٢٥].

ثانيا: ان الثابت عن علماء التفسير أن النسخ لا يثبت بخبر الواحد، وانما يثبت بالتواتر والنص القطعي،(٧) والحال لا توجد عندنا في المقام نصوص كهذه.

ثالثا: ان الحكم في الآية ـ الذي هو عدم الإكراه ـ معلل بعلة، وهي وضوح معنى الرشد من الغي،(٨) فلا يجوز الإكراه بعد بيان معنى الرشد والغي، حيث قام الرسول الأكرم ببيانهما بياناً ينسجم مع الفطرة والعقل، فاذا نسخ الحكم فلا بد أن تنسخ العلة، والحال أن العلة هنا لا يمكن نسخها لأن طريقي الرشد والغي باقيان على وضوحهما قبل وبعد نزول آيات الاكراه.

الإشكال الثاني: ان الآية مخصصة بأهل الكتاب، بمعنى أن الذين لا يجبرون على اعتناق الإسلام هم الكتابيون فقط، أما غيرهم فلا.(٩)

(٦) انظر: الشيخ المفيد، النكت الاعتقادية: ص٣٥.

(٧) انظر: ابوالقاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن: ج٤ ص٢٩٤.

(٨) انظر: الميزان: ج٢ ص٣٦٠. مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ج٤ ص٢٩٤.

(٩) انظر: الآلوسي، روح المعاني: ج٣=

جوابه: أولاً: قد ذكر في ذيل الحكم الموجود في الآية المباركة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ «سياق لعلة الحكم»، (١٠) وهو قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ وهذا تعليل عام لا ينسجم مع التخصيص الذي قيل به لأن وضوح الرشد من الغي يشمل جميع الفئات سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم.

ثانياً: إن مجموعة الشواهد التاريخية التي حكت لنا المواقف التي اتخذها النبيﷺ من المشركين تخالف هذا الرأي وإليك بعضها:

أ- مجموعة معاهدات ومهادنات الصلح التي لا تتضمن إلزام المشركين والكفار بالدخول في الدين الإسلامي قسراً كصلح الحديبية وغيرها.

ب: ما قام به الرسول الأكرم عند فتح مكة إذ لم ينقل لنا التاريخ أنه أجبر أحداً على الدخول في الإسلام في ذلك اليوم وما بعده، بل قال ﷺ: «من رمى سيفه فهو آمن ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن». (١١)

الإشكال الثالث: أن الآية تدل على معنى فلسفي، أراد الباري تعالى من خلالها أن يبين نفي مبدأ الجبر، في فعل الإنسان وأنها ليست إنشائية، وإنّما كانت في صدد الإخبار عن أصل التكوين، وهو إنّ إرادة الله تعالى قد تعلقت بأن يكون الإنسان مخيراً في سلوك أحد الطرفين، طريق الخير وطريق الشر فلم تكن الآية بصدد نهي المسلمين ان يكرهوا الاخرين على اعتناق الإسلام وإنما هي إخبارية تخبر عن أن الباري تعالى أراد لعبيده أن يكونوا أحرارا في اختيار أحد طريقي السعادة أو الشقاوة وإذا أردنا أن نبسط الكلام في بيان هذا الإشكال نقول أن المستشكل ذكر معنيين لكلمة الإكراه معتمداً في ذلك على الاصطلاح اللغوي، وهما:

المعنى الأول: ما يقابل الرضى ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾.

=ص١٢-١٣. الصنعاني، تفسير القرآن: ج١ ص١٠٢.

(١٠) انظر: تفسير الميزان: ج٢ ص٣٦٠.

(١١) صحيح مسلم: ج٥ ص١٧٣. الشيخ الصدوق، الخصال: ص٣٧٦.

والمعنى الثاني: ما يقابل الاختيار، ومنه قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

ثم يقول إنّ الحمل والوضع يكونان في الغالب عن الرضا، ولكنهما خارجان عن الاختيار، وكلمة الإكراه في هذه الآية الشريفة مستعملة في المعنى الثاني، واستعماله بالمعنى الأول باطل للوجوه التالية:

أ. عند حمل اللفظ المشترك على أحد معنييه لابدّ من وجود قرينة تدل على ذلك.

ب ـ إن الدين أعم من الأصول والفروع، وعندنا أمور في الدين يكره الإنسان عليها، مثل إكراه المديون على وفاء دينه، وإكراه السارق على ترك السرقة، وأمثلة أخرى ذكرها صاحب هذا الرأي، فكيف يقال لا يوجد إكراه في الدين؟

ج ـ إنّ تفسير الإكراه بالمعنى الأول، لا يناسبه قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾، إلاّ أن يكون المراد من هذا الكلام وهو بيان علّة الحكم، وهو باطل؛ لأنّه يلزم منه حرمة مقاتلة الكفار بجميع أصنافهم، ثم ننتهي إلى القول بأن كلمة الإكراه في الآية مقابل الاختيار، وأنّ هذه الجملة خبرية أي تخبر عن أصل التكوين بأن الإنسان خلق حراً، فتكون الآية حالها حال الآيات الكريمة التي تنفي مسألة الجبر، وليست بإنشائية تأمر النبي الأكرم ﷺ بأن لا يكره أحداً على الدخول في الدين[12].

جوابه:

١ ـ إن هذا المعنى خلاف ما ذهب إليه جمهور مفسري المسلمين إذ أنهم يرون بان الآية شرعت مبدأ حرية اعتناق الإسلام إلا أنها نسخت بآيات الجهاد وقد اجبنا عن ذلك في الإشكال الأول.

نعم تمسك المعتزلة بهذا المعنى الفلسفي لنفي مذهب الجبر الأشعري وقالو بان الإنسان حر ومفوض إليه الأمر في أصل التكوين[13].

والمستشكل يرى عدم الجبر وعدم

(١٢) انظر: السيد أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن، ص٣٨٦.

(١٣) أنظر: محمود الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ج١، ص٣٠٣، فخرالدين الرازي، مفاتيح الغيب، ج٧، ص١٥.

التفويض ويختار الأمر بين الأمرين فإذا كان لسان الآية هو الإخبار البحت فهذا مذهب التفويض وهو مما لا يلتزم به وليس فيها ما يدل على مبدأ الأمر بين الأمرين إذ لم يقل بذلك لا المستشكل ولا من له أدنى إلمام بلغة القران.

٢-إنّ جملة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ وإن كانت إخبارية إلاّ إنها إخبارية بداعي الإنشاء ومفادها حكم تشريعي بعدم جواز الإكراه على الدين وهي على وزان قوله تعالى ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا﴾ والذي يدل على حرمة تسلط الكافرين على المسلمين وكذا فهي في موازاة قول النبي ﷺ: (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام)، وهكذا قوله ﷺ (لا رهبانية في الدين) اللذان ظاهرهما الإخبار ولكن بداعي الإنشاء وأما الدليل على ذلك هو المقطع الثاني من الآية وهو قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ والذي يعتبر علة للمقطع الأول[١٤].

حيث ذهب إلى علية المقطع الثاني للأول جملة من المفسرين[١٥]

٣- إن مفردة الدين في القرآن جاءت بمعانٍ عديدة والمراد منها في الآية هي الأصول والذي يدل عله سياقها الواضح إذ يقول الباري ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

رابعاً: إنّ معرفتنا سبب نزول الآية يوضح لنا المعنى المراد منها، وهو ليس مما ذهب إليه صاحب هذا الرأي، حيث روى في سبب نزولها ست وقائع، وهي:

الواقعة الأولى: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاة فتجعل على نفسها أن عاش لها ولد أن تهوده، فلما رُحلت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[١٦].

(١٤) أنظر: جوادي املي، تفسير تسنيم، ج١٢، ١٧٠ [باللغة الفارسية].

(١٥) أنظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٣ ص٣٦١؛ السبزواري، مواهب الرحمن، ج٤ ص٣٩٧؛ مغنية، محمد جواد، تفسير الكشاف، ج١ ص٣٩٦.

(١٦) انظر: الواحدي النيسابوري، أسباب نزول الآيات، ص٥٣.

الواقعة الثانية: كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد فتحلف لئن عاش لها ولد لتهودنَّه، فلما أُجليت بنو النضير، وفيهم أناس من الأنصار، فقالت الأنصار: يا رسول الله أبناءنا، فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

الواقعة الثالثة: نزلت في رجل من الأنصار كان له غلام أسود، يقال له صبيح وكان يكرهه على الإسلام.

الواقعة الرابعة: نزلت في رجل من الأنصار يكنى أبا الحصين، وكان له ولدان، فقدم تجار الشام إلى المدينة يعملون الزيت، فلما أرادوا الرجوع من المدينة أتاهم أبناء أبي الحصين فدعوهما إلى النصرانية، فتنصرا وخرجا إلى الشام، فأخبر أبو الحصين رسول الله ﷺ، فقال: أطلبهما فأنزل الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، فقال رسول الله أبعدهما الله هما أول من كفر[17].

الواقعة الخامسة: كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ولدان فتنصرا، قبل أن يبعث النبي ﷺ، ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يعملون الطعام، فأتاهما أبوهما فلزمهما، وقال والله لا أدعكما حتى تسلما، فأبيا أن يسلما، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فقال يا رسول الله أيدخل بعضي إلى النار، وأنا أنظر، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[18].

الواقعة السادسة: كان أُناس مسترضعين في يهود قريظة والنضير، قال أبناؤهم من الأوس الذين كانوا مسترضعين فيهم: لنذهبن معهم ولندينن بدينهم، فمنعهم أهلهم، وأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام فنزلت الآية.

فهذه الوقائع الستة كلها لا تؤيد التفسير الفلسفي للآية، وإنّما تؤكد على عدم إكراه النبي الأكرم ﷺ للناس في قبول شريعة الإسلام[19].

الدليل الثاني

قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[سورة ق: ٤٥].

فقد أشكل على الاستدلال بالآية

(١٧) انظر: المصدر السابق، ص٥٢.

(١٨) انظر: المصدر السابق ص٥٣.

(١٩) انظر: المصدر السابق، ص٥٣.

الكريمة على حرية اعتناق الإسلام بأنها منسوخة بآيات القتال:

وقد سبق منا أن ذكرنا جواباً في الرد على هذا الإشكال، وذلك عندما تعرضنا لبطلان القول بنسخ آية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ بآيات الجهاد وهو نفسه يصلح أن يكون رداً على هذا الإشكال، بل جميع الإشكالات التي تذكر حصول نسخ للآيات الدالة على حرية الدخول إلى الإسلام.

الدليل الثالث

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [سورة هود: ٢٨].

ويمكن أن يشكل على الاستدلال بهذه الآية الكريمة على حرية اعتناق الإسلام بملاحظتين:

إحداهما: أن الآية الكريمة هي عن لسان نبي الله نوح، وهو لم يكره أحداً على الدخول في دينه، حيث ترك الناس أحراراً في إعتناق شريعته، ولكن هذا الكلام خاص بشريعة نوح، ونحن نريد أن نثبت ذلك الأمر في شريعة نبينا محمدﷺ والملاحظة الأخرى أن الآية منسوخة بآيات الجهاد.

جوابه:

بالنسبة إلى الملاحظة الأولى يمكن القول بأن عدم الإكراه على اعتناق الدين وان كان ثابتا في شريعة نوحؑ ولكن الحكم بعدم الإكراه مستمر إلى شريعة نبيناﷺ اذ لم يرد الناسخ[٢٠] فينسخ ذلك الحكم، أو على أقل التقارير نشك في ورود الناسخ وعدمه، والأصل عدمه.

وأما بالنسبة للملاحظة الثانية فقد تقدم الكلام حولها عند التعرض للنقطة الأولى من الجواب على القول بنسخ آية: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾.

الدليل الرابع

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ﴾ [سورة الغاشية: ٢١ ـ ٢٤].

فقد أشكل على الاستدلال بالآية

(٢٠) انظر الميزان في تفسير القرآن: ج١٠ ص٣١٣.

الكريمة على حرية المعتقد بأنها لا تدل على حرية إعتناق الإسلام وإنما تدل على العكس من ذلك لأن في الاستثناء الوارد في الآية: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ قولين:

الأول: ان هذا المستثنى متصل، وفي المستثنى منه رأيان: أحدهما هو: أن المفعول به المحذوف في قوله السابق: ﴿فَذَكِّرْ﴾ والتقدير: فذكر الناس الا من تولى وكفر، فقد ذكرته وسوف لا تكون فائدة من تذكيره مرة أخرى لإعراضه وعدم استجابته للتذكير لذلك فان الله تعالى سيعذبه العذاب الأكبر وهو نار جهنم.

والآخر هو: أن الضمير في ﴿عَلَيْهِم﴾ والتقدير: لست عليهم بمسيطر الا من تولى وكفر فسوف تكون مسلطا عليه اذ سيأمرك الله تعالى بالجهاد فتسطير عليه.[٢١]

الثاني: ان هذا الاستثناء منقطع والتقدير لست عليهم بمتسلط إلا من تولى وكفر، فالله تعالى سوف يدخله النار.[٢٢]

جوابه: إن البيان الذي يخالف حرية اعتناق الاسلام هو الشق الثاني من القول الأول، وهو كون الاستثناء متصلا وأن المستثنى منه هو الضمير في قوله: «عليهم».

أما الشق الأول من القول الأول والقول الثاني فهما لا يتعارضان مع حرية اعتناق الإسلام، ولكي نثبت دلالة الآية على مبدأ عدم الإكراه لابد من تقديم دليل على نفي الشق الثاني من القول الأول، والدليل على ذلك يتبين بنقطتين:

الأولى: ان هذا السياق يقرر إنّ الهدف من الجهاد هو ارغام الآخرين على الدخول في الإسلام، والحال ان للجهاد أهدافا سامية وعالية وليس منها ارغام الآخرين على اعتناق ديننا الحنيف وهذا ما سنوضحه فيما بعد إن شاء الله.

الثانية: لقد عرف النحاة الاستثناء بـ «أنه الاخراج بـ (الا) أو احدى أخواتها لما كان داخلا في الحكم السابق عليها».[٢٣]

ولو قرأنا الآية الكريمة وما بعدها لرأينا أن الكلام الذي بعد «إلاّ» لا علاقة

(٢١) انظر: الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج١٠ ص٣٣٩.

(٢٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج٢١ ص١٤٦.

(٢٣) انظر: عباس حسن، النحو الوافي: ج٢ ص٢٩٢.

له بالكلام الذي قبلها من حيث الحكم لان ما بعد «لا» قد ذكرت الآيات حكمه، حيث قالت: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ وسواء كان الاستثناء متصلا أم منفصلا فان حكم ما بعد «إلا» ثابت له ولا علاقة له بالحكم الذي قبل إلا.

وبعبارة أخرى: ان ما قبل (إلا) لا ينبغي سيطرة النبي ﷺ على هؤلاء، أما ما بعدها فقد ثبت له حكم خاص به، ولا علاقة له بسيطرة النبي ﷺ وعدمها.

الرأي الثاني: النافون لمبدأ حرية اعتناق الاسلام

ذهب جمع من مفسري المسلمين وفقهائهم إلى مبدأ الإكراه على الدين وأن الإسلام يخير فئة خاصة من الناس بين إعتناقه أو القتل وهم المشركون والكفار الذين ليس لهم كتاب، وأما أهل الكتاب فإنهم يخيرون بين القتل والجزية والإسلام، [٢٤] والدليل على ذلك.

١ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [سورة التوبة: ٧٣].

٢ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٥].

٣ـ قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [سورة التوبة ٢٩].

٤ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [سورة محمد: ٤].

٥ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ

(٢٤) الشيخ الطوسي: الخلاف: ج٥ ص٥٣٩ ـ ٥٤٠. فخر الدين الرازي، التفسير الكبير: مج٨ ج١٦ ص٣١. تفسير البيضاوي: ج١ ص٢١٦.

﴿ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[سورة النساء: ٧٦].

تقييم اجمالي لأدلة القائلين بالإكراه:

لم يكن هنالك خلاف بين علماء المسلمين من مفسرين و فقهاء ومؤرخين أن النبي ﷺ عندما بعث في الجزيرة العربية بقي مدة (١٣) سنة يبلغ الدين الاسلامي في مكة المكرمة، وفي هذه المدة من الزمن تعرض ﷺ هو وأتباعه الى سلسلة من المضايقات على ترك نهج الحق والانضواء تحت راية الباطل والانحراف، وكان المسلمون يطلبون الإذن من الرسول ﷺ لمواجهة هؤلاء الكفار الذين أرهقوهم وأذلوهم، فلم يأذن ﷺ بذلك، ولكن بعد الهجرة النبوية نزلت على صدره ﷺ آيات تأمره بالقتال ويمكن أن نصنف هذه الآيات الى صنفين:

أولا: آيات الجهاد المطلقة:

وهي الآيات التي دلت على وجوب جهاد الكفار من دون أن تذكر قيدا أو سببا لذلك، من قبيل:

١ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[سورة التوبة: ٣٧].

٢ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾[سورة الانفال: ٦٥].

٣ـ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[سورة التوبة: ١٢٣].

٤ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة التوبة: ٥].

٥ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾[سورة محمد: ٤].

٦ـ قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾

[سورة التوبة: ٢٩].

٧ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[سورة النساء: ٧٦].

ثانيا: آيات الجهاد المقيدة

وهي آيات وردت في القرآن الكريم تدعو الى جهاد الكفار، لكن لا بشكل مطلق، وإنما ذكرت قيوداً وأسباباً وعللاً اذا توفرت تلك الأمور عند ذلك يجب قتالهم.

١ـ قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[سورة البقرة: ١٩٠].

٢ـ قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٣٦].

٣ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾[سورة البقرة: ١٩١].

٤ـ وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[سورة الحج: ٣٩ـ ٤٠].

٥ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[سورة النساء: ٧٥].

الى هنا اصبحت عندنا مجموعتان من الآيات، مجموعة تأمر بجهاد المشركين مطلقا، ومجموعة أخرى تدل على مقاتلة المشركين الذين بدأوا المسلمين بقتال، أو من حرمهم ومنعهم ممارسة حقوقهم الطبيعية.

وإلى جنب هذه الآيات هناك أخرى بينت موقف النبي ﷺ عند عدم استجابة الأمة لدعوته الاسلامية منها:

ألف: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [سورة الشورى: ٤٨].

ب: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟

﴿الرَّسُولِ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[سورة النور: ٥٤].

ج: قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [سورة الأنعام: ٦٦]

د: قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾[سورة النحل: ٨٢]

والآن عندنا مجموعتان من الآيات الدالة على وجوب قتال المشركين: الأولى توجب قتالهم مطلقا، والأخرى تقيد القتال بحالات خاصة مضافا الى الآيات التي بينت موقف النبي ﷺ عند عدم إستجابة قومه، والدالة على عدم الزامهم واجبارهم على الدخول في الدين، فما هي الحلول لهذا التعارض؟

الحل الأول: القول بنسخ الآيات المطلقة للمقيدة

الحل الذي قدمه القائلون بوجوب الإكراه على الدخول الى الإسلام هو ان الآيات المطلقة ناسخة لتلك المقيدة، فتكون النتيجة هي وجوب مقاتلة الكفار حتى ولو كانوا مسالمين وغير معتدين[٢٥]، وبهذا يثبت عندنا أمران:

الأول: نفي مبدأ حرية اعتناق الاسلام.

الثاني: وجوب الجهاد الابتدائي، بمعنى وجوب قتال الكفار حتى يسلموا اذا لم يكونوا أهل كتاب وقتالهم حتى يسلموا أو يعطوا الجزية اذا كانوا من أهل الكتاب.

المناقشة

إن هذا الحل مخالف لما ذهب اليه الباحثون في علوم القرآن، حيث ذكروا للنسخ شروطا، منها أن يكون حكم الناسخ وحكم المنسوخ متناقضين، بحيث لا يمكن الجمع بينهما، قال ابن الجوزي في نواسخ القرآن: «الشروط المعتبرة في ثبوت النسخ خمسة، الشرط الأول: أن يكون الحكم في الناسخ والمنسوخ متناقضا بحيث لا يمكن العمل بهما جميعا، فان كان ممكنا لم يكم أحدهما ناسخا للآخر[٢٦]»،

(٢٥) انظر: الجصاص، أحكام القرآن: ج١ ص٥٤٨.

(٢٦) انظر: ابن الجوزي، نواسخ القرآن، ص٢٣.

وقال الشيخ محمد هادي معرفة عندما تعرض لشروط النسخ: «أولا تحقق التنافي بين تشريعين وقعا في القرآن، بحيث لا يمكن اجتماعهما في تشريع مستمر، تنافيا ذاتيا».(٢٧)

وما نحن فيه لا ينطبق عليه هذا الشرط، وذلك لأن بإمكاننا الجمع بين النصوص التي ادعي أنها ناسخة وبين النصوص التي ادعي أنها منسوخة.

الحل الثاني: حمل المطلق على المقيد

إن في كل دستور من الدساتير التي جعلت لكي تنظم حياة البشر وتسوقه نحو الكمال يمكن أن يأتي حكم من الأحكام مطلقا في مكان ومقيداً في مكان آخر، وهذا الأمر نشاهده في القرآن الكريم وفي مسألة قتال المشركين، حيث جاءت آيات تدل على الجهاد بصورة مطلقة وأخرى بصورة مقيدة، وفي مثل هكذا حالة ذهب علماء الأصول والمتخصصون في مجال القرآن إلى إمكان الجمع بين هذه الآيات، قال السيد الخوئي في بيانه: «فان المطلق لا يصلح لأن يكون ناسخاً للمقيد وان كان متأخرا عنه، بل يكون المقيد قرينة على التصرف في ظهور المطلق»، (٢٨) ويذهب الى هذا الرأي آخرون أيضاً.

أما علماء الأصول فقد أطلقوا على الجمع بين هكذا آيات اسم: «قاعدة الجمع العرفي، وذلك بحمل المطلق على المقيد، وتكون النتيجة النهائية هي الأخذ بالمقيد».(٢٩)

ولتوضيح القاعدة لا بأس بأن نأتي بمثال يجعلها أجلى وأوضح، وهو: لو أن شخصا أمر خادمه، وقال له: «اعتق رقبة» ثم قال: «اعتق رقبة مؤمنة» ففي هكذا حالة على العبد أن يطبق قاعدة الجمع العرفي فيعتق الرقبة المؤمنة فقط، وما نحن فيه كذلك اذ عندنا آيات تقول: قاتلوا الكفار والمشركين، وأخرى تقول: قاتلوا المشركين والكفار الذين يقاتلونكم والذين لم يؤذوكم، فتكون النتيجة هي مقاتلة الكفار الذين يقاتلوننا.

(٢٧) محمد هادي معرفة، التمهيد في علوم القرآن، ج١ ص٤٢٥.

(٢٨) السيد الخوئي، البيان: ص٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢٩) السيد محمد باقر الصدر، دروس في علم الاصول (الحلقة الثالثة): ص٥٤٧.

وبذلك يثبت لنا أن القرآن لم يشرع الجهاد والقتال لإرغام الآخرين على إعتناق الإسلام، وإنما شرعه لأمور أخرى سوف نذكرها في الموضوع اللاحق ان شاء الله تعالى وبهذا يثبت مبدأ حرية اعتناق الاسلام بحسب القرآن الكريم.

أسباب القتال في القرآن

من خلال الحل الثاني للتعارض بين الآيات المطلقة والمقيدة للجهاد وصلنا الى أن القرآن يرفض مبدأ الاكراه على اعتناق الاسلام، وأن القتال لم يشرع لأجل ذلك، وانما شرع لأمور أخرى، وهي:

١ـ دفع الظلم عن النفس، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾[سورة الحج: ٣٨ـ ٣٩].

٢ـ نصرة المظلومين، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء: ٥٧].

٣ـ ردع المعتدي، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[سورة البقرة: ١٩٠].

٤ـ تأديب ناكثي العهد، قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة التوبة: ١٣].

٥ـ دفع الفتنة، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة: ١٩٣]، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الأنفال: ٣٩].

وأما ما هو معنى الفتنة؟ فقد ذكر اللغويون أنها بمعنى: «الاستيلاء والاختبار والامتحان» وأما المفسرون فلهم في معنى الفتنة قولان: أحدهما: الكفر والشرك، والآخر: الحيلولة بين الناس وبين ما يعبدون.

وقد أيدت الآيات الكريمة في القرآن المجيد المعنى الثاني للمفسرين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [سورة البروج: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة النحل: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [سورة الاسراء: ٧٣]. فمن الواضح أن هذه الآيات تؤيد المعنى الثاني من المعاني التي ذكرها المفسرون للفتنة.

فهذه هي الأمور التي شرع القرآن القتال من أجلها، لا لأجل إكراه الآخرين على تغيير عقائدهم قسراً لأن الإعتقاد من الأمور القلبية، وهي من الأمور التي لا سبيل للقهر والقسر عليها، ولو دققنا النظر، وتأملنا قليلا في القرآن الكريم لوجدناه لا يرفض ابتداء الكفار المسالمين بقتال فحسب وإنما يأمر بالبر والاحسان اليهم، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة: ٨].

أما اذا تحول الكفار المسالمون الى محاربين، وبدأوا بقتال المسلمين كان على القوات الاسلامية أن تتجحفل لرد اعتدائهم ولو طلب الكفار الصلح في مثل هكذا حالة، فهنا القرآن يأمر بالجنوح الى الصلح والسلام كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ٩٠].

فهذا كله يؤيد مبدأ حرية اعتناق الإسلام، وينفي مبدأ الاكراه على الدخول في الدين الحنيف، ويبطل صدق المقولة القائلة بأن الاسلام انتشر بحد السيف بل الاسلام دين المنطق والدليل، وانتشاره كان بقوة براهينه وادلته القاطعة وحججه الدامغة.

تقييم تفصيلي لأدلة القائلين بالإكراه:

تقدمت منا مناقشة اجمالية لأدلة القائلين بوجوب إعتناق الإسلام، ولكن هنا بإمكاننا أن «نأتي بتقييم آخر

للاستدلال بالآيات المباركة، ولكن بصورة أكثر تفصيلا اذا ما قايسنا بين محل الكلام، وما مضى لذلك سوف نقسم هذا التقييم على النقاط التالية:

١ـ ان أكثر أدلة الإكراه من سورة التوبة:

لو رجعنا الى أدلة النافين لمبدأ حرية اعتناق الإسلام لرأينا أن أكثر أدلتهم هي من سورة التوبة، كقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[سورة التوبة: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة التوبة: ٥].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٣].

وإذا أمعنا النظر في سورة التوبة لوجدناها مقيدة بكثير من القرائن، على أن وجوب القتال فيها لم يكن مطلقا، أي شاملا لجميع الكفار ليستفيد من ذلك القائلون بوجوب مقاتلة الكفار لكفرهم حتى ينتج نفي حرية اعتناق الاسلام، ومن جملة تلك القرائن قوله تعالى في صدر السورة: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[سورة التوبة: ١].

اذن هنالك عهود في المسألة ولم يقف الأمر عند العهود، بل يوجد نقض للعهود المتفق عليها من قبل المشركين، لذلك وجبت مقاتلتهم، قال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [سورة التوبة: ١٢]. وقال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[سورة التوبة: ١٣].

وأما المشركون الذين لم ينقضوا العهد ولم يخونوكم فحتى وان كانوا من الكفار الوثنيين فلا يجوز لكم قتالهم وأتموا لهم العهد بأتم صورة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٧].

وذهب الى هذا القول جملة من الفقهاء منهم السيد الروحاني، حيث قال في فقه الصادق: «وآيات سورة براءة وبراءة من اسماء (سورة التوبة) نزلت في ناكثي العهد من المشركين ولذلك بعد ذكر نكثهم: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. فلا يصح التمسك بإطلاق بعض الآيات الواردة في السورة لإثبات مبدأ الإكراه على الدين».[٣٠]

٢ـ أقوى أدلة الاكراه تحت المجهر

ان من أقوى الآيات التي تمسك بها القائلون بالإكراه على الإسلام والذين نفوا مبدأ حرية اعتناقه، هي:

١ـ قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٢٩].

وقد عرفت هذه الآية بآية السيف[٣١]، وهي التي وقفت سداً منيعاً، وحالت بين كثير من المفسرين والفقهاء وبين القول بحرية الدخول في الإسلام، وقد نوقشت دلالة الآية على ما ذهبوا اليه ـ مضافا الى ما مضى ـ بمناقشتين:

الأولى: ان الآية لم تأمر بالقتل وانما أمرت بالقتال، والمقاتلة وثَم فارقٌ كبيرٌ بين الكلمتين لأن (قاتل) مصدره مقاتلة وهي صيغة مفاعلة وهي التي تدل على وجود طرفين يتشاركان في فعل واحد، بل أكثر من ذلك، وهو أن هذا اللفظ لا يعبر به الا عن مقاومة معتد سبق الى قصد القتل.

(٣٠) محمد صادق الروحاني، فقه الصادق: ج١٣ ص١٤ ـ ١٥.

(٣١) المجلسي، بحار الانوار: ج٥٦ ص٣٢٦.

فالمقاوم هو الذي يسمى مقاتلا، أما المهاجم فيسمى قاتلا، وعليه يكون معنى الآية الكفار هم الذين بدأوا المسلمين بالقتال فيقاومهم المسلمون[٣٢]، فلا تدل الآية على وجوب الاكراه.

الثانية: ان الباري تعالى جعل في الاية غاية للقتال وهي الجزية، والجزية لا تستوجب إكراه الآخرين على ترك عقيدتهم واعتناق الاسلام.[٣٣]

٢ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة التوبة: ٥].

وقد نوقشت دلالة الآية على مبدأ الإكراه بأنها تدل عليه اذا صرفنا النظر عما يحتف بها من الآيات، ولا يمكن أن نصرف النظر عما يحتف بها من آيات، وذلك لأنها قرائن على المراد منها، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة التوبة: ٦]. حيث يأمر الباري بإجارة المشرك حتى يسمع كلام الله ثم بعد ذلك يتحتم علينا أن نبلغه مأمنه، سواء أسلم أم لم يسلم، فاذا كان الواجب هو مقاتلة المشركين حتى يسلموا، فلماذا يجب علينا أن نترك هذا المشرك الذي استجار بنا؟ ولماذا يتعين علينا أن نبلغه مأمنه ما ذلك الا لأن الكافر نزع صفة الحربية واستجاربنا وما دامت حالته هذه فلا موجب لقتاله حتى يسلم، وعليه يثبت مبدأ الحرية في الدخول الى الإسلام وأن القتال لأمور أخرى وليس الإكراه على الدين.

٣ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [سورة محمد: ٤].

(٣٢) انظر: محمد مهدي شمس الدين، جهاد الأمة: ص٢٤٠. الجهاد في الاسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه: ص٥٨ـ٥٩.

(٣٣) انظر: مجلة الحوزة (باللغة الفارسة)، ص١٠٤، العدد (شهري مهر وآبان).

ويمكن المناقشة في دلالة الآية على وجوب اكراه الآخرين على الدخول في الاسلام بما يلي:

أننا لو دققنا النظر في الآية الشريفة نجدها تتحدث عن حالة خاصة وهي حالة الحرب، بقرينة قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، أما هل أن المسلمين بدأوا هذه الحرب لأجل إدخال الكفار إلى الإسلام؟ أم أن المشركين كانوا في حالة هجوم أو استعداد للهجوم على المسلمين؟

وفي الجواب نجد أن هناك احتمالين مطروحين فإذا استطعنا أن ننفي أحدهما ثبت الاخر. ونفي احتمال أن الهجوم كان من قبل المسلمين لإكراه الكفار على الإسلام له قرينة واضحة في الآية الشريفة والقرينة هي قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فلو كان المسلمون هم الذين ابتدأوا الحرب لأجل ادخال الكفار في الإسلام لذكرت الآية الشريفة ذلك الخيار الى جانب الخيارين المطروحين، اللذين هما المن والفداء ولقالت مثلا إما منا بعد وإما فداءً وإما الدخول إلى الإسلام.

وعليه ينبغي أن يكون الهجوم من قبل المسلمين لا لإجبار الكفار على الدخول في الاسلام.

٢ـ عود على بدء

لو أمعنا النظر في الآيات الكريمة التي استدل بها لمنع مبدأ حرية اعتناق الاسلام كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[سورة التوبة: ٧٣]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة: ١٢٣] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء: ٧٦]. لوجدنا أنها جاءت في مقام بيان أصل مشروعية الجهاد ضد المشركين لأن المتفق عليه ـ وكما ذكرنا سابقا ـ أن النبي ﷺ وأصحابه بقوا في مكة المكرمة طوال ١٣ سنة، وهم غير

مجازين من قبل الباري تعالى بالقتال حتى على نحو الدفاع، وبعد الهجرة الى المدينة اذن لهم بقتال المشركين.

فهذه الآيات مطلقة وليس فيها ما يدل على وجوب قتال الكفار حتى يسلموا، ومع ورود الآيات الأخرى المقيدة ـ التي ذكرناها فيما سبق ـ لا يبقى مجال للشك في أن الإسلام لا يكره أحدا على الدخول في الدين، وتشريعه للجهاد لم يكن لذلك الأمر، وانما كان لأمور أخرى ذكرنا بعضها سابقا تحت عنوان «أسباب القتال في القرآن» وعليه يكون مبدأ حرية إعتناق الإسلام هو الراجح على مبدأ الإكراه.

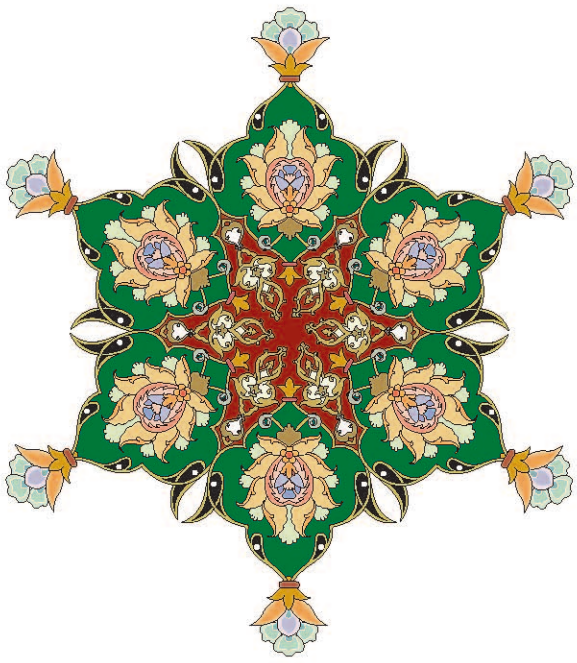

التوجيه الدلالي للأمر بين الطبرسي والطباطبائي

د. مجيد طارش البوداوي
جامعة واسط - العراق

ملخص البحث

تناول السيد الباحث، التفكير الـدلالي عند السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب تفسير (الميزان) وتوجيهاته لاسلوب الأمر في القرآن الكريم والجمع بين ارائه في ذلك وآراء الشيخ ابي علي الطبرسي صاحب تفسير (مجمع البيان).

وتطرق البحث الى أهم المسائل التي وقف عليها السيد الباحث والتي كان أهمها: التمييز بين الدلالة والتوجيه الدلالي. ثم عرض للبحث في اسلوب (الأمر) الذي هو أحد أنواع الكلام الذي لا يحتمل التصديق والتكذيب (أسلوب الإنشاء) والذي يأتي بلفظ: إفْعَلْ، أو لِيفْعَلْ وهو صيغة تستدعي الفعل. وقد اثبت السيد الباحث ان الأمر ورد في القرآن الكريم بدلالات كثيرة، وُجِّهتْ بتوجيهات متنوعة. وقد تضمن البحث اراء علماء آخرين غير الشيخ الطبرسي والسيد الطباطبائي، امثال الفخر الرازي والقرطبي.

المقدّمة

لقد أثار القرآن الكريم منذ أوّل نزوله حركةً فكريّةً عند العرب، ودعاهم إلى الالتفات إليه، لما جاء به من جديدٍ في أساليب التعبير والبيان، وقد علقت أفئدتهم وأسماعهم بما جمع هذا الكتاب من كلامٍ بديعٍ، فلم يسعهم إزاءه إلا التسليم بروعة أثره في النفوس وفي العقول، واعترف بلغاؤهم بذلك وتحيّروا فيه[1]، وعجزوا عن الإتيان بمثله، وبعد أن أقرّوا بعجزهم عن معارضة القرآن (قامت نهضةٌ فكريّةٌ واسعةٌ تناولت دراسة القرآن من جميع نواحيه لغةً وبلاغةً وأسلوباً، هذا بالإضافة إلى تفسيره وشرح غريب ألفاظه، وكانت أولى هذه الدراسات محاولة العلماء معرفة وجوه إعجاز القرآن والوقوف على أسراره البلاغيّة واستنباط الأحكام منه)[2]، وقد تنازعته في التفسير مذاهب عدّةٌ ومشارب، وامتدّت له يد التطوّر التي مرّ بها المجتمع العربيّ فتناولته بالبحث والدراسة مدارس تفاوتت دقّةً وإخلاصاً، وقد تأثّر هذا التناول بثقافة جملةٍ من المفسّرين أضفى كلٌّ منهم لون ثقافته ونهج دراسته على الكتاب الكريم؛ فأصبح القرآن مجالاً رحباً للاتجاهات والفنون والعقائد المختلفة[3]، ومن أبرز هؤلاء المفسّرين كان العلامة الطباطبائيّ صاحب تفسير الميزان، وهو السيّد محمّد حسين بن السيّد محمّد بن السيّد محمّد حسين بن الميرزا عليّ أصغر شيخ الإسلام الطباطبائيّ التبريزيّ القاضي[4]، الذي تنقّل بين ثلاث بيئاتٍ، فـ(تبريز) مسقط رأسه، و(النجف) محلّ إقامته العلميّة التي امتدّت عشر سنواتٍ، وأخيراً (قم) المقدّسة مركز نشاطه العلميّ[5]، وقد

(١) ينظر: أثر القرآن في تطور النقد الأدبي حتى نهاية القرن الخامس الهجري/ د. محمد زغلول سلام: ٢٩.

(٢) أثر البلاغة في تفسير الكشاف/ عمر الملا حويش: ٦٩.

(٣) ينظر: المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم/ د. محمد حسين الصغير: ٢١.

(٤) ينظر: معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عام/ محمد هادي الأميني: ٢٨٥، وطبقات أعلام الشيعة/ آغا بزرك الطهراني: ١/ ٦٤٥.

(٥) ينظر: الطباطبائي ومنهجه في تفسير الميزان/ علي الأوسي: ٤٥.

ألّف الميزان في مدينة قم[٦]، وتُوفي بالمدينة نفسها عام ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م[٧].

وقد هاجر الطباطبائيّ إلى النجف الأشرف حيث حوزتها العلميّة العريقة[٨]، ولهذه الجامعة الكبرى الموغلة في عمق التاريخ انتسب العلامة الطباطبائيّ إثر وصوله الى مدينة النجف مهاجراً في سبيل العلم؛ وذلك عام ١٣٤٣هـ حيث أمضى فيها عشر سنواتٍ يختلف إلى مجالس الفقهاء ويحضر دروسهم[٩].

وقد كان العلامة الطباطبائيّ فيلسوفاً صاحب نظرٍ، وفقيهاً متبحّراً، ومفسّراً توصّل إلى لطائف القرآن الخفيّة، وعالماً من علماء الإسلام، وصاحب فضيلةٍ، وعارفاً من العارفين، متبصّراً أدرك حوائج زمانه، وكاتباً مقتدراً وشاعراً ذا قريحةٍ[١٠]، وقد ألّف في صنوف العلوم المختلفة كالفقه، والعقائد، والفلسفة، وعلوم القرآن، وإعجاز القرآن، واللغة العربيّة واللغة الفارسيّة، والسياسة[١١]، وبذلك صار بحقٍّ واحداً من أركان الحوزة العلميّة في هذا العصر[١٢]، إذ إنّ ما قدّمه هذا العالِم من أعمالٍ علميّةٍ على مدى ثمانين عاماً وثمانية عشر يوماً التي هي كلّ عمره المبارك كانت تُشكّل بمجموعها إنجازاً عظيماً لا تتمكّن منه إلا لجنةٌ أو مجموعةٌ من العلماء؛ لذلك كان العلامة الطباطبائيّ بمنزلة أمّةٍ[١٣].

وقد أوقفتني قدرة هذا العالم في تفسيره لآيات القرآن الكريم؛ لمّا ذكر أنّه: (ليس بين آيات القرآن (وهي بضعة آلاف آيةٍ) آيةٌ واحدةٌ ذات إغلاقٍ وتعقيدٍ في مفهومها؛ بحيث يتحيّر الذهن في فهم معناها، كيف وهو أفصح الكلام، ومن شرط الفصاحة خلوّ الكلام عن الإغلاق

(٦) ينظر: مقالات تأسيسية في الفكر الإسلامي/ محمد حسين الطباطبائي: ٣٤.
(٧) م.ن: ٣٢.
(٨) تفسير القرآن بالقرآن عند العلامة الطباطبائي/ د. خضير جعفر: ١٢.
(٩) تفسير القرآن بالقرآن عند العلامة الطباطبائي/ د. خضير جعفر: ١٣-١٤.
(١٠) يادنامة مفسر كبير علامة طباطبائي: ٢٠. وينظر: تفسير القرآن بالقرآن عند العلامة= =الطباطبائي: ٢٨.
(١١) تفسير القرآن بالقرآن عند العلامة الطباطبائي: ٣٢-٣٣.
(١٢) م.ن: ٣٨.
(١٣) م.ن: ٤٦.

والتعقيد)[١٤]، فهذه القدرة تدلّ على طول باعه في التفسير حتى نعت بعضهم القدرة بالجرأة[١٥]، وقد شغفتني فكرة البحث في فكر هذا المفسّر العملاق عسى أن أُبرز شيئاً من أثره في التفسير، هذا العلم الذي أخذه أوّل ما أخذه من مدينة العلم مدينة أمير المؤمنين عليه السلام النجف الأشرف.

ولمّا كان فكر هذا المفسّر بحراً زاخراً اخترت من هذا البحر موضوع الأمر لأدرس دلالته في فكره، ولإظهار علمه لا بدّ من ذكر نظيرٍ له نُقارن علمَه بعلمِه، وهذا النظير هو الشيخ الطبرسيّ صاحب تفسير مجمع البيان؛ للجمع والموازنة بين هذين العالَمين في الدلالة القرآنيّة للأمر، ولمّا كانت الدلالة القرآنيّة مدروسةً في كثيرٍ من المواضع حاولت أن أغوص في أعماق التفسير القرآنيّ لهذه الدلالة وأبحث في توجيهها وما كان لكلّ مفسّرٍ منهما من توجيهٍ لدلالات الأمر.

والأمر نقيض النهي؛ لأنّ الأمر هو طلب إيقاع الفعل، أمّا النهي فهو طلب ترك إيقاعه[١٦]، وهو أحد أنواع الكلام الذي لا يدخله الصدق والكذب[١٧]، و(الأمر عند العرب ما إذا لم يفعله المأمور به سُمّي المأمور به عاصياً، ويكون بلفظ افْعَل، وليَفْعَل)[١٨]، و(هو صيغةٌ تستدعي الفعل، أو قولٌ يُنبئ عن استدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاستعلاء)[١٩]، وهو من أنواع الإنشاء، والأظهر أنّ صيغته موضوعةٌ لطلب الفعل استعلاءً لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك، وتوقّف ما سواه على القرينة، وقد تُستعمل صيغة الأمر في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام[٢٠]، فـ(الأمر هو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء.. . وقد تخرج صيغ الأمر عن معناها الأصليّ إلى معانٍ أخرى تُستفاد من سياق الكلام

(١٤) الميزان في تفسير القرآن/ محمد حسين الطباطبائي: ١/ ٧.
(١٥) البحث البلاغي في تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي/ رياض خلف خزي: ٢.
(١٦) ينظر: لسان العرب/ ابن منظور: (أمر).
(١٧) أدب الكاتب/ ابن قتيبة: ٤.
(١٨) الصاحبي/ ابن فارس: ٢٩٨.
(١٩) الطراز/ العلوي: ٣/ ٢٨١.
(٢٠) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة/ القزوينيّ: ١٣٧.

وقرائن الأحوال)[٢١]، وتُستعمَل صيغة الأمر في معانٍ كثيرةٍ[٢٢] يتوصّل إليها من يمتلك القدرة على تحليل النصّ القرآنيّ، ويعتقد أغلب المفسّرين أنّ الأمر للوجوب في الأصل حتّى يدلّ دليلٍ على خلاف الوجوب، وممّن صرح بذلك الطبريّ الذي يرى أنّ العرب تُخرج الكلام بلفظ الأمر ومعناه النهي أو التهديد أو الوعيد[٢٣]، وهذا ما نجده أيضاً عند الزمخشريّ الذي يعتقد أنّ إخراج الأمر في صورة الخبر أبلغ من صريح الأمر؛ لأنّه يُفيد تأكيد الأمر والمبالغة في الحثّ عليه[٢٤]، وقد تابع الزمخشري في ذلك صاحب البرهان[٢٥]، وكذلك يرى السيوطيّ أنّ صيغة الأمر حقيقةٌ في الوجوب؛ وأنّ استعمالها لمعانٍ أخرى إنّما هو من المجاز؛ وترد مجازاً لمعانٍ أخرى أوصلها إلى تسعة عشر معنىً[٢٦].

وقد نال هذا المبحث من عناية الطبرسيّ والطباطبائيّ الكثير، ولعلّ هذا راجعٌ إلى أنّ هذا المبحث مرتبطٌ بالأحكام الفقهيّة؛ وهما يتّفقان على صيغ الأمر المختلفة حتّى يتبيّن المراد منها، وقد أشار كلا المفسّرين إلى أنّ الأمر يأتي بأشكالٍ متنوّعةٍ، وهو يرد في القرآن الكريم ولا يراد منه معناه الحقيقيّ إذ يرد والمقصود منه معاني أخرى غير ظاهر النصوص.

ويذهب السيّد الطباطبائي إلى أنّ الخبر كثيراً ما يأتي بصورة الإنشاء، ويضرب لذلك أمثلةً خارج النصوص القرآنية أقرب ما تكون إلى الواقع لكي يكون المعنى قريباً من الفهم، فقد ذكر (أنّ من الخبر ما يأتي بصورة الإنشاء كما إذا سألك سائلٌ كيف يُصنَع الخبز مثلاً؟ فتقول: خذ كذا وكذا، وافعل به كذ وكذا؛ يكون خبزاً، تُريد أنّ هذه كيفيّةٌ، ولا تُريد أن تأمره أن

(٢١) جواهر البلاغة/ أحمد الهاشميّ: ٥١.
(٢٢) أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين/ د. قيس اسماعيل الأوسي: ٩٨.
(٢٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤/ ٢٣٨.
(٢٤) الكشاف: ١/ ٣٦٥.
(٢٥) البرهان في علوم القرآن/ الزركشي: ٣/ ٣٥١.
(٢٦) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ٨١، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن: ٤٤١-٤٤٢.

يصنع الخبز بالفعل، وفي القرآن شيءٌ كثيرٌ ممّا ورد فيه الخبر بصورة الأمر)[٢٧].

ومن هذا الفكر التوجيهيّ لدلالة الأمر في القرآن الكريم عند السيّد الطباطبائيّ والشيخ الطبرسيّ وردنا مناهل الآيات القرآنيّة المباركة لنغترف منها ما نفهمه من توجيهاتٍ دلاليّةٍ للأمر عند هذَين العَلَمين البارزَين في سماء تفسير القرآن الكريم، وبالبحث في هذه الدلالات وتوجيهاتها وجدنا دلالاتٍ كثيرة للأمر في النصّ القرآنيّ وجّهها المفسّران توجيهاتٍ عدّة، وقد كانت هذه التوجيهات كثيرةً ومتنوّعةً، اتّفقا على قسمٍ منها، وانفرد كلٌّ واحدٍ منهما بقسمٍ آخر، وتفصيل هذه التوجيهات على النحو الآتي:

التوجيهات المشتركة

ذكر الطباطبائيّ مجموعةً من التوجيهات الدلاليّة للأمر في القرآن الكريم، وافقه عليها الطبرسيّ، وقد كانت هذه التوجيهات هي المشتركة بينهما، وهذه التوجيهات هي:

(٢٧) الميزان: ٢/ ٣٨٩.

التهديد[٢٨]: وهو المعنى الذي دلّ عليه الأمر بالفعل (اعْمَلُوا) في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ اعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٣٥]، وهذا المعنى هو الذي وُجِّهت إليه دلالة الأمر في هذا النصّ المبارك عند كلٍّ من الطباطبائيّ والطبرسيّ، فقد ذكر الطباطبائيّ هذا التوجيه في تفسيره هذه الآية بقوله: (قُل للمشركين: يا قوم اعملوا على منزلتكم وحالتكم التي أنتم عليها من الشرك والكفر، وفيه تهديدٌ بالأمر، وداوموا على ما أنتم عليه من الظلم إنّي عاملٌ ومُقيمٌ على ما أنا عليه من الإيمان والدعوة إلى التوحيد)[٢٩]، وكذلك الطبرسّي قد فعل، فإنه يرى أنّ الأمر هنا إنّما هو (تهديدٌ بصيغة الأمر)[٣٠]، والمفسّران يعتقدان أنّ فعل الأمر لم يكن في مقام الرضا بهذا المأمور به، ولذا لا يُمكن أن يكون الفعل على حقيقته،

(٢٨) ينظر: مجاز القرآن/ أبو عبيدة: ٢/ ١٢٢.
(٢٩) الميزان: ٧/ ٣٧٨.
(٣٠) مجمع البيان: ٤/ ٣٦٩.

وإنّما المراد منه التهديد، وهذا التهديد ينتج من الجمع بين أمر النبيّ للكافرين بالعمل على مكانتهم والاستمرار على ما هم عليه وبين الإخبار عن نفسه بأنّه مستمرٌّ على ما هو عليه، ولمّا كان ﷺ متيقّناً بأنّه على الحقّ وأنّهم على الباطل؛ صار أمره لهم بالبقاء على ما هم عليه يتوجّه نحو التهديد لهم بأنّهم سيلقون العذاب على بقائهم على ما هم عليه (وإن كانوا لا يعلمون ولا يؤمنون بهذا العذاب)، فالخطاب بالأمر الموجّه إلى هؤلاء الكافرين يحتمل أن يكون معناه: اعملوا على تمكّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، ويحتمل أيضاً أن يُراد به: اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها أي: اثبتوا على كفركم وعداوتكم فإنّي ثابتٌ على الإسلام، وعلى مضارّتكم[٣١]، وقد أيّد المفسّرون هذا التوجيه الدلاليّ وأوضحوه، فالقرطبيّ يقول في تفسير هذه الآية: (والمكانة: الطريقة، والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه؛ فأنا أثبت على ما أنا عليه، فإن قيل: كيف يجوز أن يُؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفّارٌ، فالجواب: أنّ هذا تهديدٌ، كما قال عزّ وجلّ: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [سورة التوبة: ٨٢]، ودلّ عليه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة التي يُحمَد صاحبها عليها، أي: من له النصر في دار الإسلام، ومن له وراثة الأرض، ومن له الدار الآخرة، أي: الجنّة)[٣٢].

ومن أمثلة التهديد كذلك الدلالة الموجّهة للأمر التي جاء بها السيّد الطباطبائي من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٦٧]، فهو يقول في تفسيره: إنّ (معنى الآية في نفسها ظاهرٌ؛ فإنّها تتضمّن أمر الرسول ﷺ بالتبليغ في صورة التهديد)[٣٣]، وقد يكون هذا التوجيه بالتهديد من غريبات التوجيهات التي قال بها الطباطبائيّ، ولكنّ هذا التوجيه إنّما المقصود منه توجيه المعنى العامّ للآية

(٣١) التفسير الكبير: ١٣/ ١٦٦-١٦٧.

(٣٢) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ١٠٠.

(٣٣) الميزان: ٦/ ٤٢.

لتفسير مضمونها المهمّ (وليس في تهديد الرسول ﷺ ما يمسّ ساحته الشريفة، بل المراد منه إبلاغ الأمر الذي هو في غاية الأهمّيّة، حتّى أنّ في عدم إبلاغه عدم إبلاغٍ للرسالة التي جاء من أجلها الخاتم ﷺ)[٣٤].

ومن أمثلة دلالات الأمر التي وُجِّهت نحو التهديد عند السيّد الطباطبائيّ دلالة الفعل (اعْلَمُواْ) الوارد في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[سورة الأنفال: ٢٥]، فهو يرى أنّ (قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تهديدٌ للجميع بالعقاب الشديد، ولا دليل يدلّ على اختصاص هذا العقاب بالحياة الدنيا وكونه من العذاب الدنيويّ من قبيل الاختلافات القوميّة وشيوع القتل والفساد وارتفاع الأمن والسلام وغير ذلك)[٣٥].

وكذلك وُجِّه الأمر باللام والفعل المضارع (لْيَخْشَ) الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ اللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[سورة النساء: ٩]، فالطباطبائي يقول: إنّ (الآية مسوقةٌ سوق التهديد لمن يسلك مسلك تحريم صغار الورثة من الإرث)[٣٦].

الدعاء

وهو التوجيه الدلاليّ لأسلوب الأمر الذي قال به كلٌّ من الطباطبائيّ والطبرسيّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١١٩]، فقد قال الطباطبائيّ عن الأمر بالفعل (مُوتُواْ) في هذه الآية الكريمة: إنّه (دعاءٌ عليهم في صورة الأمر، وبذلك تتّصل الجملة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، والرأي: اللّهم أمتهم بغيظهم، إنّك عليمٌ بذات الصدور)[٣٧]، وواضحٌ من كلام السيّد الطباطبائيّ في تفسيره لهذه الآية وما فيها من أمر أنّه يُوجّه هذا الأسلوب (الذي

(٣٤) البحث البلاغي في تفسير الميزان: ٤٢.
(٣٥) الميزان: ٩/ ٤٩.
(٣٦) الميزان: ٤/ ٢١٤.
(٣٧) الميزان: ٣/ ٤٢٧.

يدلّ على الأمر في ظاهره) نحو الدعاء، ويتّضح من هذا التوجيه دقّة هذا المفسّر في فهم النصّ القرآنيّ والكشف عن المراد الإلهيّ من هذا التعبير بهذا الأسلوب، وبمثل ما وجّه الطباطبائي هذا الأمر وجّهه الطبرسيّ كذلك بقوله: (صيغته صيغة الأمر، والمعنى: الدعاء عليهم، فكأنّه قال: أماتكم الله بغيظكم)[٣٨]، وقد سار المفسّران هنا على نهج التفسير المتّفق عليه في هذه الآية؛ فهذا الرازيّ يشرح هذا الأمر وتوجيهه إلى الدعاء ويُعلّل هذا التوجيه بقوله: (وهو دعاءٌ عليهم بأن يزداد غيظهم حتّى يهلكوا به، والمراد من ازدياد الغيظ ازدياد ما يُوجب لهم ذلك الغيظ من قوّة الإسلام وعزّة أهله وما لهم في ذلك من الذلّ والخزي)[٣٩]، ويزيد القرطبيّ على هذا الشرح والتفصيل بقوله: (إن قيل: كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيءٍ: كُن؛ فيكون، قيل عنه جوابان: أحدهما قال فيه الطبريّ وكثيرٌ من المفسّرين: هو دعاءٌ عليهم، أي: قل يا محمّد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا، فعلى هذا يتّجه أن يدعو عليهم بهذا مواجهةً وغير مواجهةٍ بخلاف اللعنة، الثاني: أنّ المعنى: أخبرهم أنهم لا يدركون ما يُؤمّلون، فإنّ الموت دون ذلك، فعلى هذا المعنى زال الدعاء وبقي معنى التقريع والإغاظة)[٤٠]، وقد أخذ المفسّران بالتوجيه الأوّل لهذه الدلالة ليكون هذا دليلاً على دقّتهما في التوجيه الدلاليّ للنصّ القرآنيّ، لأنّ القول الثاني لا يكاد ينسجم مع السياق الذي ورد فيه هذا الأمر بالموت الموجّه للكافرين؛ فمن غير المعقول أن يأمر البشرُ بشراً مثله بالموت؛ لأنّ هذا الأمر لله وحده؛ أمّا القول بأنّه إخبارٌ لهم بديمومة غيظهم؛ فهذا التوجيه لا ينهض أمام التوجيه الأوّل، وهذا ما أقرّ به البلاغيّون في هذا التوجيه، فقد قال الدرويش: (وفي الآية خروج الأمر عن معناه الحقيقيّ إلى معنى الدعاء عليهم بديمومة غيظهم)[٤١].

الإباحة[٤٢]: وهو التوجيه الذي كان

(٣٨) مجمع البيان: ٢/ ٤٩٤.

(٣٩) التفسير الكبير: ٨/ ١٧٦.

(٤٠) الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٢٦.

(٤١) إعراب القرآن وبيانه/ الدرويش: ٤/ ٥٢٠.

(٤٢) ينظر: الكتاب: ١/ ١٤٢، والإتقان في=

من نصيب فعل الأمر (كُلُوا) الوارد في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾[سورة طه: ٨١]، فالطباطبائيّ يرى فيه (إباحةً في صورة الأمـر)(٤٣)، فهذا الفعل وإن كان نوعه الأمر في التصنيف النحوي للأفعال لا يدلّ على الأمر هنا، بل إنّه يدل على إباحة الأكل، فالقرآن وإن خاطبهم بصيغة الأمر لكنّه لا على وجه الإجبار، بل على وجه الاختيار، وهـذا ما أكّده الرازيّ في تفسيره بقوله: (قوله: (كُلُوا) ليس أمر إيجابٍ، بل أمر إباحةٍ، كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [سـورة المائدة: ٢])(٤٤)، وهذا هو التوجيه نحو الإباحة للأمر عند الطباطبائيّ، أمّا الطبرسيّ فإنّه وافـق الطباطبائي على التوجيه ولكن في مثالٍ غير المثال الـذي وجدناه عند الطباطبائيّ، ولكنّ مثال الطبرسيّ لا يخرج عن دائرة الأكل، فقد قال الطبرسيّ في توجيه دلالة الفعل (كُلُوا) الوارد في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [سـورة النحل: ١١٤]: (صيغته صيغة الأمر والمراد منه الإباحة، أي: كُلوا ممّا أعطاكم الله من الغنائم ما أحلّها لكم)(٤٥)، وهذه الإباحة قد أذن بها النبيّ الأكـرم للمسلمين بالأكل من الغنائم(٤٦)، وهذا الإذن إنّما هو التعبير الثاني المرادف للإباحة التي وُجّهت إليها دلالة هذا الفعل.

ومـن الأمـثلـة عـلى هـذا الـنـوع من التوجيهات عند السيّد الطباطبائيّ توجيه الأمر في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤١]، فهو يرى هنا أنّ (الأمر للإباحة؛ لوروده مورد رفع الحظر، والسياق يدلّ على أنّ تقدير الكلام: أمرَكم بأكل ثمر ما ذُكِر وأمرَكم بإيتاء حقّه يوم حصاده، ونهاكم عن الإسراف، فأيّ دليلٍ أدلّ من ذلك على إباحتها؟)(٤٧).

=علوم القرآن/ السيوطي: ٢/ ١٥٨.
(٤٣) الميزان: ١٤/ ٢٠٢.
(٤٤) التفسير الكبير: ٢٢/ ٨٣.
(٤٥) مجمع البيان: ٦/ ٣٩٠.
(٤٦) ينظر: التفسير الكبير: ٢٠/ ١٠٤، و: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٢٧.
(٤٧) الميزان: ٧/ ٣٨٥.

وكذلك نجد توجيه دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[سورة البقرة: ١٦٨]، فإنّ (قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ يُفيد الإباحة من غير تقييدٍ ولا اشتراطٍ)[٤٨] عند الطباطبائيّ.

وأيضاً قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [سورة الجمعة: ١٠]، فالطباطبائيّ يرى أنّ أفعال الأمر في هذا النصّ تدلّ على (أمرٍ واقع بعد الحظر؛ فيُفيد الجواز والإباحة دون الوجوب)[٤٩].

الاستحباب[٥٠]: وهذا الاستحباب كان هو التوجيه الدلاليّ لقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [سورة المزمل: ٢٠] الذي فسّره الطباطبائيّ بقوله: (سهّل الأمر بالتخفيف ليكون لعامّة المكلّفين فيه نصيبٌ، والحكم استحبابيٌّ لسائر المؤمنين، وإن كان ظاهر ما للنبيّ من الخطاب الوجوب)[٥١]، وهو يقصد الأمر بقراءة القرآن المأمور بها بالفعل (اقْرَؤُوا) الذي ظاهره الوجوب، لكنّ السيّد الطباطبائي وجّه هذه الدلالة بالاستحباب لسائر المؤمنين مع احتفاظ هذا الفعل بدلالته الحقيقيّة على الوجوب للنبيّ ﷺ، وهذا التوجيه المزدوج لدلالة هذا الأمر واحدٌ من إبداعات العلامة الطباطبائيّ في تفسير القرآن والكشف عن دلالاته وتوجيه هذه الدلالات، فالكثير منّا عندما يسمع النصّ القرآنيّ وفيه صيغة الأمر يتبادر إلى ذهنه أنّ الأمر يفيد الوجوب، لكنّ الطباطبائيّ فرّق في توجيه دلالة الأمر الواردة في الآية بين وجهة الوجوب المختصّة بالنبيّ ﷺ، ووجهة الاستحباب المختصّة بعامّة المكلّفين، ومن الملاحظ أنّه لا توجد قرينةٌ أو دلالة سياقٍ ظاهرةٌ تُخصّص دلالة هذا الأمر بفئةٍ دون أخرى، وقد حام المفسّرون حول هذا المعنى المشترك للآية،

(٤٨) الميزان: ١/ ٤٢٥.
(٤٩) الميزان: ١٩/ ٣١٧.
(٥٠) ينظر: الصاحبي: ٣٠٠.
(٥١) الميزان: ٢٠/ ١٥٥.

ففسّروا القراءة تفسيرين واحدٌ بالصلاة، والآخر بقراءة القرآن، ووجّه بعضهم الأمر نحو التيسير والتخفيف الذي يُفهم منه الاستحباب(٥٢)، وبعضهم وجّه الأمر بالقراءة بالفرض(٥٣)، ولكنّهم ما وصلوا إلى ما وصل إليه الطباطبائيّ، ولم يقولوا بما قاله في هذا، وبهذا يكون الطباطبائيّ قد انفرد بهذا التوجيه لهذا الأمر، أمّا الطبرسيّ فإنّه وجّه دلالة الأمر نحو الاستحباب، ولكن في موضع آخر غير هذا الذي تناولناه عند الطباطبائيّ، وهذا الموضع هو قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٨٢]، فالطبرسيّ يرى أنّ معناه (أشهدوا الشهود على غيركم إذا تبايعتم، وهذا أمرٌ على الاستحباب والندب)(٥٤)، ويتّضح من كلام الطبرسيّ هنا أيضاً أنّ الطريقة التي يتعامل بها المفسّر الفقيه مع النصّ تأخذ بفهمه على غير ما يفهمه عامّة المكلّفين، حاله في هذا حال الطباطبائي في النصّ السابق.

التعجيز(٥٥): وهو التوجيه الذي جاء لمداليل الأمر في القرآن الكريم في غير موضعٍ منه، ولا سيّما عندما يكون الأمر موجّهاً نحو الكافرين في سياق التحدّي لهم في العقائد الإسلاميّة، ومن هذا القبيل ما ورد في قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [سورة العلق: ١٧-١٨])، وهذا الأسلوب الذي فيه الأمر لهذا الكافر (لْيَدْعُ) وجّهه الطباطبائي نحو التعجيز له بهذا الأمر الذي يستحيل عليه الإتيان به، فقد قال السيّد الطباطبائيّ: إنّ هذا (الأمر تعجيزيٌّ أُشير به إلى شدّة الأخذ، والمعنى: فليدع هذا الناهي جمعه ليُنجّوه منّا وسندعو الزبانية الغلاظ الشداد الذين لا ينفع معهم نصر ناصرٍ)(٥٦)، ومثل الطباطبائيّ فعل الطبرسيّ في الأمر الصادر من الله تعالى (على لسان النبيﷺ بالإتيان بالبرهان في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن

(٥٢) التفسير الكبير: ٣٠/ ١٦٥.
(٥٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ٣٩.
(٥٤) مجمع البيان: ٢/ ٣٩٩.
(٥٥) ينظر: الصاحبي: ٣٠٠.
(٥٦) الميزان: ٢/ ٤٦٤.

﴿كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة: ١١١]، فالطبرسيّ يرى أنّه (ليس بأمرٍ، بل هو تعجيزٌ، بمعنى: إذا لم يُمكنكم الإتيان ببرهانٍ يُصحّح مقالتكم فاعلموا أنّه باطلٌ فاسدٌ)[٥٧]، وقد (دلّت الآية على أنّ المدّعي سواءً ادّعى نفياً، أو إثباتاً، فلا بدّ له من الدليل والبرهان)[٥٨]، فإنّ (طلب الدليل هنا يقتضي إثبات النظر ويردّ على من ينفيه)[٥٩]، وبذلك يكون هذا الطلب ردّاً على افتراءات الكافرين وادّعاءاتهم، وبأمرهم بأن يأتوا ببرهانهم الذي يُثبت صدقهم، وبعجزهم عن الإتيان بهذا الفعل يكون عجزهم عن تحقيق هذا الطلب (وهو العجز الذي يعلمه الله تعالى قبل أن يأمرهم بالأمر بالإتيان بالبرهان) دليلاً على أنّهم أُمروا به تعجيزاً لهم.

ومن الأمثلة القرآنيّة التي ورد فيها الأمر ووجّهه السيّد الطباطبائيّ إلى التعجيز الأمر بالاستهزاء الوارد في قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [سورة التوبة: ٦٤]، فالطباطبائيّ يرى أنّ (الأمر تعجيزيٌّ، أي: دوموا على نفاقكم وستركم ما تحذرون خروجه من عندكم إلى مرأى الناس ومسمعهم، فإنّ الله مخرجٌ ذلك، وكاشفٌ عن وجهه الغطاء، ومظهرٌ ما أخفيتموه في صدوركم)[٦٠].

وكذلك نجد التوجيه نحو التعجيز في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [سورة ص: ١٠]، فالطباطبائيّ يرى أنّ الأمر باللام والفعل المضارع (لْيَرْتَقُوا) قد خرج إلى غرض التعجيز[٦١].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [سورة الأحقاف: ٢٢]

يرى فيه الطباطبائيّ أنّ دلالة قوله:

(٥٧) مجمع البيان: ١/ ١٨٦.
(٥٨) التفسير الكبير: ٤/ ٤.
(٥٩) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٥٣.
(٦٠) الميزان: ٩/ ٣٤٢.
(٦١) الميزان: ١٧/ ١٩٤.

(فَأْتِنَا) أمرٌ يريدون به تعجيز النبيّ ﷺ في محاولة منهم ليُظهروا أنّه كاذبٌ في دعوته آفكٌ في إنذاره[٦٢].

ومثل ما تقدّم من الأوامر الموجّهة نحو التعجيز ما ورد من أمرٍ في قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[سورة الشعراء: ١٨٧]، فالطباطبائيّ يعتقد أنّ هذا (الأمر مبنيٌّ على التعجيز والاستهزاء)[٦٣].

توجيهات الطباطبائيّ

انفرد السيّد الطباطبائيّ عن الشيخ الطبرسيّ وعن سائر المفسّرين بتوجيهاتٍ لدلالة الأمر في القرآن الكريم لم نجدها إلا عنده، ومن أبرز هذه التوجيهات:

النهي: وهو المعنى الذي وجّه إليه الطباطبائيّ دلالة فعل الأمر (اهْبِطُواْ) في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٨]، فقد قال في تفسيره لهذا الأمر: (يجوز أن يكون الأمر بالهبوط والخروج كنايةً عن النهي عن المقام هناك بين الملائكة، لا عن أصل الكون فيها بالعروج والمرور من غير مقامٍ واستقرارٍ كالملائكة)[٦٤]، فالسيّد الطباطبائي يرى أنّ هذا الأمر بالهبوط المدلول عليه بالفعل (اهْبِطُواْ) الموجّه إلى آدم وحواء وإبليس إنّما يُراد منه النهي عن الاستمرار في المقام في الجنّة التي كانوا فيها، ولم نجد من المفسّرين من قال بما قاله الطباطبائيّ في هذا الموضع؛ وجلّ كلماتهم كانت تدور حول الفرق بين الأمرين بالفعل (اهْبِطُواْ) والسبب الموجب لتكرير الأمر بالهبوط في هذه الآية[٦٥]، فقد ذكر الهبوط قبل هذا النصّ في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[سورة البقرة: ٣٦].

الجواز: وهو التوجيه الثاني الذي وجدناه عند السيّد الطباطبائي منفرداً

(٦٢) ينظر: الميزان: ١٨/ ٢٢٩.
(٦٣) الميزان: ١٥/ ٣٤٢.
(٦٤) الميزان: ١/ ١٤٤.
(٦٥) ينظر: التفسير الكبير: ٣/ ٢٥، و الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٣٠.

به عن سائر المفسّرين ومتميّزاً به عن الشيخ الطبرسيّ، وهذا هو التوجيه لدلالة فعل الأمر الدالّ على المباشرة في قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[سورة البقرة: ١٨٧]، فالطباطبائيّ يعتقد أنّه (أمرٌ واقعٌ بعد الحظر، فيدلّ على الجواز)[٦٦]؛ فهو يرى هنا أنّ دلالة الأمر ليست حقيقيّةً (أي: إلزام فعل الأمر) وإنّما هي جواز الوجهين: الترك أو الفعل، وهو يتعامل مع النصّ بذائقةٍ تدلّ على وعيٍ بمعاني النصوص وإخراجها عن معانيها الحقيقيّة إلى أغراضٍ مجازيّةٍ، ولم يلتفت المفسّرون إلى دلالة هذا الفعل وتوجيهه بقدر ما عُنوا بتوضيح معنى المباشرة ودلالتها المجازيّة على الجماع[٦٧]، وعلاقتها الدلاليّة بالخيانة[٦٨] المذكورة قبلها في قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[سورة البقرة: ١٨٧]، وكذلك سبب تسمية الجماع بالمباشرة[٦٩].

التحذير: وهو المعنى الذي استدلّ عليه الطباطبائيّ من الأمر بالقتال في قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[سورة البقرة: ٢٤٤]، فهو يرى أنّ الأمر في هذا النصّ القرآنيّ إنّما هو (تحذيرٌ للمؤمنين في سيرهم هذا السير أن لا يُخالفوا بالقول إذا أمر الله ورسوله بشيءٍ)[٧٠]، والمقصود بالتحذير هنا هو التحذير من الفرار؛ فإنّ الفعل (قَاتِلُوا) قد ورد هنا ودلالته هي الـ(أمر من الله تعالى للمؤمنين ألا تهربوا كما هرب هؤلاء)[٧١]، فإنّ معنى (قاتلوا) هنا: (أي: لا تفروا أيّها المؤمنون كما فرّ بنو إسرائيل وقاتلوا أعداءكم)[٧٢]، ولذلك علّل المفسّرون سبب تقديم التطمين للمخاطبين المأمورين بالقتال بتهيئتهم للقتال، فـ(إنّ هذا استئناف خطابٍ للحاضرين، يتضمّن الأمر بالجهاد إلا أنّه سبحانه بلطفه ورحمته قدّم على

(٦٦) الميزان: ٢/ ٤٦.
(٦٧) إعراب القرآن وبيانه: ١/ ٢٤٥.
(٦٨) ينظر: التفسير الكبير: ٥/ ٩١.
(٦٩) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٢١٠.
(٧٠) الميزان: ٢/ ٢٩٨.
(٧١) الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ١٦٠.
(٧٢) إعراب القرآن وبيانه: ١/ ٣١٦.

الأمر بالقتال ذكر الذين خرجوا من ديارهم لئلا ينكص عن أمر الله بحبّ الحياة بسبب خوف الموت، وليعلم كلّ أحدٍ أنّه بترك القتال لا يثق بالسلامة من الموت)[٧٣].

التحفّظ: ومن اسم الفعل استدلّ الطباطبائيّ على توجيهٍ انفرد به عن غيره من المفسّرين، وهذا التوجيه كان نحو التحفّظ الذي استدلّ عليه من اسم فعل الأمر (عَلَيْكُمْ) الوارد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [سورة المائدة: ١٠٥]، فقد صرّح بأنّ المعنى هنا هو (إلزموا أمره تعالى في مقام الحثّ على التحفّظ)[٧٤]، فهذا الإلزام المأمور به هنا إنّما يدلّ على معنىً يتوجّه نحو التحفّظ، كما أشار إلى ذلك الرازيّ (ولكن من دون توجيهٍ دلاليٍّ) فقد قال في تفسير اسم الفعل (عَلَيْكُمْ): (أي: احفظوا أنفسكم من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب،.. . فقوله: (عليكم أنفسكم) يعني بأن يعظ بعضكم بعضاً ويُرغّب بعضكم بعضاً في فعل الخيرات، ويُنفّره عن القبائح والسيئات،.. . (عليكم أنفسكم) معناه: احفظوا أنفسكم، فكان ذلك أمراً بأن نحفظ أنفسنا)[٧٥]، وهذا هو التحفّظ الذي وجّه إليه الطباطبائيّ دلالة الأمر هنا، فـ(الجملة مستأنفةٌ مسوقةٌ لبيان أنّ كلّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسه)[٧٦].

(٧٣) التفسير الكبير: ٦/ ١٤٠.
(٧٤) الميزان: ٦/ ١٧٧.

توجيهات الطبرسيّ

ومثلما انفرد الطباطبائيّ وتميز بتوجيهاتٍ لدلالة الأمر في القرآن الكريم انفرد الطبرسيّ عن الطباطبائيّ بتوجيهاتٍ لأوامر وردت في القرآن الكريم كان قد انفرد بها عن سائر المفسّرين، ومن أبرز هذه التوجيهات:

الخبر: وهو التوجيه البارز الذي انفرد به الطبرسيّ لدلالة الفعل (تَمَتَّعْ) الوارد في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [سورة الزمر:

(٧٥) التفسير الكبير: ١٢/ ٩٣-٩٤، وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢١٤.
(٧٦) إعراب القرآن وبيانه: ٢/ ٣٠٥.

٨]، فالطبرسيّ يرى أنّ (هذا أمرٌ معناه الخبر)[٧٧]، وهذا التوجيه لم يذكره غيره من المفسّرين؛ فمعظمهم وجّهوا الدلالة الأمريّة هنا نحو التهديد، فإنّ (هذا الأمر يُسمّى أمر التهديد ونظيره قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[سورة فصلت: ٤٠]، وكقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [سورة الزمر: ٨])[٧٨].

التحدّي: وهو التوجيه الذي وجّه إليه الطبرسيّ دلالة الأمر في القرآن الكريم منفرداً به، وهذا التوجيه هو التحدّي الذي وجّه إليه الطبرسيّ دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٤٣]، فالطبرسيّ: يعتقد أنّ فعل الأمر (أَلْقُوا) قد ورد (بصورة الأمر، والمراد به التحدّي)[٧٩]، أمّا سائر المفسّرين (ومنهم الطباطبائيّ) فلم يذكروا هذا التوجيه لهذا الأمر، بل اكتفى بعضهم بالإشارة إلى توجيهٍ مقاربٍ للتحدّي ولكنّه ليس هو هو، فقد ذكر الرازيّ في تفسيره لهذه الآية أنّ ممّا أُشير إليه من دلالات فعل الأمر فيها هو التهديد، فـ(إنّ هذا ليس بأمرٍ بل هو تهديدٌ، أي: إن فعلتم ذلك أتينا بما يُبطله)[٨٠].

العظة: وهو التوجيه الذي كان لدلالة الفعل (انظُرُوا) عند الطبرسيّ في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾[سورة الروم: ٤٢]، فالطبرسيّ: يعتقد أنّه (ليس بأمرٍ، ولكنّه مبالغةٌ في العظة)[٨١]، وهذه العظة لم يُصرّح بها غير الطبرسيّ من المفسّرين؛ بل أشاروا إلى ما يُقاربها، فقد قال القرطبيّ في تفسير هذا الفعل وتوجيه دلالته: (أي: قل لهم يا محمّد: سيروا في الأرض ليعتبروا بمن قبلهم، وينظروا كيف كان عاقبة من كذب الرسل ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي: كافرين، فأُهلكوا)[٨٢].

التنبيه: وهو التوجيه الدلاليّ الذي قال به الطبرسيّ في تفسيره للأمر

(٧٧) مجمع البيان: ٨/ ٤٩١.
(٧٨) التفسير الكبير: ١٩/ ٩٨، وينظر: إعراب القرآن وبيانه: ٦/ ٤٩٥.
(٧٩) مجمع البيان: ٧/ ١٨٩.
(٨٠) ٢٤/ ١١٦.
(٨١) مجمع البيان: ٨/ ٣٠٧.
(٨٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣١.

الوارد في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[سورة البقرة: ٣١]، فهو يرى أنّ أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالفعل (أَنبِئُونِي) لإخباره بالأسماء المشار إليها إنّما معناه التنبيه، فإنّ (لفظة الأمر معناها التنبيه)[٨٣] عنده، ولعلّ الطبرسيّ قد التفت التفاتةً مؤدّبةً أمام الملائكة المنزّهين عن الخطأ، وقال بأنّ هذا الأمر الموجّه إليهم بالإنباء إنّما هو على سبيل التوجيه لهم وتنبيههم على جهلهم وعدم كفاية علمهم، وهذا ما لم يفعله غيره من المفسّرين، فقد ذكر القرطبيّ أنّ الأمر هنا هو على سبيل التقرير والتوقيف، فقد قال القرطبيّ: ((أنبئوني)) معناه: أخبروني، والنبأ الخبر.. . قال بعض العلماء: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق، لأنّه علم أنّهم لا يعلمون، وقال المحقّقون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف وإنّما هو على جهة التقرير والتوقيف)[٨٤]، وعبر الدرويش إلى توجيهٍ أشدّ من هذا التوجيه؛ فقال بالتعجيز توجيهاً لدلالة الفعل (أنبئوني) فقال إنّ (أنبئوني: فعل أمرٍ، والمقصود من الأمر هنا التعجيز)[٨٥]، أمّا الرازيّ فقد تجاوز حدّ التنبيه وعبر التقرير، ولم يكتف بالتعجيز، فقال بأنّ هذا الفعل هنا يدلّ على التبكيت، عندما قال في تفسيره: (من الناس من تمسّك بقوله تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ على جواز تكليف ما لا يطاق؛ وهو ضعيفٌ لأنّه تعالى إنّما استنبأهم مع علمه تعالى بعجزهم على سبيل التبكيت، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٨٦]، ولعلّنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا إنّ التوجيه الذي أورده الطبرسيّ هو الأقرب إلى مقام الملائكة، لأنّهم أقرب الخلق إلى الله لا يعصون له أمراً؛ فقد ذكر القرآن أنّهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[سورة

(٨٣) مجمع البيان: ١/ ٧٧.

(٨٤) الجامع: ١/ ٢٠١.

(٨٥) إعراب القرآن وبيانه: ١/ ٨٧.

(٨٦) التفسير الكبير: ٢/ ١٦٢.(مراجعة الصفحة).

التحريم: ٦]، والله أعلم!.

التعظيم والتعجيب والتوبيخ: وهذا التوجيه لم يكن الطبرسيّ منفرداً به بقدر ما كان متنوّعاً فيه، فقد حمل دلالة الفعل (أَرُونِي) الوارد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة سبأ: ٢٧]، على توجيهٍ مشتركٍ متداخلٍ بين ثلاثة معانٍ، فالطبرسيّ: يعتقد أنّ الأمر هنا بهذا الفعل (معناه التعظيم والتعجيب والتوبيخ)[٨٧]، ولعلّ هذا التوجيه من أنسب التوجيهات وأصحّها وأبينها في دلالة هذا الفعل الذي جاء به القرآن؛ فإنّ (أمرهم بإراءته الأصنام مع كونها بمرأىً منه؛ إظهاراً لخطئهم وإطلاعهم على بطلان رأيهم)[٨٨]، ولم يُشر غيره من المفسّرين إلى مثل هذا التوجيه، بل اكتفوا بتبيان معنى الرؤية وكونها رؤيةً بصريةً أم قلبيّةً، كما نجد عند القرطبيّ[٨٩].

المبالغة في الأياس من المغفرة (التيئيس): فالطبرسيّ يُوجّه دلالة فعل الأمر (اسْتَغْفِرْ) إلى التيئيس، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٨٠]، إذ يرى أنّ فعل الأمر هنا (صيغته صيغة الأمر، والمراد به المبالغة في الأياس من المغفرة)[٩٠]، وهذا التوجيه الدلاليّ لهذا الأمر يدلّ على وعيٍ بلاغيٍّ لدى المفسّر، فالقرآن الكريم يُخاطب النبيّ ﷺ بلفظ الأمر وهو لا يقصد أن يأمره بفعل شيءٍ بقدر ما يُريد أن يُبيّن أنّه يُبالغ في إياس هؤلاء من رحمته ومغفرته، وهذا من عظيم فعل القرآن وبلاغة تعبيره التي فاقت كلّ كلامٍ وكلّ تعبيرٍ، فهو يوصل المعاني بأسلوبٍ يُلفت انتباه السامع للنصّ والقارئ له، وهذا التيئيس لم يذكر منه المفسّرون شيئاً في تفسيراتهم عدا الإشارة إلى أنّه خبرٌ يدلّ على التسوية، فقد أشاروا إلى أنّه أمرٌ

(٨٧) مجمع البيان: ٨/ ٣٩٠.
(٨٨) إعراب القرآن وبيانه: ٦/ ٢٣٨.
(٨٩) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١٩٤.
(٩٠) مجمع البيان: ٥/ ٥٥.

يُراد به الخبر، كأنّه قيل: لن يغفر الله لهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وأنّ قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيه خروج الأمر والنهي عن معناهما الأصليّ إلى معنىً آخر هو التسوية، وهو من أبلغ الكلام، فقد يُوضع الطلب موضع الخبر للرضا بالواقع، حتّى كأنّه مطلوبٌ، فإنّه لا يتفاوت عدم غفران الله لهم بتفاوت استغفار الرسول عليه السلام وقوعاً وعدم وقوعٍ، فإنّ مقتضى المقام ها هنا هو الإخبار لا الأمر؛ لأنّه لا يصحّ أن يُحمل ها هنا على حقيقة الأمر، وهو طلب الشيء مع ضدّه[٩١].

(٩١) ينظر: إعراب القرآن وبيانه: ٣/ ٢٤٩-٢٥١.

الخاتمة

تناول هذا البحث التفكير الدلاليّ عند الطباطبائيّ وتوجيهاته الدلاليّة للأساليب القرآنيّة، والجمع بين آرائه في دلالة هذه الأساليب وآراء الشيخ الطبرسيّ، وقد وجدنا العلامة الطباطبائيّ عالماً من علماء الإسلام، فقد كان فيلسوفاً صاحب نظرٍ، وفقيهاً متبحّراً، ومفسّراً توصّل إلى لطائف القرآن الخفيّة، وكان له علمٌ واسعٌ بتفسير آيات القرآن الكريم، هذا العلم الذي أخذه أوّل ما أخذه من مدينة العلم مدينة أمير المؤمنين عليه السلام النجف الأشرف، وقد امتاز السيد الطباطبائي بالاستنباط الدلاليّ لمعاني القرآن الكريم، والاجتهاد في التوجيه لهذه الدلالات، وقد جاء بأمثلةٍ جديدةٍ غير مكرّرةٍ، ولم يُقلّد، ولم يتأثر بغيره بل استفاد منهم ووظّف ما عندهم في تفسيره.

ومن أهمّ المسائل التي وقف عليها هذا البحث: التمييز بين الدلالة والتوجيه الدلاليّ، والمقصود بالتوجيه الدلاليّ هو المسار الذي يضع فيه المفسّر دلالة الأسلوب القرآنيّ، وهذا المسار هو ما يقصده القرآن الكريم من هذه الدلالة، وهذا المقصود يُمثّل الغاية من الأسلوب القرآنيّ الذي يجتهد المفسّر في الوصول إليها والتعرّف عليها، والدلالة وحدها لا تكفي للوصول إلى المطلوب من

النصّ القرآنيّ، فالتوجيه الدلالي هو سر أسرار الإعجاز البيانيّ، وقد وجدنا عند العلامة الطباطبائيّ هذا التوجّه في تفسيره لأساليب القرآن والكشف عن دلالاتها والاجتهاد في وضع هذه الدلالات في مساراتها الصحيحة.

وقد بحثت هذه الدراسة في الأمر الذي هو أحد أنواع الكلام الذي لا يدخله الصدق والكذب، وإذا لم يفعله المأمور به سُمّي المأمور به عاصياً، ويكون بلفظ افعل، وليفعل، وهو صيغةٌ تستدعي الفعل، أو قولٌ يُنبئ عن استدعاء الفعل، وتُستعمل صيغة الأمر في معانٍ كثيرةٍ، وقد ورد الأمر في القرآن الكريم بدلالاتٍ كثيرةٍ، وقد وُجّهت دلالة هذا الفعل توجيهاتٍ متنوّعةٍ، وقد نال هذا الأمر من عناية الشيخ الطبرسيّ والسيّد الطباطبائيّ الكثير، ولعلّ هذا راجعٌ إلى صلة هذا المبحث بالأحكام الفقهيّة؛ وقد أشار كلا المفسّرين إلى أنّ الأمر يأتي بأشكالٍ متنوّعةٍ، وهو يرد في القرآن الكريم ولا يراد منه معناه الحقيقي إذ يرد والمقصود منه معاني أخرى غير ظاهر النصوص، والبحث في هذه الدلالات وتوجيهاتها كشف عن دلالاتٍ كثيرةٍ للأمر في النصّ القرآنيّ وجّهها المفسّران توجيهاتٍ عدّةٍ، اتّفقا على قسمٍ من هذه التوجيهات وانفرد كلٌّ واحدٍ منهما بقسمٍ منها، وأبرز هذه التوجيهات:

التوجيهات المشتركة: فقد ذكر الطباطبائي مجموعةً من التوجيهات الدلاليّة للأمر في القرآن الكريم، وقد وافقه عليها الطبرسي، وقد كانت هذه التوجيهات هي المشتركة بينهما وهذه التوجيهات هي: التهديد، والدعاء، والإباحة، والاستحباب، والتعجيز.

توجيهات الطباطبائي: وقد انفرد السيد الطباطبائي عن سائر المفسّرين وعن الشيخ الطبرسيّ بتوجيهاتٍ لدلالة الأمر في القرآن الكريم لم نجدها إلا عنده، ومن أبرز هذه التوجيهات: النهي، والجواز، والتحذير، والتحفظ.

توجيهات الطبرسيّ: والطبرسيّ قد انفرد عن الطباطبائيّ بتوجيهاتٍ للأمر الوارد في القرآن الكريم، وهو كذلك قد انفرد بها عن سائر المفسّرين، ومن أبرز هذه التوجيهات: الخبر، والتحدّي، والعظة، والتنبيه، والتيئيس.

المصادر

القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن. السيوطيّ (ت٩١١هـ). صحّحه: محمّد سالم هاشم. دار الكتب العلميّة. بيروت.

٢. أثر البلاغة في تفسير الكشّاف. عمر الملا حويش. مطبعة دار البصريّ. بغداد ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٣. أثر القرآن في تطوّر النقد الأدبيّ حتّى نهاية القرن الخامس الهجريّ. د. محمّد زغلول سلام. ط٣. مطبعة دار المعارف. مصر ١٩٦٨م.

٤. أدب الكاتب. ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ). تح: محمّد محي الدين عبد الحميد. ط٣. مطبعة السعادة. مصر ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

٥. أساليب الطلب عند النحويّين والبلاغيّين. د. قيس إسماعيل الأوسيّ. بيت الحكمة. بغداد.

٦. إعراب القرآن وبيانه. محيي الدين الدرويش. ط٧. دار ابن كثير. دمشق ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٧. الإيضاح في علوم البلاغة. القزوينيّ (ت٧٢٩هـ). تح: د. عبد الحميد الهنداويّ. ط٢. مؤسّسة المختار. القاهرة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٨. البحث البلاغيّ في تفسير الميزان. رياض خلف خزي المرشديّ. رسالة ماجستير. كلّيّة التربية. جامعة القادسيّة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٩. البحث الدلاليّ في تفسير الميزان: دراسةٌ في تحليل النصّ. د. مشكور كاظم العواديّ. مؤسّسة البلاغ. بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

١٠. البرهان في علوم القرآن. الزركشيّ (ت٧٩٤هـ). تح: مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلميّة. بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١١. تفسير القرآن بالقرآن عند العلامة الطباطبائيّ. د. خضير جعفر. ط١.

دار القرآن الكريم. قم ١٤١١هـ.
١٢. التفسير الكبير. الرازيّ (ت٦٠٦هـ). ط٢. دار الكتب العلميّة. بيروت ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
١٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبريّ (ت٣١٠هـ). تح: محمود محمّد شاكر. دار المعارف. مصر.
١٤. الجامع لأحكام القرآن. القرطبيّ (ت٦٧١هـ). تح: الشيخ هشام سمير البخاريّ. دار إحياء التراث العربيّ. بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
١٥. جواهر البلاغة. أحمد الهاشميّ. دار إحياء التراث العربيّ. بيروت.
١٦. الصاحبيّ في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. ابن فارس (٣٩٥هـ). تح: مصطفى الشويمي. مؤسّسة بدران. بيروت.
١٧. الطباطبائيّ ومنهجه في تفسير الميزان. عليّ الأوسيّ. مطبعة سبهر. إيران ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
١٨. طبقات أعلام الشيعة. آغا بزرك الطهرانيّ. ط١. المطبعة العلميّة. النجف ١٣٧٥هـ.
١٩. الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز. العلويّ (٧٤٩هـ). ط١. دار الكتب العلميّة. بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٢٠. الكتاب. سيبويه. تح: محمّد عبد السلام هارون. ط٢. مطبعة الهيئة المصريّة العامّة للكتاب ١٩٧٩م.
٢١. الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. الزمخشريّ. (ت٥٣٨هـ). تح: محمّد عبد السلام شاهين. ط١. دار الكتب العلميّة. بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
٢٢. لسان العرب. ابن منظور (ت٧١١هـ). دار صادر. بيروت ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.
٢٣. المبادئ العامّة لتفسير القرآن الكريم. د. محمّد حسين الصغير. مطبعة مكتبة الروّاد. بغداد ١٩٨٢م.
٢٤. مجاز القرآن. أبو عبيدة (ت٢١٠هـ). تح: محمّد فؤاد سزكين. ط١. مطبعة

الخانجي. مصر ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤.
٢٥. مجمع البيان في تفسير القرآن. الطبرسيّ (ت٥٤٨هـ). تح: هاشم الرسوليّ المحلاتيّ. دار إحياء التراث العربيّ. بيروت ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.
٢٦. معجم رجال الفكر والأدب في النجف خلال ألف عامٍ. محمّد هادي الأمينيّ. ط١. مطبعة الآداب. النجف ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
٢٧. مقالاتٌ تأسيسيّةٌ في الفكر الإسلاميّ. محمّد حسين الطباطبائيّ. ترجمة: جواد عليّ كسّار. ط٢. مؤسسة أم القرى ١٤١٨هـ.
٢٨. الميزان في تفسير القرآن. الطباطبائي (ت١٩٨٠م). ط٢. دار الكتب الإسلامية. طهران ١٣٨٩هـ.
٢٩. يادنامه مفسر كبير علامة طباطبائي.

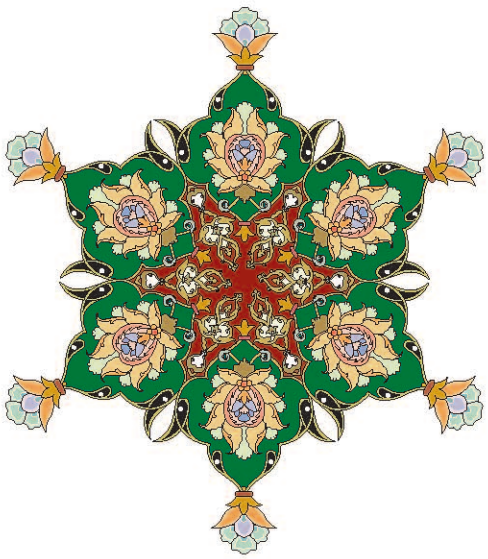

وقفة على قوله تعالى

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾

د. حسن عبد المجيد عباس الشاعر

كلية الآداب - جامعة الكوفة

ملخص البحث

يتخذ السيد الباحث من قوله -تعالى- «انما يخشى الله من عباده العلماء» منطلقاً لبحث الدلالة الاسلوبية للآية الكريمة التي جاءت ضمن سياق القرآن الكريم الساحر الذي يراعي في اسلوبه ما يسمى بـ(الموقع الامثل لعناصر الاسلوب)

وقد جاء البحث على وفق عنوانات محددة، فتحدث عن سياق الآية والمعنى المعجمي لالفاظها، والأقوال في قراءتها، ليختم البحث بشرح اسلوب الآية البياني معتمداً امهات المصادر التي يصل بها القديم بالحديث.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله المصطفين المطهرين، وعلى صحبه المنتجبين، ومن تابعهم بإحسان.

وبعد، فإن القرآن الكريم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نزل داعية لكل ما فيه صلاح الإنسانية؛ وكونه كتابا مقدسا ختمت به الأديان السماوية أعجز كل من يحاول بلوغ منزلته الشامخة إلى الحد الذي لا يمكن وصفه فكريا وأسلوبيا، وما كان لأحد أن يؤتى مثله وما يكون؛ فحري بنا أن نمعن النظر في آياته ونتدبرها.

وفي طبيعة الدرس القرآني سلوة تسحر العقول، وتولع القلوب؛ ففي تصويراته الخلابة، وألفاظه المعسولة، وأجراسه المتناغمة حلاوة ورشاقة لا يضاهيها شيء؛ وهو على الرغم من ذلك يصور الأشياء كما هي، فهو يجعل كل مشهد من مشاهده وكأنه أمام عينيك تلحظه وتحس به وإن نأى عنك زمانه ومكانه؛ وهو لم يقف على هذا فحسب، بل راعى ما سمي بالموقع الأمثل لعناصر الأسلوب؛ فالله تعالى مبدع انتقى الألفاظ وأماكنها وآلف بينها وبين ما يجاورها من الألفاظ بحيث إنه لا يمكنك أن ترفع إحداها وتضع مكانها واحدة غيرها حتى يبين لك حجم ما أفسدت وإخلال ما فعلت.

ونحن نريد أن نلتمس ذلك في قوله تعالى في الآية الثامنة والعشرين من [سورة فاطر] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ عسى الله أن يوفقنا، وهو على كل شيء قدير.

سياق الآية

من يقرأ قوله تعالى في الآية الثامنة والعشرين في سورة فاطر، وهو: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فإنه لا يلحظ أي ربط بينها وبين ما سبقها لأول وهلة، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ﴾ وذلك في الآية السابعة والعشرين من السورة نفسها، والجزء الأول من الآية الثامنة والعشرين منها،

الذي هو على علاقة وثيقة بما قبله مبتنيا على عطف الجمل بعضها على بعض، أو على جعله كلاما مستأنفاً؛ ولكنه إذا قرأ ما بعدها، هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾، فإنه سيلحظ بينهما ربطا، وقد ربط بينهما الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ)، بقوله: «وكذلك ينظر العلماء في حجج الله وبيناته ويفكرون في ما يفضي بهم إلى معرفته من جميع ما تقدم ذكره»[1].

وذكر الزمخشري (ت٥٣٨هـ) أن وجه اتصال قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ هو أنه «لما قال ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء، وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته، أتبع ذلك ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك: ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه»[2].

وقال أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) إنها «تعليل لخشية إذ العزة تدل على عقوبة العصاة وقهرهم والمغفرة على إنابة الطائعين والعفو عنهم»[3].

وذكر الألوسي (ت١٢٧٠هـ) أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ تكملة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [سورة فاطر:١٨]، وذلك «بتعيين من يخشاه عز وجل من الناس بعد الإيماء إلى شرف الخشية ورداءة ضدها... وسلك به مسلك الكناية من باب العرب لا تخفر الذمم ولا دلالة على أن العلم يقتضي الخشية ويناسبها وهو تخلص إلى ذكر أوليائه تعالى مع إفادة أنهم الذين تقع فيه [يقع فيهم] الإنذار...»[4].

ورأى السيد محمد حسين الطبأطبائي أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ «استأناف يوضح أن الاعتبار بهذه الآيات إنما يؤثر أثره ويورث الإيمان

(١) التبيان في تفسير القرآن، تحـ: أحمد حبيب قصير العاملي: ٨/ ٤٢٧.

(٢) تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٣/ ٦١١.

(٣) البحر المحيط: ٧/ ٣١٢.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ٢٢/ ١٩١.

بالله حقيقة»[٥]؛ «والخشية منه بتمام معنى الكلمة في العلماء دون الجهال، وقد مر أن الإنذار إنما ينجح فيهم حيث قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ فهذه الآية كالموضحة لمعنى تلك تبين أن الخشية حق الخشية إنما توجد في العلماء».

ومن ذلك نستدل على العلة أو الوجه من استئناف هذا الكلام وأنه على صلة بما قبله لا أعني بذلك الصلة النحوية، وإنما المعنى المستفاد من الاعتبار ومن يعتبرون به، وهم العلماء.

المعنى المعجمي لألفاظ الآية

الآية تتكون من ست كلمات: إنما +يخشى +الله +من + عباده + العلماء. أما (إنما) فإنها واحد من طرق القصر التي منها (ما + لا)، والعطف بـ (لا، بل، لكن)، وتقديم ما حقه التأخير[٦]. وهي تتركب من (إن) المؤكدة، و(ما) التي تعددت فيها الوجوه[٧]. أما (يخشى) فإنه حدث انصرف إلى زمان مطلق؛ والخشية الخوف المشوب بالعظمة والمهابة[٨]. وهي ليست كالخوف، أي: الفزع الذي فطرنا عليه بل هو أكبر من ذلك وأعظم، و «الخشية منه بتمام معنى الكلمة في العلماء دون الجهال»[٩]. أما لفظ الجلالة (الله) فإنه علم للذات المقدسة لا اسم جنس[١٠]؛ ويتكون من (أل) التعريف ولفظ (إله) بسقوط الهمزة[١١]. أما (من) فهو واحد من حروف الجر، ويتضمن معان كالتبعيض، وبيان الجنس، وابتداء الغاية، وغيرها[١٢]. وهو في هذه الآية يحتمل التبعيض إذا كان المراد بـ(العباد) كل من

(٥) الميزان في تفسير القرآن: ١٧/ ٤٣.
(٦) ظ. مفتاح العلوم، السكاكي، تحـ: أكرم عثمان يوسف: ٥٠٨-٥١٢، وجواهر البلاغة، أحمد الهاشمي: ١٨١.
(٧) سنتطرق إليها حين نتحدث عن التركيب النحوي للآية.
(٨) ظ. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (خشي): ١٠/ ١١٣.
(٩) الميزان: ١٧/ ٤٣.
(١٠) ظ. البيان في تفسير القرآن، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي: ٤٥٠.
(١١) ظ. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (أله): ١/ ٢٥.
(١٢) ظ. شرح ابن عقيل، تحـ: محمد محيي الدين عبد الحميد: ٢/ ١٥-١٦، ١٨.

يعبد الله حقا، أو على الظاهر، أو بيان الجنس إذا كان المراد بهم كل من يعبد حقا لا على الظاهر. أما (العباد) فإنه جمع عبد، والعبد نظيره الحر، والعباده: الطاعة، ولا يقال: عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله(١٣).

ولهذا الجمع خصوصية في القرآن الكريم، فقد استعمله سبعا وتسعين مرة، وهو كثير جدا إذا وازناه بـ(عبيد) الذي استعمله القرآن الكريم خمس مرات. والمراد بالعباد في التعبير القرآني من يعبدون الله حقا، وذلك إذا أضيف إليه ما أكنى عن لفظ الجلالة مباشرة (عباده، عبادي، عبادك، عبادنا)، أو إذا تعلق به ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ [سورة الإسراء:٥]، أو أن تضاف إليه صفة من صفات الله التي هي عين ذاته المقدسة ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [سورة الفرقان:٦٣]؛ أو يراد به من يعبدون الله حقا، أو على الظاهر ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[سورة آل عمران:١٥]. أما (عبيد) فإنه يعم دائما ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[سورة الأنفال:٥١]. أما (عبد) فيراد له في التعبير القرآني من يعبدون الله حقا وذلك إذا أضيف إليه لفظ الجلالة ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾[سورة مريم:٣٠]، أو ما أكنى عنه (عبده، عبدنا)، أو من خلال السياق والوصف ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[سورة الإسراء:٣]، و ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾[سورة ص:٣٠]. وأما في غير ذلك فهو العبد المملوك ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾[سورة البقرة:١٧٨].

أما (العلماء) فإنه جمع عليم لا عالم، قال سيبويه (ت١٨٠هـ): «وعلماء يقولها من لا يقول إلا عالم»(١٤). ولكن قياس اسم الفاعل من (علم) هو عليم، فإنه «لما كان العلم إنما سكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابسة صار كأنه غريزة... فلما خرج بالغريزة إلى باب فعل صار (عالم) فى المعنى كعليم، فكسر تكسيره»(١٥). وأرى أن لكلا اللفظتين في التعبير القرآني مدلولا معينا،ف (عليم) أو المعرف بـ(أل) التعظيم (العليم) استعمل في القرآن

(١٣) ظ. تاج العروس (عبد): ٢/ ٤١٠.

(١٤) كتاب سيبويه، ط بولاق: ٢/ ٢٠٦.

(١٥) الخصائص، ابن جني، تحـ: محمد علي النجار: ١/ ٣٨٢.

الكريم ثمانيا وثلاثين ومائة مرة، وهو خبر دائما مختص بالله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة البقرة:٣٢]، و﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[سورة البقرة:٢٩] في حين استعمل (عالم) ثلاث عشرة مرة، وهو مختص بالله تعالى والبشر؛ ولكنه لا يكون مختصا بالله تعالى إلا وهو مضاف، وكون علمه منحصرا في شيء لا يبلغه البشر ولن يبلغوه، وهو علم الغيب والشهادة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [سورة الأنعام:٧٣]، أو علم الغيب ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾[سورة سبأ:٣]، أو علم غيب السموات والأرض ﴿عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[سورة فاطر:٣٨]. وإنما كان التحول من الصيغة القياسية (عليم) إلى الصيغة السماعية (عالم) فيما يخص البشر من دون إضافته إلى شيء، أو إضافته إلى شيء هو في مقدور البشر، لئلا يقال: الله عالم، وفلان عالم؛ وإنما يقال: الله عليم، والله العليم؛ أو يقال: عالم الغيب، أو عالم غيب السموات والأرض، أو عالم الغيب والشهادة. والعلم «إدراك الشيء بحقيقته»[١٦]. وقد تعددت الأقوال في حقيقة العلم في هذه الآية، وكلها تجتمع في شيء واحد، وهو أن العلم بالله، أي بقدرته توقنك بعقابه على معصيته، وقد خص العلماء بذلك لذلك[١٧]. وفي الأثر: «العلماء بالله الذين يخافونه»[١٨]، و «ليس العلم من كثرة الحديث ولكن العلم من الخشية»[١٩].

القراءة

ذكر الزمخشري على سبيل أن يسأل فيجيب: ما وجه القراءة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ برفع لفظ الجلالة، وهي بحسب ما ذكر قراءة عمر بن عبد العزيز، وتحكى عن أبي حنيفة (ت١٥٠هـ)،

(١٦) تاج العروس (علم): ٨/ ٤٠٥.

(١٧) ظ. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، تح: صدقي جميل العطار: ٢٢/ ١٥٨، ومعاني القرآن، أبو جعفر النحاس، تح: محمد علي الصابوني: ٥/ ٤٥٤، والتبيان: ٨/ ٤٢٧، ومجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، تح: جماعة من العلماء: ٨/ ٢٤٢، والتفسير الصافي، محسن الفيض الكاشاني: ٨/ ٢٣٧.

(١٨) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي: ٥/ ٢٤٩-٢٥٠.

(١٩) الدر المنثور: ٥/ ٢٥٠.

فقال: «الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجلهم ويعظمهم، كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده»[٢٠]. وذكر القول نفسه القرطبي (ت٦٧١هـ)، وأبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ)، والبيضاوي (ت٧٩١هـ)، والألوسي (ت١٢٧٠هـ)[٢١].

وذكر أبو حيان أن نصب لفظ الجلالة قراءة الجمهور، ولعل ما حكي برفعه، وهو قراءة عمر بن عبد العزيز، وأبي حنيفة لا يصح عنهما، ثم قال: «وقد رأينا كتبا في الشواذ ولم يذكروا هذه القراءة وإنما ذكرها الزمخشري وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن جبارة في كتابه الكامل»[٢٢]. وذكر الألوسي أن صاحب النشر طعن في هذه القراءة، وقد عدت إلى كتاب (النشر في القراءات العشر) ولم أجد شيئا عن هذه القراءة على الرغم من أنه ذكر فيه كتاب الكامل مرتين، الذي هو من تأليف القارىء الأندلسي أبي القاسم يوسف بن علي بن جبارة[٢٣]، وذكر الألوسي جنادة بدلا من جبارة[٢٤]. ومجمل القول إن هذه القراءة لا صحة لها، وهي إن صحت فيحكم عليها بأمرين الأول شذوذها كون جمهور المسلمين آخذين بنصب لفظ الجلالة لا رفعه، والثاني ابتعادها عن ظاهر النص، والآخذ بخلافه يغرق في التأويل والدخول في أمور أخرى لا طائل لها.

التركيب النحوي للآية

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ تقدم لفظ الجلالة، وحقه التأخير، لأنه مفعول به، وربما يكون ذلك لأنه كان متحدثا عنه في الآية السابقة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [سورة فاطر:٢٧]. وقد يسأل سائل: ألا يكون قولنا: يخشى العلماء الله مثله، والرتب فيه منضبطة: الفعل + الفاعل + المفعول به؟ فنجيبه بالقول: إنه تعالى أراد توكيد الحكم

(٢٠) الكشاف: ٣/ ٦١١.

(٢١) ظ. الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٤٤، والبحر المحيط: ٧/ ٣١٢، وتفسير البيضاوي: ٤/ ٤١٨، وروح المعاني: ٢٢/ ١٩١.

(٢٢) البحر المحيط: ٧/ ٣١٢.

(٢٣) ظ. النشر في القراءات العشر، ابن الجزري: ١/ ٣٥، ٩١.

(٢٤) ظ. روح المعاني: ٢٢/ ١٩١.

بـ(إنما)، فيقول: ألا يكون قولنا: إن العلماء يخشون الله، أو بزيادة: إن العلماء ليخشون الله توكيدا للحكم ؟ فنجيبه بالقول إن التوكيد بـ (إنما) غير التوكيد بـ(إن) فإن المراد من (إنما) تأكيد للحكم على تأكيد، فقد ذكر السكاكي (ت٦٢٦هـ) أن هناك وجها لطيفا يسند إلى علي بن عيسى الربعي (ت٤٢٠هـ)، وكان من أكابر النحويين في بغداد حينذاك، وهو أن (إن) لما كان المراد منها إثبات المسند إليه بالمسند ثم اتصلت بها (ما) المؤكدة لا النافية تضاعف تأكيدها[٢٥]. وقال السكاكي إن أئمة النحو قالوا بأن (إنما) تجيء لتثبت ما بعدها وتنفي عن غيره دفعة واحدة[٢٦]. وهي تؤكد الكلام مع ذلك[٢٧]. وهذا التوكيد لا يبين إلا بها، فلو قلت: ما يخشى الله إلا العلماء، أو ما يخشى الله إلا الجهلاء من العباد بل العلماء، أو لكن العلماء يخشونه، أو يخشى الله العلماء لا الجهلاء، أو يخشى الله العلماء بتقديم ما حقه التأخير، فإن كل واحد من طرق القصر هذه لا يؤدي التوكيد بالصورة التي أفادته (إنما).

وقد تعددت الآراء في ماهية (ما) المتصلة بـ(إن)، فمنهم من عدها اسما مبهما بمنزلة ضمير الشأن في التفخيم، والإبهام، والجملة بعده مفسرة له، ومخبر بها عنه، وهو ما زعمه ابن درستويه (ت٣٤٧هـ) وبعض الكوفيين[٢٨]. ومنهم من عدها نافية على، وهو ما ذهب إليه جماعة من الأصوليين، والبيانيين[٢٩]. وهذا محال كونه يتنقض مع المعنى المتبادر إلى الذهن، والقريب إلى الأفهام، فكيف إذا خلصنا إلى أقوال المفسرين ؟، ومنهم من عدها بمعنى (الذي) [٣٠]، وذلك لا يكون إلا إذا دخلت على فعل فإنه لا يعقل أن يقال: إنما زيد قائم بمعنى: إن الذي زيد قائم. ومنهم من عدها كافة للعامل[٣١]، وهو (إن) الناسخة للابتداء، وهذه التسمية

(٢٥) ظ. مفتاح العلوم: ٥١٠-٥١١.
(٢٦) ظ. مفتاح العلوم: ٥١٠.
(٢٧) ظ. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحـ: محمد محيي الدين: ١/ ٣٠٩.
(٢٨) ظ. المغني: ١/ ٣٠٧.
(٢٩) ظ. المغني: ١/ ٣٠٨-٣٠٩.
(٣٠) ظ. كتاب سيبويه، الحاشية بشرح أبي سعيد السيرافي (ت٣٨٥هـ): ١/ ٢٨٣.
(٣١) ظ. المصدر نفسه.

لا تصلح إلا في حال دخولها على اسم، ومنهم من عدها زائدة[٣٢]، وهذا أبعد ما يكون عن روح المعنى والذوق السليم، ويمكن أن تعد أيضا في حال من الأحوال بـ (المهيئة)، وذلك حين تدخل على فعل، وهذا ما يستشف من قول الرضي الاسترابادي (ت٦٨٨هـ)،: «لأن لها تأثيرا قويا، وهو منع العامل من العمل وتهيئته لدخول ما لم يكن له أن يدخله»[٣٣].

وهي من حيث الإعراب لا تعمل فيما بعدها، وفي قولك: إنما زيد منطلق ألغي العمل، وهو حسن؛ قال ذلك الخليل (ت١٧٤هـ) [٣٤]. وذكر سيبويه أنها «فيما زعم الخليل بمنزلة فعل ملغى مثل أشهد لزيد خير منك لأنها لا تعمل فيما بعدها ولا تكون إلا مبتدأة بمنزلة إذا لا تعمل فى شيء»[٣٥]. ثم بين كلام الخليل بقوله: «فإنما أدخلت إنما على الكلام فصار كقولك إنما أنت صاحب كل خنى لأنك أدخلتها على كلام قد عمل بعضه في بعض»[٣٦]. وهي قد تعمل قليلا عند ابن السراج (ت٣١٦هـ)، والزجاجي (ت٣٤٠هـ) [٣٧]. و(إنما) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ تأكيد على تأكيد ولا يمكن أن تكون كافة على الرغم من جزم النحاة بذلك بحسب ما ذكره ابن هشام (ت٧٦١هـ)، الذي زاد على ذلك أنه لا يمتنع كونها بمعنى (الذي) والعلماء خبره والعائد ضمير مستتر في الفعل (يخشى) [٣٨].

والظاهر إن هناك وجوها كثيرة دعت إلى تقدم المفعول على الفاعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾ منها السياق كون لفظ الجلالة متحدثا عنه في الآية السابقة، ومنها المعنى المناسب الذي لا يفضي إلى التأويل والخروج على ظاهر النص، فقد ذكر الزمخشري أنك إن «قلت هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا

(٣٢) ظ. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، ابن هشام الأنصاري، تحـ: محمد محيي الدين: ٢٧٩.
(٣٣) شرح الرضي على الكافية: ٤/ ٤٣٥.
(٣٤) ظ. كتاب سيبويه: ١/ ٢٨٢-٢٨٣.
(٣٥) كتاب سيبويه: ١/ ٤٦٦.
(٣٦) المصدر نفسه.
(٣٧) ظ. شرح ابن عقيل: ١/ ٣٧٤.
(٣٨) ظ. المغني: ١/ ٣٠٨.

الكلام أو أخر ؟ قلت: لا بد من ذلك، فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى: إن الذين يخشون الله من عباده هم العلماء دون غيرهم، وإذا عملت العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله، كقوله تعالى ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ وهما معنيان مختلفان»(٣٩). والمراد هو حصر الفاعلية بتقديم المفعول به ولو أخر لانعكس الأمر(٤٠). فيتضح من الأول أن الخاشين هم العلماء، ويتضح من الثاني أن المخشي منه هو الله تعالى(٤١). ثم إنه لا يمكننا تجاهل الأسلوب، الذي أدى إلى ذلك.

ويستشف من تقدم ما يتعلق بالفعل، وهما الجار والمجرور (من عباده) على الفاعل (العلماء) أمران:

١- التشويق إلى معرفة من قصرت عليه خشية الله.

٢- التعظيم، فإنه تعالى خاطبهم بلفظ (العباد) المضاف إلى ما أكنى عنه، وهو الهاء العائدة عليه سبحانه.

٣- الأسلوب.

ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ بأسلوب القصر بطريق (إنما)، وهو الحصر عند بعضهم لا من حيث المعنى المعجمي بل الاصطلاحي(٤٢).

والقصر لغة: الحبس(٤٣). وهو الحسب والكفاية والغاية، يقال: «قصرك أن تفعل كذا أي حسبك وكفايتك وغايتك... وهو من معنى القصر الحبس لأنك إذا بلغت الغاية حبستك»(٤٤). والقصر اصطلاحا: «تخصيص شيء بشيء وحصره فيه»(٤٥)، أو هو «تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص»(٤٦). والشيء الأول هو المقصور، والشيء الثاني هو المقصور عليه كتخصيص الفعل بالفاعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ويستدل على التخصيص «بالوضع وجزم

(٣٩) الكشاف: ٣/ ٦١١.
(٤٠) ظ. تفسير البيضاوي: ٤/ ٤١٨.
(٤١) ظ. تفسير النسفي: ٣/ ٣٤٢.
(٤٢) ظ. معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي: ١/ ١٨١.
(٤٣) ظ. لسان العرب، ابن منظور (قصر): ٥/ ٩٩.
(٤٤) لسان العرب (قصر): ٥/ ٩٧.
(٤٥) التعريفات، الجرجاني: ٢٢٥.
(٤٦) مختصر تلخيص المفتاح، التفتازاني: ٢/ ١٦٦.

العقل ودلالة التقديم عليه بوساطة الفحوى وحكم الذوق»[٤٧]. و(إنما) تفيد القصر لتضمنها معنى (ما) و (لا)، والمفسرون يقولون: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ [سورة البقرة:١٧٣] بالنصب معناه: ما حرم عليكم إلا الميتة والدم، وهو مطابق لقراءة الرفع لانحصار التحريم عليهما[٤٨].

والقصر في هذه الآية حقيقي وخلافه غير الحقيقي (الإضافي)، والمراد بالقصر الحقيقي اختصاص المقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع ولا يتعداه إلى غيره أصلا، نحو: لا إله إلا الله؛ أما غير الحقيقي، فالمراد منه اختصاص المقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء مخصوص لا إلى ما عدا المقصور عليه كقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [سورة آل عمران:١٤٤]، فليس المقصود أن الرسالة اختصت به وحده[٤٩].

(٤٧) مفتاح العلوم: ٥١٢.

(٤٨) ظ. مفتاح العلوم: ٥١٠، ومن كتب التفسير: جامع البيان: ٢/ ١١٥، والتبيان: ٢/ ٨٣.

(٤٩) ظ. التلخيص في علوم البلاغة، القزويني: ١٣٧، والإيضاح في علوم= =البلاغة، القزويني: ٧٠.

(٥٠) ظ. التلخيص: ١٣٧.

(٥١) ظ. المفتاح: ٥٢١، والإيضاح: ٧٧.

(٥٢) البحر المحيط: ٧/ ٣١٢.

وفي هذه الآية قصرت الصفة على الموصوف، والمراد بالصفة الأمر المعنوي لا النعت في النحو[٥٠] (٦٧)؛ فقد قصرت خشية الله على العلماء لا قصر خشية العلماء على الله بتبادل موضعي (الله)، و(العلماء)، لأن حكم ما بعد (إنما) كحكم المستثنى ولكنه معها لا يجوز تقديمه أو تأخيره كما يحدث في (ما) و (لا)، لأنه يؤدي إلى الإلباس، ومن ذلك يعثر على الفرق بين قولنا بتقديم المرفوع الذي يوجب قصر خشية العلماء على الله، وقولنا بتقديم المنصوب الذي يوجب قصر خشية الله على العلماء[٥١]. وقيل إن «إنما في هذه الآية تخصيص العلماء لا الحصر وهي لفظة تصلح للحصر وتأتي أيضا دونه وانما ذلك بحسب المعنى الذي جاءت فيه»[٥٢]. وهذا القول ينتقض تماما مع ما ذكر عن إفادة (إنما) القصر الذي هو الحصر من حيث المعنى المعجمي.

وتطلق (إنما) من المتكلم في مقام يجب على المخاطب أو السامع ألا يصر على

خطئه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [سورة النساء:١٧١]، فيتلقاه بالقبول.

والأصل فيها استعمالها في حكم لا يعوزك تحقيقه لأنه جلي أو تدعيه جليا؛ ومن الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[سورة البقرة:١١]، فإنهم ادعوا كعادتهم في الكذب أنهم مصلحون، وهو أمر جلي لذا أكد تعالى تكذيبهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [سورة البقرة:١١] بالجملة الاسمية، وتعريف الخبر بـ(أل)، وضمير الفصل، و(إن) المؤكدة، وحرف التنبيه المصدر[٥٣]. وقال الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) في ذلك: «وقد ينزل المجهول منزلة المعلوم لادعاء المتكلم ظهوره»[٥٤]؛ وقال: إن من أحسن مواقع (إنما) التعريض كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الرعد:١٩]، فإنهم لفرط جهلهم وعنادهم في حكم من ليس بذي عقل، فهم كالبهائم، فطمعكم في النظر والتذكر كطمعه منها[٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ خرج إلى ذلك فالمراد منه أن الجهلاء لا يخشون الله، لأنهم لا علم لهم بالله في بديع ما صنع فينظروا فيه ويتفكروا.

والذي نخلص إليه بخصوص هذه الآية أنها قد تركبت بما قبلها وما بعدها تركبا لا يمكن من دونه أن يتصور المعنى المراد، وكذلك الحال في العناصر التي تركبت منها، فناسبت ما قبلها وما بعدها، وتناسبت عناصرها أيضا فإنه لا يمكنك أن ترفع بعضها وتضع بدلا منه غيره، أو تبادل بين عناصرها؛ وهي زيادة على ذلك جاءت بأسلوب رفيع بان فيه التوكيد بشدة مع الإيجاز أيضا، فقد قيل إن «القصر من ضروب الإيجاز الذى هو أعظم ركن من أركان البلاغة، إذ أن جملة القصر في مقام جملتين، فقولك (ما كامل إلا الله) تعادل قولك: الكمال لله، وليس كاملا غيره»[٥٦].

(٥٣) ظ. مفتاح العلوم: ٥١٥-٥١٧.
(٥٤) الإيضاح: ٧٤.
(٥٥) ظ. التلخيص: ١٤٧-١٤٨، والإيضاح: ٧٥.
(٥٦) جواهر البلاغة: ١٨٧.

صور من الكناية في القرآن الكريم

الاستاذ المتمرس الدكتور علي محسن مال الله
كلية صدر العراق الجامعة- بغداد

ملخص البحث

يقرر السيد الباحث أن الكناية ضرب من ضروب البيان العربي، فهو من مراتب الكلام البليغ الذي يكون مستساغاً على السمع، فهي تُلمِحُ للمعنى المقصود تلميحاً مع وجود قرينة دالة على المراد والقصد.

يقدم الباحث بمقدمة يعرّف فيها الكناية لغةً واصطلاحا ثم يشرح انواع الكناية الثلاثة (عن صفة وعن موصوف وعن نسبة) ويضرب على ذلك أمثلة من القرآن الكريم ثم يتطرق وفي مبحث مستقل، الى موضوع (الكناية في ضوء السياق) والتي تأتي على اربعة أنواع هي: التعريض، والتلويح، والرمز والايماء أو الاشارة. وهو في كل ذلك يضرب أمثلة من القرآن الكريم. ويختم بحثه بقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدها.

المبحث الاول: الكناية

تعريفها لغة: -هي مصدر وفعلها ثلاثي ((كنى)) او ((كَنَوَ)) وكنا يكنو، وذكر ابن منظور في ((كنى)) ثلاثة اوجه[1]:-

احدها: -ان يكنى عن الشيء الذي ذكره. نحو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [سورة البقرة:٢٣٥]. او نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [سورة الاعراف:١٨٩] كنايه عن الملامسة او الجماع.

الثاني: -أن يُكنى الرجل توقيراً وتعظيماً، نحو قولهم ابو الهيجاء كان كريماً سخياً. او نحو قولهم: ابو زيد الهلالي كان اسطورة في الشجاعة.

الثالث: -ان تقوم الكناية مقام الاسم فيعرف بها نحو قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ وابو لهب اسمه الحقيقي عبد العُزى [2] عرف بكنيته فسماه الله سبحانه وتعالى بها.

تعريفها اصطلاحاً: -لقد عرفها البلاغيون تعريفات شتى منها:-

ان يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء الى معنى هو تاليه، ورد في الوجود فيومئ به اليه ويجعله دليلاً عليه))[3].

وربما كَنى عن الشيء ولم يجرِ له ذكر في مثل قوله جلّ ثناؤه: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [سورة الذاريات:٩] أي يؤفك كناية عن الدين او عن النبي ﷺ [4].

وذكر ابن فارس ان من الكناية ان يكون الاسم ظاهراً مثل زيد، وعمرو، ويكون مكنيّاً، وبعض النحويين يسميه مضمراً مثل: هو، وهي، وهما، وهُنَّ.

وزعم بعض اهل العربية أن اول احوال الاسم الكناية ثم يكون ظاهراً قال: وذلك ان اول حال المتكلم ان يخبر عن نفسه ومخاطبه فيقول: أنا، وأنت وهذان لاظاهر لهما، وسائر الاسماء تظهر مرة، ويكنى عنها مرة.

والكناية: متصلةٌ، ومنفصلة،

(١) اللسان مادة ((كنى)) ٢٠/ ٨٩.
(٢) الصاحبي ص ٤٣٩، والبلاغة والتطبيق ص٣٦٧.
(٣) الصاحبي ص ٤٣٩. الصناعتين ص ٣٨١، ودلائل الاعجاز ص ٥٢.
(٤) انظر الصاحبي ص ٤٤.

ومُستجِنَّة.

فالمتصلة: كالتاء في حملتُ، وقمتُ.

والمنفصلة: كقوله -تعالى-﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

والمستجِنَّة: قولنا: -قامَ زيدٌ، فاذا كنينا عنه قلنا قامَ فَتَسَتّر الاسمُ في الفعل [٥].

وفي هذا السياق هناك كُنى [٦] الرؤيا، وهي الامثال التي تكون عند الرؤيا يُكنى بها عن اعيان الامور، وفي الحديث: ((إن للرؤيا كُنىً، ولها اسماء فَكَنُوها بِكُناها، وأَعتَبروا باسمائِها)) [٧]... وما الى ذلك من التعريفات.

اركان الكناية:

ترتكز الكناية على اركان ثلاثة:

اولها: المكنى به، وهو دلالة اللفظ الظاهر التي تقوم دليلاً على مراد المتكلم.

وثانيها: المكنى عنه، وهو المعنى اللازم للمكنى به الذي يرمي اليه الناطق بالكناية.

وثالثها: القرينة العقلية التي يفرزها سياق الكلام لترشد الى المكنى عنه وتمنع ارادة المعنى المكنى به [٨].

اقسام الكناية:

تنقسم الكناية على قسمين:

القسم الاول: انواع الكناية و تكون على ثلاثة انواع كناية عن الصفة، وكناية عن الموصوف، وكناية عن النسبة.

القسم الثاني: انواع الكناية في ضوء السياق والوسائط التي توصلنا الى المكنى عنه، واهمها اربعة انواع:-

هي التعريض، والتلويح، والعرض، والاشارة.

انواع الكناية:

اولاً: الكناية عن الصفة، والصفة تنقسم على قسمين: صفة قريبة نحو قوله تعالى: -﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾. اذ جعل اليد مغلولةً كناية عن البخل، وجعلها مبسوطة كناية عن الاسراف [٩].

---

(٥) الصاحبي ص ٤٤٠.

(٦) الطراز ١/ ٣٦٥.

(٧) الحديث في لسان العرب مادة ((كنى)) ٢٠/ ٩٩.

(٨) البلاغة والتطبيق ص ٢٧٠.

(٩) مفتاح العلوم ١٩٠، المثل السائر ٣/ ٥٨، التلخيص في علوم البلاغة ٣٣٨، الايضاح ٢٣٢، المطول في شرح تلخيص مفتاح العلوم ٦٣٢، جواهر البلاغة ٣٥٨، البلاغة والتطبيق ٣٧١.

ونحو قولهم: ((طويل النجاد)) كناية عن طول القامة[١٠].

وكناية بعيدة: وهي ما يكون الانتقال فيها الى المطلوب بوساطة نحو: حاتم كثير الرماد. كناية عن المضياف والوساطات هي الانتقال من كثرة الرماد الى كثرة الاحراق، ومنها الى كثرة الطبخ والخبز، ومنها الى كثرة الضيوف ومنها الى المطلوب وهو المضياف الكريم[١١].

ثانياً: الكناية عن الموصوف:

المراد به غير الصفة، ولا نسبة فمنها ما هو معنى واحد نحو قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [سورة المدثر:٤] كناية عن القلب، ونحو قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الزخرف:١٨] كناية عن البنت، او النساء، لان اهل البنت يجمّلونها بالحلية، وانواع الزينة منذ نشأتها[١٢].

الكناية عن النسبة:- وهي ان نأتي بالمراد منسوباً الى امر يشتمل عليه مَنْ هي له حقيقة، والغاية منها تخصيص صفة او مجموعة صفات لموصوف[١٣].

اما تخصيص الصفة فنحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى:١١] فانه نفيٌ نفياً باتاً بان يكون لله سبحانه وتعالى مثيل، أو نظير قط. ونحو قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [سورة البقرة:٢]. أي الخفاء كناية عنه والمراد بالخفاء الذي لا يدركه الحسن ولا تقتضيه بديهة العقل، سواء بَعُدَ ام قرب. أي ان المتقين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه. ويؤمنون بالحياة بعد الموت، وبالبعث فهذا غيبٌ كله[١٤]. ومن تخصيص الصفة قوله ﷺ ((المسلم من سَلِمَ المُسلمون من لسانه ويَدِهِ))[١٥] كناية عن المؤذي من الناس.

(١٠) المطول في شرح تلخيص المفتاح و العلوم ٦٣٢.

(١١) التلخيص في علوم البلاغة ٣٤١، وجواهر البلاغة ٣٥٨.

(١٢) البلاغة الواضحة١٢٦.

(١٣) انظر البلاغة والتطبيق ص ٣٧٢.

(١٤) انظر الكشاف ١/ ٤٨، ومجمع البيان ١/ ٣٨، وتفسير البيضاوي ١/ ٢٨ وتفسير القرآن العظيم ص ٣٦-٣٧.

(١٥) انظر صحيح البخاري ص ١٤٣٢ رقم الحديث ٦٤٨٠. تحقيق يوسف الحاج احمد. دمشق ١٤٢٤هـ.

المبحث الثاني

الكناية في القرآن الكريم

يُعدُّ القرآن الكريم من اعلى مراتب النثر الفني من لدن عزيز حكيم، وانه يمتاز بضروب رائعة من صور الكناية سنذكر منها أمثلة على سبيل المثال لا الحصر. ولعل الباحث أي باحث يستعين للأستزادة بالمصادر التي تناولت علوم القرآن، ولعل اهم مصدر في هذا السياق ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، ((والاتقان في علوم القرآن)) للسيوطي، وبعض المصادر والمراجع الاخرى.

فللكناية اساليب، واسباب ندرجها فيما يأتي:

اولاً: التنبيه على قدم القدرة[١٦] كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [سورة الاعراف:١٨٩]. كناية عن آدم عليه السلام.

ثانياً: فطنة المخاطب كقوله تعالى في قصة داود[١٧]:

﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [سورة ص:٢٢]. فكنى عن داود بخصم على لسان ملكين تعريضاً.

وقوله في قصة النبي ﷺ وزيد: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الاحزاب:٤٠] كناية عن زيد.

وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [سورة البقرة:٢٤]. فانه كناية عن ألاّتعاندوا عن ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [سورة البقرة:٢٣].

كناية عن الاعجاز وانه منه سبحانه وتعالى وانه دليل على وحدانيته[١٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾[١٩] [سورة يس:٨].

فان هذه تسلية للنبي ﷺ والمعنى لا تظن انك مقصر في انذارهم، فانا نحن المانعون لهم من الايمان. فقد جعلناهم

(١٦) البرهان ٢/ ١٨٧، والاتقان في علوم القرآن ٣/ ١٤٣.

(١٧) انظر البرهان ٢/ ١٨٧.

(١٨) انظر اعجاز القرآن ص١٧.

(١٩) انظر البرهان ٢/ ١٨٧.

حطباً للنار ليقوى التذاذ المؤمن بالنعيم. كما لا تتبين لذة الصحيح الا عند رؤية المريض [٢٠].

ثالثاً: ترك اللفظ الى ماهو اجمل منه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [سورة ص:٢٣].

فكنى بالمرأة عن النعجة كعادة العرب انها تكني بها عن المرأة.

ويكنى عن المرأة بالبيضة كقوله تعالى: ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [سورة الصافات:٤٩]. فان العرب كنت عادتهم ان تكنّى عن حرائر النساء بالبيض [٢١]. وهذا من جمال اللغة، ودقة التعبير.

وقال امرؤ القيس [٢٢]:

وَبيضَةُ خِدّرٍ لايُرامُ خباؤُها
تمتعتُ من لَهوٍ بها غيرَ مُفْحلِ

وتُكنى النساء بالفُرُش نحو قوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [سورة الواقعة: ٣٤].

كما تكنى بالقوارير نحو قوله ﷺ: ((رفقاً بالقوارير)) [٢٣] اراد بها النساء شبههن بالقوارير من الزجاج لانه يسرع اليها الكسر [٢٤].

ومن ترك اللفظ الى ماهو اجمل منه [٢٥]، نحو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ [سورة الانفال: ١٦]. كنى بالتحيُّز عن الهزيمة. ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [سورة آل عمران: ٩٠]. كنى بنفي قبول التوبة عن الميت على الكفر لانه يرادفه.

رابعاً: ان يفحش ذكره في السمع، فيكنى عنه بما لا ينبو عن الطبع.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [سورة الفرقان:٧٢] أي كنو عن لفظه ولم يوردوه على صيغته [٢٦].

ومنه قوله تعالى في جواب قوم هود [٢٧]:- ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الاعراف: ٦٦-٦٧]

(٢٠) البرهان٢/ ١٨٧.
(٢١) البرهان٢/ ١٩١.
(٢٢) ديوان امرئ القيس ص ١٣.
(٢٣) الحديث في النهاية ٣/ ٢٤٠.
(٢٤) البرهان ٢/ ١٨٦.
(٢٥) البرهان ٢/ ١٨٨.
(٢٦) البرهان ٢/ ١٨٦.
(٢٧) البرهان ٢/ ١٨٨.

أي في خفة حلم، وسخافة عقل حيث تترك دين قومك الى دين آخر. أي نراك في جهالة منغمساً في سفاهة. فقال اني لست كما تزعمون بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كلَّ شيءٍ فهو رب كل شيء ومليكه[٢٨] فكنى عن تكذيبهم باحسن رد بأنه يؤمن بالله سبحانه وتعالى الذي خلق كلّ شيء[٢٩].

ومن الكناية قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [سورة البقرة:٢٣٥]. فكنى عن الجماع بالسر. وكنى باللمس، والملامسة، والرفث، والدخول والنكاح، والمباشرة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧] فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين.

وفي هذا السياق قوله تعالى: ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [سورة النساء:٤٣] كناية عن الجماع اذ لايخلو الجماع من الملامسة[٣٠].

(٢٨) انظر الكشاف ٢/ ١١٢ ومجمع البيان ٢/ ٤٣٧، وتفسير البيضاوي ٢/ ٨٨، وتفسير القرآن العظيم ٦٢٧.

(٢٩) البرهان ٢/ ١٨٨.

(٣٠) انظر البرهان ٢/ ١٨٨.

وقوله تعالى في الكناية عنهن[٣١]:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [سورة البقرة:١٨٧] واللباس من الملابسة وهي الاختلاط والجماع والستر.

وكنى عنهن في موضع آخر بقوله تعالى:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٣]. والحرث كناية عن الجماع المنتج للولد.

وقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ [سورة يوسف: ٢٣] كناية عما تطلب المرأة من الرجل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [سورة الاعراف: ١٨٩]. كناية عن الجماع والمباشرة.

ومن قوله في مريم وابنها: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [سورة المائدة: ٧٥] فكنى باكل الطعام عن البول والغائط، لانهما منه مسببان اذ لابد للآكل منهما لكن استقبح في الخطاب ذكر الغائط فكنى به عنه.

(٣١) البرهان ٢/ ١٨٨.

فان قيل: فقد صرح به في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [سورة المائدة: ٦].

قلنا: لانه جاء على خطاب العرب، وما يألفون. والمراد تعريفهم الاحكام، فكان لابد من التصريح به، على ان الغائط ايضاً كناية عن ((النجو)) وانما هو في الاصل المكان المنخفض من الارض، وكانوا اذا ارادوا قضاء حاجتهم ابعدوا عن العيون الى منخفض من الارض فسمي بذلك[٣٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل: ٥]. كنى به عن مصيرهم الى العذِرة، فان الورق اذا اكل انتهى حاله الى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [سورة فصلت: ٢١]. أي لفروجهم فكنى عنها بالجلود على ماذكره المفسرون.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [سورة الانبياء: ٩١]. فَصرح بالفرج.

قلنا: اخطأ من توهم هنا الفرج الحقيقي، وانما هو من لطيف الكنايات واحسنها وهي كناية عن فرج القميص أي لم يعلق ثوبها ريبة، فهي طاهرة الاثواب...و ليس المراد غير هذا، فان القرآن انزهُ معنىً وألطف اشارة وأملح عبارة[٣٣]. من ان يريد ما ذهب اليه وَهْمُ الجاهل. لاسيما والنفخ من روح القدس بامر القدوس، فاضيف القدس الى القدوس، و نزهت القانتة المطهرة عن الظن الكاذب، والحدس، الذي لامبرر له[٣٤].

ومنه قوله تعالى ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ كناية عن الزنا. ومن المفسرين من يشير الى ان هذه الاية مثلها [٣٥] كقوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [سورة النور: ٣]. ومنهم من يشير في تفسيرها من إلف الشكل لشكلهِ، وانجذاب كل قبيل الى قبيله. أي الخبيثات من النساء مختصات بالخبيثين من الرجال، والخبيثون منهم مختصون بالخبيثات منهن[٣٦] أي شبيه الشيء منجذب اليه. ومهما تعددت الاراء في هذه الآية فخلاصتها الزنا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ

(٣٢) البرهان ٢/ ٨٨.

(٣٣) البرهان ٢/ ١٨٩.

(٣٤) البرهان ٢/ ١٩٠.

(٣٥) مجمع البيان ٤/ ١٣٥.

(٣٦) صفوة البيان لمعاني القرآن ٤٥٠.

﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [سورة الممتحنة: ١٢] فانه كناية عن الزنا[٣٧].

وقوله تعالى:-﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ [سورة البقرة:١٩] كناية عن السماع [٣٨]، وهو أَذان بالشدة والهول، وانما اطلق الاصابع موضع الانامل للمبالغة[٣٩].

وقوله تعالى ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ من كناية [٤٠] انه نقيٌّ الثياب، اذا وصفوه بالنقاء من المعايب والاثام. أي كناية عن العفة.

ومن الكناية قصد البلاغة [٤١] كقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [سورة الزخرف: ١٨]. فانه سبحانه وتعالى كنى عن النساء بانهن يُنشأن في التَرَفِهِ والتزيّن. والتشاغل عن النظر في الامور، ودقيق المعاني[٤٢].

(٣٧) البرهان ٢/ ١٩٠، الاتقان ٣/ ١٤٤.
(٣٨) البرهان ٢/ ١٩٠.
(٣٩) تفسير البيضاوي ١/ ٥٢.
(٤٠) البرهان ٢/ ١٩١، والاتقان في علوم القرآن ٣/ ١٤٤، وصفوة البيان لمعاني القرآن ص ٧٦٠.
(٤١) البرهان ٢/ ١٩١، والاتقان في علوم القرآن ٣/ ١٤٥.
(٤٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٩١، والاتقان ٣/ ١٤٥.

وقوله تعالى:﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [سورة البقرة:١٧٥]. كناية عن استمرارهم ودوامهم على المعاصي. حق ان الآية جاءت بصيغة التعجب[٤٣]. ومن الكناية قصد البلاغة في التشنيع [٤٤] قوله تعالى:﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [سورة المائدة:٦٤] فان الغلّ كناية عن البخل. وفي السياق نفسه قوله تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [سورة الاسراء: ٢٩] والمغلولة كناية عن البخل كما وضحنا ذلك آنفاً. وسبب نزول هذه الآية، ان جماعة كانوا أغنياء فكذبوا النبي ﷺ فكفَّ الله عنهم ما اعطاهم[٤٥]. ومن الكناية قوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [سورة المائدة:٦٤] كناية عن البخل، حتى قيل إنهم ابخل خلق الله، والحقيقة انهم تغلَّل ايديهم في الدنيا بالأسار [٤٦] وفي الآخرة بالعذاب، وأغلال النار [٤٧].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾

(٤٣) صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٤٠.
(٤٤) البرهان ٢/ ١٩١.
(٤٥) البرهان ٢/ ١٩١.
(٤٦) الأسار: اسوة بأسوة اسراً وإسارة شدة بالأَسار، والأسار ما شد به. انظر اللسان مادة ((أسر)) ٥/ ٧٦ ((طبع بولاق)).
(٤٧) البرهان ٢/ ١٩١.

[سورة المائدة: ٦٤] كناية عن كرمه، وكنى عن اليد -وان افردت في اول الآية -ليكون ابلغ في السخاء والجود [٤٨].

وفي هذا النسق كنى عن المصير في قوله -تعالى -﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [سورة المسد: ١] أي جهنمي مصيره الى اللهب [٤٩]. كناية عن قصد الاختصار، ومنه الكناية عن افعال متعددة بلفظ ((فعل)) كقوله تعالى:-﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة المائدة: ٧٩] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء: ٦٦] ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾[سورة البقرة: ٢٤] أي فإن لم تاتو بسورة من مِثلِهِ ولن تأتوا.

ومن الكنايات ان يعمد الى جملة ورد معناها على خلاف الظاهر فيأخذ الخلاصة منها من غير اعتبار مفرداتها بالحقيقة او المجاز، فتعبر عن مقصودك، وهذه الكناية استنبطها الزمخشري وخرَّج عليها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه: ٢٤] فانه كناية عن الملك لان الاستواء على السرير لايحصل الا مع الملك، فجعلوه كناية عنه [٥٠].

وكقوله تعالى:-﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [سورة الزمر: ٦٧] انه كناية عن عظمته وجلالته من غير ذهاب بالقبض واليمين الى جهتين: حقيقة ومجاز.

ومن الكناية قوله تعالى:-﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [سورة طه: ١٢] فانه كناية عن الاستغراق في الخدمة من غير الذهاب الى نعل وخلعه.

ومن الكناية ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٥] تعريضاً وكناية عن الزواج، والزواج يعني الملامسة والجماع [٥١]. ومن عادة العرب أنها لا تكني عن الشيء بغيره الا اذا كان يقبح ذكره وذكروا مثالين في قوله: -﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [٥٢] [سورة النساء: ٢١].

احدهما: أنه كنى بالافضاء عن الاصابة.

(٤٨) البرهان ٢/ ١٩١، والاتقان ٣/ ١٤٥.
(٤٩) البرهان ٢/ ١٩١.
(٥٠) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٩٢.
(٥١) انظر مجمع البيان ١/ ٣٣٨، وتفسير البيضاوي ١/ ٢٠٣.
(٥٢) البرهان في علوم القرآن ٢/ ١٩٣.

والثاني: أنه كنى عن الخلوة.

ورجحوا الاول لأن العرب إنما تكني عما يقبح ذكره في اللفظ ولا يقبح ذكر الخلوة. واما دعوى كون العرب لاتكني الا عما يقبح ذكره فغلط، فكنوا عن القلب بالثوب كما في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [سورة المدثر: ٤].

ومن الكناية قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١] كناية عن أن الله سبحانه وتعالى فرد صمد لا مثيل له حتى يكون لمثله مِثل.

ومن الكناية في القرآن الكريم قوله تعالى:﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [سورة الحجرات:١٢].فكنى عن الغيبة باكل الانسان لحم انسان آخر مثله ثم لم يقتصر على ذلك [٥٣].حتى جعله ميتاً وهذا في الغاية من الكراهة.لأن الغيبة انما هي ذكر مثالب الناس، وتمزيق اعراضهم ومن المعلوم ان لحم الانسان مستكره عند انسان آخر [٥٤].

لقد اشار العلوي في طرازه الى هذه الآية الكريمة وأورد قول ابن الاثير فيها واسهب في ذكرها فلا مبرر للباحث ان يكرر ما قاله [٥٥].

وفي هذا السياق ما جاء في القرآن الكريم من الكنايات المتعددة التي لايقوى أي باحث على احصائها مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ [سورة الاحزاب: ٢٧].

والارض التي لم يطأُوها كناية عن مناكح النساء وذلك من حسن الكناية ونادره[٥٦].

وكرر صاحب الطراز اقوال ابن الاثير في هذه الآية واضاف اليها بعض القول يصب فيما جاء من توضيحها وشرحها [٥٧].

ومن الكناية قوله تعالى:-﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [سورة الرعد:١٧]. فكنى بالماء عن العلم، وكنى بالأودية عن القلوب، وكنى بالزبد عن الضلال، ويجوز كناية حمل الماء على المطر النازل، وعلى العلم، وكذلك حمل الأودية على مهابط

(٥٣) المثل السائر ٣/ ٦١-٦٢.
(٥٤) المثل السائر ٣/ ٦٣.
(٥٥) الطراز ١/ ٤٠٠-٤٠٣.
(٥٦) المثل السائر ٣/ ٦٣.
(٥٧) الطراز ١/ ٣-٤-٤٠٧.

الارض، وعلى القلوب، وهكذا يجوز حمل الزبد على الغثاء الرابي الذي تقدمه السيول وعلى الضلال[٥٨].

ومن الكنايات في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٧]. كناية عن الفجر ووضوح الرؤية[٥٩].

ومن الكنايات الجميلة في القرآن الكريم ان يُقام وصف الشيء مقام اسمه كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [سورة القمر: ١٣].

كناية عن السفينة فوضع صفتها موضع تسميتها كما ورد[٦٠].

المبحث الثالث:

الكناية في ضوء السياق:

لقد قسم البلاغيون المتأخرون الكناية في ضوء السياق الذي يفهم منها وفي ضوء الوسائط التي توصل القارئ اليها على اربعة انواع[٦١].

(٥٨) الطراز ١/ ٤٠٥.

(٥٩) المطوّل شرح تلخيص مفتاح العلوم ص ٦٣٣.

(٦٠) جواهر البلاغة ص ٣٥٦.

(٦١) البلاغة والتطبيق ص ٣٧٣.

اولها:-

التعريض: ومعناه لغةً: خلاف التصريح والمعاريض التورية بالشيء عن الشيء وفي المثل ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب، أي سعة[٦٢]. وفي حديث ابن عباس: ((ما احب بمعاريض الكلام حمر النعم))[٦٣].

اما تعريفه اصطلاحاً: فهو ان يطلق الكلام ويُشارُ به الى معنى آخر يفهم من السياق ومن بيان القول[٦٤]: كقوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [سورة الدخان: ٤٩]. كناية وتعريضاً بأبي جهل لانه قال: ((ما بين جبليها -يعني مكة المكرمة-اعزُّمني ولا اكرم)) وقيل ذلك على معنى الاستهزاء به[٦٥].

التعريض في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا

(٦٢) اللسان مادة عرض ٩/ ٤٥، والايضاح ص ٢٣٨.

(٦٣) حمر النعم: يقصد الناقة الحمراء التي تصير الى الهاجرة. انظر الكشاف مادة ((حمر)) ٥/ ٢٨٨، ومادة ((عرض)) ٩/ ٤٦.

(٦٤) البلاغة والتطبيق ص ٣٧٣.

(٦٥) انظر العمدة ١/ ٢٥٨، والبلاغة والتطبيق ٣٧٤.

بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [سورة الانبياء: ٦٢-٦٣] تعريض على جهة التهكم والاستهزاء والسخرية بعقولهم [٦٦].

ومن قوله تعالى في التعريض. ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ﴾ [سورة هود:٢٧] فهذه الآية جاءت في موضع التعريض، بأنهم احق بالنبوة، وان نوحاً لم يكن متميزاً عليهم بحالة يجب من اجلها ان يكون نبياً من بينهم فقالوا. لو اراد الله ان يجيل النبوة في احدٍ من البشر لكانوا احق بها دونه [٦٧].

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا﴾ [سورة المؤمنون: ١١٥]. هذا تعريض بالكفر في انكار الرجعة والميعاد الاخروي [٦٨].

ومن هذا السياق ان يخاطب الشخص والمراد غيره، سواء اكان الخطاب مع نفسه أم مع غيره نحو قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر: ٦٥] كناية لتشنيع امر الشرك، وتغليظ شانه، وتعظيم ملابسته [٦٩]. نحو قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ [سورة البقرة: ١٢٠]. كناية فيها تهديد ووعيد شديد للامة عن اتباع طرائق اليهود، والنصارى. بعد ان علموا من القرآن، والسنة. فان الخطاب مع الرسول، والامر لأُمته [٧٠].

ونحو قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ [سورة البقرة: ٢٠٩]. تعريضاً بان قومه اشركوا واتبعوا اهواءهم. وقد يكون الخطاب للمؤمنين والتعريض لاهل الكتاب، لأن الزلل لهم لا للمؤمنين [٧١].

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ [سورة الزخرف: ٨١]. كناية عن تنزيه الله سبحانه وتعالى بانه فرد صمد لذلك انا اول من اعبده، ومنهم

(٦٦) الطراز ١/ ٣٨٦، والبرهان ٢/ ١٩٣، والاتقان ٣/ ١٤٨.
(٦٧) الطراز ١/ ٣٨٨.
(٦٨) الطراز ١/ ٣٩٥.
(٦٩) تفسير القرآن العظيم ٥٧٤.
(٧٠) تفسير القرآن العظيم ١٢٩.
(٧١) البرهان ٢: ١٩٤.

من يجعل ((إنْ)) نافية بمعنى ما، أي: ما كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين لله، المقربين اليه.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [سورة الانبياء: ١٧] كناية وتعريضاً عن ارادة الله سبحانه وتعالى، ومعنى ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي ((نْ)) هنا كذلك بمعنى ((ما)) النافية أي ما كنا فاعلين[٧٢].

ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [سورة يس: ٢٢]. المراد تعريضاً أي ان يقول لهم ما لكم لا تعبدون الله بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[٧٣] أي واي شيء لي اذا لم اعبد خالقي الذي انشأني وانعم عليّ وهداني ثم ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي تردّون عند البعث فيجزيكم بكفركم[٧٤]. ومنه قوله تعالى ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [سورة يس: ٢٣] والمراد تعريضاً ((اتتخذون من دونه آلهة))[٧٥] وهو الذي خلقكم وصوركم.

﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [سورة يس: ٢٣-٢٤] تعريضاً بهذه الآلهة -الاصنام- التي يعبدونها أي ان اتبعتُها اني في ضلال، أي إن اتخذتها آلهة من دون الله[٧٦].

ولذلك قيل: ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ﴾ [سورة يس: ٢٥] دون ((ربي)) واتبعه فاسمعوه[٧٧].

قيل منه قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [سورة سبأ: ٢٥] فحصل المقصود في قالب التلطف، وكان حق الحال من حيث الظاهر، لولاه ان يقال: ((لا تسألون عما عملنا)) ((ولا تسأل عما يقومون))[٧٨].

ثانياً:-

التلويح تعريفه: لغة: لَوَّحَ بثوبه اخذ طَرَفه من مكان بعيد ثم اداره ولمع به ليريه من يحب ان يراه وكل من لمع بشيء واظهره فقد لاح به وَلَوَّحَ. ومن معاني لَوَّحَ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧

(٧٢) مجمع البيان ٤/ ٤٢.
(٧٣) انظر البرهان ٢/ ١٩٤.
(٧٤) مجمع البيان٤/ ٤٢١.
(٧٥) البرهان ٢/ ١٩٤.
(٧٦) مجمع البيان ٤/ ٤٢١، وتفسير القرآن العظيم ص ١٣٢٥.
(٧٧) البرهان ٢/ ١٩٤.
(٧٨) البرهان ٢/ ١٥٤.

لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ [سورة المدثر: ٢٧-٢٩] أي مغيِّرةً للجلود، وقيل لافحة للجلود، حتى تدعها اسود من الليل [٧٩]. وقيل انها تحرق الجلد حتى تسوده [٨٠].

تعريفه اصطلاحاً: هو الكناية التي بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما في ((كثير الرماد)) [٨١]. فالمكنى عنه في هذا الشاهد هو الكرم، والسخاء ومن هذا السياق قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة الاعراف: ١٤٩].

وبذكر بعض المفسرين لهذه الآية انه ((لما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته ان يعض يده غماً. ومعناه سقط الندم في ايديهم أي في قلوبهم وانفسهم)). وهو من باب الكناية عن ندمهم وحسرتهم [٨٢].

ثالثاً:-

الرمز: تعريفه لغة: جاء في اللسان: الرمز تصويب خفي باللسان كالهمس ويكون بتحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير ابانة بصوت انما هو اشارة بالشفتين، وقيل الرمز اشارة وايماء بالعينين والحاجبين والشفتين والفم. والرمز كل ما أشرت اليه. مما يُبان بلفظ باي شيء اشرت اليه بيد او بعين [٨٣].

واصطلاحاً: هو الكناية التي قلت وسائطها الى المكنى عنه مع خفاء نحو ((فلان عريض القفا)) او ((عريض الوسادة)) كناية عن بلادته،وبلاهته وغبائه. فالمكنى عنه خفي غير ظاهر ويتوصل اليه السامع بوساطة، واحدة هي عرض القفا.

(٧٩) تفسير الكشاف ٤/ ٦٣٧، ومجمع البيان ٥/ ٣٨٨، وتفسير القرآن العظيم ص ١٦٦١.

(٨٠) اللسان مادة لوح ٣/ ٤٢٢.

(٨١) المفتاح ص ١٩٤، التلخيص في علوم البلاغة ص ٣٣٤، والايضاح ٢٣٣، والطراز ١/ ٤٣١، والبرهان ٢/ ١٩٣، والبلاغة والتطبيق ص ٣٧٥.

(٨٢) انظر تفسير الكشاف ٢/ ١٥٤، ومجمع البيان ٢/ ٤٨٠، وتفسير البيضاوي ٢/ ١١٣، وتفسير القرآن العظيم ص ٦٤٤ وعروس الاقراح في شرح تلخيص المفتاح ٢/ ص ٢١٢-٢١٤ هامش (٣).

(٨٣) انظر اللسان مادة ((رمز)) ٧/ ٢٢٣-٢٢٤.

وكبر الرآس وهما صفتان تعارفت العرب على ان المتصف بهما ليس من الاذكياء وانما هو الى الغباء اقرب [٨٤].

ومن الكناية بالرمز ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [سورة آل عمران:٤١] أي لا تكلم الناس الا اشارة، وايماءً، وقيل الرمز تحويل الشفتين، وقيل الرمز اشارة بيد او برأس او غيرهما واصله التحريك [٨٥]. على نحو ما بيناه في تعريفه لغةً.

(ومن هذا السياق الغمز)

تعريفه لغة: الغمز: الاشارة بالعين، والحاجب والجفن، وقد فسر الغمز في بعض الاحاديث بالاشارة كالرمز بالعين والحاجب واليد [٨٦]. ومن الكناية في القرآن الكريم قوله تعالى﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [سورة المطففين: ٣٠].

أي يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون باعينهم، أي واذا مروا بهم يعني واذا مَرّ المؤمنون بهؤلاء المشركين ((يتغامزون)) بان يشير بعضهم الى بعض بالاعين، والحواجب استهزاءاً بهم، واستحقاراً بشأنهم [٨٧].

(ومن هذا السياق لَمز)

اللمز لغة: العيب في الوجه واصله الاشارة بالعين والرآس والشفة مع كلام خفي [٨٨]. ومن الكناية كما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [سورة التوبة:٥٨]. أي يُعيبك في قسمة الصدقات ويعيب عليك [٨٩]. وفي هذا الحقل من الكناية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [سورة الحجرات: ١١].

أي ((الطعن والضرب باللسان، ولا عليكم ان تعيبوا غيركم ممن لايدين

(٨٤) البلاغة والتطبيق ص ٣٧٦.
(٨٥) الكشاف ١/ ٣٥٤، ومجمع البيان ١/ ٤٤٠، وتفسير البيضاوي ١/ ٤، وتفسير القرآن العظيم ص ٢٧٧.
(٨٦) انظر اللسان مادة ((غمز)) ٧/ ٢٥٦.
(٨٧) انظر الكشاف ٤/ ٤٧٠، ومجمع البيان ٥/ ٤٥٦، وتفسير القرآن العظيم ص ١٦٩٤.
(٨٨) انظر اللسان مادة ((لَمَز)) ٧/ ٢٧٤.
(٨٩) انظر الكشاف ٢/ ٢٧٢، ومجمع البيان ٣/ ٤١، وتفسير البيضاوي ٢/ ١٨٩، وتفسير القرآن العظيم ص ٧٣٠.

بدينكم، ولا يسير بسيرتكم. والتنابز بالالقاب التداعي بها)) ولا تلمزوا انفسكم معنى ذلك كمعنى [٩٠].﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [سورة الهمزة: ١].

(ومن هذا السياق الهمز)

الهمزُ: تعريفه لغة: همز رأسه بهمزه همزاً غمزَه...والهمز مثل الفخر يكون ذلك بالشدق والعين والرأس [٩١].ومن الكناية في القرآن الكريم قوله:

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [سورة القلم: ١١].أي عياب طعان بلوي شدقية في اقضية الناس.

أي وقاع في الناس مغتاب، والهماز يعني الاغتياب [٩٢].

ومن الكناية كذلك قوله تعالى:-﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [سورة الهمزة: ١].

الهمز كاللمز: الطعن. يقال لمزه ولهزه: طعنه في عرضه والطعن اغتياب الناس، وقيل ان الهمزة باليدين والعين، والهمزة باللسان [٩٣]. وهذه الآية هي الاخرى التي يكنى بها عن الازدراء، والاستهزاء والاستهجان بعيوب الناس.

رابعاً: الايماء او الاشارة:

الايماء لغة: كأن تؤمئ برأسك او بيدك [٩٤].

واصطلاحاً: هو الذي قلت وسائطه مع وضوح الصورة ومن انواع الاشارة التفخيم [٩٥] نحو قوله تعالى:﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [سورة القارعة: ١-٢].

القارعة اسم من اسماء يوم القيامة لانها تقرع القلوب بالفزع وتقرع اعداء الله بالعذاب. ما القارعة، هنا، تعظيم لشأنها وتهويل لامرها [٩٦].

وهي كناية عن الفزع الاكبر الذي

(٩٠) الكشاف ٤/ ٣٥٩-٣٦٠، ومجمع البيان ٥/ ١٣٦، وتفسير القرآن العظيم ١٤٩٠.

(٩١) اللسان مادة ((همز)) ٧/ ٢٩٢-٢٩٣.

(٩٢) الكشاف ٤/ ٥٧٤-٥٧٥، ومجمع البيان ٥/ ٣٣٤، وتفسير القرآن العظيم ص ١٦٣١-١٦٣٢.

(٩٣) الكشاف ٤/ ٧٨٨، ومجمع البيان ٥/ ٥٣٨، وتفسير القرآن العظيم.

(٩٤) اللسان مادة ((وَمأ)) ١/ ١٩٦، ومادة ((شور)) ٦/ ١٠٦.

(٩٥) العمدة ١/ ٢٥٦.

(٩٦) انظر الكشاف ٤/ ٧٨٢، ومجمع البيان ٥/ ٥٣٤، وتفسير القرآن العظيم ١٧٣٦.

يعتري الناس في هذا اليوم الشديد.

ومن الاشارات اللحن وهو كلام يعرفه المخاطَبُ بفحواه نحو قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [سورة محمد: ٣٠].

أي في نحوه واسلوبه. وقيل اللحن ان تلحن بكلامك أي تميله الى نحو من الانحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض، أي تعرفهم في فحوى كلامهم، ومعناه ومقصده ومغزاه لان كلام الانسان بدل على ما في ضميره. وفي حديث رسول الله ﷺ: ((ما أسرَّ احدٌ سريرةً الاكساه الله تعالى جلبابها إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشر)) [٩٧]. وهذه الآية كناية عن حقد بعض المنافقين على رسول الله ﷺ، وللمؤمنين.

ومن الكناية في هذا الحقل قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [سورة هود:١١] أي هذا الذي تعرفونه بعلي وهو شيخ كناية عن النبي ابراهيم عليه السلام الذي كان عمره انذاك مائة او مائة وعشرين سنة بحسب ما رواه المفسرون [٩٨]. ولكن الله سبحانه وتعالى يضع حكمته حيث يشاء.

واما الايماء فكقول الله عز وجل [٩٩]: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [سورة طه: ٧٨]. أي ما غطاهم من البحر ما لايعلم كنهه الا الله. وجاءهم من البحر ما جاءهم ولحقهم من مالحقهم وفيه تعظيم للامر. ومعناه غشيهم الذي عرفتموه ((من مياهه التي غطاكم بها -وسمعتم به [١٠٠]-أي وسمعتم باهواله ومخاوفه. التي لا يعلم بها الا الله. انه ايماء نادر وكناية مُوَفَّقة عن البحر وغشيانه.

وهناك رأي ذكره العلوي حول التلويح، والرمز، والايماء والاشارة. هذه الموضوعات كلها مندرجة تحت ما ذكره من حقيقة التعريض لاتفاقها في الدلالة على مقصود واحد[١٠١]. لذلك لم يشرحها ولم يضرب لها امثالاً.

والباحث لايذهب مذهبه في هذا الرأي، ذلك ان اكثر البلاغيين اشاروا

(٩٧) الكشاف ٤/ ٣٦٩، ومجمع البيان ٥/ ١٠٦، وتفسير القرآن العظيم ١٤٦٧.

(٩٨) مجمع البيان ٣/ ١٨٠، وتفسير البيضاوي ٢/ ٢٧٣.

(٩٩) انظر العمدة ١/ ٢٥٠.

(١٠٠) الكشاف ٣/ ٧٦،ومجمع البيان ٤/ ٢٣.

(١٠١) انظر الطراز ١/ ٤٢٦.

الى تلك الموضوعات، وان لم يشرحوها شرحاً وافيا ًغير ان الباحث -استطاع بكل تواضع -ان يوضح تلك الانواع، واستطاع كذلك ان يستنبط بعض الآيات من معين القرآن الكريم الذي لا ينضب. لتكون امثلة واضحة بحسب ما يمليه هذا البحث المتواضع.

الخاتمة

الكناية ضرب من ضروب البيان العربي. فهي من مراتب الكلام البليغ. ذلك الكلام الذي يكون مستساغا ًعلى السمع. فهي تُلمح للمعنى المقصود تلميحاً مع وجود قرينة دالة على المراد والقصد. واذا ما تصفحنا كتب البلاغة وجدنا هذا الموضوع قد احتل الصدارة في هذه الكتب. وقد افرد البلغاء فصولاً خاصة في هذا الموضوع الذي هو جدير بالبحث والدراسة والنقد.

وقد اطبقوا على ان المجاز ابلغ من الحقيقة، وان الاستعارة ابلغ من التصريح بالتشبيه، وان التمثيل على سبيل الاستعارة ابلغ من التمثيل لا على سبيل الاستعارة، وان الكناية ابلغ من الافصاح بالذكر فانت اذا قلت هو ((طويل النجاد)) [١٠٢] وهو ((جم الرماد)) [١٠٣] كان ابهى لمعناك واقبل من ان تصرح بالذي تريد، وكذا اذا قلت رأيت اسداً كان لكلامك حزيَّة، لا تكون اذا قلت رأيت رجلاً هو والاسد سواء في معنى الشجاعة، وفي قوة القلب، وشدة البطش واشباه ذلك [١٠٤] من البسالة وقوة الإقدام.

والحديث عن الكناية حديث شيق وملذ حتى ان العلوي بذكر ان الكناية لها في البيان العربي، شأن عظيم، فانها تكسوا الالفاظ جمالاً، وتكسب المعاني ديباجة، وكمالاً، وتحرك النفوس الى عملها، وتدعو القلوب الى فهمها،و ادراكها، فإن اوقعتها في المدح كانت احسن منزلاً، وارفع تصويراً للممدوح، وان صدر منها للذم كانت اكثر لوماً وان جعلتها للحجة كانت اوضحها نوراً واجلها برهاناً، وان جاءت الكناية في الفخر كانت اسطع سراجاً القرآن الكريم

(١٠٢) طويل النجاد: كناية لطول القامة.
(١٠٣) جم الرماد: كناية عن الكرم.
(١٠٤) انظر دلائل الاعجاز ص ٥٦.

وأوضح ضياءً، وان وجهتها للاعتذار كانت اسمى منطقاً، واقوم لساناً، وان صدرتها للنصيحة كانت انجح شفاءً لجلاء القلوب، وغسل الادران مما يعتري الاجسام من لؤم وضغينة، وان اردت بها جوانب العتاب وجدتها بلسماً للمِّ الشعث، والتئام الجروح، وان جاءت الكناية في الوفاء حسبتها براً واحساناً [1]. فهي بيان فصيح في ثوب قشيب، وبادرة انسانية في الوان البلاغة، نعم تلك هي الكناية.

(١) انظر الطراز ١/ ٤٣٤-٤٣٥. ((بتصرف)).

المصادر والمراجع

١. الاتقان في علوم القرآن. للسيوطي. تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم. بيروت -صيدا -المكتبة العصرية ٢٠٠٧ م/ ١٤٢٨ هـ.

٢. اساس البلاغة.للزمخشري. مصر، دار الكتب ١٩٧٣.

٣. الايضاح. لمختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع، تأليف الخطيب القزويني ط٣، مصر -الازهر/ ١٣٦٦هـ.

٤. البرهان في علوم، للزركشي، تحقيق محمد ابو الفضل ابرهيم، بيروت -صيدا -المكتبة العصرية ٢٠٠٥ م/ ١٤٢٥هـ.

٥. البلاغة والتطبيق، تاليف الدكتور احمد مطلوب،والدكتور كامل حسن البصير. ط. بغداد ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

٦. البلاغة الواضحة، في البيان، والمعاني، والبديع تأليف علي الجارم، ومصطفى أمين -طهران ١٤٢٩ هـ.

٧. تفسير البيضاوي، بيروت -منشورات الاعلمي للمطبوعات ١٩٩٠ م/ ١٤١٠هـ.

٨. تفسير ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار المعرفة، قدم له الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي ٢٠٠٤ م/ ١٤٢٥هـ.

٩. التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوفي، مصر ١٩٠٤.

١٠. جواهر البلاغة، تاليف احمد الهاشمي -طهران منشورات اسماعيليان،

١٤٢٨ هـ.
١١. خزانة الادب، لعبد القادر البغدادي، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة -مكتبة الخافجي ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.
١٢. الدر الدائر، المنتخب من كنايات واستعارات وتشبيهات العرب. للزمخشري، تحقيق الدكتورة بهيجة الحسني، مستل من المجلد السادس عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي، مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨ م.
١٣. دلائل الاعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، بيروت ط١ ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.
١٤. الصاحبي، لاحمد بن فارس، تحقيق السيد احمد صقر، القاهرة، البابي الحلبي ١٩٧٧.
١٥. كتاب الصناعتين، لابي هلال العسكري، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاري، القاهرة -عيسى البابي الحلبي وشركاه ط٢ ١٩٧١.
١٦. الطراز، للعلوي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١ ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠.
١٧. عروس الافراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السيكي، تحقيق عبد الحميد هنداوي، بيروت -صيدا -المكتبة العصرية ط١ ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م.
١٨. العمدة في نقد الشعر، لابن رشيق القيرواني، تحقيق وشرح الدكتور و تحقيق نايف خاطوم،بيروت -دار صادر ط١ ١٤٢٧هـ/ ١٩٧٥ م.
١٩. لسان العرب، لابن منظور، طبعة مصورة عن طبعة بولاق -مصر بدون تاريخ.
٢٠. المثل السائر، لابن الأثير، تحقيق الدكتور احمد الحوفي، والدكتور بدوي طبانة مصر ١٣٨١ هـ، ١٩٦٢ م.
٢١. مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي، طهران، شركة المعارف الاسلامية، طبعة مصورة عن طبعة صيدا.
٢٢. مجمع الامثال للميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت-دار

القلم بدون تاريخ.
٢٣. المعجم الوسيط، للدكتور انيس وجماعته، بيروت -دار الامواج ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ م.
٢٤. المصباح في المعاني والبيان والبديع، تاليف ابن الناظم، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي، بيروت -دار الكتب العلمية ط ١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١ م.
٢٥. المطوّل، شرح تلخيص مفتاح العلوم، تاليف التفتازاني تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي -بيروت -دار الكتب العلمية ١٤٢٢ هـ.
٢٦. مفتاح العلوم للسكاكي، القاهرة مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده، ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧م.
٢٧. النحو الوافي، لعباس حسن، دار المعارف بمصر ط٢ ١٩٦٣.

أَحْكامُ اليَتيمِ في القرآنِ الكَريمِ والسُّنَّةِ النَّبويَّةِ

د. أرشد مزاحم الغريري

جامعة آل البيت (عليهم السلام) - كربلاء

ملخص البحث

قدم السيد الباحث لبحثه بأن القرآن الكريم جاء ليجمع القلب الى القلب ويضم الصف الى الصف ويرسخ قيم المحبة والألفة والرحمة والعدل والتكافل في الاسرة والمجتمع، من خلال الدعوة الى كفالة اليتيم.ثم يدخل في البحث من باب (تعريف اليتيم) ومعناه لغةً وتحديد اللغويين لليتم وانه: فقدان الأب في الصغر حصرياً، معتمداً أهم مصادر اللغة من المعاجم العربية. بعدها يحدّد عنوان اليتيم في المصطلح الفقهي ويقرر أن هذا المفهوم يتماشى مع الطفل الى حد البلوغ الشرعي، ليخلص بعد ذلك الى موقف القرآن الكريم من اليتيم مستشهداً بكل الآيات التي طرحت هذا الوصف وكيف عالجت المشكلة الاجتماعية فقهاً واخلاقاً وانسانيةً.ويطرح البحث رؤية شريعة القرآن الى (اليتيمة) من النساء وكيف انه كفل لها حقوقها الانسانية في الزواج والميراث. ويختم الباحث حديثه مستعرضا تشريع الرسول الأعظمﷺ حسن معاملة اليتامى في جملة احاديث شريفة اقتبسها من مصادر موثوق بها عند المسلمين.

جاء القرآن ليجمع القلب إلى القلب ويضم الصف إلى الصف، ويرسخ قيم المحبة والألفة والرحمة والعدل والترابط والتكافل في الأسرة والمجتمع تثبيتًا للمبدأ العام ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وينشئ مجتمعًا قويًا مترابطًا لا يخاف فيه الضعفاء عامة، واليتامى خاصة، ضياعَ حقوقهم، وسلبَ أموالهم أو أكلها بالباطل. وقد رأيت -في هذه البحث-أن ألقي الضوء على مدى عناية القرآن الكريم البالغة باليتامى في جميع نواحي حياتهم، وكيف ربَّاهم القرآن ليجعل منهم عناصر قوة للمجتمع، وقد حرصت على ذكر جميع الآيات الواردة بشأنهم مبينًا المراد منها ليتضح لكلِّ منصفٍ أن القرآن سبق كل أولئك المطالبين بإنصاف اليتامى، بل أعطاهم -بتشريعاته الشاملة- ما يعجز عنه أي تشريع سواه.

إذ ان لليتيم في الشرائع السماوية مكانة محفوفة باللطف، والرعاية، فهي تستثنيه من التكاليف التي لا تمس حقوق المكلفين كما توجه أبناءها إلى الإهتمام بتوجيهه، وتربيته وله حقوقه الثابتة فيها، ويستطيع معرفتها كل من يراجع القرآن الكريم، والسنة النبوية. ولا تحتاج معرفة سبب هذا الإهتمام إلى دراسة، وتفكير. فأهمية اليتيم في المجتمع الإنساني العام واضحة تماماً.

حقوق اليتيم في القرآن الكريم: أولى القرآن الكريم اليتيم عناية خاصة ووضع الأسس الواضحة والقواعد القاطعة والحدود الصارمة لحسن رعايته والاهتمام به والحفاظ علي حقوقه حتي يبلغ سن الرشد.

ويسعى كل إنسان مؤمن بالله واليوم الآخر إلى الفوز برضا الله سبحانه وتعالى ونيل الجنة، التي وعد الله بها المتقين، وشمل الخالق عز وجل عباده بلطف عنايته الكريمة، ورسم لهم سبل الهداية، التي ما إن اتبعوها حتى نالوا ما وعدوا به، وكان من بين هذه السبل والوسائل التي تقود إلى الجنات الموعودة، هو سبيل كفالة اليتيم وجعل وجود اليتيم رحمة للناس ومنفذاً لعناية الخالق عز وجل، واهتمام المشرع الإسلامي باليتيم، مستمداً ذلك من اهتمام القرآن الكريم به، إذ ورد ذكر اليتيم في أكثر من موضع في القرآن الكريم كما نقلت لنا كتب الحديث والسير أحاديث الرسول الأكرم ﷺ عن

اليتيم ورعايته وكان لمعنى اليتيم الرمز في التبجيل لاقترانه بالرسول الأكرم ﷺ، وفي كتب السير ورد حديث قدسي عن الخالق عز وجل (إذا بكى اليتيم اهتز له العرش، فيقول الله تبارك وتعالى: من هذا الذي أبكى عبدي الذي سلبته أبويه في صغره، وعزتي وجلالي، وارتفاعي في مكاني، ما أسكته عبد مؤمن إلا أوجبت له الجنة)[1].

اولاً: تعريف اليتيم

كلمة اليتيم لها عدة معانٍ تختلف تبعاً لمحل استعمالها، ولها في اللغة جملة من المعاني تختلف أحيانا عن المعنى الاصطلاحي، لذا سنتناول التعريف اللغوي ثم الاصطلاحي في الشريعة الإسلامية.

١. اليتيم لغةً: اليتيم كما تطالعنا به كتب اللغة[2]هو: الفرد من كل شيء، وكلُّ شيءٍ يَعِزُّ نَظيرُه. يقال: بيت يتيم، وبلد يتيم. ودُرة يتيمة.

حيث ان اليتيم كلمة مشتقة من الفعل يتم واليتيم جمعه أيتام ويتامى، وقد يَتِمَ الصبي بالكسر واليتم في الناس مِنْ قِبَلِ الأب، وفي البهائم قِبَلِ الأم[3].

فاليتيم الذي يموت أبوه، وذلك لأن الكفالة في الإنسان منوطة بالأب فكأن فاقد الأب يتيماً من دون من فقد أمه، والمنقطع الذي تموت أمه، واللطيم الذي يموت أبواه[4]، وبموجب هذا التقسيم يكون اليتيم من فقد أباه و المنقطع لفاقد الأم ومن فقد كلا أبويه يسمى لطيماً، وهذا التدرج في وصف الانفراد الذي هو اليتم؛ من اجل دلائل البلاغة في اللغة العربية؛ التي لا تجاريها فيها أية لغة أخرى. لأن لفظ (يتيم)؛ أخف وقعا على السمع من لفظ (منقطع)، لأنه يعبر عن حالة اخف من اخرى؛ كما ان (يتيم ومنقطع) أخف من (لطيم)؛ فماذا يعني الانقطاع واللطم إذن..؟ الانقطاع هو الانقسام والانفصال والفرقة. ولاشك ان من

(١) علي بن بابويه،فقه الرضا، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، ط١، ص ١٧.

(٢) أنظر مادة (يتم) في كتب اللغة كالقاموس المحيط، والصحاح وغيرهما، و ذكرت كتب التفاسير نفس المعنى.

(٣) إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، دار العلم للملايين بيروت، ج ٥، ص٢٠٦٤.

(٤) ابن منظور، لسان العرب، دار أحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٣، ج ١٢، ص ٦٤٥.

فقد أمه؛ فإن بؤسه اشد من فقده والده؛ ذلك ان دور الام؛ يفوق دور الأب في الحضانة والرعاية، وهذا يفسره قول الرسول الاعظمﷺ: (.. أمك ثم أمَّك ثم أمَّك؛ ثم اباك). اما اللطم فهو ضرب الخد والوجه حتى تتضح الحمرة، وفي هذا تعبير عن الحسرة واليأس وعمق الجراح، نتيجة فقد الأب والأم معا. وهذه حالة اعظم من اليتم بفقد الأب؛ والانقطاع بفقد الأم.

ولكلمة يتيم في اللغة معنى الانفراد لا احد له أو معه، واليتيم سمي يتيما لإنفراده، وكل شيء انفرد فقد تيتم[٥]، وكل شيء مفرد يعز نظيره فهو يتيم، يقال درة يتيمة[٦]، وقد يكون لكلمة اليتم معنى الضعف، حيث إن النساء يقال لهن يتامى وفي حديث الشعبي (أن امرأة جاءت إليه فقالت إني امرأة يتيمة فضحك أصحابه، فقال: النساء كلهن يتامى أي ضعائف)[٧]، كذلك يقال للمرأة يتيمة ولا يزول عنها اسم اليتم أبدا، وتدعى يتيمة ما لم تتزوج، فإذا تزوجت زال عنها اسم اليتم[٨]، كما إن اليتم يكون بمعنى الغفلة، إذ ورد في لسان العرب (قال المفضل: أصل اليتم الغفلة، وسمي اليتيم يتيما لأنه يُتغافل عن بره)[٩]، كما إن اليتم بمعنى البطء وقال أبو عمرو: اليتم الإبطاء، ومنه أخذ اليتيم لأن البر يبطئ عنه[١٠]، والذي يظهر مما تقدم وما يقوله أهل اللغة في هذا الصدد أن التسمية بهذا الاسم منشؤها، عدم الاعتناء الذي يلاقيه من فقد كفيله، وحيث ان الكفالة في الإنسان منوطة بالأب، كان فاقد الأب يتيماً دون من فقد أمه.

وهكذا حدد اللغويون هذا العنوان

(٥) عبدالله بن مسلم بن قتيبة، غريب الحديث، دار الكتب العلمية بيروت، ط١ عام ١٩٨٨، ج ١، ص ٤٧.

(٦) إسماعيل بن حماد الجوهري، مرجع سابق، ج ٥، ص٢٠٦٤.

(٧) مجدالدين ابي السعادات ابن الأثير الاجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، دار الكتب العلمية بيروت، ط١ عام ١٩٨٨ -ج ٥، ص ٢٩١.

(٨) بن منظور،مرجع سابق، ج ١٢، ص ٦٤٥.

(٩) المرجع السابق، ٦٤٥.

(١٠) المرجع السابق، ٦٤٥.

فقالوا: اليتيم، الذي مات أبوه، فهو يتيم حتى يبلغ الحلم فإذا بلغ زال عنه إسم اليتم.

٢. اليتيم عند الفقهاء: يتفق الفقهاء المسلمون مع علماء اللغة العربية، بتحديد تعريف اليتيم، ويعرفونه بأنه: هو مَن فقد أباه ما لم يبلغ الحُلُم، فإذا بلغ الحُلُم زال عنه اليُتم. واجمع الفقهاء على ذلك، حيث قال النبي ﷺ: «لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ»(١١). وقوله تعالى ﴿إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾[سورة النساء: ٦]، أراد به البلوغ، فعبر عنه به، وقوله تعالى ﴿ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾[سورة النساء: ٦]، أي علمتم منهم رشدا، فوضع الإيناس موضع العلم، كما وضع الإيناس موضع الرؤية(١٢)، في قوله تعالى ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [سورة القصص: ٢٩].

وقد يُطلق على اليتيم بعد بلوغه لفظ يتيم وهو إطلاق مجازي، وليس بإطلاق حقيقي، وذلك باعتبار ما كان، كما كانوا يسمون النبي ﷺ -وهو كبير- يتيم أبي طالب، لأنه رباه بعد موت أبيه(١٣).

٣. تحديد عنوان اليتيم: ويتفق الفقهاء مع اللغويين بتحديد اليتيم إلى هذا الحد، فهم يرون أن هذا العنوان يتماشى مع الطفل إلى حد البلوغ الشرعي، وكما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰٓ أَمْوَالَهُمْ﴾ [سورة النساء: ٢]، وهم لا يُؤْتَوْن أموالهم إلا بعد البلوغ والرشد. أي بعد زوال صفة اليُتم عنهم(١٤)، وسن البلوغ الشرعي له أكثر من صورة على وفق ما توفرت عليه كتب الفقه وأهمية ذلك تكمن في إنهاء حالة اليتم، حيث يرى بعض الفقهاء أن البلوغ، هو العمر الذي يحكم فيه على الشخص بالبلوغ سواء احتلم أم لم يحتلم، وسن البلوغ، الذي يصبح فيه الإنسان أهلا. للإلزام والالتزام(١٥)، واختلف في تقديرها

(١١) رواه أبو داود (٢٨٧٣)وغيره، وذكر الألباني طرقه في إرواء الغليل برقم (١٢٤٤) وصححه.

(١٢) محيى الدين النووي ـ المجموع في شرح المهذب -دار الفكر بيروت-ج ١٣-ص ٣٤٤.

(١٣) ابن الأثير-مرجع سابق-ج ٥-ص ٢٩١.

(١٤) محمد قلعجي، معجم لغة الفقهاء، دار النفاش للطباعة والنشر، بيروت،ط١،عام ١٩٨٥، ص ١٤٣.

(١٥) المرجع السابق، ص١٤٣.

وهي تقارب ثماني عشرة سنة[١٦]، وسن البلوغ عند الأنثى يختلف عن الذكر، حيث أن السن الذي يحصل به البلوغ، عند الذكر خمس عشرة سنة، وفي الأنثى تسع سنين، والعادة قاضية بأن المرأة في سن البلوغ ترى الحيض[١٧]، وقد يتم اللجوء إلى سؤال الفتى، ويكون بإقراره على نفسه بالبلوغ أو باستيفاء عدد سن البلوغ، وهو أن يشهد أنه ولد في سنة كذا، فيكون له إلى هذه السنة خمس عشرة سنة[١٨]، واختلف العلماء في أقل سن تحيض فيه المرأة ويحتلم فيه الرجل وهل تنحصر العلامات في ذلك أم لا وفي السن الذي إذا جاوزه الغلام ولم يحتلم والمرأة لم تحض يحكم حينئذ بالبلوغ وقال أبو حنيفة سن البلوغ تسع عشرة أو ثمان عشرة للغلام وسبع عشرة للجارية وقال أكثر المالكية، حده فيهما سبع عشرة أو ثمان عشرة وقال الامامية والشافعي وأحمد وابن وهب والجمهور حده فيهما استكمال خمس عشرة سنة على ما في حديث بن عمر في هذا الباب[١٩]، كما يعرف البلوغ بأمور خمسة، ثلاثة مشتركة بين الذكر والأنثى، واثنان مختصان بالأنثى. فالمشتركة، خروج المني من القبل، والسن، والإنبات. والمختصة، الحيض والحمل. وقد سبق ان ذكرنا رآي الامامية في ذلك بفتوى (العلامة الحلي).

ومن خلال ما تقدم نجد إن الذي تقرره الشريعة المقدسة للبلوغ هو في ظهور واحدٍ من العلامات التالية:

١. إنهاء الطفل خمسة عشر عاماً من عمره. إذا كان ذكراً، وتسعة إذا كانت أنثى.

٢. إنبات الشعر على عانته.

٣. الاحتلام بخروج المني منه، أو الحيض من الأنثى. والمني -وهو الماء الدافق الذي يخلق الله تعالى منه الولد- سبب

(١٦) المرجع سابق -ص ٢٥٠.
(١٧) العلامة الحلي، مرجع سابق، ج ٢، ص٥٣.
(١٨) الشيخ الطوسي، المبسوط في فقه الامامية، المكتبة المرتضوية، طهران، ج ٣، ص٣٧.
(١٩) ابن حجر العسقلاني،فتح الباري في شرح صحيح البخاري، دار المعرفة للنشر والطباعة، بيروت، ج ٥، ص ٢٠٤. وجميع كتب الفقه الجعفري.

للبلوغ، سواء خرج يقظة، أو نوما، بجماع أو احتلام أو غير ذلك، وسواء قارن شهوة أم لا[٢٠].

حيث تنبئ هذه العلامات بوصوله إلى مدارك الرجال. وحينئذٍ، ينتقل من مرحلة الطفولة، وهي مرحلة عدم المسؤولية إلى مرحلة العبء الاجتماعي، والمسؤولية الشرعية التي تفرض على الرجال البالغين. وفي تعريف معاصر إن "اليتيم هو الذي مات أبوه ولم يبلغ مبلغ الرجال، فإذا بلغ الصبي الرشد لم يعد يتيماً، إلا إذا كان في عقله سفه أو جنون؛ فيظل في حكم اليتيم وتستمر كفالته، والبنت تظل في الكفالة حتى تتزوج[٢١]. لقوله تعالى:﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾[سورة النساء: ٦]، فإذا بلغ الصبي اليتيم رشداً ولكنه فقير فيكون الإحسان إليه من باب أنه فقير[٢٢]. لذلك فان تعريف اليتيم في الشريعة الإسلامية يدخل حكما ضمن مفهوم القاصر ويعامل معاملة المحجور.

ثانياً: اليتيم في القرآن

لقد أولى القرآن الكريم عناية فائقة بأمر اليتيم وشأنه، من الناحية النفسية ومن الناحية المادية على السواء مراعاة لظروف اليتيم النفسية بعد فقد أبيه، فقد يحس بشيء من الذل أو القهر أو الانكسار، وراعى القرآن هذه الحالة النفسية مراعاة دقيقة ؛ لأن الذي يشرِّع هو الذي خلق قال تعالى ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: ١٤].

وقد أولى القرآن الكريم اليتيم عناية خاصة، ووضع الأسس الواضحة والقواعد القاطعة، والحدود الصارمة لحسن رعايته، والاهتمام به، والحفاظ على حقوقه حتى يبلغ سن الرشد.

كما تعرضت الآيات في القرآن الكريم

(٢٠) العلامة الحلي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٣٤.

(٢١) الدكتور محمد بكر إسماعيل في فتوى منشورة له بموقع على شبكة المعلومات الدولية الانترنت على الرباط:
http://www.holyquran.net/cgi-bin/prepare.pl?ch=17

(٢٢) مقال منشور في موقع الأخوان المسلمون على الشبكة الدولية على الربط:
http://www.ikhwanonline.com/article.asp?Artid=11412&secid=345.

له في اثنتين وعشرين آية[٢٣]، ذُكِرت فيها كلمة (يتيم) بالإفراد ثماني مرات، وبالتثنية مرة واحدة، وبالجمع (يتامى) أربع عشرة مرة، ومن تدبر هذه الآيات وجدها مقسمة على عدة أقسام وهي:

حرمة المال: حتى لا يكونوا عرضة للضياع ولسلب أموالهم. وشرعت لهم موارد كثيرة يأخذون منها المال،منها ما في قول الله تعالى﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[سورة البقرة: ١٧٧]، وقوله تعالى﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[سورة البقرة: ٢١٥]، وفرَضَ الله تعالى نصيبًا من الخُمُس[٢٤]لآل الرسول، مما يحصل عليه المسلمون من الغنائم التي غنموها من قتال الكفار أوسائر الغنائم قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة الانفال: ٤١].

(٢٣) وهي كما يلي: [سورة البقرة: ٨٣، ١٧٧، ٢١٥، ٢٣٠]. و[سورة النساء: ٢، ٣، ٦، ٨، ١٠، ٣٦، ١٣٧] و[سورة الأنعام: ١٥٣]، و[سورة الأنفال:٤١] و[سورة الإسراء: ١٧] و [سورة الكهف: ٨٢]، و[سورة الحشر: ٧] و[سورة الإنسان: ٨] و[سورة الفجر: ١٧] و[سورة البلد: ١٥] و[سورة الضحى:٦، ٩] و[سورة الماعون:٢].

(٢٤) الخمس: حق مالي فرضه الله سبحانه على عباده خص به اليتامى والمساكين من آل الرسول ﷺ خاصة وبني هاشم عامة في الغنيمة التي يغنمها المسلمون من قتال الكفار، أو سائر الأموال التي تقع في ايديهم فكلفهم بإخراج سهم واحد من كل خمسة سهام نصيبًا للمذكورين في الآية من آل الرسول ﷺ .والسهام الأربعة الباقية توزع على المجاهدين. أو يختص بها صاحبها ان لم تكن غنائم حرب في بحث طويل ليس هذا موضعه ويراجع في رسائل الفقهاء العملية.

١. وفرَضَ لهم نصيبًا من الفَيْء[٢٥]، وهو كل مالٍ أُخِذ من الكفار من غير قتال -قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الحشر: ٧]، وجعل لهم أيضًا نصيبًا غير محدد، جبرًا لخاطرهم، إذا حضروا قسمة الميراث، ولم يكن لهم نصيب من هذا الميراث قال تعالى﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[سورة النساء: ٨]، سواء كان هذا النصيب على سبيل الوصية لهم من الميت فيما لا يزيد على ثلث التركة، أو كان من الورثة إحسانًا منهم لهؤلاء اليتامى وغيرهم ممن ذُكِر في الآية.

وهذا كله بالإضافة إلى ما يستحقه اليتامى من الزكوات إن كانوا فقراء أو مساكين، إذ يدخلون في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [سورة التوبة:٦٠].

٢. حرمة القهر: القهر، هو الغلبة مع عدم القدرة علي الانتصار للحق أو الأخذ علي يد المعتدي، وقد جاءت آيات القرآن الكريم لتراعي اليتيم من الناحية النفسية والاجتماعية لينشأ نشأة سوية، فأمرت بإكرامه والرفق به ونهت عن قهره وزجره وإهانته، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [سورة الضحى: ٩] وهذه الآية الكريمة خطاب للأمة في شخص النبي ﷺ

(٢٥) الفيء: يقصد بالفيء. لغة الرجوع، وعند الفقهاء. هو مايحل أخذه من أموال الكفار، بلا قتال، كالخراج والجزية، وهو لكافة المسلمين، ولايخمس، واما المأخود بقتال فيسمي: الغنيمة: والبعض يطلق الفيء علي كل ما أخذه الامام من أموال الكفار، غنيمة أو جزية أو خراجاً او مال صلح، والفيء في الاصطلاح هو مايوضع في بيت المسلمين.

وهو القائد لتقتدي به، إذ الخطاب للقائد خطاب للرعية، وحاشاه أن يقهر يتيماً، أو يعبس في وجهه وهو الذي قال فيه ربه عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[سورة القلم: ٤].

٣. حق الاكرام: الكرم: هو الاعطاء بسهولة، دون عوض مادي أو معنوي، والكرم اذا كان بالمال فهو الجود، وان كان بكف ضرر مع القدرة عليه فهو العفو، وان كان ببذل النفس فهو الشجاعة، يقول تعال ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [سورة الفجر: ١٧]. ويُفهم من هذا أنه لابد من إكرام اليتيم، وهذا الإكرام يشمل كل صور حفظ اليتيم من ناحية حقوقه الاجتماعية سواء فيها الإيواء، ام الإنفاق، ام التربية فمن إكرامه عدم تركه بلا تربية وتعليم ومن إكرامه تهذيبه كما يهذب الشخص أولاده.

٤. حرمة الدع (الدفع): الدع: الدفع بجفاء وعنف. وقد ذم الله تعالى أولئك الذين يهينون اليتيم ولا يكرمونه،بل يزجرونه ويدفعونه عن حقه، وجعل ذلك من صفات غير المؤمنين المكذبين بيوم الدين، حتى لا يتشبه بهم المؤمنون، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[سورة الماعون:١-٣].

٥. حق الاطعام: يقول تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٦﴾ [سورة الانسان: ٨]، ويقول تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ يُعَذِّبُ [سورة البلد: ١٤ -١٥].

٦. حق الايواء: شرع له في هذا المجال ما يحقق رعايته كفرد فقد كفيله، فأوصى له بمن يبادله العطف والحنان، والتربية الصالحة ليكون فرداً صالحاً لا تؤثر في نفسه حياة اليتم ولا تترك الوحدة في سلوكه انحرافاً يسقطه عن المستوى الذي يتحلى به بقية الأفراد ممن يتنعم بحنان الأبوة وعطفها.

ولما كان النبي ﷺ قد نشأ يتيماً بيَّن الله تعالى له بأنه قد أنعم عليه وكفله وأغناه فقال تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا

فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾[سورة الضحى: ٦-٨]، وهذه الآيات الكريمة يُستنبط منها ما يحتاج اليه اليتيم في الحياة الاجتماعية. فهي بمجموعها تشكل بيان المراحل التي لابد للأولياء والمجتمع من اجتيازها للوصول بهذا اليتيم إلى الهدف المنشود.

فيستفاد من الآيات أن اليتيم يحتاج إلى:

- المسكن الذي يأوي إليه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾.
- والتربية الصالحة بما تشتمل عليه من تأديب وتعليم حتى لا يقع فريسة للضلال ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾.
- والمال الذي يُنفق عليه منه ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾.

٧. حق حفظ الميراث حتى بلوغ سن الرشد: يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [سورة الكهف: ٨٢].

٨. حق الاحسان: ان الاحسان، لغة فعل ماينبغي ان يفعل من الخير، والاحسان أعم من الأنعام، والاحسان فوق العدل وذاك ان العدل ان يعطي ماعليه ويأخذ ماله، أما الاحسان فانه يعطي أكثر مماعليه، ويأخذ أقل ماله، فتحري العدل واجب، وتحري الاحسان ثواب وتطوع، والاحسان في الشريعة: (ان تعبد الله كأنك تراه حديث نبوي شريف صحيح).

ان اليتيم وإن فقد أباه الذي يكفله، وفقد حنان الأب وعواطفه، لكنه لم يفقد الرحمة الإلهية حيث إحاطته بالتشريعات التي تعتني به، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [سورة النساء: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ﴾[سورة البقرة: ٢٢٠].

٩. حق القسط: بكسر القاف وسكون السين، هو العدل، والقسط هو

الجور، يقول تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾[سورة النساء: ١٢٧].

١٠. عاقبة آكل مال اليتيم.

لقد جاء القرآن يحذر وينذر بصورة تحذير رهيب وإنذار شديد لمن يتطاول ويتجرأ على أكل مال اليتامى ظلماً بغير حق، ثم يصوِّر مشهدًا مرعبًا، مشهد النار وهي تتأجج في بطون هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا فلقد قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [سورة النساء:١٠]، يقول تعالى﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [سورة النساء: ٢]، فقد تعرضت الآية الكريمة إلى ترك عملية تبديل أموال اليتامى حيث كان ذلك سائداً عندهم فقد ذكر المفسرون[٢٦] أن بعض الأوصياء كانوا يأخذون الجيد من مال اليتيم يبدلون به الرديء لذلك جاءت الآية الكريمة لتنهى عن هذه التجاوزات غير المشروعة بتبديل أموال هؤلاء الضعفاء. ونهت كذلك عما هو أعظم من التبديل، ألا وهو التجاوز على أصل مال اليتيم فيضمه إلى ماله ويتصرف في الجميع ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[سورة الانعام: ١٥٢]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [سورة الإسراء: ٣٤].

(٢٦) تفسير الطبري(٧/ ٥٢٥) .وتفسير البغوي(٢/ ١٦٠) . وانظر: مجمع البيان للطبرسي (٤/ ١١١).

١١. تسليم أموال اليتامى.

كي يتسلم اليتامى أموالهم يلزم شرطان أساسيان:

اولهما: البلوغ[٢٧]، وثانيهما: الرشد[٢٨]. ويلزم الارتباط بين هذين الشرطين فلا يكفي أحدهما دون الآخر. وذلك مستفاد من قول الله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[سورة النساء: ٦].

ثالثاً: مكانة اليتيم في الأمم السابقة.

أن اليتيم والمحافظة عليه لا تقتصر على الشريعة الخاتمة بل كانت في الشرائع السابقة لشرعنا، فمن جملة بنود الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل: الإحسان إلى اليتامى قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[سورة البقرة: ٨٣].

ولسنا الآن بصدد بيان أين، ومتى أخذ هذا الميثاق، بل المهم هو أن القرآن الكريم يعرض بنود هذا الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، والذي هو ميثاق لجميع البشر من غير الاسرائيليين لعدم إختصاصهم به لانه الركائز الحقيقية لدين الله الحنيف في جميع شرائعه المقدسة، وهي الاصول الثابتة لبناء مجتمع متماسك الاطراف[٢٩].

وفي مشهد آخر من المشاهد التي نرى فيها رعاية اليتيم واضحة عبر الشرائع السابقة نجد القرآن الكريم يتعرض لقصة موسى و الخضر عليهما السلام حيث وجدا في سفرهما ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾

(٢٧) البلوغ: وهو كناية عن وصول الطفل اليتيم إلى مرحلة النضوج البدني والذي هو تعبير عن قدرته على الزواج.

(٢٨) الرشد: وهو ضد السفه، والرشد هو صلاح العقل ونضوجه. وقيل: الصلاح في العقل والدين. والمقصود هنا: حسن التصرف في المال ووضعه في مواضعه، وعدم تبذيره.

(٢٩) عز الدين بحر العلوم، اليتيم في القرآن والسنة، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ط٢، ص٣٤.

[سورة الكهف: ٧٧]، وأصلحه الخضر بدون أجر يأخذه على ذلك العمل. ويكشف القرآن سبب ذلك الإكرام في قول الخضر لموسى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[سورة الكهف: ٨٢] وهكذا كان صلاح الآباء سببًا في حفظ حقوق الذرية ورعاية ما أودع لهما من كنز مالي، أو علمي على اختلافٍ في التفسير في بيان نوعية الكنز(٣٠).

رابعاً: مكانة اليتيمة في القرآن الكريم

فقد كفل الإسلام للمرأة عمومًا جميع حقوقها المالية، والاجتماعية، وجعلها تتصرف في مالها بكامل الحرية والاختيار. والشريعة قد أولت يتامى النساء عناية أكثر، فكما عالجت مشكلة اليتامى الصغيرات من الناحيتين المادية والاجتماعية شأنها في ذلك شأن اليتامى الذكور، عالجت أيضًا مشكلة اليتيمات إذا بلغن سن الزواج،فقد جاءت آيتان مرتبطتان من حيث الغاية والهدف بمعالجة هذه المشكلة.

-الآية الأولى هي قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾[سورة النساء: ٣].

-أما الآية الثانية: فهي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾[سورة النساء: ١٢٧].

خامساً: مكانة اليتيم في السنة النبوية المطهرة

ليس من السهل ضبط حصة اليتيم من السنة الكريمة على النحو الدقيق فتناولت السنة النبوية الطاهرة اليتيم في موضوعات

(٣٠) تفسير القرطبي،المكتبة التوفيقية بمصر، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٣٠٤) ط٢:عالم الكتب، ص بلا.

عدة وكذلك أحاديث الأولياء والعلماء ومنها ما يلي:

قال رسول الله ﷺ: (من ضم يتيما فكان في نفقته، وكفاه مؤونته، كان له حجابا من النار يوم القيامة).

١. قال رسول الله ﷺ: (من مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة).

٢. قال رسول الله ﷺ: (من عال يتيماً حتى يستغني عنه أوجب الله له بذلك الجنة).

٣. قال رسول الله ﷺ: (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى).

٤. قال رسول الله ﷺ: (إن في الجنة داراً يقال لها دار الفرح لا يدخلها إلا من فرح يتامي المؤمنين).

٥. قال رسول الله ﷺ: (كن لليتيم كالأب الرحيم واعلم أنك تزرع كذلك تحصد).

٦. قال رسول الله ﷺ: (من مسح يده على رأس يتيم ترحماً له، أعطاه الله عز وجل بكل شعرة نوراً يوم القيامة).

٧. عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ألا من كان في منزله يتيم فأشبعه أو كساه ولم يؤذه ولم يضربه يقبل منه عمله.

٨. وقال رسول الله ﷺ: من ضم يتيما بين أبوين مسلمين حتى يستغني فقد وجبت له الجنة البتة.

٩. وقال ﷺ: إذا بكى اليتيم في الأرض قال الله عز وجل: من أبكى عبدي هذا اليتيم الذي غيبت أبويه أو أباه في الأرض ؟ فتقول الملائكة: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، فيقول الله عز وجل: اشهدكم ملائكتي أن من أسكته برضاه فأنا ضامن لرضاه من الجنة، قيل: يا رسول الله، وما يرضيه ؟ قال: يمسح رأسه أو يطعمه تمرة.

١٠. وقال ﷺ: خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت فيه يتيم يساء إليه، ثم قال: أنا وكافل اليتيم في الجنة-وهو يشير بإصبعه -.

١١. وروي إن رجلا شكا إلى النبي ﷺ قساوة قلبه، فقال: إذا أردت أن يلين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم.

١٢. وقال: من أذل يتيما أذله الله.

١٣. وقال رجل: يا رسول الله، أشكو إليك قسوة قلبي، قال: فادن منك اليتيم وامسح رأسه وأجلسه على خوانك، يلن قلبك وتقدر على حاجتك.

١٤. قال رسول الله ﷺ: أشبع اليتيم والأرملة، وكن لليتيم كالأب الرحيم، وكن للأرملة كالزوج العطوف، تعط كل نفس تنفست في الدنيا قصرا في الجنة، كل قصر خير من الدنيا وما فيها.[٣١]

(٣١) هذه الاحاديث مقتبسة من كتاب- مشكاة الأنوار -علي الطبرسي ص ٢٩١ ومابعدها، مسند ابن حنبل - ج٤،مجمع الزوائد-الهيثمي ج٤، عون المعبود-العظيم آبادي.

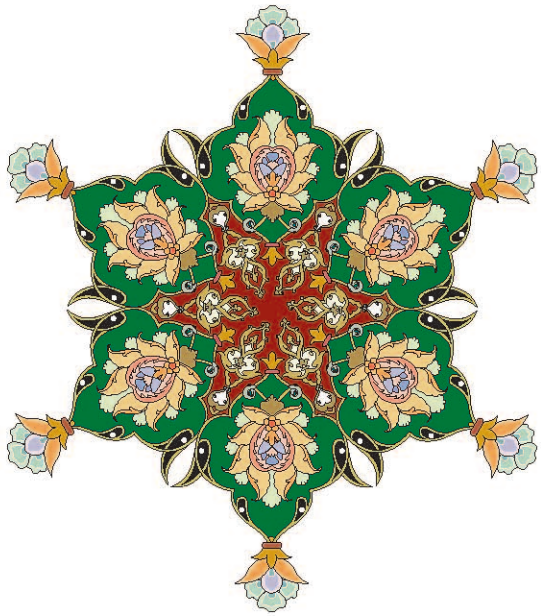

نافذة

المِصْبَاح

العرض والنّقد والتّعريف

الدراسات القرآنية المطبوعة في النجف الأشرف

أ.د. صباح نوري المرزوك
عضو الهيئة الاستشارية

كان القران الكريم موضع اهتمام الكثير من الباحثين و الدارسين، وقد تناولوا علومه وتاملوا فيه وبرعوا في الكتابة في موضوعات متنوعة منه دللت على ارجحية العقل، وقد نشر بعضهم هذه الدراسات كتبا واختاروا النجف الاشرف مكانا لطبعها في مطابعها.

ويأتي هذا الفهرس ليجمع اسماء وعناوين الدراسات القرآنية المطبوعة في النجف الاشرف متبعين فيه المنهج الآتي بذكر:

١. اسم المؤلف كاملا وبيان توصيفه (السيد، الشيخ، الحاج، الدكتور...) مرتبة وفق السياقة الهجائية.
٢. عنوان الدراسة القرانية، واذا كان للمؤلف اكثر من دراسة قرانيةنقوم بترتيب الدراسات حسب السياقة الهجائية.
٣. جهة الاصدار واسم دار النشر واسم المطبعة التي طبعت الدراسة.
٤. سنة الطبع واذا لم يكن مثبتا على الغلاف نرمز له (دت) أي بدون تاريخ.
٥. بيان الاجزاء والمجلدات.
٦. بيان عدد الطبعات.
٧. اتخذنا بعض الرموز اختصارا وهي:

ج: جزء، ج١: الجزء الاول، ج٢: الجزء الثاني وهكذا.

ط: طبعة، ط١: الطبعة الاولى، ط٢:

الطبعة الثانية وهكذا.

م: سنة ميلادية.

مط: مطبعة.

المط: المطبعة.

هـ: سنة هجرية.

واليك الفهرس

(١)

ابتسام مرهون الصفار (الدكتورة)

التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة

(مط. الاداب ١٩٦٧م)

(٢)

إبراهيم محمد علي الخفاجي.

الحسين بن علي في القران الكريم

(دار الاندلس ٢٠٠٧م)

(٣)

أبو القاسم الخوئي (السيد)

البيان في تفسير القرآن

(ج١: ط٢: مط. الاداب ١٣٨٥هـ/ ١٩٥٧)

(٤)

أحمد أخكر

الادعية في القرآن

(١٩٢٨)

(٥)

أحمد حبيب قصير العاملي (الشيخ)

التبيان في تفسير القرآن للشيخ الطوسي

(تحقيق)

(ج١-١٠: ١٩٥٤-١٩٦٢م)

(٦)

احمد الحسيني (السيد)

قبس من تفسير القرآن، تأليف الشيخ علي سماكة الحلي (تحقيق)

(مط. النعمان ١٩٧١م)

(٧)

احمد نوري الحكيم

اشهر رمضان المبارك بين تعاليم قرآنية وسنة نبوية

(إصدار العتبة العباسية المقدسة في كربلاء، دار الضياء ٢٠٠٩م)

العباس بن علي في القرآن وعند اهل البيت

(ط٢: العتبة العباسية المقدسة في كربلاء، مط. الغدير والعصامي ٢٠٠٨م)

القرآن الكريم: الميثاق وعهد أعلم

(العتبة العباسية المقدسة، مط. مجمع اهل البيت ٢٠٠٨م).

(٨)

أحمد الهندي (السيد)

تفسير سورة الانبياء

(دت)

(٩)

احمد الوائلي (الشيخ)

نحو تفسير علمي للقران

(مط. الاداب ١٩٧٢م)

(١٠)

اسماعيل الصدر (السيد)

محاضرات في تفسير القرآن

(مط. النعمان ١٣٨٣هـ)

(١١)

انمار عبد الجبار جاسم (الدكتور)

الظواهر اللغوية في قراءة الامام علي عليه السلام للقران

(الهياة الثقافية العليا لمكتب السيد الشهيد الصدر ومركز الهدى ٢٠٠٩م).

(١٢)

جعفر السيد باقر اليعقوبي الموسوي

* الكبائر من القران والسنة

(٢٠١٠)

(١٣)

جواد الخالصي (الشيخ)

العلم في خدمة الدين، مناقشة علمية لأسس الافكار المادية

(ط١: ١٩٧٦م)

عن القرآن الكريم

(مط. القضاء ١٩٧٠م)

(١٤)

حسن سلمان (الدكتور)

دراسات قرآنية حول الانسان والمجتمع

(مط. الشروق ٢٠١٠م)

(١٥)

خليل ابراهيم المشايخي (الدكتور)

رسالة في فن التجويد، تاليف: الشيخ هادي كاشف الغطاء (تحقيق)

(مؤسسة كاشف الغطاء دت)

(١٦)

خولة مهدي شاكر الجراح

* البحث القراني عند السيد محمد باقر الحكيم

(مؤسسة تراث الشهيد الحكيم ٢٠٠٨م)

(١٧)

صالح الطائي (الشيخ)

* معالم الايمان في تفسير القران
(ج١-٣: مط. النبراس ٢٠٠٢م)

(١٨)

صباح عباس عنوز (الدكتور)
*الاداء البياني بين التاويل و تفسير النص القرآني.
(٢٠١٠م)

(١٩)

صباح الشيخ محمد الطرفي
غصن البان في معرفة تجويد القران وفوائد اخرى، تاليف: الشيخ محمد ابراهيم الطرفي
(تحقيق)
(ط٢: دت)

(٢٠)

ضياء الدين زين الدين
مبادىء عامة في اصول التجويدالقراني- القران كتاب الله
(ج١: دار الضياء ١٤٢٤هـ)

(٢١)

عبد الامير كاظم زاهد الدكتور
تاملات في النص القراني
(٢٠٠١م)

* مقدمات منهجية في تفسير النص القرآني
(دارالضياء ٢٠٠٨)

(٢٢)

عبد الرحمن مطلك الجبوري
* بين الكون و التشريع في القران الكريم
(دار الضياء ٢٠١٠م)
* رسالة القران الخالدة في حياة الائمة
(موسسة البلاغ ١٤٢٤هـ)

(٢٣)

علي رحيم هادي الحلو(الدكتور)
*القران اعراب وبيان
(ج١: جمعية النهوض الفكري ٢٠٠٨م)

(٢٤)

فارس رزاق علوان الحريزي
*حليف القران واسطواتة المسجد الشهيد زيد بن علي بن الحسين
(دت)

(٢٥)

قيصر كاظم عاجل الاسدي
البحث القراني عند الدكتور محمد حسين علي الصغير
(دار الضياء ٢٠٠٨)

(٢٦)

محسن وهيب عبد

المعاني الكيميائية في القرآن

(مط. الآداب ١٩٧٣م)

(٢٧)

محمد إبراهيم الطرفي

غصن البان في نعرفة تجويد القرآن وفوائد أخرى.

(مط. الآداب ١٩٨٧م)

(٢٨)

محمد امين زين الدين(الشيخ)

من اشعة القرآن

(مط. النجف ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م)

(٢٩)

محمد باقر الحكيم (السيد)

تفسير سورة الحديد

(مؤسسة تراث الشهيد الحكيم ٢٠٠٦م)

المجتمع الانساني في القرآن الكريم

(مؤسسة تراث الشهيد الحكيم ٢٠٠٦م)

المستشرقون وشبهاتهم حول القرآن

(مط. النعمان، ١٩٧٠م)

(٣٠)

محمد باقر الموحد الابطحي

المدخل الى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

(مط. الاداب ١٩٦٩م)

(٣١)

محمد جعفر الشيخ ابراهيم الكرباسي

(الشيخ)

اعراب القرآن

(ج١-٤: ١٩٨٨)

الانباء بما في كلمات القرآن من اضواء

(ج١-٣: مط. الاداب ١٩٨٦ -١٩٩٧م)

(٣٢)

محمد حسن محيي الدين (الدكتور)

* الوجيز في علوم القران العزيز

(موسسة بقية الله لنشر العلوم الاسلامية ٢٠٠٧م).

(٣٣)

محمد حسين فضل الله (السيد)

اسلوب الدعوة في القرآن

(ط١: مط. النعمان ١٩٦٤) .

(٣٤)

محمد الخليلي (الشيخ)

القرآن والطب الحديث

(مط. النعمان ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م)

(٣٥)

محمد رضا الحساني (الشيخ)

قواعد الحسان في تفسير القرآن

(ج١-٢: ط٣: مط. الغري الحديثة ١٩٦٥)

(٣٦)

محمد رضا الهندي(السيد)

تفسير سورة الأنبياء

(دت)

(٣٧)

محمد صالح بن محمد البرغاني (الشيخ)

تفسير البرغاني

(مط. النعمان ١٩٥٤).

(٣٨)

محمد علي الاشيقر (السيد)

لمحات من تاريخ القرآن

(مط. النعمان ١٩٦٧)

(٣٩)

محمد علي الأوردبادي (الشيخ)

تفسير فرات الكوفي (تحقيق)

(المط. الحيدرية ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)

(٤٠)

محمد كاظم الطريحي

تفسير غريب القرآن الكريم لفخر الدين الطريحي (ت. ١٠٨٥هـ) (تحقيق)

(مط. دار النشر والتأليف ١٩٥٣م)

(٤١)

محمد مهدي الآصفي (الشيخ)

* نظرية العلاقة الجنسية في القرآن الكريم

(١٩٦٨)

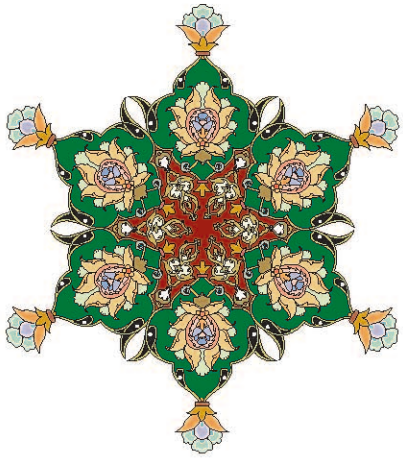

موسوعةُ التفسيرِ المقارَن

محاضرة القاها السيد علي القطبي الموسوي ضمن درس
من دروس القرآنية في مدينة (مالمو) في مملكة السويد
يوم ٧ جمادى الاولى - ١٤٣١هـ الموافق ٢٠١٠/٤/٢٢م

وهي مقدمة لمحاضرات لاحقة سوف ننشرها تباعا اذا وافانا بها السيد الباحث ان شاء الله -تعالى-.

بسم الله الرحمن الرحيم

-﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[سورة محمد: ٢٤].

-﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[سورة النساء: ٢٤].

-﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾[سورة ص: ٢٩].

المقدمة

أما بعد أدعوكم معي إلى رحلة في التأريخ والحاضر والمستقبل.

أدعوكم إلى دراسة كتاب سيصحبنا في حياتنا وفي برزخنا بين الموت والآخرة وفي الآخرة. كتاب من أحسن صحبته كان له شفيعاً مشفعا ونورا مشرقا، ومن أضاعه خسر شفيعاً عظيماً وفقد حكمة وعلماً وهدى ونوراً، ونادى عليه هذا الكتاب عند الله تعالى قائلاً هذا من هجرني يارب.

أدعوكم معي إلى السفر في سفينة القرآن في رحلة طويلة وبعيدة نستكشف من خلالها أسرار الخلق واسرار وجود الأكوان وعلوم الأديان وحقائق الطبيعة ومعارف العقل والوجدان.

أدعوكم الى الإبحار في أمواج بحار كتاب عظيم غير متناهي الآفاق، وغير محدود الأبعاد.

سأبحر بكم وشراعي في هذا الإبحار ما خطته أقلام المفسرين في غابر الأيام وحاضرها من عطاء ثر ينفع الآنام من أهل الإسلام، وغير أهل الإسلام، لتقرأه الخلائق من كل الأديان، ولتعتبر به الجن والإنس، وكل ما خلق الله ممن نعلم وممن لا نعلم.

كتاب أمرنا خالقنا (تعالى شأنه) أن نتدبر فيه ونقتني من جواهره ودرره، آناء الليل وأطرف النهار.،لننظر إلى سيرة الماضين.

لندخل من خلال آثارهم التي تركوها، والتاريخ الزاخر بالحكم والأمثال والعبر لتستفيد منها الأجيال جيلاً بعد جيل.

أدعوكم معي وأنا ذاهب للسفر في هذا الكتاب القديم والحاضر والمستقبل. لخلق ثقافة قرآنية سامية عالية.

كي نتدبر ولا نقرأ فقط. لا تغني القراءة وحدها عن التدبر، ولا يغني التدبر عن العمل بكتاب الله العظيم.

هل هذه المبادرة الأولى ؟؟

هذه المحاولة الماثلة بين أيديكم هي محاولة من إتجاه آخر، واسلوب جديد في تفسير كتاب الله تعالى، وهي محاولة المقارنة بين المفسرين الإسلاميين، ودراسة آيات القرآن من أكثر من مدرسة، ومن أكثر من مفسر وفقيه.

وهي محاولة متميزة، ربما تكون فريدة في هذا الشأن (والله العالم وحده) حيث مارأيت لها نظيراً من قبل.

بحثت عن موضوع اسمه التفسير المقارن في القرآن المجيد، إلا إني لم أجد شيئاً من هذا القبيل إلى الآن، وإذا وجدت أو أرسل لي أحد المهتمين رابطاً أو مصدراً أو مجلداً أكن شاكراً له، وسأستفيد من تجارب السابقين، وأذكر مصادرهم بلا شك وبكل سعادة.

وجدت الفقه المقارن وكتب فيه المرحوم العلامة المجتهد الشيخ محمد جواد مغنية العاملي، والعلامة الراحل الشيخ أسد حيدر ووجدت مقارنة الأديان ووجدت العلامة

السيد سامي البدري، وهو يكتب فيه، ووجدت العلامة المحقق الشيخ جعفر السبحاني في مجلده في السفر القيم..كتاب بحوث في الملل والنحل للشيخ العلامة جعفر السبحاني.

وهذا ما يزيد مشروع التفسير المقارن صعوبة.

إن مشروعي هذا يقارن بين المدارس التفسيرية بطريقة علمية خالية من الحكم المسبق، أو انكار الطرف الآخر.

إنما هو طرح آراء علماء وفقهاء المدارس الإسلامية المتعددة حول الآيات القرآنية بروح علمية محضة، وسيكون هناك حوار ومناقشة حول بعض آراء المستشرقين أيضاً، كما أحاول أن أذكر بعض آراء علماء الطبيعة والطب والفلك والفيزياء وغيرها. للإستئناس بها والوقوف عند الأبعاد العلمية للآيات الكريمة.

معنى كلمة التفسير؟

جاء في لسان العرب.

الفَسْرُ: البيان. فَسَر الشيءَ يفسِرُه، بالكَسر، وتَفْسُرُه، بالضم، فَسْراً وفَسَّرَهُ: أَبانه، والتَّفْسيرُ مثله. ابن الأَعرابي: التَّفْسيرُ والتأْويل والمعنى واحد.

وقوله عز وجل: وأَحْسَنَ تَفْسيراً؛ الفَسْرُ: كشف المُغَطّى، والتَّفْسير كَشف المُراد عن اللفظ المُشْكل، والتأْويل: ردّ أَحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر.

واسْتَفْسَرْتُه كذا أَي سأَلته أَن يُفَسِّره لي. معنى كلمة المقارن؟

المقارنة في اللغة هي غير المصطلح الذي نستعمله اليوم.. مثلاً في مجلد لسان العرب معنى المقارن هو:

وكل ضفيرة من ضفائر الشعر قَرْنٌ؛ قال المُرَقِّشُ: (وأَهلي بالشأْم ذاتُ القُرونِ)أَراد الروم، وكانوا ينزلون الشام.

والقَرْنُ: الجُبَيْلُ المنفرد، وقيل: هو قطعة تنفرد من الجَبَل، وقيل: هو الجبل الصغير، وقيل: الجبيل الصغير المنفرد، والجمع قُرُونٌ وقِرانٌ؛ قال أَبو ذؤيب:

تَوَقَّى بأَطْرافِ القِرانِ، وطَرْفُها

كطَرْفِ الحُبَارَى أَخطأَتْها الأَجادِلُ

والقَرْنُ: شيء من لِحَاء شَجر يفتل منه حَبْل. والكثير من المعاني الأخرى.

ولكن المصطلح هو: مقابلة رأي أحد المفسرين مقابل تفسير آخر لأجل معرفة ما هو الفرق بين التفسير والتفسير الآخر، كما هو الحال في الفقه المقارن الذي كتب فيه بعض العلماء.

المقارنة أحد أهم الطرق العلمية للوصول إلى الحقيقة.

وربما نستطيع القول إن معنى المقارنة قريب من معنى التشاور وتبادل الآراء بين أهل العلم والفضل.

نحن هنا حين نجمع الآراء المختلفة، فكأننا نشاور آراء كبار الفقهاء والعلماء والمفسرين.

نجمع الآراء لمناقشتها، والوقوف أمام أوجه الشبه، ونرى وجه الإتفاق ووجه الإختلاف، ومن خلال هذه العملية يمكننا الوصول إلى نتائج قريبة من الحقيقة. وتبقى الحقيقة المطلقة عند علام الغيوب والعالم بكل شيء وهو الله سبحانه وتعالى.

التفسير المقارن يعني اننا سنعالج الآية وندرسها من زوايا عديدة ومختلفة من فَهْمِ العلماء المفسرين والفقهاء وعلماء الطبيعة الطب والأحياء والفلك، حيث لكل عالم اختصاصه.

ربما سيدركني الأجل وأنا بعد لما أكمل هذه المسيرة النورانية السرمدية، ولكن ربما سأترك من خلفي آثارة من علم أو فكرة تحتاج من ينضجها ويطورها، وكل فرد من بني الإنسان فان في يوم ما وهو قبل الفناء عبد فقير إلى الله، ضعيف أمام مصاعب الحياة مهموم تجاه شدائد الدهر، مستسلم إلى قدر الأجل والموت.

لماذا التفسير المقارن؟

هل يكفي قول مفسر واحد ؟ على سبيل المثال هل يكفي قول السيد الطباطبائي وحده في تفسير الآية القرآنية هل يكفي الشيخ الطبري. هل يكفي قول الشيخ الطوسي، أو الشيخ المفيد، أو السيوطي.

هذه أسماء عظيمة ولكن هل هناك أعظم من الله (تعالى شأنه).

التواتر شبيه بحالة المقارنة.

لماذا نعمل بالتواتر ونثق بالحكم الشرعي الذي يتفق عليه آراء جمهور العلماء أو غالبيتهم.

التواتر إنما يحصل من خلال كثرة الآراء التي يتفق عليها العلماء والثقاة حول حقيقة واحدة، وكلما زادت الروايات حول واقعة معينة بذاتها اقتربنا من إثبات الحقيقة.

التشاور شبيه بالمقارنة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: (من استبدّ برأيه هلك، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها، ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ، واللجاجة تسلّ الرأي، والاستشارة عين الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه، والخلاف يهدم الرأي، إذا ازدحم الجواب خفي الصواب، من أومأ إلى متفاوت خذلته الحيل).

فهل يقدر مخلوق واحد من المخلوقات أن يحيط بكلام خالق الناس جميعا.

أريد أن اعالج الآية من عقول العلماء وليس من عقل واحد، ومن زوايا عديدة وليس من زاوية واحدة.

من خزائن عدة خزائة واحدة، ومن عدة محققين وليس من محقق واحد، ومن باحثين عدة وليس من باحث واحد.

جميل قول الإمام ابي حنيفة النعمان حين سأله الحاكم العباسي ابو جعفر المنصور من هو اعلم الناس يا أبا حنيفة ؟

فأجاب جوابا دقيقاً قائلاً: جعفر بن محمد وكان يقول عنه: «أليس أنَّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس».. وقد قال الامام أبو حنيفة ذلك عندما استقدم الخليفة العباسي المنصور الإمام الصادق عليه السلام وطلب من أبي حنيفة مناظرته، فقال المنصور: «يا أبا حنيفة، إنَّ الناس قد فُتِنوا بجعفر بن محمد، فهيىء لنا من مسائلك الشداد، فهيّأت له أربعين مسألة، ثم بعث إليَّ أبو جعفر (المنصور) وهو بالحيرة فأتيته.. فدخلت عليه، وجعفر جالسٌ عن يمينه، فلما بصرت به، دخلني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر، فسلّمت عليه، فأومأ إليَّ فجلست، ثم التفت إليه، فقال: يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة، قال: نعم أعرفه، ثم التفت إليَّ فقال: يا أبا حنيفة ألقِ على أبي عبد الله من مسائلك، فجعلت أُلقي عليه فيجيبني، فيقول:

أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا، فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً، حتى أتيت على الأربعين مسألة، فما أخلَّ منها بشيء.

معرفة اختلاف آراء العلماء والفقهاء ضروري لمن رام الحقيقة وسهر في نيلها وجدّ في تحصيلها. والعالم الحقيقي من يعرف آراء الفرق والمذاهب، حتى يعرف صحة مذهبه وحقيقة مطلبه.

حديث الإمام زين العابدين عليه السلام

وعن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام: آيات القرآن خزائن العلم فكلّما فتحت خزانة فينبغي لك أن تنظر فيه.

الإمام زين العابدين يقول إن آيات القرآن خزائن. من يستطيع ان يحيط بكل هذه الخزائن!!!!.

من اعتقد أن المخلوق (الإنسان العادي) قادر على سبر أغوار كلام الخالق، فعليه أن يراجع عقله وسيجد أن هناك خللاً ما في العقل، وفي الإيمان.

إن كتاب الله العظيم الوحيد الذي كتبه (تعالى شأنه) بعنايته، كتاب لم يكتبه الإنسان، بل كتبه خالق الناس جميعا، فهل يقدر مخلوق واحد من المخلوقات أن يحيط بكلام خالق الناس جميعا.

هل يستطيع الإنسان المحدود أن يحيط بالخالق المطلق.

هل يستطيع الضعيف أن يحيط بأقوى الأقوياء.

هل يستطيع الفاني أن يحيط بالقوي الذي لا يفنى. الكتاب المجيد أكبر من عقلية وإمكانية إنسان واحد مهما بلغ من العلم.

نحن نحتاج إلى الكثير من المفسرين من العلماء والفقهاء كي نستطيع أن نحيط بالآية القرآنية.

ملاحظة حول المستوى العلمي لهذه الدراسة

اذكر أن العديد من الإخوة المؤمنين الذين كانوا يحضرون دروسي على مدى أكثر من

عام من عام ٢٠٠٨ ميلادي ١٣٣٠ هجري في مالمو/ السويد أشاروا إلى صعوبة البحث وتعقيده، وأن مثل هذا الدرس لا يطرح للناس غير المختصين من غير طلاب الحوزة وطلاب المعاهد الإسلامية،،.(وهم على حق في هذا).

وقد ذكر لي أكثر من اخ أن هناك العديد من العلماء اصحاب الأسماء اللامعة ممن يلقون دروسهم بكل بساطة وسلاسة ويفهم كلامهم كل الحضور، وتنقل القنوات الفضائية دروسهم ومحاضراتهم.

ولكن دروس التفسير المقارن التي تلقيها تعتمد على آراء العلماء من المعاصرين ومن الشيعة بشقيها الأصولي والإخباري، والأصوليون لهم عدة مدارس منها التفسير الموضوعي، والتفسير الفلسفي، والتفسير العلمي المعتمد على تحليل الرواية وتحقيق صحتها، ثم تفاسير أهل السنة بمختلف فرقهم ومدارسهم، ومن ثم بعض آراء الفرق الصوفية والفرقة الزيدية، كذلك إن الآراء التي تطرحها ليست قطعية، بل تذكر هذا رأي فلان وهذا رأي فلان في استدراكهم ولكن السبب لست انا مسؤولاً عنه

الجواب على عدة نقاط منها:

١. إن التفسير الواحد مهما كان قائله لايعد حجة، لأن هذا قول الله تعالى، وقول المفسر مهما كان مستواه العلمي فهو من البشر، ولا يحيط المخلوق بكلام الخالق، لذلك يهتم العلماء بأمر التواتر ويأخذ به جمهور العلماء، ومعنى التواتر معروف وقيل فيه عدة تعريفات لعل افضل التعريفات هو:

التواتر لغة: هو التتابع. أما اصطلاحا: الخبر. الحديث المتواتر هو الحديث الذي يحقق الشروط التالية:

-أن يكون رواته كثيرون.

-أن لا يحتمل العقل.

-أن يتصل اسناد رواته من أوله إلى منتهاه-أن يكون المتواتر عن طريق الحس لا العقل.

٢. بدل أن ينزل المحاضر إلى مستوى الجمهور بأقل طبقاته من حيث المستوى العلمي، لماذا

لا نجرب أن نصعد بمستوى الجمهور علمياً.

٣. الناس تمشي خلف البسيط السهل على حساب الارتقاء العلمي. ربما يوجد كثير من العلماء من يقدم طرحا علمياً رفيع المستوى، ولكن الناس لا تستجيب ولا تنسجم مع اطروحاته.

٤. تقديم ثقافة قرآنية واسعة تجعل القارئ يعرف ان للآية الواحدة آراء مختلفة وروايات متعددة، ويجب أن نعلم ماذا قال العلماء الآخرون في أي قول نسمعه أو نقرأه، لنحصل على اقل قدر من الإجتماع على أي آية نريد قراءة تفسيرها.

وستتضح أهمية التدبر والثقافة في علوم التفسير وخطورة الجمود والبقاء على تصديق كل ما يقال، وسيأتي التفصيل في الحلقات القادمة أن شاء الله تعالى.

هذه مجموعة من مجلدات التفسير من كتب العلماء والفرق الإسلامية كافة، الشيعة بشقيها الأصولي والإخباري والفلسفي والمدارس السنية بفرقها المعروفة، منهم السلفية واصحاب التفسير بالمنقول والمأثور، وعلم الكلام أو الحكمة أو الفلسفة، وفرق الصوفية، والفرقة الزيدية.

سنعتمد على هذه المجموعة وعلى غيرها إن شاء الله في دروسنا المقبلة.

ولست هنا في مقام المفسر وهو مقام خطير، لا ينبغي لأي أحد لا يمتلك المقدمات العلمية الكافية للخوض فيه، ودوري سيقتصر على التعليق والتوضيح وابداء الرأي أحياناً.

قال مولانا الإمام السيد ابو القاسم الخوئي (طيب الله ثراه): وقد ورد في الاثر عن النبي ﷺ: «فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

اضاف السيد ابو القاسم الخوئي

(نعم من الخير أن يقف الانسان دون ولوج هذا الباب، وأن يكل بيان فضل القرآن إلى نظراء القرآن، فإنهم أعرف الناس بمنزلته، وأدلهم على سمو قدره، وهم قرناؤه في الفضل، وشركاؤه في الهداية، أما جدهم الاعظم فهو الصادع بالقرآن، والهادي إلى أحكامه، والناشر لتعاليمه. وقد قال ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

فالعترة هم الادلاء على القرآن، والعالمون بفضله. فمن الواجب أن نقتصر على أقوالهم، ونستضيء بإرشاداتهم.

سيأتي الحديث في الحلقة الثانية عن قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[سورة آل عمران:٧].

وحديث الرسول الأعظم: لا يعلم هذا القرآن إلا من خوطب به.

من ضمن المصادر التي سأعتمد عليها من كتب التفسير وعلوم القرآن من مختلف الفرق الإسلامية هذه المجموعة على سبيل المثال:

التفاسير الشيعية.

تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن/ الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ).

تفسير التبيان الجامع لعلوم القرآن/ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ).

تفسير القرآن/ علي بن ابراهيم القمي (ت القرن ٤ هـ) (المدرسة الإخبارية)

تفسير الميزان في تفسير القرآن/ الطبطبائي (ت ١٤٠١ هـ).

تفسير الصافي في تفسير كلام الله الوافي/ الفيض الكاشاني (ت ١٠٩٠ هـ).

تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة/ الجنابذي (ت القرن ١٤ هـ).

تفسير السيد عبد الله شبر (ت القرن ١٣ هجري).

تفسير الأمثل/ ناصِر مَكارم الشِيرازي..(ما زال حياً يرزق).

تفسير صدر المتألهين/ صدر المتألهين الشيرازي (ت ١٠٥٩ هـ).

تفسير نور الثقلين/ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢هـ).(المدرسة الإخبارية).

تفسير الكاشف: محمد جواد مغنية (ت١٤٠٠هجري).

تفسير تقريب القرآن إلى الأذهان/ محمد الشيرازي (ت ١٤٢٢ هجرية).

تفسير من وحي القرآن/ محمد حسين فضل الله. (ما زال حياً يرزق).

تفسير مواهب الرحمن في تفسير القرآن/ عبد الاعلى السبزواوري الموسوي (ت١٤١٤هـ).

تفسير البرهان/ هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هجري). التفاسير السنية

التفسير الكبير/ الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) مرحلة اولى.

تفسير جامع البيان في تفسير القرآن/ الطبري (ت ٣١٠ هـ).

تفسير الكشاف/ الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ).

تفسير مفاتيح الغيب، التفسير الكبير/ الرازي (ت ٦٠٦ هـ).

تفسير الجامع لاحكام القرآن/ القرطبي (ت ٦٧١ هـ).

تفسير القرآن الكريم/ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ).

تفسير انوار التنزيل واسرار التأويل/ البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ).

تفسير بحر العلوم/ السمرقندي (ت ٣٧٥ هـ).

تفسير تفسير الجلالين/ المحلي و السيوطي (ت المحلي ٨٦٤ هـ).

تفسير فتح القدير/ الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ).

تفسير النكت والعيون/ الماوردي (ت ٤٥٠ هـ).

تفسير معالم التنزيل/ البغوي (ت ٥١٦ هـ).

تفسير المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ ابن عطية (ت ٥٤٦ هـ).

تفسير زاد المسير في علم التفسير/ ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ).

تفسير تفسير القرآن/ ابن عبد السلام (ت ٦٦٠ هـ).

تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل/ النسفي (ت ٧١٠ هـ).

تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل/ الخازن (ت ٧٢٥ هـ).

تفسير البحر المحيط/ ابو حيان (ت ٧٥٤ هـ).

تفسير غرائب القرآن و رغائب الفرقان/ القمي النيسابوري (ت ٧٢٨ هـ).

تفسير الجواهر الحسان في تفسير القرآن/ الثعالبي (ت ٨٧٥ هـ).

تفسير الدر المنثور في التفسير بالمأثور/ السيوطي (ت ٩١١ هـ).

تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم/ ابو السعود (ت ٩٥١ هـ).

تفسير مقاتل بن سليمان/ مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ).

تفسير مجاهد/ مجاهد بن جبر المخزومي (ت ١٠٤ هـ).

تفسير الدر المصون/ السمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ).

تفسير التسهيل لعلوم التنزيل/ ابن جزي الغرناطي (ت ٧٤١ هـ) مرحلة اولى.

تفسير غريب القرآن/ زيد بن علي (ت ١٢٠ هـ) مرحلة اولى.

تفسير في ظلال القرآن/ سيد قطب (ت ١٣٨٧ هـ).

تفسير خواطر محمد متولي الشعراوي (ت ١٤١٨ هـ).

تفسير الوسيط في تفسير القرآن الكريم/ طنطاوي (م١٩٢٨م).

تفسير روح المعاني/ الالوسي (ت ١٢٧٠ هـ).

تفاسير الفرقة الصوفية.

تفسير القرآن/ التستري (ت ٢٨٣ هـ).

تفسير حقائق التفسير/ السلمي (ت ٤١٢ هـ).

تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن/ البقلي (ت ٤٠٤ هـ).

* تفسير تفسير القرآن/ ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ).

تفسير روح البيان في تفسير القرآن/ اسماعيل حقي (ت ١١٢٧ هـ).

تفسير الهدايه إلى بلوغ النهايه/ مكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ).

تفاسير الفرقة الزيدية.

تفسير فرات الكوفي/ فرات الكوفي (ت القرن ٣ هـ).

تفسير الأعقم/ الأعقم (ت القرن ٩ هـ).

* تفسير الحبري/ الحبري (ت ٢٨٦ هـ).

ملاحظة لم أسجل تفسير الشهيد زيد بن علي مع تفاسير المفسرين الزيدية، لأني أعتقد أن زيداً رضوان الله عليه لم يؤسس هذه الفرقة، بل إن زيد بن علي إمامي متبع للأئمة المعصومين عليهم السلام. وإنما تأسست الفرقة الزيدية من بعد شهادته رضوان الله عليه.

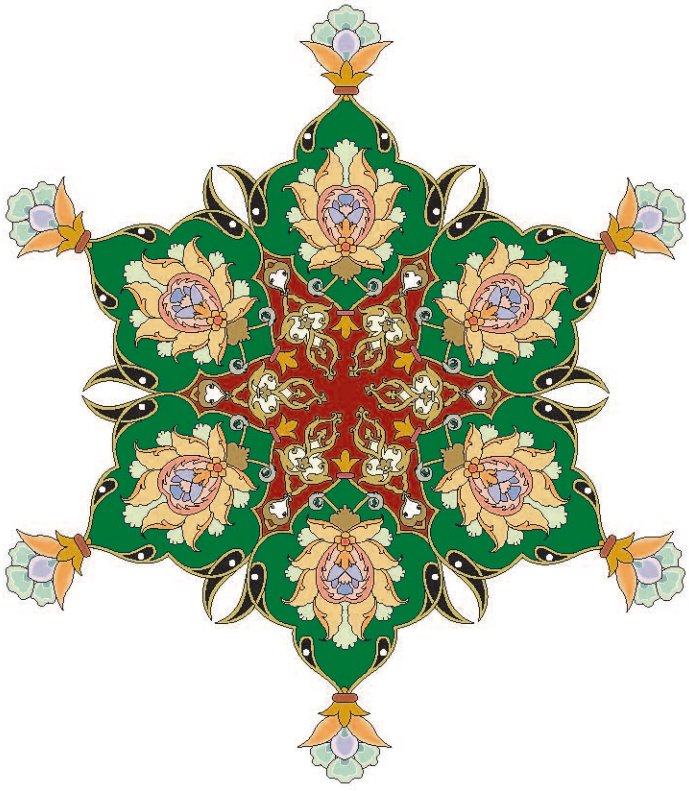

١٤٢٨

إقرأ في العدد القابل

- حديث (ماجاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله) قراءة في سنده ودلالته

سماحة العلامة السيد محمد المقدس الغريفي

- القيمة الدلالية للتراكيب النحوية في قراءة حفص عن عاصم

د. محمد اسماعيل المشهداني

- وسطية القرآن الكريم في دعم النظام الاقتصادي

أنوار زهير نوري

- الدلالة الروحية في لغة القرآن الكريم

أ.د. حسن منديل العكيلي

- البنية المقطعية في سورة القارعة - ايضاح لجمالية الايقاع -

خالد حوير الشمس

- منهج البحث التاريخي عند الامام السبزواري في (مواهب الرحمن)

د. سلمان باقر الخفاجي